محمد عبدالله دراز

دراسات وبحوث
بأقلام تلامذته ومعاصروه

جمع وإعداد

الشيخ أحمد مصطفى فضلية

شيخ معهد محلة دياى الأزهرى

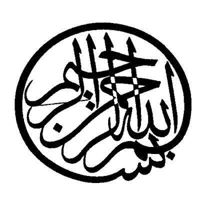
تقديم

فضيلة الأستاذ الدكتور

علي جمعة

مفتي الديار المصرية





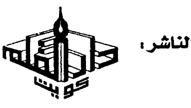
﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ
وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

[المجادلة : ١١]

محمد عبدالله دراز
دراسات وبحوث

الطبعة الأولى
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

ملتزم التوزيع : دار القلم للنشر والتوزيع
٣٦ شارع القصر العيني - ص . ب : ٦٥ مجلس الشعب - القاهرة
تليفاكس / ٧٩٥١١٠٥ - محمول : ٠١٠١٤٦٩٠٤٥



الناشر : دار القلم للنشر والتوزيع
شارع السور . عمارة السور . الدور الأول شقة ٨ . ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة
هاتف : ٢٤٥٧٤٠٧ / ٢٤٥٨٤٧٨ . فاكس : ٢٤٢٥١٦٠

إهداء

إلى روح الإمام المجدد

والباحث المنهجي المتفرد

محمد عبد الله دراز

رحمه الله

تحية وفاء وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد.. فإن موصول الخلف بعلم السلف هو الذي أبقى هذا الدين غضًا طريًا، وإن شخصية في حجم فضيلة الشيخ: محمد عبد الله دراز، ووزنه العلمي لجديرة بالدراسة المتأنية المتدبرة خاصة وأنه كان من أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث بفكره المستنير الشفاف الواضح، وعبارته الجزلة السهلة الممتعة، وتمكنه من الاطلاع على العلوم الشرعية والاطلاع بنفس القدر على شئون العصر ومتغيرات الزمان، إنه هذا المزيج بين الأصالة والمعاصرة الذي نحتاج إليه في زمننا هذا، والذي يجود علينا الزمان بأفراد من صنفه بإذن الله الواحد القهار من حين إلى حين والحمد لله رب العالمين.

والكتاب الذي بين أيدينا جمع بعضًا من بحوث الشيخ وكتاباته، بل وما كتب عنه من بحوث ومقالات ودراسات تحليلية لفكره لا يستغني أي باحث عنها فهي تعرفه بالشيخ، وتعرف بسيرته بأقلام تلامذته ومعاصريه، وتظهر بجلاء مكانة هذا العقل المسلم الجبار الذي تمكن باقتدار من توجيه الخطاب الإسلامي للعالم الغربي، وبإحدى لغاته العظمى هي اللغة الفرنسية، فخاطب عقله ووجدانه وألزمه كثيرًا من الحجة والبرهان.

يذكر بذلك كله «دستور الأخلاق في القرآن الكريم»، بل ومؤلفاته كلها فعسى الله سبحانه وتعالى أن ينفع به وأن يرزقنا مثل شيخنا، وأن يجعل هذا البحث في ميزان حسنات مصنفه الشيخ أحمد مصطفى فضلية، إنه سميع قريب مجيب الدعاء وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أ . د علي جمعة

مفتي الديار المصرية

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي جعل في كلِّ زمان فَتْرةً من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون على الأذى، يحيون بكتاب الله عز وجل الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه وكم من ضال تائه هدوه فما أحسن أثرهم على الناس، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، «وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين»[1].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

ما زال الإسلام وسيبقى منذ إرتضاه الله لنا دينًا عامًا للإنسانية يلقى في كل عصر دعاة ربانيين يجددونه ويصححون مفاهيمه التي يكون قد ران عليها الجمود، أو انحرف بها السبيل ليعودوا بالإسلام إلى منابعه الأصلية. القادرة على إعطاء الحياة البشرية والشخصية الإسلامية تلك القوة الدافعة إلى الحركة واليقظة وما زال حديث النبي الأمين محمد بن عبد الله ﷺ ، يصُدقُ هذا الناموس ويؤكد هذه الظاهرة «أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها»[2] .

---

(1) هذه خطبة الإمام أحمد في كتاب الرد على الجهمية .

(2) أبو داود عن أبي هريرة ك/ الملاحم ب/ ما يذكر في قرن المائة (٣٧٤٠) .

ولقد استطاع أعلام حركة الإحياء والتجديد الإسلامي في العصر الحديث من العلماء والدعاة المصلحين أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ومحمد بن عبد الوهاب، وبديع الزمان سعيد النورسي ومحمد عبد الله دراز وحسن البنا وعبد الحميد بن باديس، ــ ومحمد إقبال، وأبو الأعلى المودودي ـ وأبو الحسن الندوي ومحمد الغزالي، ويوسف القرضاوي، وغيرهم كثير من مجددي الإسلام لتتجدد به حياة المسلمين، أن يقدموا الدين الإسلامي بشموله وعمومه، وصلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان كنظام مجتمع ومنهج حياة.

استطاعت هذه الرؤوس أن تمنح الفكر العربي الإسلامي الصقل والتجدد والحيوية في مواجهة حملات التغريب والذوبان والإنصهار في الفكر الغربي المادي.

ولم تكن رسالة هؤلاء الدعاة هي حياطة الإسلام بمفاهيمه الأساسية فحسب وإنما كانت في إيقاظ القلوب حوله، وفتح الطريق أمامه ليفتحوا ميادين جديدة، في عالم الشرق والغرب، ويتصل بأقطار أخرى، فهي رسالة تجديد ودعوة، فيها ذلك الفهم العميق والإيمان الوثيق بصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ليعيش الناس حياة العصر وفق مراد الله لا وفق أهوائهم فينعم الناس كل الناس بنعمة الأمن والأمان ، والسلم، والسلام، والحرية والاطمئنان[1] .

* * *

ومن هؤلاء العلماء الربانيين، والدعاة المصلحين، والمجددين الفاهمين، الدكتور العلامة محمد عبد الله دراز عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف رحمه الله ورضى الله عنه، فهو من صفوة العلماء المفكرين، الذين لهم ضرب ناصع من التفكير، وسمتٌ

---

(١) بتصرف عن الأستاذ/ أنور الجندى ـ مقال [دعاة الإسلام ومجددوه] بمجلة منبر الإسلام العدد الخامس السنة الرابعة والعشرون .

عبقري من التعبير، وجلالة رائعة في العرض والتصوير فأفقه الفسيح، وثقافته الجامعة، ومقدرته الفذة على الكتابة تجعلنا نضعه في مصاف الصفوة الممتازة من رجال العلم والأدب وفلاسفة الأخلاق والاجتماع.

ومن نعم الله الجليلة عليَّ أنـي صحبت هذا العالم المجدد في كتبه، فعشت في ظلال إيمانه وتألق ذهنه حينًا من زمان فكلفت روحي بحبه، وأصبح بيني وبينه في ا لله حب وسبب، وكنت كلما أمعنت التدبر والتأمل فيما خطه يراعه الحكيم، أجد تغيرًا في نفسي ونضجًا في فكري واتزانًا في عقلي. ومازلت إلى يومي هذا كلما أعدت قراءة مؤلفاته . أزداد إيمانا وهدى وإجلالاً لهذا الدين العظيم الذي أكرمنا ا لله به وشرفنا بالانتساب إليه. وظللت فترة من الزمن وأنا على نية أكيدة أن أكتب عن ذلك العالم الفذ، إلا أنني كنت أصرف عن ذلك لما يعرض لي من شئون وظيفية كان ذلك في مقتبل التسعينات من القرن الماضي.

أما اليوم وبعد مُضيّ خمسة عشر عامًا من البحث والتنقيب فقد وفق ا لله وأعان على نشر تراث الشيخ المخطوط والذي عثرت عليه في أضابير مكتبته[1] .

وتوفر لي من الأوراق الخاصة للشيخ والرسائل والبحوث والمقالات ما جعلني أقدم عن الشيخ كتابان:

الأول: محمد عبد الله دراز سيرة وفكر .

وفيه تناولت حياة الشيخ بالتفصيل والدراسة الواسعة مدرسته الفكرية وآثاره

(١) وفقنا الله لنشر تراث الشيخ بفضله وكرمه ويقع في ستة كتب:
١ـ الميزان بين السنة البدعة.	٢ـ زاد المسلم للدين والحياة .
٣ـ حصاد قلم .	٤ـ رسائل لها تاريخ .
٥ـ حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن .	٦- أوراق داعية
وكلها بفضل الله نشر دار القلم بالكويت والقاهرة حفظها الله للإسلام اللهم آمين .

العلمية ووفاته ورثاؤه وثناء العلماء عليه وتناول آثاره بالدراسة والتحليل والعرض .

الثاني: محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث .

وهو هذا الكتاب الذي يسرني أن أقدمه للقراء اليوم وهو كتاب تذكاري ومجلد وثائقي عن أستاذ الجيل بحق وأحد رجال الأزهر العظام. من طبقة العلماء الرجال وهو كتاب يؤكد وفاء تلاميذه ومعاصروه نحو استاذ جليل، عظيم المكانة، جليل القامة، وهب حياته للعلم والدعوة والبحث والدرس غير متطلع إلى منصب أو طالب لغرض من أغراض الدنيا .

في هذا الكتاب يطالع القارئ ما كتبه أعلام العصر عن الدكتور دراز من الذين زاملوه ورافقوه وتتلمذوا عليه تلمذة مباشرة أو تتلمذوا على كتبه وفكره. [الإمام محمد أبو زهرة - د. حسن جاد، د. أحمد الشرباصي د. السيد محمد بدوى، الشيخ عبد الرحيم فوده والدكتور محمد رجب البيومي والمفكر الإسلامي الكبير محمد عبد الله السمان، والأستاذ أنور الجندى والدكتور يوسف القرضاوي والدكتور عبد الستار فتح الله سعيد، والدكتور عبد العظيم المطعنى والدكتور مصطفى حلمي، ود. عبد الغفار عبد الرحيم، ود. عبد الغني بركة، ود. محمد محمد أحمد أبو سيد أحمد - د. أحمد عبد الحليم عطية] وغيرهم من عارفي فضل الشيخ رحمه ا لله .

لقد تعانقت الأقلام في هذا الكتاب. لتبرز صفحة هذا العالم المفكر، الذي جمع بين الأصالة والمعاصرة، والعقل والنقل، فصور بسيرته وشكل بمسيرته مثلاً أعلى يحتذى للعلم والعلماء ، وقدوة حسنة بها يهتدى طلاب العلم.

وقبل أن أضع القلم أقدم الشكر الواجب لشيخنا فضيلة الأستاذ الدكتور (علي جمعة) مفتي الديار المصرية على تكرمه وتفضله بتقديم هذا الكتاب للقراء . فله مني جزيل الشكر وعميق التقدير وجميل الوفاء.

ولا أزعم أن مـا ضمه هذا الكتـاب هو كل ما كتب عن الشيخ. فهناك العديد من البحوث والمقـالات والدراسـات الـتي لم تصل إليهـا يدي وحسبي مـا جمعتـه فهو يفي بالمطلوب، ويحقق الغرض المنشود لإحياء ذكرى علم كبير من أعلام الإيمان والتجديد.

﴿رَبَّنَـا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَـا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَـا إِصْرًا كَمَـا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦) .

محلة دياي ـ دسوق	**كتبه**
٩ من ربيع الأول ١٤٢٦ هـ	الفقير إلى عفو الله
١٨ من إبريل ٢٠٠٥ م	**أحمد مصطفى عبد العزيز فضلية**
	شيخ معهد محلة دياي الأزهرى

السيرة الذاتية

بقلم نجله د. محسن دراز[1]

(مترجمة من الفرنسية)[2]

ولد بمصر في ٨ نوفمبر ١٨٩٤ بقرية محلة دياي - التي تقع في قلب دلتا النيل حيث نشأ ودخل في طفولته مدرسة القرآن بالقرية. وتميز منذ نعومة أظافره بنبوغه وبشغفه القوي في تحصيل العلم. ولم يكن قد استكمل العاشرة من عمره إلا وكان قد حفظ كتاب الله بأكمله ودرس قراءات القرآن المختلفة .

وكان إلى جانب شغفه بالغذاء الروحي، يمارس أنشطة رياضية مختلفة. ففي قريته ركب الخيل واشترك في مسابقات للفروسية مع أقرانه. وفيما بعد حالفه التوفيق في لعبة التنس والسباحة. ثم واظب حتى آخر عمره المبارك على رياضة المشي الطويل في الصحراء المجاورة لسكنه بعد صلاة الفجر.

ولقد أسهم جوه العائلي بدور كبير في تحقيق نضجه الفكري. فالواقع أن والده - الشيخ عبد الله دراز[3] - المؤلف والمدرس المنهمك في فقه اللغة العربية - احتجزه المفتي محمد عبده عام ١٩٠٥ (بعد عودة المفتي من منفاه وكان في تلك الحقبة عضوًا بمجلس إدارة جامعة الأزهر الإسلامية العريقة) لكي يشارك في إعادة تنظيم التعليم بالمعهد الديني الأزهرى الجديد بمدينة الإسكندرية.

---

(١) نشرت هذه السيرة بالفرنسية في الترجمة الفرنسية لكتاب «الدين» للدكتور محمد عبد الله دراز - ترجمة محسن دراز - إصدارات البراق - بيروت - ١٩٩٩م .

(٢) ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد عبد العظيم علي (باحث ومترجم)، ونشره في تيسيره لكتاب «النبأ العظيم».

(٣) ولد في ٢٣ من ذي القعدة ١٢٩٠هـ - ١٢ يناير ١٨٧٤م. كان من طبقة العلماء الأصوليين. نفذ خطة الإمام محمد عبده في تطوير التعليم الأزهري في معاهد [طنطا والإسكندرية ودمياط] توفى في ليلة الخميس ١٥ من صفر ١٣٥١هـ - يونية ١٩٣٢م.

وبعد أن اجتاز محمد دراز دراسات موفقة في هذا المعهد نفسه، قام بالتدريس به عام ١٩١٦ وهو في الثانية والعشرين من عمره .

وبالتوازي مع مهام وظيفته الجديدة، اكتتب في دروس مسائية لتعلم الفرنسية تلك اللغة التى كان لها بالغ الأثر طوال حياته المباركة. فقد أحسن استخدامها في الفترة العاصفة التى عاشتها مصر في السنوات ١٩١٨ - ١٩١٩ إذ كان يشارك على رأس فريق من المتعلمين المتحمسين بنشاط ملحوظ في الحركات الرافضة للاحتلال الإنجليزي لمصر... فكان يطوف بالسفارات كاتبًا وأحيانًا خطيبًا بالفرنسية (مما يعد شكلاً من أشكال المقاومة) للمطالبة بجلاء قوات الاحتلال، ولتعزيز تطلع مصر الفتية إلى الاستقلال بزعامة سعد زغلول.

وفي عام ١٩٢٨ عين مدرسًا بالقاهرة بجامعة الأزهر، وفي عام ١٩٢٩ تم تكليفه بالتدريس لطلبة قسم الدراسات المتخصصة .

وفي مايو ١٩٣٦ ما كاد يعود إلى الوطن من مكة بعد أداء الحج، إلا كان عليه أن يسافر من جديد - لكن هذه المرة إلى فرنسا في بعثة دراسية بعد أن تم اختياره لذلك من الملك فؤاد بناء على توصية - جامعة الأزهر .

وخلال إقامته بفرنسا - التى امتدت من ١٩٣٦ إلى ١٩٤٨ - بادر بالاستجابة لضرورة وأهمية الاضطلاع بدراسة عميقة للقرآن وللإسلام بالفرنسية، بهدف تصحيح الصورة المغلوطة أو المغرضة التي ينشرها عنهما غالبية المستشرقين .

ولقد كانت هذه نقطة انطلاق لإخراج كتابين يمثلان رسالة دكتوراه الدولة من السربون[1] ، وهما حتى اليوم - ضمن مراجع المتخصصين في دراسة الإسلام ومن

(١) la Morale du Coran et Initiation au Coran انشرتهما المطابع الجامعية بفرنسا عام ١٩٤٧، ودار المعارف بالقاهرة عام ١٩٤٩. ووزارة الأوقاف بالمغرب .. الخ. وكانت هيئة التحكيم التي ناقش محمد عبد الله دراز رسالته أمامها مكونة من الأساتذة لويس ماسنيون وليفي - بروفنسال، ولوسن، وفالون، وفوكينيه .

(ترجم الكتابان إلى اللغة العربية : الأول عام ١٩٧٣ والثاني عام ١٩٧٠ وصدر لكل منهما مختصر باللغة العربية في نفس عام ١٩٩٦. وكذلك مختصر بالفرنسية للرسالة الفرعية عام ١٩٩٧) .

علماء التوحيد سواء من العرب أو الأجانب .

وفي مواجهــة كبار المتخصصـين في الغرب، برز إيمـان محمـد دراز العميق بالإسـلام كمسلم في أعماله، مصحوبًا بما كـانت تقتضيه الظروف من البرهنة العقلانية والتحليل المنهجي. ووضعته هذه المسـيرة الفكريـة في قلب العقلية الغربيـة التي كان يقصد توجيه حديثه إليها في بداية الأمر .

والذين تعرفوا على محمد عبد الله دراز أثناء الفترة العصيبـة للحرب [العالمية الثانية] استطاعوا أن يشـهدوا على قوة شخصيته. ففي ثنايـا يومياته ـ التي دأب على تسجيلها يوميًا منذ عام ١٩٣٦ حتى عـام ١٩٥٨ ـ عام وفاتـه ـ ندرك مدى الصبر الذي كابده هو وزوجتـه في حمل مسئولية عشـرة أطفـال كانت سـنهم تتراوح وقتهـا ما بين عدة شـهور والعشـرين سـنة . حيـث يمكننـا متابعـة تفـاقم الـنزاع [العسـكري الدولي]، والصعوبات الحياتية الحقيقية، والمدارس المغلقة، وغارات قصف القنابل. وقد جاء محمد عبد الله دراز لتحصيـل العلم في أوربـا هذه ـ منبـع الحضـارة الحديثـة والأنوار ـ فوجد نفسه شاهدًا على البشـاعة وعلى الهمجية. ومع ذلك لم يحدث أبدًا أن أعطى الانطباع أن هذه المصـاعب قد زعزعتــه، كمـا لم يطرأ علـى ذهنـه إطلاقًـا أن يخلـط بين جنون سياسة البشر والدول، وبين دعائم الحضارة الغربية.

وإزاء اشـتداد عنف الحرب، اتخذ منزلاً صغيرًا معزولا Seine et Oise . ولقد أحسن صنعًا، عندمـا فكر في توزيع المخاطر، بأن قسـم الأسرة إلى قسمين بحيث الأقل سنًا يسكنون ا لريف مع الأم، والآخرون الذين كانوا يتابعون دراساتهم بليسيه للبنات Fenelin أو بليســيه Henri ، هؤلاء يبقـون ببـاريس، في أغلـب الوقت مـع والدهم الذي لم يكن يرغب في الابتعاد عن مكتبات باريس، ولا عن أساتذة السربون وكوليج دي فرانس الذي كان له عمل معهم .

وكانت صفارات الإنذار إذا انطلقت، كان يشاهد محمد عبد ا لله دراز عند وصوله إلى المخـابئ مـع آخر الوافديـن ـ وهو يحتضـن بين ذراعيـه ملفًا سميكًـا من الأوراق المخطوطة التى كانت تمثل مسودات أحدث فصول رسالة الدكتوارة المستقبلية .

وكـان يحدث أحيانًـا، أن السـفارة المصريـة ـ المهمومـة بسـلامة رعاياهـا ـ كانت تخطرهـم بأن هنـاك فرصـة سـانحة (ربمـا تكـون الأخـيرة) للعودة إلى الوطن بـالمرور بسويسـرا وتركيـا، طالما أن البحر الأبيض المتوسـط لم يكن صالحًا للملاحـة بسـبب الألغـام. ولكن محمـد عبد الله دراز كـان يرفـض أن يكون ضمن المرحلـين قائلاً: «إن مهمتى لم تنتـه بعـد» . وأمام إصـرار السـفارة على العـودة ـ على الأقل عودة الزوجـة والأولاد ـ كان يقول «أعلم أن الله سيحمينا» .

والذيـن كانوا كثـيرًا ما يخطـون الخطى إلى منزلـه، يتذكروا الجرأة التى تجلـت منه في فـترة الحـرب . فمثلاً في عـام ١٩٤٠ اعتُقِل عدد كبـير مـن الطلبـة المصريين، بـأمر من الحـاكم العسـكري Kommandantur الـذي كـان ربمـا يرى فيهـم رعايـا بريطانيين مشكوك فيهم . وكان المكتب المصري الذي يتبعه هؤلاء ـ قد بدأ يفقد الأمل بعد عدة محـاولات للتوسـط . لكـن محمد دراز ذهب إلى المفوضيـة وأصـر ونجح في أن يقـابل المسئول في الشـرطة الألمانية مرات متكررة. وأسبوع بعد أسبوع ـ وبمجازفة بأن يلفت الأنظـار إليـه أو أن يزعـج السـلطات، كـانوا يسـمحون لـه بـالدخول وينصتون إلى محاوراتـه. و لم يتوان في المطالبـة بـالإفراج عـن جميع المصريين المعتقلـين، حتى تحقق لـه ذلك بعد مفاوضات طويلة .

كـان إيمانه قويًا إلى درجـة أنه كأنـه «ينطلق من ذاتـه». ولكي يُعبّر هذا الإيمان عن نفسـه، لم يكن يلجـأ إلى التظاهر بالتفاخر أو بالأحـاديث المفرطة. بل كـان إيمانه جزءًا من ذاته. وكأنه نور ينبعث من داخله، فيمنحه، تلك الرؤية الدافئة الواثقة.

وفي ٨ يوليو ١٩٤٤ تعرض منزله بـ Seine - et - Oise إلى قصف من الطائرات الأمريكية أصيبت خلاله الأم .. إلا أنه لم يأت عام ١٩٤٨ إلا وقد عاد الجميع للبلاد.

واعتبارًا من عام ١٩٤٩ صار محمد عبد الله دراز عضوًا في جماعة كبار العلماء بالأزهر. وفي نفس العام أخذ يدرّس تاريخ الأديان بجامعة فؤاد الأول، والفلسفة بكلية اللغة العربية، ثم التفسير بدار العلوم. ثم ارتقى أعلى الدرجات في الجامعات والتربية الوطنية والإذاعة . كما مثل مصر والأزهر الشريف في عديد من المؤتمرات الدولية .

وينبغي أن نلقي بعض الضوء على مواقفه السياسية. فبرغم أنه لم ينتمي إلى أي حزب سياسي، إلا أنه ساند في عام ١٩١٦ حركة سعد زغلول الوطنية . وعندما كان مقيما بفرنسا أيد علانية حركات تحرير الدول العربية (فلسطين والجزائر والمغرب) وخالط ممثلي هذه الحركات في المنفى.

ولما عاد إلى مصر - وردًا على العنف الذي استخدمته القوات البريطانية بمنطقة قناة السويس - حرض على تكوين الطلائع الأولى للمقاتلين المتطوعين من طلبة ومدرسي الأزهر الشريف . وفي عام ١٩٥١ انضم ليؤيد إلغاء النحاس باشا للاتفاقية المصرية البريطانية الموقعة عام ١٩٣٦ . وفي عام ١٩٥٢ قدم إلى القصر مذكرة يلفت نظر الملك فاروق فيها إلى تدهور صورة الملكية وإلى الأثر السيء الذي نتج عن العيث الذي اندفع إليه القصر والوفد - حزب النحاس - للإضرار بهيبة الأزهر الذي كان قد أدخلوه في الرهان السياسي .

إلا أن ذلك كان بعد فوات الأوان، إذ حدث بعدها حريق القاهرة، ثم الانقلاب العسكري ليلة ٢٣ إلى ٢٤ يوليو ١٩٥٢، ومغادرة فاروق مصر إلى منفاه .

وكان الضباط الأحرار يعرفون محمد عبد الله دراز من كتاباته وأحاديثه الإذاعية.

فعرضوا عليه ذلك المنصب المرموق ألا وهو «شياخة الأزهر الشريف» إلا أنه لم يوافق على الاقـتراح عدة مـرات ، ورفض المنصب، باعتبـار أنـه لم يتوفـر الضمـان الكـافي للاستقلال و «سيادة المنصب» اللذين أرادهما شرطًا أوليًا .

ومثل هذا الـرد، وبهذا القدر مـن التصلب من جانبـه إزاء عـرض لمنصب على هذه الدرجة من المهابـة، قد أثار غيرة اغتيابيـة من جانب بعض زملائـه الذين كانوا يخشون من هذا الرجـل ـ بما اتصف بـه مـن النزاهـة والاسـتقلال ـ أن يزويهم في الظل أو أن يكشف تحجرهم الوظيفي أو عدم كفاءتهم .

وعندما علـم محمد عبد الله دراز فيمـا بعد بهذه الوشـاية، وبسـبب مـا ألم بـه من سـخط، أصـر في حضور اللـواء محمد نجيـب ـ رئيس مجلـس الثـورة وقتهـا ـ وحضور أعضاء المجلس، على أن يقدم له الاعتذار الكافي الصريح من صاحب هذه المكيدة الذي كان الضباط الأحرار قد أدمجوه في محيطهم .

* * *

ولـما أعلنـت إذاعـة القـاهرة نبـأ وفـاة محمد عبد الله دراز في ينـاير ١٩٥٨ بلاهور بباكستان، اثناء انعقاد مؤتمر الأديان العالمي ـ فور انتهائه من إلقاء كلمته الأخيرة، شعر المسلمون فجأة بمدى الفراغ الذي تركه بوفاته.

وقد نقل محمد فودة ـ رئيس تحرير «جريدة المساء». عن الشيخ عبد الحليم محمود ـ شيخ الأزهر فيمـا بعد ـ عندما بلغه الخبر، أنـه صاح قائلاً: « لقد فقدنا اليوم آخر عالم من رعيـل كبـار العلمـاء الذيـن تخرجوا في الأزهـر . ليكـن الله في عوننـا وفي حمايـة الإسلام».

* * *

الباب الأول

دراسات تحليلية في فكره

١- محمد عبد الله دراز العالم العلامة - الحبر البحر الفهامة.

د. يوسف القرضاوي

٢- التشابه بين الإمام البنا والدكتور دراز .

د. عبد الستار فتح الله سعيد

٣- محمد عبد الله دراز عالم مجدد وباحث منهجي متفرد.

د. محمد رجب البيومي

٤- فكر العمالقة مبادىء القانون الدولي والإسلام.

أ. د. عبد العظيم المطعني

٥- محمد عبد الله دراز في آثاره العلمية . أ / أنور الجندي

٦- من أعلام مدرسة الإمـام محمد عبده في التفسير الموضوعي للسورة القرآنية. أ.د/ عبد الغفار عبد الرحيم

٧- من أعلام الفكر المعاصر أ / رجب عبد المنصف



محمد عبد الله دراز

العالم العلامة. الحبر البحر الفهامة

بقلم الدكتور يوسف القرضاوي

كنا نقرأ على الكتب القديمة : تأليف العالم العلامة، الحبر البحر الفهامة، العالم النوراني، والمعلم الرباني، ناصر الحق، ومرشد الخلق، وحيد دهره، وفريد عصره، فلان بن فلان .

وكنا نعتبر هذه الكلمات من باب المبالغة في المدح، والإسراف في حب المشايخ الكبار، ولكني - في الواقع - عذرت هؤلاء الذين وصفوا مشايخهم، بما وصفوهم به، حتى وجدت أحد شيوخي أهلا لأن يوصف بكل هذه الأوصاف، وأن تكال له هذه المدائح . ذلكم هو شيخنا الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز، الذي كان في عصره - بحق - العالم العلامة، والحبر البحر الفهامة، إلى آخر تلك الأوصاف. فهذه الأوصاف كلها تطابق حياته وواقعه العلمي والعملي تمام المطابقة، وإن كانت تنطبق على غيره بصورة جزئية .

كان الشيخ محمد عبد الله دراز من العلماء الموسوعيين، الذين جمعوا بين علوم الشريعة ، وثقافة العصر، وأجاد الفرنسية إجادته لعلوم العربية، فهو ابن الأزهر، وابن السوربون . ولكن دراسته في السوربون لم تخرجه عن أزهريته العريقة، حتى إنه من القليلين الذين بقوا على زيهم الأزهري - الجبة والعمامة - بعد عودتهم من بعثتهم إلى الخارج.

كان أحد العلماء الراسخين في علوم العقيدة والفلسفة، وقد ترك لنا جملة آثار مهمة، تدل على شخصيته الفلسفية، وهما : كتاب (الدين) الذي ألقاه محاضرات على

طلبة كلية الآداب، بوصفه بحوثا ممهدة لتاريخ الأديان، ورسالته التي نال بها درجة الدكتوراه من السوربون، والتي ترجمها أخونا الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين بعنوان (دستور الأخلاق في القرآن الكريم) وهي أدل على شخصية الشيخ الفكرية .

والأثر الثالث: رسالته الموجزة والمركزة، التى سماها (كلمات في مباديء علم الأخلاق) والتى سعدنا بتدريسه لنا في تخصص التدريس .

وهناك بحوث ومقالات أخرى تؤكد هذا الإتجاه الكلامي والفلسفي في شخصية الشيخ العلمية، حتى نجد ذلك بوضوح في شرحه لبعض الأحاديث النبوية .

وكان الشيخ أيضا أحد العلماء الراسخين في التفسير وعلوم القرآن، وقد ترك لنا من دلائل ذلك: كتابه الرائع (النبأ العظيم) وهو كتاب متفرد، ويحتوي نظرات جديدة، ومتميزة في الإعجاز البياني أو الأدبي للقرآن، لم ينسجه على منوال أحد قبله في مضمونه وأسلوبه .

كما ترك كتابه (مدخل لدراسة القرآن الكريم) وقد كتبه بالفرنسية، ثم ترجم إلى العربية .

وترك الشيخ كذلك: تفسير الفاتحة، ومقدمة التلاوة لعدد من سور القرآن الكريم، وكلها تدل على عمق نظرات الشيخ إلى كتاب الله، وتذوقه لمعانيه، وغوصه في أسراره .

وكان الشيخ كذلك من الراسخين في علوم السنة، ولاسيما في فقه الحديث، وشرحه، كما تبين ذلك من كتابه القيم (المختار من كنوز السنة). وقد قام بتخريج أحاديث (الموافقات) - الذي حققه والده - تخريجا موجزًا يدل على مدى اهتمامه بالحديث.

وكان الشيخ - رحمه الله - في كل ما يكتبه متميزًا في منهجيته، متميزًا في عمقه،

متميزًا في أسلوبه .

وقد شرع في بعض البحوث، ولكن لم يمهله القـــدر حتى يكملهـــا، مثل كتابه (الميزان بين السنة والبدعة). أراد به أن يحدّث كتاب (الاعتصام) للشاطبي، وأن يعرضه بلسـان العصر، وكما أن مؤلف الأصل - وهو (الاعتصام) - لم يكمله ، فكذلك مؤلف (الميزان) .

وكـان الشيخ عضوا في جماعة كبـار العلماء ، كما كان موضـع ثقة مشيخة الأزهر في عهوده المختلفة، وكان يكلف بتمثيل الأزهر في المؤتمرات العالمية.

مثل الأزهـر في مؤتمر الحقوق الدوليـة المنعقدة في بـاريس سـنة ١٩٥١، وفيـه كتب بحثه عن (الربا).

وكذلك مثل الأزهر في مؤتمر العلاقات الدولية، وكتب رسالته (الإسلام والعلاقات الدولية) .

وآخر ما مثل فيـه الأزهر: (مؤتمر الأديان) الـذي أقيم بمدينة لاهور باكسـتان، وفيه وافاه أجل الله الذي إذا جاء لا يؤخر.

كان شيخنا دراز من العلماء الربانيين، الموصولين با لله تبارك وتعالى، وإن لم يعرف عنه الانتسـاب إلى التصـوف مثل الشـيخ عبد الحليم محمود. ومـا ذهبنا إليـه في بيته إلا وجدناه يتلو القـرآن استظهارًا، لقوة حفظـه لـه، يتعبد بتلاوته، فقد كـان وقته معمورًا بذكر الله أو بفعل الخير، أو بخدمة العلم .

وما حدثنا وجلسنا إليه إلا وجدناه مشغولاً بأمر الإسلام وهموم المسلمين.

وقد عرض عليــه رجـال الثورة بواســطة مندوبين منهم: منصب مشــيخة الأزهر، وحسبوا أن الرجل سيسارع بالقبول والتلبية، ولكنهم فوجئوا به يشترط شروطًا لقبول المنصب، ومنهـا: أن تطلق يده في إصلاح الأزهـر، فخرجوا من عنده ولم يعـودوا إليه.

إنهم لا يريدون من يشترط عليهم شرطا، بل من يقبل بلا قيد ولا شرط، ويقدم إليهم الحمد والشكر . ولم يكن هذا شأن الشيخ الذي يرى في المنصب تكليفًا لا تشريفًا، وفرصة للإصلاح والبناء، لا للظهور والأضواء .

عرفت الشيخ وأنا طالب بكلية أصول الدين، وزرناه - أنا وبعض إخواني - طالبين معونته لكتيبة الأزهر التى نعدّها لتذهب إلى القناة لمقاومة الاحتلال البريطاني، فشجعنا وشد أزرنا، ولم يبخل علينا بمادة ولا نصيحة .

وفي تخصص التدريس ، كان يدرس لنا علم الأخلاق فكان آية في شرحه، وآية في عمقه، وآية في أسلوبه، وحسن بيانه، وكنا ننتظر محاضرته في لهف وشوق، كشوق الظمآن إلى الماء العذب البارد. لا لنتعلم منه العلم فقط، ولكن لنتعلم أيضا طريقة التعليم.

وبعد خروجنا من السجن الحربي سنة ١٩٥٦م ، زرته أنا والأخوان: أحمد العسال، وأحمد حمد، أكثر من مرة في بيته في شارع أبو بكر الصديق في مصر الجديدة، والحق أنه هش لنا، ورحب بنا، وفتح لنا صدره، كما فتح لنا بيته .

وكنا نرى أن وجود مثل هذا الشيخ العلامة، الذي يتميز بالموسوعية، وبالمنهجية وبالتحقيق والتعميق والتدقيق، وبحسن تناول المسائل الصعبة والعويصة بطريقة تجعلها سهلة سلسة، و استخدام البيان الأدبي في أسلوبه الذي يجمع بين إقناع العقول، وإمتاع العواطف، ويضم إلى رصانة الأصالة رونق المعاصرة.. وكنا نرى وجوده نعمة من الله للأمة، وفرصة يجب أن يستفيد منها طلاب العلم، وعشاق الفكر الأصيل المجدد. فطلبنا إليه - نحن الثلاثة - أن يتيح لنا فرصة زيارته دوريا: كل أسبوع، أو كل أسبوعين، لنتتلمذ عليه، ونتلقى عنه العلم والعمل. ونقتبس منهجه، ونشرب روحه، ولقيَ هذا الاقتراح منه رضًا وترحيبًا، وكان يعد العدة للسفر إلى لاهور لحضور مؤتمر الأديان، الذي سيذهب إليه ممثلا للأزهر. فوعدنا أن نرجىء ترتيب هذا اللقاء، وتحديد

مواعيده ومنهجه وموضوعاته، إلى ما بعد عودته من المؤتمر.. وشاء الله تعالى : ألا يعود الشيخ من المؤتمر، وأن يوافيه الأجل المحتوم هناك وأن يعود الشيخ جثمانا محمولا، ليصلى عليه في الجامع الأزهر، ويدفن في مصر.

لم يقدر لنا أن نستفيد من علم الشيخ كما فكرنا، وهذا حظنا: أن نستقبل الشيخ لنصلي عليه مع ألوف المصلين من أبناء الأزهر ، ونبكيه مع الباكين من أبناء الأمة، وندعو أن يتقبله الله في الأئمة الصادقين، وأن يعوض الأمة فيه خيرا .

بين الدكتور دراز والإمام حسن البنا

بقلم الأستاذ الدكتور: عبد الستار فتح الله سعيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين : أما بعد:

فإن الكلمة الطيبة نعمة جليلة ، أينما وقعت نفعت، ثم تمتد آثارها وتتجدد بفضل الله، خاصة إذا ابتغيَّ بها وجه الله عز وجل، ولذلك ضرب الله لها أحسن الأمثال في القرآن الكريم فقال تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(٢٤)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (سورة إبراهيم: ٢٤ ، ٢٥) ولي في هذا الباب تجربة عجيبة خلاصتها :

أنني كنت دائب القراءة لكل ما يقع في يدي من كتب أو مقالات دعاة الإسلام المعاصرين ، وعلمائهم العاملين، وكنت شديد الإعجاب بكثير مما أقرأ، لكني لاحظت في نفسي أمرًا عجيبًا كلما قرأت لواحد من اثنين هما : الشيخ حسن البنا، والشيخ محمد عبد الله دراز، رحمهما الله ورضي عنهما .

كانت كلماتهما كأنها موجات روحية نورانية تمتزج بقلبي وعقلي، وتشدني إليها بخيوط غير مرئية ، وتثير في نفسي نبضات روحية تسمو بها إلى الملأ الأعلى، وتملأها إيمانًا بجلال الله وكماله، ويقينا بعظمة شريعته ودينه، وإعجاز كتابه الكريم .

ومن العجيب أن هذا التواصل الروحي كان يتدفق إشراقًا في نفسي كلما قرأت

(١) انظر مقدمته لكتاب حصاد قلم ـ ط ١ نشر دار القلم بالكويت .

شيئًا لأحدهما، ولو لم أعرف نسبته إلى أيهما: وكان ذلك قبل أن أرى أحدهما أو أسمعه، وقد ظل هذا التوهج النفسي يصاحبني بعد أن رأيت وسمعت الشيخ حسن البنا، ورغم أني لم أسعد برؤية الشيخ محمد عبد الله دراز، رحمهما الله !! وقد كنت كثير التعجب من هذه الظاهرة النفسية، ودائب البحث عن سرها، وقد استقر في نفسي أن الله تعالى قد منح الشيخين قوة روحية فائقة، وحبا وإخباتا لله عز وجل، لذلك كانت آثارهما على شاكلة باطنهما من توهج الروح، وذوب النفس وعصارة القلب ، مع إخلاص النيات ، والتجرد لله عز وجل نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحدا، ولذلك كانت هذه الآثار تنفذ إلى القلوب والأرواح في يسر وسهولة، ولعل هذا المعنى يكمن في قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٨٥) .

وقول النبي ﷺ : «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». متفق عليه[1] .

وهذه المعاني الروحية العالية هي الجانب المشترك بين آثار الشيخين رحمهما الله ، رغم الفارق بين أسلوب الداعية الذي يخاطب عامة الناس بحقائق الإسلام، وأسلوب العالم المتخصص الذي يؤدي نفس المهمة بطريقة أخرى، وكل ميسر لما خُلِق له.

* * *

كان علماؤنا من قديم يقولون :« ما كان لله فهو يبقى» ولعل هذا يفسر لنا بعض أسرار العناية الإلهية بالكلمات الطيبة، والآثار الصالحة التي تركها الشيخان رحمهما الله، واستودعاها عند أكرم الحافظين الذي لا تضيع ودائعه :

- فقد قتل الشيخ (حسن البنا) على قارعة الطريق، ودفن بليل، وطورد أتباعه منذ

---

(١) البخاري عن عائشة رضي الله عنها ك/ أحاديث الأنبياء ب/ الأرواح جنود مجندة، ومسلم عن أبي هريرة ك/ البر والصلة والآداب ب/ الأرواح جنود مجندة (٤٧٧٣) .

أكثر من نصف قرن، ولا تزال آثاره تضيئ الطريق، وترشد الحيارى، وتمثل حبل النجاة الوحيد لإنقاذ أمة الإسلام من الخطر الداهم الذي يهدد وجودها ومصيرها .

ـ أما الشيخ (محمد عبد الله دراز) فقد مات بعيدًا منذ أكثر من أربعين عامًا، ولا تزال العناية الإلهية تقيض من يخدم آثاره الجليلة: وآخرهم هذا التلميذ النجيب العجيب: الشيخ (أحمد فضلية) جزاه الله خيرًا .

فهو لم ير الشيخ ولم يعاصره في حياته، بل ولد بعد رحيل الشيخ بعدة سنين، ولكن الله تعالى بعث في نفسه وقلبه حماسًا هائلاً، وجَلَدًا بالغًا لتتبع آثار الشيخ في آلاف الصفحات والأوراق والخطابات التي عثر عليها في مكتبة الشيخ رحمه الله ، أو عند بعض أقاربه وأحبابه .

وكم تردد عليّ ـ مسافرًا ـ للتشاور في أمور تتعلق بتراث الشيخ : جمعًا ، وتحقيقًا، وتقسيمًا، ونشرًا، وكنت أفرح بهذا الدأب والعمل المتواصل، ولكني لم أكن أتعجب من ذلك لأني أعرف السبب الذي يبطل به العجب، أعرف أنه مشدودٌ إلى هذا التراث الجليل بنفس الخيوط الروحية الخفية التي شدتني وآلافًا من أمثالي قبل ذلك ، إنه يعمل لتحقيق مراد العناية الإلهية من حفظ الكلمات الطيبة، وبعثها في أوانها، تحقيقًا لوعد الله عز وجل: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ .

فجزى الله الشيخ (أحمد فضلية) خير الجزاء على ما بذله ويبذله من جهود نافعة لإخراج تراث الشيخ في شمول وكمال، لأن في هذا نفعٌ عظيم للإسلام والمسلمين في شتى جوانب العلم والحياة ، وفي هذا تذكرة للعاملين المخلصين بأن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولا يقطع للإخلاص أثرًا، بل يحفظ الكلمة الطيبة فلا تموت، ولا تنطفئ جذوتها مهما امتد عليها الزمن، أو تراكمت عليها المحن، وفي هذا أعظم الذكرى للعلماء العاملين في كل زمان كما قال تعالى عقب قصة أيوب عليه السلام ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا

وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٨٤) .

وجزى الله (دار القلم) والقائمين عليها لما يبذلونه من جهد في نشر هذا التراث الجليل، فإن في هذا خيري الدنيا والآخرة إن شاء الله، وفي ذلك فليتنافس الكاتبون والناشرون، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

فكر العمالقة

مبادئ القانون الدولي والإسلام

د. عبد العظيم المطعني

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز الأستاذ في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وعضو هيئة كبار العلماء من أوائل الخمسينيات (١٩٥١م) - بحثا في مبادئ القانون الدولي في الإسلام كان مرجعه فيه القرآن والسنة النبوية، كتبه باللغة الفرنسية ونشر في المجلة المصرية آنذاك للقانون الدولي. كما وزعته وزارة الخارجية المصرية في نشرتها الثقافية على الهيئات الدبلوماسية في الداخل والخارج ثم قام الشيخ دراز بنقله إلى اللغة العربية، ونشره في مجلة الأزهر (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م) ونال هذا البحث تقدير رجال القانون، وبخاصة المتخصصون في الفقه الدولي العام والعاملون بالسلك الدبلوماسي، ومنهم من بعث برسالات إعجاب شديد لفضيلة الشيخ دراز، وهو عملاق كبير من علماء الأزهر في الجيل الماضي وكان الباعث عند الدكتور دراز على كتابة هذا البحث هو الرد على من يدعون أن وثيقة حقوق الإنسان العالمية، والفقه الدستوري الذي مهد لصدورها، والقانون الدولى العام المنظم للعلاقات بين الدول وتحقيق السلام العالمي عمل الفكر الأوروبي في العصر الحديث، ولأول مرة في تاريخ الإنسانية وبين الدكتور دراز أن العالم القديم إلى عصر النهضة الأوروبية الحديثة لم يكن مؤهلاً لإصدار قانون دولى عام يصلح لريادة البشرية على قدم المساواة وأن أول تشريع دولى وضعته «عصبة الأمم» كان معيبًا إلى أبعد غاية، حيث قسم المجتمعات الإنسانية فجعلها ثلاثة أقسام، ووضع لكل أمة تشريعًا يليق بها في نظره فالعالم المتمدن له حقوق كاملة، ونصف المتمدن له حقوق جزئية ، وغير المتمدن له حقوق عرفية لا تحظى بالالتزام القانوني وهو ما كان ساريًا في العصور القديمة.

ثم جاءت «هيئة الأمم المتحدة» في عقب الحرب العالمية الثانية، فلم تتخلص كثيرًا من العيوب التي كانت سارية قبلها. لا في القواعد النظرية ولا في التطبيق، وبرهنت هيئة الأمم المتحدة على أنها أنشئت من أجل «الأقوياء» أما الضعفاء فليس لهم فيها إلا الحسرات تتلوها الحسرات .

هذا ما قاله الدكتور دراز منذ أكثر من نصف قرن في التمهيد لعرض أُسس القانون الدولى في الإسلام الذي كله مزايا ومحاسن وليس به أية عيوب .

ومما ذكره من أسس التشريع الدولي في الإسلام الحقائق الآتية نذكرها في إيجاز شديد:

قدم الدكتور دراز عرضا لمبادئ القانون الدولي في الإسلام بعد أن فرغ مما آل إليه الفكر الإنساني من قصور، وما لحق به من عيوب، قدم لها بقوله: « إذا أردنا أن نظفر بتشريع دولى عام يصطبغ بالصبغة العالمية الحقيقية فعلينا أن نصعد بذاكرتنا إلى عصر رسول الإسلام ﷺ .

- من أول هذه المبادئ تقرير حرية الاعتقاد ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ بل إن الإسلام يقرر أنه من المستحيل وقوعيا أن يسيطر على العالم كله دين واحد ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ وهذا الاختلاف لا يضيق به الإسلام، وإنما يسوسه بالحكمة، ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ .

تأتي هذه المبادئ والحرب المشروعة تكون لرد العدوان: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ ويجب أن تكون هذه الحرب في ميدان القتال دون غيره من الأهداف المدنية ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ .

- الميل إلى السلام مع أخذ الحذر الواجب إذا أراده الخصم: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ .

- النهي عن قطع الطعام عن مدن الخصم، كما حدث من أمر النبي ﷺ، مع أشراف بني حنيفة بعدم منع الحبوب عن قريش وكانوا محاربين للإسلام .

- كما تحدث بإسهاب عن علاقة المسلمين بغيرهم، وأن الأصل فيها هو السلام إلا إذا اعتدوا .

- وتحدث عن الوفاء بالمواثيق والعهود، وتبادل التعاون بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول، وبخاصة أهل الكتاب إلا إذا ظهر منهم عدوان .

- وتحدث عن التحالفات قيامها وإلغائها. وهي لا تلغى إلا بشرطين:

١- نقضها من قبل الحليف.

٢- أن ينذر إمام المسلمين العدو الذي نقض العهد بأن الدولة في الإسلام تحللت من بنود العهد الذي نقضه الخصم أولا وفي ذلك دفع لخداع الخصم ليكون على بينة من أمره.

- حرية تأدية الشعائر الدينية لكل طائفة .

- العدل والمساواة بين كل الناس مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم وبيئاتهم.

- الدعوة إلى قيام وحدة إنسانية كبرى مهما اختلفت العقائد مع ترك الفصل في الشئون الدينية لله ليقوم بالحساب ليتحقق السلام العالمي بين الناس.

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ .

- قانون الضمان الاجتماعي ، متمثلاً في زكاة المال والمحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية والإنفاق الحر.

أشرنا من قبل إلى أن رسائل كثيرة وردت إلى الدكتور دراز للثناء على بحثه

«مبادئ» القانون الدولى والإسلام، وفيها رسالة المسيو جبران.المستشار السياسي لهيئة الأمم المتحدة في ليبيا. وهذا نصها:

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله دراز أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة الأزهر.

اسمحو لي أن أبعث إليكم بتهنئتي الحارة، للمقال الذي ظهر بتوقيعكم في النشرة الثقافية التى تصدرها وزارة الخارجية المصرية .

- إنكم بهذا قد لمستم موضع الضعف الشديد في هيئة الأمم المتحدة .

- إنها لأقوال قوية، وكلمات طيبة تلك الآيات التي استشهدتم بها من القرآن، وإن لها اليوم صدى في أنحاء العالم أكثر مما يتصوره إنسان .

ومن ناحيتي أجد فيها نقطة، البدء للقيام بمشروع عملي جديد، ألا وهو «إنشاء منظمة على هيئة محكمة دولية دائمة، تستوحى أحكامها من المبادئ التي أقتبستموها من الكتاب المنزل.

وأن ذلك مما يرضى العقل ويثلج الصدر. إذ يجد المرء فيه الينبوع الصافي للفكرة والرسالة اللتين لبثت الإنسانية قرونًا طويلة تتهجى حروفها دون أن ترجع بذاكرتها إلى مصدرها .. وثق يا سيدي بعواطف إعجابي العميق» .

المسيو ألبير جبران - طرابلس الغرب في ٣٠ يناير سنة ١٩٥١ م .

الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز
عالم مجدد وباحث منهجي متفرد

بقلم أ. د/ محمد رجب البيومي

رزق الدكتور محمد عبد الله دراز نباهة ساطعة في الدوائر العلمية العالمية، لأن الرجل كان طراز خاصا من المفكرين، حيث لم يكن يكتب غير الجديد الطريف الذي لم يسمع به القارئ من قبل، مهما تنوعت ثقافته واتسع إدراكه، لقد كان يقدر تبعة القلم تقدير العالم الطامح المشرئب للكمال، فهو لا يدرس غير المفيد النافع، ولا يؤلف إلا في غير المجهول الذي تتطلع الأنظار إلى كل كلمة من كلماته! لقد عهدنا أناسًا من الكتاب يكثرون المؤلفات تباعًا، ولكنهم يجمعون ويلخصون ، فقارئهم الدارس يرد كل جملة إلى موضعها، ويعرف خلاصة ما يقرأ قبل أن يُلِمّ به، وما أكثر هؤلاء فيمن تتردد أسماؤهم في كل مناسبة !

لذلك كان محمد عبد الله دراز نمطًا نادرًا فيما يكتب، إنه يؤثر البحث الهادئ دون عجلة. ويضع الخطة المحكمة دون تسرع، ولا يهمه طال الأمد في بحثه أم قَصُر. إن الذي يهمه جدًا أن يستخرج من المعلوم مجهولا، وأن يكتب في موضوع قد اشتهر بين الناس ليأتي بما يجهل الناس. لذلك عرفه الصفوة من الدارسين فتتبعوا آثاره في اللغتين العربية والفرنسية ، وتلمسوه في مظان البحث، فإذا مر وقت ما دون أن ينفحهم ببعض آثاره تشوقوا إليه مستوحشين، وأخذوا يترقبون كلماته ارتقاب الغيث عند الظمأ. وهو رحمه الله دائمًا يَصْدُقُهم الوعد فيشرق عليهم بما يمتع ويقنع ويُشبع!

لذلك كانت الكارثة مروعة حين سافر إلى المؤتمر الإسلامي بلاهور، ليلقي بعض ما عرف من آياته في حفل إسلامي مشهود، ثم جاءت الأنباء بموته المفاجئ ، فكان لنعيه حسرة دامية في نفوس من يعرفون أن الرجل قليل التطير في إبداعه الفكري، وأنه نسيجٌ

وحده كاتبًا ومؤلفًا وأستاذًا بالجامعات!

ومع أن الدكتور لم يبلغ أرفع المناصب العلمية الرسمية التى كان يستحقها عن ثقة وجدارة، فقد كان المثقفون جميعًا يجمعون على سموق منزلته الفكرية، ويعدونه رأسًا بارزًا من رؤوس الفكر الإسلامي المعاصر، وقد أثبت تاريخه العلمي حقائق سافرة لم تعد بعد موضعًا للنزاع من أحد .

ومنها أن العبرة لدى الدارسين تعظم بجودة التأليف لا بكثرته، وبطرافته لا بتقليديته.

ومنها أن صاحب الإنتاج العلمي المتميز، يفوق سواه ممن سبقوه بالمناصب الرسمية، فهم دونه في ميزان الفضل، مهما فتنت البوارق ولمعت الأضواء.

ومنها أن الإخلاص للروح العلمي يجد التقدير البالغ من الخاصة، وهم وحدهم مكان الترجيح، وموضع الاختيار، لأن النفوس الواعية أعقل من أن تزجي الثناء البالغ لغير السابق الطموح، وكما قيل:

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً ... ما لم يروا عنده آثار إحسان

لقد قرأت تفسيرًا لفاتحة الكتاب كتبه الدكتور دراز، فأعجبني أن أجد من حسن الاستنباط، ودقة التعليل، وبراعة التحليل ما جعلني أُطالع الجديد حقًا، وفاتحة الكتاب معروفة مشروحة. وقد فسرها آلاف الشارحين في القديم والحديث. ولكن الرجل المبتكر، يلقي نظرة وراء السطوح الخارجية ليرى في اللفائف المستكنة ما غاب عن سواه حين نظر للسورة الكريمة من جهة مقاصدها. ومن جهة خطابها، لأن الفاتحة في رأيه توجز المقاصد الأساسية التي عناها القرآن إذ تتضمن مقصدين نظريين هما: معرفة الحق، ومعرفة الخير، كما تتضمن مقصدين عمليين هما: تقديس الحق، والالتزام بالخير، أما قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢)الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فشذرات ثلاث انتظمت أركان العقيدة القرآنية الثلاثة من حيث المبدأ فالواسطة فالمعاد. فرب

العالمين هو المبدأ والرحمن الرحيم هو مصدر الرحمة في الحياة ومالك يوم الدين هو صاحب الأمر النهائي عند الحساب، فإذا كان الله وحده هو الذي أعطى كل شيء خلقه: وتعهده بالإمداد حتى بلغ مداه، وإذا كان هو الذي يملك خزائن الرحمة في السموات والأرض يضاعفها كيف يشاء، وإذا كان هو الذي بيده، فصل القضاء وتقرير المصير فأي شيء أحق منه بنعوت الجمال والجلال بل أي شيء غيره يستحق الحمد والثناء، والنتيجة الطبيعية لذلك أن يضمحل في عينك ما ترى في الوجود من مظاهر زائفة. وأن تهتف من أعماقك متجهًا إلى ربك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ . نعبد أولا فنؤدي واجبنا. ونستعين ثانيًا فنطالب بحقوقنا، وهذا هو والجانب الإلهي : نظرية وعملية .

أما الجانب الإنساني فيتضمن المنهجين نظريًا وعمليًا، تضمنته السورة في كلمتين هما الصراط المستقيم، ثم وصفته بأنه الطريق الموصل إلى رضوان الله ، وأشارت إلىمثله التاريخية في سيرة الذين أنعمت عليهم ، ثم وضعت معيارًا لأنواع الطرق المنحرفة فبينت أن الانحراف على ضَرْبين. انحراف عن علم وقصد، وهو انحراف المغضوب عليهم، وانحراف عن جهل وطيش وهو انحراف الضالين .

ثم يقول الدكتور دراز ما نصه «إن سورة الفاتحة هي السورة الوحيدة التي وضعت أول الأمر لا على لسان الربوبية العليا، ولكن على لسان البشرية المؤمنة. تعبيرًا عن حركة نفسية جماعية متطلعة إلى السماء، بينما سائر السور تعبر عن الحركة المقابلة، حركة الرحمة المرسلة من السماء إلى الأرض، وهكذا حين ننظر إلى القرآن في جملته نراه يتمثل أمامنا في صورة مناجاة ثنائية، الفاتحة أحد طرفيها، وسائر القرآن طرفها الآخر . الفاتحة سؤال ، وباقي القرآن جواب، الفاتحة هي طلب الهدى، والباقي هو الهدى المطلوب» .

هذه خلاصة غير دقيقة لا تغني عن صفحات رائعة كتبها الدكتور في تفسير الفاتحة،

لأن مقالاً علميًا للدكتور دراز يتضمن تفسير الفاتحة، لا يقوم باحتوائه تلخيص ما ، فالمقال العلمي لدى الكاتب البصير لَبِنات متعاقبة يسند بعضها بعضًا. وتقديم بعض اللبنات دون بعض عرض للنوع فقط، وهو عرض لا يفي بالأصل المقصود، وهَبْكَ قرأت قصة فنية في صفحات، أتستطيع تلخيصها دون أن تخل ببنائها الفني؟ كذلك المقال العلمي التحليلي لا يخُلصْ إلا ليدل على المثال، لا أن يعبر عن حقيقة المقال.

كانت نشأة محمد عبد الله دراز العلمية فريدة في بابها فقد ولد في بيت علم وخلق وورع، فوالده الشيخ الكبير الأستاذ عبد الله دراز من كبار علماء الأزهر المشار إلى تضلعهم العلمي. وصلاحهم الخلقي. وقد ولد نجله سنة ١٨٩٤. وسرعان ما تفتحت عينه على زملاء أبيه يغشون منزله كل ليلة لدراسة كتب العلم. والحديث في مسائل الإصلاح الديني وكان الوالد يأخذ منزله بآداب التقوى. يؤم أهله في صلاتيّ العشاء والفجر ويقرأ صحيح البخاري في ليالي رمضان. ويسهر على تثقيف أبنائه وتعويدهم على سنن الخير صلاة وصيامًا وزكاة. وحبًا للمعروف. وبعدًا عن الدنايا. وطبيعي أن يلتحق ولده بالأزهر بعد أن حفظ كتاب الله . واستظهر بعض المتون العلمية الذائعة لوقته . وقد ظهرت دلائل نبوغه. إذ كان متقدمًا في امتحاناته السنوية حتى نال شهادة العالمية سنة ١٩١٦ وعين مدرسًا بالأزهر . إذ هو الأول في ترتيب الامتحان . ولم تشغله أعباء التدريس عن تعلم اللغة الفرنسية حيث حذقها في ثلاث سنوات. وقامت ثورة ١٩١٩ ليسهم الشيخ الشاب في كتابة المنشورات باللغة الفرنسية. ويطوف بها على السفارات ثم ليكتب في جريدة الطان الفرنسية ملخصًا ما يدور بالجامع الأزهر من خطب السياسة كما أشار عليه ابن عمه الشيخ محمد عبد اللطيف دراز، وهو يومئذ من رجال الثورة البارزين في المحيط القاهري. حتى إذا هدأت الأمور استأنف التدريس بالأزهر، ودأب على نشر المقالات الدينية في أُمهات الصحف، كما أشرف على طبع كتاب «الموافقات» للعلامة الشاطبي في أصول الفقه، إذ شرحه والده الكبير شرحًا يدل على غوص ونفاذ .

وليست مهمة العالم الشاب بالسهلة في هذا المضمار، فالشاطبي هو الشاطبي. والعلم هو الأصول ، والشارح هو الوالد العلامة، فإذا خرج الكتاب بأجزائه الأربعة محققا برعاية الشيخ الشاب فقد دل على جده البالغ واهتمامه الحريص، وحين أنشئت كليات الأزهر اختير أستاذًا للتفسير بكلية أصول الدين مع أساتذته الكبار من أمثال إبراهيم الجبالي ومحمد الخضر حسين ومحمد سلامة وعلي محفوظ، و لم يكن محمد عبد الله دراز بأقل منهم كفاءة واقتدار على حداثة السن، بل كان أقرب منهم إلى قلوب الطلاب لحسن تواضعه، وقرب اتصاله بشباب لا يزيد عنهم في الزمن أمدًا ذا بال.

وقد شاع فضله فرشحته مواهبه لعضوية البعثة الأزهرية إلى فرنسا سنة ١٩٣٦، بجامعة السوربون، فكان في طليعة أبنائها فهما وأصالة وسعة أفق، ثم هيأت له الظروف السعيدة مناسبة سارة سطع فيها نجمه العلمي فجذب إليه أنظار الدارسين في أوروبا، إذ عقد مؤتمر الأديان بباريس سنة ١٩٣٩. وشاء الإمام محمد مصطفى المراغي أن يكون محمد عبد الله دراز ممثل الأزهر في هذا المؤتمر العالمي الذي ضم صفوة المفكرين من رجال الأديان في الشرق والغرب، فانتدبه ليلقى كلمة الأزهر ممثلة للإسلام في هذا المؤتمر، وليست المهمة بسهلة في مناسبتها ومجتمعها ورجالها، لأن الرؤوس في كل دين سيتحدثون بما يجلو النقاب عن عقائدهم ، ولكلٍ فكره الصوال وحجاجه الدقيق.

وقد أنعم الله بالتوفيق على الأستاذ دراز، حين واجه العالم المتحضر ممثلاً في رؤوسه المفكرة بإيضاح معنى السلام في الإسلام حيث يهدف إلى إسعاد الإنسانية بإزالة ما يكدر الصفاء ويسبب الشقاء، إذ تحدث عن الواقع العالمي الراهن بما ينبئ عن قلقه وفزعه، وهكذا كان العالم قبيل الحرب العالمية الثانية التي لم تلبث أن نشبت بعد ثلاثة أشهر فحسب !! فتساءل الأستاذ عن سر الشحناء السائدة بين الدول ورد باعثها إلى سيطرة المادية سيطرة حازبة. ولا علاج إلا بإنعاش القوى الروحية في الأمم عن

طريق الدين، وقد كان المتكلم صريحًا حين قال في وضوح:

غير أننا إذا رجعنا إلى الأديان نلتمس منها المعونة هالنا ما نراه من اختلافها اختلافا طالما كان من أسباب الخصومات والحروب بدل أن يساعد على حُسن التفاهم والتقريب فهل نستطيع أن نجد من وراء هذا الاختلاف وحدة مشتركة في المبادئ والمطامح تصلح أن تكون محورًا لتقرير السلام بين معتنقيها وتسهيل تعاونهم على الخير المشترك ؟

وأجاب الأستاذ على هذا السؤال الحاسم بقوله: أما أنا فأميل إلى أن يكون الحل على أساس الفصل في الأديان بين ناحيتها الاجتماعية وبين نواحيها الأخرى وأعتقد أن افتراق الأديان في عقائدها وشرائعها لا يمنع إلتقاءها من الوجهة الخلقية عند قاعدة واحدة، هي أساس التعاون المطلوب وذلك أنها كلها تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن الظلم والعدوان، وكلها تسوي في هذه المعاملة الدنيوية بين أتباعها وأعدائها .

وأخذ الباحث يعرض نصوصًا من كتب الأديان كلها بدلاً من أن تكون سببًا للنزاع يجب أن تكون باعث الائتلاف والوئام، كما أن السبب الحقيقي للخصومات الدينية هو تعمد الانحراف عن الدين وهجر تعاليمه الصحيحة. وليس من علاج لآلام الإنسانية الحاضرة غير عناية رجال الأديان بالجانب الخلقي ليكون نواة ارتكاز ينهض عليها السلام، وهذه خطوة أولية في سبيل التفاهم في الحقائق الدينية نفسها .

وحين ختم المحاضر كلمته أعلن السير فرنسيس رئيس المؤتمر أن كلمة مندوب الأزهر تعد الكلمة الرئيسية في المؤتمر. وأثنى عليها المعقبون بما تستحق من تنويه. وكان من حظها أن تخصها الصحف الفرنسية بخلاصة وافية وأن تجمع على أنها الكلمة الأولى في المؤتمر.

وإذا كانت محاضرة الأستاذ دراز في المؤتمر العالمي للأديان كانت مشرق نجمه في الدوائر العلمية العالمية .

فقد شاء الله أن تكون آخر محاضرة له في مؤتمر مماثل هو المؤتمر الإسلامي الدولي المنعقد بلاهور «الباكستان» في يناير سنة ١٩٥٧ حيث أعد بحثًا ممتازًا تحت عنوان (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها) وهو بحث شاء الله أن يلقيه سواه، إذ لبى الأستاذ نداء ربه أثناء انعقاد المؤتمر، وقبل أن يسعد الناس بإلقاء كلمته. وفي هذا البحث الضليع تتجلى أستاذية الدكتور دراز المكينة، كما تتجلى سعة أفقه حين اعتمد على المنطق التحليلي المؤيد بالدليل في جميع ما قرر من القضايا، ونحن نضطر إلى الإلماح لبعض ما قال حينئذ، إذ صور موقف الإسلام من الأديان الأخرى تصويرًا جامعًا مانعًا، على دقة بالغة لا تسمح بالإيجاز أو الاستطراد إذ أعلن مبدئيًا أن كلمة الإسلام بمدلولها القرآني تشمل جميع الديانات السماوية. وضرب الأمثلة الدالة على ذلك من مثل قول الله على لسان نوح ﴿**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (سورة ١٠ آية ٧٢) وعلى لسان يعقوب مخاطبًا نبيه ﴿**فَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ (سورة ٢ آية ١٣٢) وقول موسى ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ باللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ**﴾ (سورة ١٠ آية ٨٤) وقول الحواريين لعيسى ﴿**ءَامَنَّا باللَّهِ وَاشْهَدْ بأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ (سورة ٣ آية ٥٢) ويعقب على ذلك بأن الإسلام بمعناه القرآني لا يصلح لأن يكون محلاً للسؤال عن العلاقة بينه وبين الأديان السماوية، إذ لا يسأل عن العلاقة بين الشيء ونفسه، فهاهنا وحدة لا انقسام فيها !

فإذا ترك المدلول القرآني لكلمة الإسلام إلى المدلول العرفي لدى الناس فإننا نجد الإسلام حينئذ يدل على مجموعة الشرائع والتعاليم التى جاء بها رسول الله محمد ﷺ أو التى استنبطت بما جاء به، وفي تحديد العلاقة بين الإسلام بهذا المعنى واليهودية والمسيحية نجد الدكتور دراز يقسم البحث إلى مرحلتين مرحلة الصورة الأولى لهذين الدينين قبل التبديل ومرحلة الصورة الثانية لهما بعد التبديل، وعن المرحلة الأولى يؤكد المحاضر أن القرآن جاء مصدقًا لما قبله فهو مصدق للتوراة والإنجيل معًا، وليس معنى التصديق هو التذكير فقط دون تبديل، إذ جاء الإنجيل بتعديل أحكام التوراة فأعلن

عيسى أنه أتى ليحل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم، وكذلك جاء القرآن بتعديل أحكام الإنجيل إذ أعلن كتاب الله أنه نزل ليحل للناس كل الطيبات.. ويحرم عليهم كل الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

يقول الدكتور دراز: ولكن يجب أن يفهم أن هذا وذلك لم يكن من المتأخر نقضا للمتقدم، ولا إنكارًا لحكمة أحكامه في إبانها، وإنما كان وقوفًا بها عند وقتها المناسب، مثل ذلك مثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطَوْر الأول من حياته فقرر قصر غذائه على اللبن. وجاء الثاني للطفل في مرحلته التالية فقرر له طعامًا نشويًا خفيفًا وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها فأذن له بغذاء كامل، وهكذا كانت الشرائع الإسلامية كلها صدقًا وعدلاً في جملتها وتفصيلها ولكن هذا التصديق على ضربين: تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره . وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية. ولولا اشتمال الشريعة على هذين النوعين ما اجتمع لها العنصران الضروريان لسعادة المجتمع البشري : عنصر الاستمرار، وعنصر التجديد .

ثم انتقل الأستاذ إلى أمثلة تشريعية جعلها موضع التطبيق الصادق لما يقول، لينتهي إلى الحديث عن العلاقة بين الشريعة الإسلامية والشرائع السماوية بعد أن طال عليها الأمد فنالها شيء من التطور والتحوير، فيعلن أنه إذا كان القرآن في المرحلة الأولى مصدقًا فهو في هذه المرحلة مهيمنًا على تلك الكُتب حارس عليها، ومن مقتضيات الحراسة ألا يكتفي الحارس بتأييد ما خلفه التاريخ فيها من حق وخير، بل عليه أن يحميها من الدخيل الذي يضاف دون حق، فمهمة القرآن حينئذ أن ينفي عنها الزائد، وأن يتحدى من يدعى وجوده في هذه الكتب، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران الآية رقم٩٣) ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (سورة المائدة الآية رقم١٩) .

وكان من الضروري أن يختم البحث بإيضاح موقف الإسلام من الديانات الأخرى

من الوجهة النظرية. فعرض لآراء المنحرفين ممن فهموا هذا الموقف على غير وجهه ، وكر على أباطيلهم بالدليل ليعلن أن الإسلام ليس فاترًا ولا منطويًا على نفسه ، لأن الدعوة إلى الحق والخير ركن أصيل من أركانه، وفي الوقت نفسه يدعو بالرفق والحكمة والموعظة الحسنة، فنبي الإسلام هو أول من يعرف أن كل محاولة إجبارية لفرض دين معين هي مقاومة لسنة الوجود .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (سورة هود الآية رقم ١١٨) .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس الآية رقم ٩٩) .

﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (سورة القصص الآية رقم ٥٦) .

أقول مرة ثانية أن تلخيص آراء الأستاذ دراز لا يغنى عن استقصائها، لأن كل لبنة في بنائه تحمل كيانها الخاص، وإنى أدعو رجال الدعوة الإسلامية إلى تتبع كل ما كتبه الأستاذ الكبير عن علاقة الدين الإسلامي بالأديان السابقة، لا ليلموا بالأفكار وحدها بل ليدرسوا منهجه المنطقي في تقرير القضية وعرضها، والاستدلال عليها .

وعليهم أن يعرفوا أن الإسهاب في غير موضعه خطل بائر، لأنه يقذف بالقضايا الواضحة إلى متاهات مُضلة ، وقد صرنا في عصر متفتح المنافذ لكل ضوء، وضوء الإسلام بحقائقه الثابتة أقوى شعاعًا. وأهدى سبيلاً ، وعلينا أن نعرضه واضحًا ساطعًا، وعلى الله قصد السبيل .

حين تهيأ الدكتور محمد عبد الله دراز لإعداد رسالة الدكتوراه في الفلسفة بجامعة السوربون لم يحتطب في حبْل المستشرقين، كما نعهد لدى كثير من المبعوثين الذين يخضعون إلى توجيهات مريبة فيكتبون عن الإسلام والعربية ما يُرضى نزعات من

يشـرفون على رسـائلهم ، وفيهم من يشـتط فيعبّر عـن كلّ مـا يودّون إذاعتـه من أراجيف، لينال الحظوة لدى قوم يسوؤهم أن يظهر الإسلام في مظهره الشريف.

لقد قَدَّرَ دراز أنه مبعوثُ الأزهر، وأن عليه أن يصحح أخطاء من جحدوا الإسلام عن عَمد أو جهل، ومـا دامَ لديـه المنطق الصحيح، فخـيرٌ لـه أن يخُوضَ المعركـةَ مع خصومه الذين هم في الوقت نفسـه أساتذته الفاحصون والمشرفون، وإليهم يرجع الأمر في تقدير الرسـالة قبولاً ورفضًـا ! لذلك تقدّم برسـالتينْ للمناقشـة، رسـالة رئيسـية عن الفلسـفة الأخلاقيـة في القرآن وقد تُرجمت إلى العربية تحـت عنوان (دستور الأخلاق في القرآن) .

ورسـالة فرعيـة تحت عنـوان (المدخل إلى القـرآن الكريم) وقـد تُرجمت أيضًـا إلى اللسان العربي .

يذكُر المؤلف العلامـة بصدد النظرة السريعة إلى مؤلفات علم الأخلاق العام السائدة في أوروبا كافيـة لنلحظ فراغًا هائلاً نشـأ عن السـكوت عن علم الأخلاق القرآني. إذ أن هذه المؤلفات تذكُر المبـادئ الأخلاقية في الوثنّيـة الإغريقية واليهوديـة والمسيحية ثم تنتقل إلى العصور الحديثة فجأة وكأن الإسلام لم يكنْ . وكأن القرآن لم يُحدث تأثيره الخُلقيّ في العـالم بأجمعه أفليسـت هذه خسـارة ضخمـة أن نُغْفل نظريـة الأخلاق في الإسلام !! .

لقـد وُجدت محـاولات مبتورة في هـذا المجـال جـاء مضمُونُهـا بعيـدًا عن النظريـة الاخلاقية الصادقة في كتـاب الله فمن حيثُ الإطار أغفل الباحثون الجانبَ النظريَ من المسـألة، فليسَ هنـاك عـالم «أوروبي» واحد حـاول أن يسـتخلص من القرآن مبادئـه الخلقيـة العامـة، ومن حيثُ المضمـون فقد رجع هؤلاء إلى ترجمـاتٍ غـير صحيحة وإلى تلخيصات مشوّهة فكتبوا بتأثيرها غير الصحيح .

يقول الدكتـور دراز «ولذلك بدا لنا من الضـروري أن نتناول الموضـوع من جديد،

وأن نعالجه تبعًا لمنهج أكثر سلامة، من أجل تصحيح أخطاء الكاتبين ، ومَلْءُ هذه الفجوة في المكتبة الأوروربية . لِنُرىَ علماء الغَرب الوجه الحقيقيّ للأخلاق القرآنية» .

ولم تكن المهمّة سهلة هَيِّنَةً ، لأن كُتُبَ الأخلاق الإسلامية في أكثرها الغالب لم تَبْحث التأصيلَ النظري للقضية الأخلاقية في الإسلام، ومَنْ تحدثَ عن ذلك كانتْ شذراته متناثرةً في أماكن مختلفة من كتب التصوّف والفقه وعلمِ الكلام، وكلُّها لم تُعنِ دائمًا بوجهةِ النظر الأخلاقية بمفهومها الخاص .

وللغزالي وغيره كلامٌ في المنحى الخلقي ذكر الباحثُ عنْه أنّهم جمعوا الآيات القرآنية بترتيب السور، وجعلوا من مختاراتهم مجرّد جمع لموادّ متفرقة لا تجمعُ بينها روحُ القرابة، ولا يظهُر فيها أيَ تسلسلٍ للأفكار، لذلك كان الباحث رائدًا في طريقه الجديد.

ودراسة هذه الرسالة مما يتعذّر في هذا المجال، وحسبُنا أن نُشير إلى أنها ترجمت للعربية في (٧٨٠) صفحة وأنها تضمنت بابيْن كبيرين .

الباب الأول: عن الوجهة النظرية للأخلاق القرآنية وقد جاءَ في فصولٍ خمسة تتحدثُ عن الإلزام، والمسئولية، والجزاء ، والنيّة ودوافعها، والجهد .

والبابُ الثاني: عن الأخلاق العملية وقد جاء في خمسة فصول تتحدث عن الأخلاق الفردية، والأخلاق الأُسرية، والأخلاق الاجتماعية والأخلاق الدينية وأخلاق الدولة ثم خُتمت الرسالة ببحثٍ إجمالي يوجز أُمهاتِ الفضائل الإسلامية .

ومن الإنصاف أن نذكر أنّ منطق الدكتور دراز كان من القوة بحيثُ ألزمَ مناقشي الرسالة بأن يمنحوهُ مرتبة الشرف الأولى من دكتوراه الدولة! وهي أَعْلَى الدرجات العلمية في فرنسا، لأن الرسالة قد غيرت المفهوم السائد عن الفلسفة الإسلامية بنوعٍ عام وعن فلسفة الأخلاق بنوعٍ خاص.

إذ كان الشائع المتداول في دوائر الاستشراق أن مفهوم الفلسفةِ الإسلامية ينحصر

في المترجمات الإغريقية دون زيادة فالعرب المسلمون مترجمون لا مؤصلون فجاءت هذه الرسالة لتثبت أصالة الفكر الإسلامي الفلسفي ولتعد القرآن الكريم منبعه الأول، كما أن الأخلاق الإسلامية لدى هؤلاء لم توصف بغير مجموعة من العظات والنصائح لا تخضع لفكرة شاملة ولا تتقيد بمنطق عام، فجاء القسم النظري من الرسالة ليؤكد قوة النظرة الفلسفية لدى المسلمين، وهي نظرة جديدة تستمد عناصرها من القرآن، ولا تعتمد على وافدٍ من الترجمات !

أما الرسالة الفرعية (مدخل إلى القرآن الكريم) فقد كُتبت لتصحيح الأخطاء المتداولة في أوروبا عن كتاب الله، وفيمن تعرّض الدكتور دراز إلى تخطئتهم أساتذته في جامعة السوربون، وأعلامُ الفكر الاستشراقي ممن رُزقُوا دويًا رنانًا في بحوثهم الذائعة، وما حفل الأستاذ بغضب أحد، إذا كانت لهجته المهذبة، وأدلته المقنعة كافية بان يكبت كل انفعال مضاد .

وقد جاءت الرسالة في ثلاثة أبواب .

تضمن الباب الأول فصلا عن حياة الرسول ﷺ قبل البعثة، وفصلاً عن جمع نصوص القرآن، و فصلاً عن تبليغ المبدأ القرآني للعالم .

وتضمن الباب الثاني فصلا عن الحق والعنصر الديني في القرآن، وفصلاً عن الخير والعنصر الأخلاقي ، وفصلاً عن الجمال أو الجانب الأدبي، وهذا البابُ من الرسالة الفرعية يمتُّ إلى الرسالة الرئيسية بأقوى الأسباب، وكأن الباحث أراد به أن يؤكد أن النظرة الأخلاقية من صميم الدراسات القرآنية، فهي في موضع الاهتمام لدى كل من يتحدث عن كتاب الله .

أما الباب الثالث فخاصٌ بالبحث عن مصدر القرآن في الفترة المكية وفي الفترة المدنية، ومصدر القرآن هو الله دون نزاع، ولكن كَهنة الغَرب يختلقون مصادر زائفة رأى الأستاذ أن يجهز عليها بالدليل فبلغ المراد، وقد جاءت الخاتمة لتؤكد حقيقة الوحي

وتبطل ما أحاط به من المزاعم والأراجيف ولتنتهى إلى أن منهج القرآن الكريم ينهض دليلاً كافيًا على مصدره الرباني.

وأنا أنصحُ الذين يكتبون في أمثال هذه الأمور الدقيقة أن يقتدوا بأسلوب الدكتور دراز العلمي، لأننا وجدنا من أطال القول في هذا المجال معتمدًا على العبارة الرنانة والأسلوب الخطابي، ومندفعًا للاستهزاء من الخصوم بالقول الجارح، والتطاول الحادّ ، وليس هذا سبيل المحققين من الدارسين، فالاستهزاء لا يكون بالسباب والتطاول. ولكنّه ببلاغة العرض، وقوة الدليل، ونظافة اللفظ .

وقد رأينا كثيرًا من المخطئين يرجعون عن آرائهم حين يلمسون قوة المنطق، وسلامة التأني، وعفّة اللفظ، وما رأينا واحدًا من هؤلاء يرجعُ عن رأيه الخاطئ لأنه قُوبل بالسباب ! بل ربما زاده ذلك إيغالاً في الضلال.

فإذا تركنا مُؤَلَّفَيْه هذين، إلى مؤلفاته الحرة التى لم ينل بها إجازة علمية فإننا نلحظُ أن الباحث الدقيق لم يُسرف في التأليف إسراف زملائه، لأنه التزم أن يأتي بالجديد، وصاحبُ هذا المنحى الهادف يُغنى الكتاب الواحد من قلمه عن عشراتٍ من أقلام من يكررون ويرددون ، إن طرافة اتجاه الأستاذ دراز في منحاه التأليفي، تجعل كتابه جديدًا دائمًا ، مهما كرر المطالع قراءته لأن القارئ لا يستوعبُ حقائقه في مطالعة واحدة بل يظلّ يعاود ويراجع وفي كل قراءة تنجلي له حقائق جديدة! وهذا ما لمستُه شخصيا وأنا أطالع كتابه الجادّ «الدين ، بحوث ممهدة لتاريخ الأديان» وهو كتاب يهم كلّ مشتغلٍ بالدراسات الفكرية العميقة لأن تاريخ الأديان في لبابه هو تاريخ البشرية.

وقد وَجدت الأديان من يؤرخ لها من ذوى النزعات المادية ليجعلها حلقاتٍ في سلسلةٍ تفصل لتُعفي كل حلقة على ما قبلها، وإذا بالأديان في النهاية خيالات يعتنقها البشر في أدوار الطفولة !!

هكذا اجترأ الملاحدة على تصوير الأديان دون رعاية لمنطق، أو إحترامٍ لحقيقة، حتى

جعلوا التفكير الديني دورًا بدائيًا تعدته البشرية المعاصرة في عهد النور، ومثل هؤلاء في حاجة إلى قلم جادّ يكشف الزيف عن عيونٍ غشيت في أمواج النور فجعلت تتخبط فيها وكأنها تتقاذف في لجج الظلام .

فبعد أن تحدث الكاتب عن المدلولين الخاص والعام لكلمة الدين، أخذ يوضح العلاقة بين الدين وكلّ من الأخلاق والفلسفة والعلوم ليجعلها علاقة ترابط والتقاء، لا علاقة تفكك وابتعاد وكل ما قاله في هذا الباب نفيس جيد ترفده الفكرةُ النافذة ويقيمه الدليل البصير .

فإذا انتقلنا إلى البحث الثالث وهو (نزعة التدّين ومدى أصالتها في الفطرة) فإننا نجد العالم المستوعب يناقش آراء الماديين، ويقفُ موقف الناقد لقانون الأطوار الثلاثة الذي يذهب إلى أن العقلية الإنسانية مرت بثلاثة أدوار، دور الفلسفة الدينية ، فالتجريدية، فالواقعية، وهو قانونٌ أصبح بمثابة البديهيات لدى من يجحدون عالم الغيب، ولكن المؤلف يفضح عواره في أدب متئد حين يقول: ونقطة الخطأ البارزة في هذا المذهب التطوري هي أن أنصاره جعلوا منه قانونًا يستوعب التاريخ كله، في شوطٍ واحد، قطعت الإنسانية ثلثيه بالفعل، ونفضت أو كادت تنفض يدها منه إلى غير رجعة! ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية كلما ختمت شوطًا رجعت عودًا على بدء لكان الخطأ في النظرية أقل شناعة .

وقول الأستاذ لكان الخطأ أقل شناعةً! يثبتُ أن هذا الحل الأخير خطأ أيضًا. وكونه أقل من خطأ النظرية الأولى! لأن التفكير الديني قد اعتمد على العقل منذ خلق الله آدم، ومنذ علّمه الأسماء كلها، فنزل إلى الأرض موحدًا مؤمنًا، مستنيرًا بهداية السماء، وما ضلّ أحفاده إلا لأنهم خالفوا منحاه، فتوالت الرسل يصحّحون ويهدون .

وقد عرض المؤلف لآراء المفكرين في نشأة العقيدة الإلهية، فدرس ما قاله أنصار مذهب التطور، وما قاله الطبيعيون، وما قاله أصحابُ المذهب النفسي، وأصحاب

المذهب الخلقي، وأصحاب المذهب الاجتماعي، لينتهي إلى خلل هذه المذاهب جميعها، وصحة المذهب القرآني، عارضًا من آيات الذكر الحكيم ما يقنع العقل المحايد خاتمًا حديثه الرائع بقوله .

«ولن يسع الباحث المنصف متى تحقق هذه الإحاطة العلمية الشاملة - إحاطة كتاب الله - إلا أن يرى فيها آية جديدة ، على أن القرآن المجيد، ليس صورة لنفسية فرد، ولا مرآةُ لعقلية شعب، ولا سجلا لتاريخ عصر، وإنما هو كتابُ الإنسانية المفتوح، ومنهلها المورود» .

هذا عن كتاب (الدين بحوث ممهدة في تاريخ الأديان) فإذا تركناهُ إلى كتابه الرائع (النبأ العظيم) فإننا لا نغالي إذ قلنا أن المكتبة القرآنية في عهدنا الأخير لم تر أهدى سبيلا منه في سلامة النظرة، ولطافة الاستشفاف. وعمق التأمل، [وأنا أعرفُ أن الكاتب الشهيد الأستاذ سيد قطب رحمه الله ، قد كتب مؤلفه الرائع (التصوير الفني في القرآن) فأتى بمذهب جديد في اكتناه التعبير القرآني ، لم يسبق إليه سواه، ولكنّ كتاب (النبأ العظيم) لم يقتصر على التصوير الفني وحده باعتباره الأداة المفضلة للتعبير كما ذهب الأستاذ سيد قطب رحمه الله، بل نظر إلى القرآن فكرة وصورة وتعبيرًا وجدلاً وحوارًا، وبذلك يكون سالكًا منهجًا غير منهج (التصوير الفني) وما من الرجلين العظيمين إلا له مقام مشهود] .

تحدّث مؤلف «النبأ العظيم» في بحوثه الأولى عن تحديد المراد بالقرآن وعن بيان المصدر الحق للقرآن وعن طبيعة المعاني القرآنية من حيث سماويتها المستعصية على أهل الأرض، وكل هذه بحوث دُرست من قبل، ولكن المنظار الذي رصدها بقلم الدكتور دراز قد نظر من القسمات والملامح ما أضاف الجديد إلى الشهير المتعارف، فإذا اتجهنا إلى حديث الدكتور عن الإعجاز القرآني فإننا نجد الجديد الخالص مما لم يعرف من قبل مع أن مئات البحوث قد تتالت عن الإعجاز القرآني على مر العصور يتلقفها خالفٌ

عن سالف ليزيد فيها أو يرد عليها، أو يدور حولها، وحين كتب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي كتابه عن «اعجاز القرآن» جاء بالروائع النادرة من ناحية التعبير البياني، أما الأفكار التي رصدها فأكثرها قد قيل ، وزاد عليها الرافعي بما عرف عنه من براعة النظم البلاغي، ودقة التركيب اللغوي، ولطف التصوير الجمالي، على حين نرى الآفاق قد اتسعت أمام دراز مُشعة بأنوارٍ مضيئة هي من شمسه الخاصة في مجال هذا الإعجاز .

وأذكر أني أفضتُ في تحليل الإعجاز القرآني كما رآه الدكتور دراز فيما سَجّلْتُه بكتاب (البيان القرآني) وسأحاول أن أقتبس مما كتبت ما يلخص فكرة دراز في هذا الإعجاز .

إن الخصائص القرآنية التي هيأت الإعجاز القرآني ترجعُ إلى أمور منها (البيان والإجمال معًا) لأن الناس إذا عمدُوا إلى تحديد أغراضِهم لم تتسع إلى التأويل، وإذا أجملوا ذهبوا إلى الإبهام أو الإلباس ولا يجتمعُ لهم هذان الطرفان في كلام واحد، ولكنك تقرأ القطعة من القرآن فتجدُ في ألفاظها من الشفوف والإحكام والخلوّ من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك دون كد خاطر، أو استعادة حديث كأنك لا تسمع كلماتٍ ولُغاتٍ بل ترى صورًا وحقائق ماثلةً، ويخيّل إليكَ أنك أحطت بها خبرًا، فإذا رجعت إليها كرة أخرى وقفت منها على معنى جديد غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة ، حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة معاني كلها صحيح أو محتمل الصحة كأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شُعاعًا، فإذا نظرتَ إلى أضلاعه جملةً بهرتك بألوان الطيف فلا تدري ماذا تأخذ عينك وما تدع .

ومن الخصائص القرآنية عند الدكتور دراز إقناع العقل وإمتاع العاطفة معًا فقد عرفنا حديث أمراء البيان من الأدباء والشعراء فما وجدنا من هؤلاء وهؤلاء إلا غُلوًا

في جانب وقصورًا في جانب، فالحكماء يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاءً لعقلك ولا تتوجهُ نفوسهُم إلى استهواء نفسك .

والشعراءُ يسعون إلى استثارة وجدانك وتحريك شعورك دون أن يقنعوا عقلك في الأعم الأغلب، أما أن أسلوبًا فذا يتجه اتجاهًا واحدًا، ويجمع بين الإقناع والإمتاع كما يحمل الغصن الواحدُ من الشجرة أثمارًا وأزهارًا وأوراقًا معا، أو كما يسرى الروح في الجسد والماء في العود الأخضر، فذلك مالا نظفر به في كلام بشر، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية ولكنك تظفر به في كتاب الله وحده، ألا تراهُ في قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمةٍ وعبرة، ثم ألا تراهُ في براهينه وحجاجه لا ينسى حظ القلب من التشويق والترقيق .

وثالثة الخصائص القرآنية لدى الدكتور دراز هي طريقة القرآن في خطاب الخاصة والعامة، إذ هذان الخطابان يمثلان غايتين متباعدتين عند الناس فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء ، لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا يطيقه عقولهم، ولكن القرآن يخاطب الفريقين معًا خطابًا واحدًا، فيأخذ كل فريق من خطابه على قدر عقله، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى الإفهام ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ .

ورابعة الخصائص القرآنية هي القصد في اللفظ والوفاءُ بالمعنى وقد أجاد الكاتبُ بسط هذه الناحية بما نحيلُ القارئ إلى مصدره خشية التطويل.

وفي نهايةِ الكتاب دراسةُ بصيرة لأغراض سورة البقرة، حيث جعل المؤلف من السورة الكبيرة وحدةً تتألف من مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة، وضرب الأمثلة من آيات السورة تطبيقًا لما يعنيه.

هذا وقد جمعت بعض محاضرات الدكتور ومقالاته في كتاب أسماه جامعة (دراسات إسلامية) وفيه بحوثُ شافية عن القرآن الكريم، والإسلام والرق، وكرامة الفرد في الإسلام، والمسئولية في الإسلام ومبادئ الأخلاق نظريه وعمليه، ومبادئ القانون الدولي في الإسلام، والربا في نظر القانون الإسلامي، وإصطلاحات الشيخ محمد عبده، وكل هذه البحوث قد نشرت في أمهات المجلات الإسلامية بمصر .

وفي مجلة الأزهر بحوث مماثلة لم تُجمع بعد، وتتطلبُ جامعًا يقدم جزءًا ثانيًا[1] من هذه الدراسات الخصبة لأن كل موضوع منها ذو نفع مؤكد، ولا يسد مسده سواه، ومن أهمها بحثه الرائع عن تاريخ الأزهر الشريف، ونقدُه لاقتراح ترتيب المصحف حسب النزول وغيرهما .

لقد عاش الدكتور دراز حياته مؤمنا مفكرا وقد ورث عن والده شغفه بكتاب الله، فأخذ عنه ضرورة التلاوة لستةٍ أجزاء منه كل يوم، وقراءة مفكر مثله لهذا الجزء اليومي، لابد أن تفتح عليه بما يُضيء بصيرته. ويمدهُ بأوفر الزاد الشهي، لذلك كانت محاضراته في تفسير القرآن الكريم بكلية اللغة العربية مهوى الطلاب جميعًا، وأكثرهم كان يترك المحاضرات في المواد المختلفة ليسعى إلى دروس دراز في التفسير.

وكم كان رائعًا أن يتوجه الدكتور لأداء سجود التلاوة عند مناسبته، وأن يعلم طلابه ذلك فيتسلحوا بالوضوء قبل الدرس ليسجدوا لله طائعين!

لقد كان الدكتور دراز نمطًا ممتازًا عرفه الناس بتفرده العلمي مؤلفًا ومحاضرًا وأستاذًا كما عرفوه بإيمانه القوى مسلمًا رقيق العاطفة، قوي اليقين.

---

(١) بفضل الله أخرجنا هذه البحوث في كتاب جامع أسميناه (حصاد قلم) تقديم أ. د. عبد الستار فتح الله سعيد، وجمع وإعداد الشيخ - أحمد مصطفى فضلية - ونشر دار القلم - الكويت والقاهرة.



الأستاذ الدكتور/ محمد عبد الله دراز

في آثاره العلمية[1]

بقلم الأستاذ / أنور الجندى

هذا الرجل من الأزهر ، فيه أصالة المؤمن، وثقافة المسلم، والقدرة البيانية العربية الفائقة، استطاع أن يقتحم آفاق الفكر الغربي ويدرس اللغة الفرنسية ويكتب بها رسالته التي يناقش فيها أساطين الفلاسفة الغربيين في نظرياتهم وقضاياهم كاشفا عن وجه الحقيقة بين بيان الإسلام الناصع ووجهته الصادقة وبين ما تحمل هذه النظريات والمذاهب من قصور والتواء ، بما يجعلها غير صالحة للفطرة الإنسانية في عصر القرآن، ليس للمسلمين وحدهم بل للبشرية كلها وقوامه في هذا كله فهم عميق للقرآن، وتدبر عجيب له، وقدرة على تبليغ العبارة بأصفى لغة، ولتقديم الأمثلة إلى العقل الغربي في تمكن عجيب.

وكان الدكتور محمد عبد الله دراز حين قصد من الأزهر إلى السربون ليعد رسالته عن الأخلاق في القرآن يعرف جيدًا ما هي الوجهة وما هو الهدف وما هي الفوارق العميقة بين مفاهيم الفلسفات ومفهوم الإسلام ولكنه يعرف أيضًا كيف يقدم وجهة نظر الإسلام في مرونة وذكاء حتى لا يصطدم بمعارضة، ومن أجل ذلك أمضى اثنى عشر عاما (مايو ١٩٣٧ - مارس ١٩٤٨) في فرنسا منها خمس سنوات في التعرف على مناهج العلوم في الغرب وتحضير درجة الليسانس والأخرى في إعداد رسالته عن الأخلاق ورسائل أخرى مكملة لها، وكان في خلال ذلك كله يعايش القرآن الكريم في تفسيراته المختلفة ليستخرج منها ومن إبداعه النفسي والروحي ذلك الفيض الكريم الذي قدمه إلى الغرب في اللغة الفرنسية عام ١٩٤٧ والذي لم يترجم إلى اللغة العربية إلا عام ١٩٧٣ بعد أن كان رحمه الله قد فارق الحياة .

(١) نقلاً عن كتاب «أعلام القرن الرابع عشر الهجري» من ص١٩: ٣٣، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨١م .

وهو في خلال كتبه (١) النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن) و (٢) مدخل إلى القرآن الكريم و (٣) الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان: يسير على نفس ذلك الطريق العميق الهادئ الممتع الذي يملأ القلب إيمانًا والنفس يقينًا والروح ثقة بكل ما يقول: فقد أوتيّ أسلوبًا بارعًا وقدرة التعمق في الفهم، وهو بذلك يمثل نموذجًا قل نظيره في مجال الدراسات الإسلامية والأزهرية من حيث الانصراف عن العبارة الرنانة أو الإفاضة والإسهاب أو الإنشاء المستطرد، وإنما هي عبارات محكمة على قدود المعاني، وأداء محكم ، يسعد القلب والعقل معًا .

ولا ريب أن الدكتور محمد عبد الله دراز بأعماله الفكرية هذه قد أضاف إضافات حقيقية للفكر الإسلامي، وتعد رسالته عن الأخلاق فتحًا جديدًا غير مسبوق فلقد تناول فلسفة الأخلاق الإسلامية كثير من الباحثين المسلمين من أمثال ابن مسكويه والغزالي وابن حزم وغيرهم ولكن أحدًا لم يصل إلى (استخراج) منهج القرآن الأخلاقي كاملاً ومفصلاً ومحررًا عن المفاهيم اليونانية التى تأثر بها من كتبوا في القرن الثالث والرابع، مثل ما وصل الدكتور دراز وإذا كان هذا هو العمل الأكبر في حياة علامتنا فإنه قدم عملين آخرين لهما أهمية كبرى في مجال الفكر الإسلامي:

(الأول) : الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) وفيه أيضًا مقارنات هامة بين الأديان تواضع على أن يسميها بحوثا ممهدة، بينما تناولت صميم الموضوع وأضاءت الطريق أمام الباحثين في هذا المجال وكشفت عن عظمة الإسلام .

(الثاني): مبادىء القانون الدولي العام في الإسلام وفيه تناول الشريعة الإسلامية ومنهج الإسلام في المعاملات الخارجية هذا بالإضافة إلى أبحاثه عن (التعريف بالقرآن الذي كتبه باللغة الفرنسية) وقدمه إلى الفكر الغربي ودراسته عن الربا في نظر القانون الإسلامي ودراساته المختلفة عن رأي الإسلام في القتال، و(العبادات) وغيرها .

وقد كانت حياة هذا العلامة الكبير خصبة واسعة الإنتاج، لا تكف عن العطاء،

وهو منذ شبابه الباكر ومنذ أحرز شهادة العالمية ١٩١٦ وقد توجه إلى تعليم اللغة الفرنسية بمجهوده الخاص، آملاً منه في أن يتخذها سلاحًا لخدمة الإسلام قراءة وردًا على ما يقدمه الفكر الغربي، وقد بدأ منذ ذلك الوقت البعيد في الدفاع عن الإسلام ضد هجمات الصحف الأجنبية ومنها جريدة الطان الفرنسية .

ومنذ عام ١٩٣٦ أخذ يستعد للدراسة في أوروبا فسافر مبعوثًا إلى فرنسا حيث أقام بها سنواته الطويلة دارسًا وباحثًا وكاتبًا في أناة وصبر، حيث كتب رسالته عن التعريف بالقرآن وعن الأخلاق في القرآن نال بهما دكتوارة الدولة من السربون بمرتبة الشرف الممتازة عام ١٩٤٧ .

وعن فترة إقامته في باريس: في هذه الفترة:

يقول الدكتور السيد محمد بدوي: كنت مع الطلبة العرب في باريس نلتمس في رحاب الأستاذ الجليل ما نحتاج إليه من رعاية في وقت الشدة وكان هو يجمعنا في منزله في المناسبات الدينية والقومية ليشعرنا بما افتقدناه من جو عائلي يسبق بعدنا عن الأوطان وكنا نجد عنده كرم الضيافة العربية ونستمتع بأحاديثه ومناقشاته في شئون الدين والعلم والسياسة وكان رحمه الله لا يضيق بما نثرثر به من آراء متطرفة أحيانا بل يفندها بروح العالم المستنير، في سماحة ورحابة صدر، ولا يزال بنا حتى يقنعنا بوجهة نظره المستندة إلى البرهان العلمي والمنطقي .

وقد لمست عن كثب الجهود والخطط التي رسمها منذ أمد بعيد لنشر رسالة الإسلام في العالم الغربي فعلمت أنه اتقن الفرنسية إبان طلبه للعلم في الأزهر الشريف استعدادًا لذلك اليوم الذي يقوم فيه بواجبه العلمي والديني. فما أن وطأت قدمه أرض فرنسا حتي بدأ في تحقيق خطته ولم ينتهج الطريقة السهلة التى انتهجها غيره بالشروع في تحضير رسالة الدكتوراه رأسًا بل فضل أن يسير في الطريق الأكاديمي في بدايته، ويفعل ما يفعله طلاب العلم من الفرنسيين الذين يعدون أنفسهم إعدادًا أكاديميًا رصينًا،

فالتحق بالسربون للتحضير لدرجة الليسانس ودرس الفلسفة والمنطق والأخلاق وعلم النفس، وعلم الاجتماع على أيدي أساتذة السربون والكوليج دي فرانس من أمثال ماسنيون وليفى بروفنسال، ولوسن، وفالون، وفوكونيه .

ونجد أثر هذا التكوين العلمي الرصين في رسالته حيث لم يكتف بتوضيح وجهة النظر الإسلامية بل كان يجليها بمقارنتها بآراء المفكرين والفلاسفة، وكان لا يترك مناسبة إلا استعرض فيها رأي عالم من علماء الغرب أو نظرية من النظريات السائدة ثم بين ما في هذه النظرية أو في ذلك الرأي من قصور أو خطأ ويعقب ذلك بيان كمال النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم .

وقد استغرقت كتابة الرسالة (دستور الأخلاق في القرآن) ما يقرب من ست سنوات ويبدو أن العالم الجليل قد شرع فيها في عام ١٩٤١ بعد أن انتهت حملة فرنسا، وعاد إلى باريس بعد سنة أمضاها في بوردو (بجنوب غرب فرنسا) حين اقتربت الجيوش النازية من العاصمة الفرنسية وأصبح سقوطها وشيكا، وإذا أضفنا إلى هذه السنوات الست خمس سنوات قبلها التي أمضاها الأستاذ في التعرف على مناهج العلوم في الغرب وتحضير درجة الليسانس، فإنه يكون قد أمضى ما بين إعداد العدة وتنفيذ مشروعه حوالى أحد عشر عامًا، ولم تكن هذه بالفترة الطويلة إذا قدرنا ما اكتنفها من سنوات الحرب العصيبة، وما أثارته هذه الحرب من مشكلات مادية ونفسية كان الأستاذ يتحمل عبئها ويحاول إبعادها عن أسرته الكبيرة التى صحبته في غربته وأذكر أنه اضطر - أثناء هجوم الحلفاء لتحرير فرنسا - إلى قضاء أيام طويلة مع أسرته في مخبأ تحت الأرض كان يجمع فيه أوراقه التي يحرص عليها ويشتغل وسط القنابل التى كانت تُدوي من حوله على ضوء شمعة أو مصباح خافت .

أولا: العمل الأكبر

ولا ريب أن من أعمال الدكتور دراز يأتي هذا العمل ليتوج هذه الأعمال، وقد قصد هو إلى ذلك قصدًا أن يعلن صيحة القرآن ورسالة الأخلاق في مجتمع الغرب بلغة الغرب وعن طريق رسالة رسمية فوق منبر أعظم جامعاتها:

هذه الرسالة نوقشت في ديسمبر ١٩٤٧ أمام خمسة من أساتذة السوربون والكوليج دي فرانس قدمت نسختها الفرنسية إلى المطبعة عام ١٩٤٨ ومع ذلك فإن ترجمتها العربية لم تظهر إلا بعد ربع قرن من ذلك التاريخ وبعد أن لحق المؤلف بالرفيق الأعلى بأكثر من خمسة عشر عامًا .

والكتاب في الفرنسية (La Moralle du Coron) أي (أخلاق القرآن) غير أن المؤلف كان يطلق عليها في العربية (دستور الأخلاق في القرآن).

ـ أهمية الرسالة :

ويبدو أهمية العمل حقيقة فيما يشير إليه الدكتور عبد الصبور شاهين تلميذه ومترجم الرسالة إلى اللغة العربية : الحق أن المؤلف فيما أرى لم يكن يكتب هذا العمل على أنه مجرد وسيلة إلى هدف، هو نيل إجازة دكتوراه الدولة في الفلسفة من السربون فقد كان بوسعه أن يحقق هدفه بأقل مما بذل من جهد ولكنه كان يحمل في ضميره رسالة هذا الدين، الداعية إلى السلام، في فترة كانت أوربا خلالها، بل العالم كله من حوله، كتلة ملتهبة من الصراع والدماء وأسوأ ما قاد أوروبا والعالم معها إلى ذلك المصير المحزن ـ وهو بلا شك الخراب الأخلاقي الذي ران على وجه الحياة السياسية والاجتماعية والفردية، لدرجة لم يستطع معها رباط المسيحية بين الدول المتحاربة أن يردعها عن التحارب، أو التخارب، إن صح التعبير، و لم يكن الحلفاء في مواجهة هتلر والنازية بأحسن حالا من الوجهة الأخلاقية فانهيار فرنسا أمام الزحف النازي في يوم وليلة إنما كان إنهيارًا أخلاقيًا في جوهره كما لاحظ ذلك بحق المارشال بيتان رئيس

الجمهورية الفرنسية إبان الاحتلال في رسالته التى وجهها إلى ضمير الأمة الفرنسية صبيحة الهزيمة أو عشيتها، والتغير العقائدى الذي سيطر على دول أوروبا باسم العلمانية أو المادية أو الفاشية أو النازية أو الشيوعية هو في الحقيقة خراب أخلاقي إبتليت به الإنسانية وإن تقمص أردية شتى . وسط هذه الخرائب وتحت هدير المدافع والقنابل وضعت هذه الرسالة أشبه بصرخة في وادي الدماء والدموع والفساد والضياع عسى أن ترتد الإنسانية الأوروبية إلى رشدها وتفيد عبرة من تجربتها الأليمة وتختار طريقا أخرى من أجل السلام والخلاص، ولا ريب أن الإسلام هو الحل الأمثل لكل ما تعاني منه الإنسانية: أوروبية أو غير أوروبية من أدواء .

وكأنما كان الدكتور دراز قد أرسل في هذه الفترة بالذات ليبلغ رسالة الإسلام إلى أهل الغرب ومن فوق أعلى منابر الفكر لديهم، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. ومن عجيب أن سمح له بما قال وكتب وعارض من أصول الفكر الغربي ونظرياته التى هي أشبه بالمسلمات وخاصة في مجال دراسات النفس والأخلاق والإجتماع.

وحين تترجم هذه الرسالة إلى اللغة العربية يأتي ذلك في أعقاب الأحداث التى شهدتها أمتنا من هزائم طويلة في وجه الإستعمار والصهيونية والماركسية وحاجتنا إلى صيحة قوية مدوية نلتمس بها أصول فكرنا وقيمنا .

(ثانيًا)

مقارنات الأديان

وفي مجال مقارنات الأديان تنبعث دراسة الدكتور دراز التى تعد عملا جديدًا في الجامعات العصرية وكان قد أدخلها عام ١٩٤٩ لأول مرة في جامعة القاهرة (فؤاد الأول) في برامج كلية الآداب تحت إسم مادة (تاريخ الأديان) لطلبة فرع الاجتماع من قسم الدراسات الفلسفية . وقد عهد إليه أن يقوم بتدريس هذه المادة وفوض إليه أمر الخطة والمنهج: يقول: فرأيت من الخير قبل الدخول في الدراسات التفصيلية لمختلف الأديان أن أقدم بين يديها بحوثا عامة تستبين بها ماهية الدين ونشأته ووظيفته في الحياة إلى أشباه ذلك من الأصول الكلية التى يجد فيها الطالب الجامعي مجالا لاجتهاد الرأي وتدريب ملكة الحكم والتي لم يقدر لها أن تُجمع في كتاب من قبل .

وهكذا تظفر الدراسات الإسلامية ببحث جيد في مجال خصب ينكشف فيه عن حاجة البشرية إلى الدين الحق، وأهمية وظيفته في المجتمع، ومدى أقدمية الديانات في الوجود ومدى أصالتها في الفطرة .

وهو في هذا يناقش كل ما كتبه رجال الفكر الغربي عن الدين مثل أوجست كونت، ماركس، برجسون، ساباتييه، ديكارت، دوركايم ويخلص إلى سلامة الإسلام وقدرته على العطاء وتحرره من عوامل التغيير والتزييف التى تعرضت لها كثير من الأديان المنزلة.

وهو يكشف أخيرًا عن أن المنهج الذي سار فيه دارسو تاريخ الأديان في الغرب يتسم بنقص شديد ومن أبرز عوامل هذا النقص تجريدهم ماهية الدين من فكرتيّ الروحية والإلهية وهم بذلك يكونون قد جردوها من أخص صفاتها ونزعوا عنها المحور الذي تدور عليه كل عناصرها وقد كشف العلامة دراز عن حقيقة جوهر الدين

الإلهي: الذي يقف في جـانب الأمل والإمكان والحريـة والاختبار والذي هو بهذا يخدم العلوم ويمهد لتقدمها ويفسـح المجال أمامهـا في تغيير معالم الأشـياء إلى أبعد مما تتصوره العلوم الواقعية التى هـي بطبيعتها جبرية إلى أقصى حدود الجـبر ميئوسة إلى أبعد حدود اليأس، تعيش يوما بيوم ولا تؤمن إلا بعينها ولا ترى أكثر من طرف أنفها .

ثم هو يكشف في بسـاطة ويسر أن العلم البشري لا يستطيع إطفاء غريزة الدين بل سيزيد إشعالها ، وقد مر وقت طويل على تلك الصيحات التى نادت بأن فناء الديانات سيكون هو النهايـة الحتميـة لتقدم العلوم «لقد أصبح العلـم يؤمن اليوم بأن في الوجود قوى لا ينالهـا الحس المجرد ولا الحس المجهز بـأقوى المجـاهر، المزود بـأدق المقـاييس والموازين، وبالجملـة أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هي المعيار الوحيد للوجود وهكذا وضع بيده اللبنة الأولى في القاعدة التي تقوم عليها الأديان» هذا فضلا عن أن هذه العلـوم لم تكشـف من قوانين الوجود إلا جانبًـا يسـيرًا يمتد من خلفـه عالم فسـيح من الشـواذ والأحوال الفرديـة التى لا تضبطهـا قـاعدة ولا قـانون. وإننا نقول بلسان علوم الطبيعـة نفسها أنـه لم يوجد ولن يوجد فيهـا قانون عام واحد يعتمد على منهج تجريبـي يقيـني شامل، ذلك أنـه مهما تتكرر التجربة وتتنـوع الأمثلة فإنها كلها أحداث معينـة تقـع في أزمنـة معدودة وأمكنـة محدودة، ويظل بين جملتهـا وبين منطوق القانون الكلي، الـذي لا يحده زمان ولا مكان ، بـرزخ عريض يفصل ما بين النهائي و«الـلا نهائي» وأنـه لكـي يسـد العلم هذه الفجـوة يلجأ دائمًـا إلى وسـيلتين من الرفو والترقيع، ينســـج خيوطهما مـن مقايسـة ذهنية تعتمد على محض الظن والتمنى : أما (أُولاهمـا) فإنـه يمد بين كل معلمـة ومعلمـة من معالم التجربـة الفعليـة جسـورًا وهمية قصيرة يفـترض فيها أن الحلقات المفقودة التـى لم تسجلها المشـاهدة تنتظم في سلك مع الحلقات الـتي سـجلتها ، أما في (أُخراهمـا) فإنه مـن وراء تلك السلسـلة كلها يثب في عالم الغيـب الزماني والمكاني وثبـة هائلـة يفترض فيهـا أن المناطق التى لم ير منهـا شيئًا شـبهه بالمنطقـة التى رأى بعضها، وهذا معنـاه أن كل تفسـير للآثـار بأسـبابها الطبيعية

يحمل في نفسه جرثومة نقصه وعجزه، ومعنى هذا أن التفسيرات الطبيعية بين نارين: فهى إما أن تقف بنا معترفة بعجزها وإفلاسها وتتركنا ظمأى لا تنقع لنا غلة وإما أن تسعى إلى الوفاء والكمال وهكذا تلتقي العلوم العقلية والطبيعية العملية منها والنظرية على الاعتراف بأنها في استقصاء البحث عن أصول الأشياء ومبادئها تنتهي دائمًا بالانتصار لقضية الغيب وتفسح بيدها المجال لبقاء الأديان وخلودها.

وهكذا نجد الإيمان الرباني الإسلامي ينطلق في قنايا البحث العلمي على نحو هادئ وجاد ومتماسك على نحو لم يعرف لكثير من الدارسين في الحقل الإسلامي.

ثالثًا: القرآن

أن مدار أبحاث الدكتور دراز كلهـا ترجع إلى أصل واحد هو (القرآن) وهي في محاولتها الاتصال بالفكر الحديث إنما تريد أن تكشف عن نظرة القرآن ومنهجه في كل ما تصل اليه سواء في مجال الأخلاق أو مقارنات الأديان، أو الاقتصاد ، أو القانون ، فالقرآن هو المحور الضخم الذي يعتمد عليه الدكتور دراز ويدور حوله ويستقصي له ويستصفي كل ما يجد من العلوم الإسلامية، أو مقارنا به النظريات الغربية، وهو حين يقدم الإسلام للغرب يقدمه في أسلوب رائع وتعبير محكم من شأنه أن يلقى قبولاً في العقل الغربي الذي ألف الأسلوب العلمي بوسائطه ومصطلحاته: يقول:

«أن القرآن الذي أعلن على العالم بصوت محمد ﷺ لمعجزة ، بل أنه المعجزة. كل شيء يبرهن على ذلك، أسلوبه ومحتوياته والأحداث غير المألوفة التي أنزل بها وبها لقنت آياته ودونت كلماته ثم مطابقته الدائمة لحقائق الماضي والحاضر والمستقبل، وميزة تساميه وترفعه مما لا يدل أبدًا على أثر لرجل أو مجتمع واحد أو حقبة من التاريخ أو منطقة معينة من الكرة الأرضية.

وليس القرآن حدثًا عابرًا في التاريخ يظهر يوما ويختفي في اليوم التالي، ولا شيئًا يتناقله الرواة وحدهم بشيء من الصدق قل أو كثر، كلا، بل أنه لحقيقة ثابتة راسخة باقية على مر العصور وكر الدهور دون أن يطرأ عليها تغيير أو تبديل وستظل مثار إعجاب جميع الناس الذين به يتأملون وفيه يفكرون» .

هذا أسلوب عربي ولكنه في الواقع كتب بالفرنسية وقصد به أن يقدم للعقل الغربي مفهوما للقرآن بعيدًا عن أساليب البيان العالية، وبعيدًا عن المبالغات وفي دقة تلتمس إعطاء هذا العقل ما يتطلع إليه في فهمه لأمور غيبية، جلاها الدكتور دراز بأصفى أسلوب وأدقه :

وأنظر مثلاً: ما يقول تحت عنوان كيف ينظر المسلمون إلى القرآن والنبي ﷺ :

(أن القرآن عمل إلهي صِرف وصلت نصوصه إلى العالم على يد رسول من السماء هو الروح الأمين جبريل الذي أودع القرآن في قلب محمد ﷺ ، وقد اقتصر دور محمد ﷺ على تلقي الوحي وتعلمه وتدوينه ثم تبليغه للناس وشرحه وتطبيقه، ولم يكن لمحمد ﷺ أن يتخطى ذلك أو يتجاوزه بأيّ حال من الأحوال، أو يُجري في القرآن أي تغيير أو تعديل مهما كان، لا هو ولا أي واحد من المؤمنين يمكنه تناول أي عمل من غير صنع البشر بالبحث والنقاش أو المعارضة والمناقضة في ضوء أحداث الماضي أو الحاضر أو المستقبل .

أما القرآن ـ وهو كلمة الله ـ فهو الكمال بعينه وهو الحق الذي لا مراء فيه والصواب المعصوم من الخطأ والزلل وأنه الخير والجمال الذي لا يُضاهى .

ولم يكن محمد ﷺ ـ وهو نبيُّ الله ـ سوى إنسان من البشر، أنه لم يكن إلها عظيمًا ولا إلها صغيرًا حتى ولا شبه إله ولا مساعد إله . لم يكن بقادر على نيل الخير وحده أو تجنب الشر إلا بإذن الله وهذا الكثير مما عرفه النبي ﷺ من الماضي والمستقبل إنما أنزل إليه من رب العالمين، وما كانت أحكامه معصومة إلا إذا كان الوحي يؤيدها ولكنه كان يتميز عن بقية الرسل بشمائل وفضائل فطرية ممتازة وبالعلم الإلهي الذي وهبه الله له وامتاز بشرف رسالته، أنه رأس المؤمنين قاطبة، ولما كان هو المفسر الأمين والمثل الحي للقرآن فإننا ندين له بالطاعة والولاء والحب والإجلال، والقرآن يحثنا على معاملته باحترام وتبجيل خاص. وهكذا يمضي الدكتور دراز في تصوير الإسلام والقرآن ومحمد ﷺ في رسالته (مدخل إلى القرآن الكريم) داعية موقنًا مؤمنًا مدققًا .

وهو يحاول أن يقدم القرآن والإسلام إلى العقل الغربي في صدق[1]: فالإسلام في معناه الحرفي هو الإيمان بالله والخضوع للإرادة الإلهية وهو بهذا المعنى لا يتعارض مع

(١) من تلخيص الدكتور السيد محمد بدوي (مقدمة كتاب مدخل إلى القرآن الكريم) .

اليهودية ولا مع المسيحية وأنه يدعو للإيمان بجميع الكتب المنزلة وجميع الأشياء إيمانًا يضمهم جميعًا بتقديس واحد دون التمييز بين أي منهم ، والإسلام من هذه الناحية ليس دعوة جديدة ولا حتى إصلاحا وإنما مجرد دعوة إلى الوحدة الأصلية. إنه الدين الأوحد الذي لم يأل الرسل جهدًا في الدعوة إليه منذ نوح وإبراهيم حتى موسى وعيسى عليهم السلام .

هذا فيما يتعلق بالحقيقة الدينية ولا يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالقانون الأخلاقي، فقد أقام جميع الرسل ميزان العدل وكلهم أمروا بأن يفعلوا الخير ويحثوا على الخير، ولقد سن الصلاة والزكاة كل من إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وموسى وعيسى، كما كتب الصوم على الأمم السابقة، وشرع إبراهيم فريضة الحج ولقد أدان كل من هود وصالح حب قومه للأموال والمتع الدنيوية والعدوان والفساد، وقاوم لوط انحلال قومه وانغماسهم في الرذيلة، وقاوم شعيب الغش في التجارة، فجميع الناس مرجعهم إلى الله وستعرض عليه أعمالهم في الدنيا سواء في ذلك الرسل أم الشعوب التى أُرسلوا إليها وفضلاً عن احياء السلوك القديم والتضامن الفكري الذي يجمع بين رسل الله جميعًا، فإن القرآن يذكر دائمًا في كلا المجالين العقيدي والعملي ما في نفس الإنسان من عنصر مشترك: هو الحكم الفعلي والسليم الذي يُميز به الإنسان : الخير والشر وهكذا نرى أن الدعوة القرآنية دعوة عالمية في هدفها، وهي عالمية أيضًا في أسلوب ووسائل الإقناع التي يتبعها القرآن لتحقيق هذا الهدف السامي وهكذا نجد الدكتور دراز يرسم للإسلام صورة عصرية رائعة قائمة على الأسس الجوهرية، التي جاءت بها كتب السنة ثم لا تتوقف عند هذا بل يمضي ليدرس الاعتراضات والشبهات المثارة حول كل قضية من هذه القضايا وما أكثرها في كتب المستشرقين والفلاسفة الغربيين «ويرد عليهم بحجج عقلية من نوع حججهم فيكون في ذلك أبلغ الرد عليهم وخير وسيلة لهدم دعاويهم» .

يقول : لقد بحثنا، مسترشدين بالوقائع التاريخية: افتراض وجود مصدر بشري لتعاليم القرآن، فتتبعنا مؤسس الإسلام في مراحل حياته المزدوجة: الحياة العادية وحياة الرسالة، في مسقط رأسه أو في موطنه الأخير، في رحلاته، في اتصالاته وتعرضنا لقدرته على القراءة ولمدى توفر الوثائق تحت يده، فجميع سبل البحث التي وقعت تحت أيدينا وناقشناها ثبت ضعفها وعدم قدرتها على تقديم أي احتمال لطريق طبيعي أتاح له فرصة الاتصال بالحقائق المقدسة وهو في هذا يرد على جولد سيهر وماسنيون ونولدكه وسان هيلر ومرجليوت وكل الذين حاولوا إثارة الشبهات حول الرسول ﷺ والقرآن والإسلام، وهو في الختام يقول: إذن مهما بذل المغرضون من محاولات لتجميع نقط التشابه بين الحقائق القرآنية والحقائق اليهودية والمسيحية، سنقول: جهد ضائع، بل إن ذلك سيكون معناه بالحرف الواحد اصطناع أسلحة تفيد منها المبادئ القرآنية.

حقق الدكتور دراز كل هذه النتائج خلال رحلته إلى الغرب فلما عاد انتُدِبَ لتدريس تاريخ الأديان بجامعة القاهرة وحصل على عضوية جماعة كبار العلماء عام ١٩٤٩ ثم نُدب لتدريس التفسير بكلية دار العلوم واللغة العربية بالأزهر وتدريس فلسفة الأخلاق في كلية اللغة العربية .

وفتح الرجل بذلك صفحات جديدة من البحث وأضاف إضافات جديدة إلى الجوانب التي حررها وكشف عنها دفاعًا عن الإسلام وتحقيقًا لربانيته في مواجهة كل ما يثار حوله من شبهات ولكن العمر كان قد اقترب من النهاية فإنه لم يبق بعد عودته أكثر من تسع أعوام مشغولاً بشئون علمية نيطت به على عجل منها هذه التي ذكرنا ومنها اشتراكه في اللجنة العليا لسياسة التعليم والمجلس الأعلى للإذاعة ، فضلا عن اشتراكه في عدد من المؤتمرات الدولية والعلمية ممثلا لمصر والأزهر ، وكانت إحدى رحلاته إلى باكستان لحضور المؤتمر الإسلامي في مدينة (لاهور) في يناير ١٩٥٨ وقد ألقى هناك بحثًا عن (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها) ثم

وافاه الأجل المحتوم أثناء انعقاد المؤتمر. وبذلك استكملت حياة خصبة قدمت ما أذن الله لها أن تقدم من عطاء في مجال الثقافة الإسلامية .

ولقد كان الدكتور دراز يطالعنا في صباحيات بعض الأيام بأحاديثه في الإذاعة بذلك الإلقاء الخافق الحلو، وذلك النسق العالي الذي يجمع السورة الواحدة في كل ثم يعرضها في مراحلها المختلفة التى يسلم بعضها إلى بعض لتصل في النهاية إلى الغاية وذلك نهج تفرد به في هذه المرحلة وحقق به نتائج رائعة .

ومما قاله في عرض سورة البقرة قوله: أرأيت وحدتها في كثرتها، أعرفت اتجاه خطوطها في لوحتها، أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها، وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها، أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وطرفها، لا أقول أحسن دمية بل أجمل صورة حية، كل ذرة في خليتها، وكل خلية في عضوها، وكل عضو في جهازه، وكل جهاز في جسمه، ينادي بأنه قد أخذ مكانه المقسوم وفقا لخط جامع مرسوم، رسمه مربي النفوس ومزكيها، ومنور العقول وهاديها، ومرشد الأرواح وحاديها ، فتالله لو أن هذه السورة رتبت بعد تمام نزولها لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة وكيف وكل نجم منها ـ كسائر النجوم في سائر السور ـ كان يوضع في رتبته من فور نزوله، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظارًا لحلوله، وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة محدد الموقع قبل أن ينزل، ثم كيف وقد اختصت من بين السور المعجمة بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام بل بتسعة أعوام، لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات وفي أساليب ترتيبه معجزات وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية، معجزات ومعجزات، لعمري أنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات .

هكذا نرى الدكتور دراز يهدر وهو يتحدث، من قلب مؤمن، وعقل مفكر،

فتحس أن رجلاً احتضن فكره وقلبه القرآن فخفق بـه وتعمق فهمه ومنحه الله فيضًا من تفسيره وعطائه .

وبعد فلقد ظلـت آثار الدكتور دراز بعيدة عن الظهور فـترة طويلة. ولكننا نراها في السـنوات الأخيرة قـد بدأت تطبع وتوضع في أيدي الباحثين فيعرف قدرهـا قراءها وما تزال تتـوالى لتكمل حلقـة هذا العمـل الكبير لِعَلَـم من أكـبر أعلام الفكر الإسـلامي في العصر الحديث (توفي يناير ١٩٥٨) .

الدكتور محمد عبدالله دراز
من أعلام مدرسة الإمام محمد عبده
في التفسير الموضوعي للسورة القرآنية(*)

بقلم / أ. د. عبد الغفار عبد الرحيم

من أعلام مدرسة الأستاذ الإمام البارزين ومن أقدرهم على فهم منهجه والعمل على هديه حيث ترجم ذلك في رسالته للدكتوراه التى اشتملت على بحثين عظيمين كل منهما يصلح بمفرده أن يكون رسالة .

البحث الأول: «دستور الأخلاق في القرآن». والثاني «مدخل إلى القرآن الكريم» وأنت عندما تصحبه في بحث من بحوثه ترى نمطًا فريدًا وصياغة جديدة وتحليلا بديعًا وتفهمًا بصيرًا لكل ما يأتى وما يدع . فضلا عن البيان الساحر والأسلوب الأخاذ في عبارة رشيقة أنيقة لا تجمل فيها ولا تكلف .

ولقد نهج في دراسة القرآن منهج الأستاذ الإمام وعلى الأخص في الوحدة الموضوعية أو التفسير الموضوعي يقول الدكتور دراز : « وقبل أن نترك هذا الفصل ينبغي أن نركز بعض الجهد على نقطة غفل عنها جميع المستشرقين فضلا عن بعض علماء المسلمين وهي طريقة القرآن الكريم في معالجة أكثر من موضوع في السورة الواحدة .

فعندما لاحظ بعضهم بنظرته السطحية عدم توافر التجانس والربط الطبيعي بين المواد التي تتناولها السورة، لم ير القرآن في جملته إلا أشتاتا من الأفكار المتنوعة عولجت بطريقة غير منظمة . وبدون أي ربط منطقي بينها . بينما رأى البعض الآخر أن علة

(*) الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير ـ للدكتور عبد الغفار عبد الرحيم . دار الأنصار بالقاهرة .

هـذا التشـتيت المزعوم ترجع إلى الحاجـة إلى تخفيف المَلَل النـاتج من رتابـة الأسـلوب، والحزن المترتب على تكرار النغمة مما يتنافى مع المثالية في الأسلوب العربي.

وهناك فريق آخـر لم ير في الوحدة الأدبية لكل سـورة وهو ما يسـتحيل نقله في أية ترجمة ـ ألا نوعًـا من التعويض لهذا النقص الجوهري في وحدة المعنى. وفريقٌ آخر يضم غالبية المستشـرقين رأى ـ وهو يهدف إلى تبرئـة الرسول ﷺ الذي قـدم كل سورة من القرآن على شـكل وحـدة مسـتقلة ـ أن هـذا العيب يرجع إلى الصحابـة الذين جمعوا القرآن وقاموا بهذا الخلط عندما جمعوا أجزاؤه ورتبوها على شكل سور .

إن هذه التفسيرات لا تبـدو صالحة للأخذ بها . إذ أن السنة والأثر الصحيح متفقان على أن السـور كـانت بالشـكل الـذي نقرؤها بـه اليوم. وبتركيبهـا الحالي منـذ حياة الرسول ﷺ إذ قد يرجع السبب إلى عيب أصيل لا تكاد تجد معه التبريرات السابقة إذا كـانت حقا وحدة السـورة لا تعدو أن تكـون سلسـلة من الحروف والصوتيات تُخفي تشتيتا وتفرقا جوهريا في المعنى ، وتترك فواصل لا يقبلها المنطق في ميزة الأفكار وتقفز قفزات مفاجئة في السورة عند الانتقال من موضوع إلى موضوع جديد .

فعندما نريد أن نقدر جمـال لوحـة مرسومة لا ينبغـي أن نحصر نظرتنا في جزء ضيق منها حيث لا نجد إلا ألوانًا متنوعة تتجاور أو تتنافر أحيانا. بل يجب أن نرجع قليلا إلى الوراء . ليتسـع مجال الرؤية ونحيط بالكل في نظرة شـاملة . تستطيع وحدها أن تلاحظ التناسـق بين الأجزاء والتوافق في التركيب . فبمثل هذه النظـرة ينبغي دراسة كل سورة من سـور القرآن الكريم لنقـدر أبعادها الحقيقيـة ولقد قمنـا في الماضي أثنـاء تدريسـنا بجامعـة الأزهر ـ بتطبيـق هذه القـاعدة في دراسـة لإحدى السـور المدنيـة (هي سـورة البقرة) ولسورتين مكيتين (وهما سورتي يونس وهود) .

و لم يكن اختيارنـا لهـذه السـور عن قصـد. وإنما كـانت كلهـا مقررة في البرنـامج الدراسـي فـالواقع أننا وجدنـا أكثر ممـا كنا نتطلب من بحثنـا، فقد كنـا نبحث عما إذا

كان هناك نوعٌ من الترابط في الأفكار التي تتناولها السورة الواحدة. ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطًا حقيقيًا واضحًا ومحددًا يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة .

فتوضيح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي سنعالجه في خطوطه الرئيسية ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتداخل فيه جزء مع جزء آخر. وإنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة. وأخيرًا تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة(1) .

ثم هو يوضح نفس الفكرة ولكن بأسلوب آخر ومناسبة أخرى يقول: واعلم أنه ليس من همنا الآن أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التى تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض. فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير. ذلك ولو نشاء لأريناك في القطعة الواحدة منها أسبابا ممدودة عن أيمانها وعن شمائلها تمت بها إلى الجار ذي القربى والجار الجنب في شبكة من العلائق يحار الناظر إلى خيوطها مع أيها يتجه ولا يدري أيها هو الذي قصد بالقصد الأول. وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضا واحدًا نرسم به خط سيرها إلى غايتها، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها . لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى .

بَيْدَ أننا قبل أن نأخذ فيما قصدنا إليه نحب أن نقول (كلمة) ساق الحديث إليها: وهي أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه. فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء وجزء منه - وهي تلك الصلات المبثوثة في مثاني الآيات ومطالعها ومقاطعها - إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها . وضبط مقاصدها على وجه

---

(1) مدخل إلى القرآن الكريم د. محمد عبدالله دراز ص ١١٨ - ١١٩ .

يكون معوانا له على السير في تلك التفاصيل عن بينة. فقديما قال الأئمة:

(إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره - ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. وأنه لا غنىً لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها . كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية)[1] .

نماذج من تفسيره:

لقد تشبع الدكتور دراز بفكرة التفسير الموضوعي أو الوحدة الموضوعية وطبقها في جهوده القرآنية حتى لتحس وأنت تدرسها بأنك على مقربة من العهد الذي تبلورت فيه وهو عهد الأستاذ الإمام وها هو الدكتور دراز يعرض علينا منهجه في تفسير سورة البقرة لتقف منه على تكامل النسق القرآني في وحدة موضوعية متكاملة .

يقول (وملاك الأمر في ذلك أن تنظر إلى النظام المجموعي الذي وضعت عليه السورة كلها كما وصيناك به من قبل. ونحن ذاكرون لك الآن نموذجًا منه ولو وضعته نُصب عينيك واحتذيته في سائر السور لكان لك نعم الدليل في دراستك وبا لله التوفيق).

(نظام عقد المعاني في سورة البقرة) :

إعلم أن هذه السورة على طولها تتألف وحدتها من : مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة على هذا الترتيب:

(المقدمة) :

في التعريف بشأن هذا القرآن وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حدًا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم. وإنما يُعرض عنه من لا قلب له أو من كان في قلبه مرض.

---

(١) النبأ العظيم - د. محمد عبد الله دراز ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(المقصد الأول) :

في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.

(المقصد الثاني) :

في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.

(المقصد الثالث) :

في عرض شرائع هذا الدين تفصيلا.

(المقصد الرابع) :

ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها .

(الخاتمة) :

في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم[1] .

ثم أخذ يفصل في هذه الأقسام التى ذكرها ويوضح علاقة كل منها بموضوع السورة ويتحدث عن المقصد الثالث من مقاصد السورة الذي يشتمل على ست ومائة آية يقول: بعد إرساء الأساس تكون إقامة البنيان بعد الاطمئنان على سلامة الخارج يجيء دور البناء والإنشاء في الداخل .

نعم لقد تم (إصلاح العقيدة) التى هي روح الدين وجوهره. فليبدأ (تفصيل الشريعة) التى هي مظهر الدين وهيكله .. لقد أزيلت شبهة المعاندين وأقيمت الحجة عليهم فلم يبق إلا إنارة السبيل للسالكين وإيضاح الحجة بين أيديهم . كانت العناية

(١) النبأ العظيم ص ١٥٨ .

من قبل موجهة إلى بيان (حقائق الإيمان) فلنتوجه الآن إلى بسط (شرائع الإسلام)[1] .

ويظل يشرح ويحلل الآية تلو الأخرى ويعنى بالحديث عن آية البر كآية جامعة ثم يفصل الكلام في العلاقة بين الرجل والمرأة زواجًا وطلاقًا ورجعة وعدة وخُلعًا ورضاعًا.. الخ .

إلى أن يصل إلى قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(البقرة : ٢٣٧) .. يقول (فهذه لو تدبرت معبرة ذهبية وضعت في وقت الحاجة إليها بعد أن إستطال الحديث في تفصيل الحقوق والواجبات المنزلية معبرة جيء بها لتنقلها من ضوضاء المحاسبة والمخاصمة إلى سكون المسامحة والمكارمة فكانت معراجًا وسطا صعد بنا إلى أفق أعلى . تمهيدًا للعروج بنا فيما يلي إلى الأفق الأعلى .. ألا تسمع إلى هذه الكلمات : ﴿وَلاَ تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ .

ولا تنسوا .. الفضل .. بينكم .. أن كل حرف في هذه الكلمات ينادي بأنها كلمات حبيب مودع كان قد أقام بيننا فترة ما . ليفصل في شئوننا ثم أخذ الآن يطوي صحيفة أحكامه . ليتحول بنا عنها إلى ما هو أهم منها، فقال لنا وهو يطويها: دعوا المشادة في هذه الشئون الجزئية الصغيرة سووها فيما بينكم بقانون البر والفضل الذي هو أسمى من قانون الحق والعدل .. وحولوا أبصاركم معي إلى الشئون الكلية الكبرى التى هي أحق بأن يتوفر عليها العزم والقصد. وأحرى أن يشتغل بها العقل والقلب ..نعم ، نعم لقد كفاكم هذا الحديث عن حقوق الزوج والولد، فاستمعوا الآن إلى الحديث عن حقوق الله والوطن :

حافظوا على الصلاة .. أنفقوا في سبيل الله .. جاهدوا في سبيل ا لله .. (وبعد) فهل الحديث عن الصلاة هنا يعتبر مقصدًا أصليًا مستقلا أم هو جزء من مقصد آخر ..

لكي نحسن الجواب عن هذا السؤال : يجمل بنا أن نرجع البصر مرة أخرى، لننظر

(١) النبأ العظيم ص ١٩١ .

في جملة الخصال التي جمعت في آية البر، والتى فصلت في الآيات من بعدها إلى قرب آخر السورة . ولنقارن بين حظوظها من عناية الذكر الحكيم فماذا نرى .. نرى التنويه يقتضي الإنفاق والجهاد في سبيل الله، لا يزال يعاد ويردد في مطالع الحديث ومقاطعه في إجماله وفي تفصيله ترديدًا ينادى بأنه هو المقصود الأهم: والهدف الأعظم من التشريع في هذه السورة.. فلو أننا في ضوء هذا الأسلوب تمثلنا تلك البيئة وأحداثها وتمثلنا القوم وهم تتلى عليهم شرائع هذه السورة وأحكامها لتمثلنا معسكرًا ثابتًا للجهاد المزدوج . المالي والبدني ولتمثلنا على رأس هذا المعسكر قائدًا يقظًا حريصًا.. لا يعزب عنه شأن من شئون جنوده خاصها وعامها، ولا يفتأ يلقي عليهم أوامره وإرشاداته في مختلف تلك الشئون كلما فرغ من افتائهم في نوازلهم «العارضة الوقتية». رجع بالحديث إلى مجراه العتيد في شأن مهمتهم الرئيسية .

ضع هذه اللوحة المبدئية أمام عينيك .. فلن يكون عندك عجبًا أن ترى الحديث في شأن الجهاد يبرز الآن على إثر تلك الشئون. وذلك أن بساطه كان أبدًا منشورًا وأن داعيته كانت دائمًا قائمة .. فإذا عاد ذكره بعد أن زال ما حوله من الشواغل الوقتية فإنما يجيء على أصله وسجيته فلا يسأل عن علته .

ماذا نقول: ونحن نعني ما نقول: أن الحديث يعود الآن إلى شأن الجهاد وأن الخطاب هنا بالصلاة وغيرها يتوجه إلى المجاهدين من حيث هم مجاهدون ليحل المشاكل التى يثيرها موقف الجهاد نفسه قبل أن يوجه إليهم الأمر الصريح بالقتال.. فأول هذه المشاكل مشكلة الصلاة في الحرب : ألا يكون الجهاد رخصة في إسقاط هذا الواجب أو في تأجيله.

يجيبنا الكتاب العزيز: (لا رخصة في ترك الصلاة ولا في تأجيلها لا في سلم ولا في حرب . لا في أمن ولا في خوف ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ وإنما الرخصة عند الخوف في شيء واحد: في صفات الصلاة وهيآتها ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا

أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٣٩) .

والصلاة كما نعلم قوة معنوية على العدو وعدة من عدد النصر لا جرم كان من الحكمة أن تزود بها أرواح المجاهدين قبل أن يؤمروا بالقتال أمرًا صريحًا .

والصلاة في نفس الوقت طهرة للنفس من مساوئ الأخلاق تنقيها من دنس الشح والحرص على حطام الدنيا . لا جرم من الحكمة كذلك جعلها دعامة للوصية الآنفة التى أمرتنا بالتسامح والتكارم في المعاملات .

هكذا كان وضع حديث الصلاة مزدوج الفائدة: دواءً وغذاءً معًا. ينظر إلى الأمام وإلى الوراء جميعا بل قل أنه مثلث الفائدة لأنه في نظره إلى الخلف لا ينظر إلى الآية الآنفة وحدها. بل ينظر كذلك إلى الآية الجامعة ليفصل إجمالها في هذا الجانب[1] .

وهو من ناحية أخرى في كتابه (دستور الأخلاق في القرآن) يقدم أجل خدمة للمنهج القرآني في دراسة الأخلاق سد به في المكتبة الإسلامية فراغا لم يملؤه أحد.. يقول الدكتور دراز (رحمه الله): (بيد أننا بالرجوع إلى مكتبتنا الإسلامية نفسها لاحظنا أنها لم تعرف حتى الآن سوى نوعين من التعاليم الأخلاقية: فهي إما نصائح علمية هدفها تقويم أخلاق الشباب. حين توحي إليهم الاقتناع بالقيمة العليا للفضيلة. وإما وصفٌ لطبيعة النفس وملكاتها ثم تعريف للفضيلة وتقسيم لها مرتب في غالب الأمر بحسب النموذج الأفلاطوني أو الأرسطى وكثيرًا ما نرى المنهجين يتعاقبان في قلم كاتب واحد . وإذن فلم يكن هناك سوى كتب إنسانية محضة أُجهد مؤلفوها أنفسهم.. فاستودعوها ثمرات تأملاتهم ودراساتهم الفلسفية و لم يظهر فيها النص القرآني كلية . أو هو لا يكاد يظهر إلا بصفة ثانوية .

فلم تكن الأخلاق القرآنية إذن الموضوع الرئيسي للدراسة والتقنين لدى المسلمين أو المستشرقين لا من الناحية النظرية ولا من الناحية العملية ونحسب أن من الواجب أن

---

(١) نفس المصدر ص ١٩٩ - ٢٠٢ .

نضيف بعض التحديد إلى هذا التـأكيد المزدوج ليصبح أكثر دقـة ويخلص من كل لبس أو غموض .

ثم بدأ يوضح منهجـه في البحث تحت عنوان : (تقسـيم ومنهج) فقـال: (نحن نسير تحت لفظة (القانون الأخلاقي) كما يميز جميع الباحثين تحت إسم الجنس فرعين مختلفين هما : النظرية والتطبيق .

والواضح أن دراستنا للنص القرآنـي قد أوحت إلينـا لا بوجود هذين الفرعين لعلم الأخلاق في القرآن فحسـب، بل لقد كشفت لنا عن أن الصورة التى جاءت بها بلغت درجة من الكمال لا ينبغي وراءها شيء .

الجانب العملي: وقد بحثنا في رسـالة حديثة النشـر. الأخلاقيـة العملية في القرآن في علاقتها بالحكمـة القديمة. واستطعنا أن نكشـف فيها عن ثلاث خصائص نوجزها فيما يلي:

فالقرآن ـ من حيث كونه حافظًا لما سبقه واستمرارًا له ـ قد تميز عنه بذلك الامتداد الرحب الذي ضم فيـه جوهر القانون الأخلاقي كلـه ، وهو الذي ظل متفرقا في تعاليم القديسين والحكماء .. من المؤسسـين والمصلحين. الذين تباعد بعضهم عن بعض زمانا ومكانا وربما لم يترك بعضهم أثرًا من بعده يحفظ تعاليمه .

ولعل هذا الجـانب هو السـمة البارزة مـن سمات القرآن وإن لم تكـن أثمن سماته ولا أصلها .

وإنمـا تبدو أصالـة هـذا التعليم الأخلاقي في أجلـى صورها في طريقتـه التي سـلكها لتقديـم تلك الدروس المختلفـة عن المـاضين وتقريبها بحيـث يصوغ تنوعها في وحدة لا تقبل الإنفصـام ويسـوقها على اختلافها في إطـار من الاتفاق التـام وذلك لأنـه بدأ بأن نـزع عن الشرائع السـابقة كل مـا كان في ظاهر الأمـر إفراطًا أو تفريطًا وبعد أن حقق وضع التعـادل في ميزانهـا الذي كـان يميـل تـارة إلى جـانب وأخـرى إلى جـانب آخر

ودفعها جميعها في اتجاه واحد ثم نفخ فيها من روح واحدة بحيث صار حقًا أن ينسب إليه بخاصة مجموع هذه الأخلاق[1] .

حتى وصل إلى تحديد أكثر للجانب النظري والعملي في الأخلاق وصلة ذلك بالقرآن فقال: (والحق أن القرآن لم يقتصر على الملكات العقلية وحدها فلقد عُنِيَ في الوقت نفسه عناية كبيرة بإيقاظ أشرف مشاعرنا وأزكاها بيد أنه لم يحرك هذه المشاعر إلا تحت رقابة عقلنا فهو يتوجه إلينا دائمًا . أعني يتوجه إلى ذلك الجانب المضيء من أنفسنا إلى ملكتنا القادرة على أن تفهم وأن تقدر في كل شيء ما يضر وما ينفع وأن تقوم القيم المختلفة .

ومن المشاعر السامية التى حركها القرآن فينا ـ نذكر على سبيل المثال ما جاء فيه دعما لسائر واجباتنا الاجتماعية بالمعنى الأوسع لكلمة (مجتمع) ألا وهو الشعور بالأخوة الإنسانية ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣) .

﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (النساء : ١) .

ولقد تجلى هذا الشعور حين قدم لنا القرآن في صورة عاطفية مؤثرة مشهد الفزع الذي ينبغي أن يزعجنا عن اغتياب الآخرين فشبه المغتاب بمن ﴿يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ثم يضيف ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢) ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُون﴾[2] .

ويتحدث في الفصل الثاني في أسلوب علمي غاية في الدقة والاتقان عن المسئولية كفكرة من أفكار النظرية الأخلاقية وعلاقة ذلك بالقرآن مع المقارنة بالنظريات الأخرى، ودعني أعرض عليك أرفع نموذج من هذا التحليل البديع .

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن د. محمد عبد الله دراز ص ٢ ـ ٨ ط البحوث العلمية بالكويت ومؤسسة الرسالة بيروت .

(٢) نفس المصدر ص ٢٩ ـ ٣٠ .

يقول: تحت عنوان: شروط المسئولية الأخلاقية والدينية :

(الطابع الشخصي للمسئولية: أول ما يجب ذكره هو أن المسئولية الأخلاقية والدينية شخصية محضة . ولسوف يكون من باب الإطالة أن نذكر جميع النصوص القرآنية التىتقر هذا المبدأ الأساسي ولذا نجتزئ بعضها . وهي التي تنص على هذه الحقيقة في ألفاظ تامة الوضـــوح. قوله تعالى في آيات: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة : ٢٨٦) ، ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (النساء:١١١) . ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الإسراء: ١٥) .

﴿لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ (لقمان: ٣٣) ، ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ (غافر١٧) ، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ (الأحقاف: ١٩) ، ﴿وَأَنْ لَيْـــسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ (النجم: ٣٩).

وينتج من هذا كله بوضوح أن الثواب والعقاب لا يمكن أن يتأتى فيهما أي تحويل أو امتداد أو اشـتراك أو التباس حتى بين الآباء والأبناء وإذا كان آباؤنا وأجدادنا مسئولين.

مثلا من الأمثلة التي لقنوها لنا والعادات التي أخذناها عنهم. وإذا كنا مسئولين عن الطريقة التي استعملنا بها هذه التركة فلا يجب مطلقًا أن نتحمل معهم وزر ما عملوا ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة : ١٣٤) .

وهكذا مُحيت بجرة قلم صعوبة الخطيئة الأصلية: فالقرآن لم يرفض فقط أن تنسحب خطيئة الإنسان الأول على كل الناس. ولكن هذه الخطيئة في القرآن لا ترتدى هذه الصفة الدنيوية التي تخصها بها الديانة المسيحية فإن آدم لم ينقاد للخطيئة لخبث في طبيعته أو سوء في إرادته وليس يكفي أيضًا أن يقال: أنه إنقاد لإغراء قوى. بل يجب أن نضيف تبعًا للقرآن أن هذا الإغراء لم يكن في جوهره ذا طابع مادي. فإن

وجدنا الأول قد خدعته كلمات عدو أقسم له تأكيدًا لكلامه، وزعم أنه ينصحه، فاعتقد بسذاجته أنه حين يأكل الفاكهة المحرمة. فربما يصبح نقيًا كنقاء الملائكة خالدًا كخلود الإله . ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾(الأعراف: ٢١) .

﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠) .

ويا لها من غلطة نبيلة فمن ذا يطيق ألا يبالي بمثل هذا إذا كان ملتزما بأوامر الضمير ولكنه الوهم الكاذب الذي زينه لعينه ذلك الناصح المنافق. وعلى الرغم من أنه كان منذ البداية محصنا ضد المكائد المحتملة من عدوه. فقد نسي الإنسان الأول وجاءت اللحظة التي لم يجد لنفسه فيها إرادة صامدة.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٥) .

ومع ذلك فهذا النسيان لا يعتبر بالنسبة إليه عذرا مقبولا كما أن النية الطيبة لا تشفع له كذلك لأن النسيان لم يكن للأمر في ذاته بل للهدف منه. وأيا ما كانت الدوافع النبيلة وراء المخالفة فإنها لا يمكن أن تعفينا من التزام مطلق واضح المعالم والحدود .

وفي هذا النوع من الأمر الحتمي تظهر بوضوح متانة الصرامة (الكانتية) التى لا تسمح بأي استثناء يرد على القاعدة الأخلاقية. فخطيئة آدم كانت إذن أثرا من آثار ضعف عارض وجهد قاصر على مراعاة الواجب ومن هنا لم تفسد فطرة الإنسان الأول، بحيث تستلزم تدخل (مخلص) غيره نفسه إذ كان يكفيه أن يعترف بخطيئته ويظهر ندمه لا ليغسل دنسه وتعود إليه سريرته النقية كما كانت فحسب ولكن ليربى هذا التائب الجديد ويرفعه إلى درجة المصطفين الأخيار ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (طه: ١٢٢) .

والفطرة الإنسانية ليست على خلاف ذلك بصفة عامة حتى أن القرآن يصفها فيقول:﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(٤)ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(٥)إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين: ٤، ٦).

من أعلام الفكر المعاصر[1]

الدكتور/ محمد عبد الله دراز

للأستاذ/ رجب عبد المنصف

قليل من المفكرين هم الذين يجمعون بين أصالة الفكر ودقة التعبير وجماليته ، بين عمق الرأي ونصاعة الأسلوب ورونقه وعلى رأس هؤلاء المفكرين يأتي شيخنا الأستاذ الدكتور / محمد عبد الله دراز حيث أوتيَ مع قوة الحجة ونفاذ البصيرة رصانة الكلمة وإشراقة النص. الأمر الذي يجعل لكتابته وقع الزاد وموضع الري لأصحاء الفكر، والدواء الناجع للحيارى والتائهين ولا غرو أن تكون هذه هي مكانة الشيخ و طبيعته إذ هو سليل بيت علم ودين تنفس في هوائه عبق العلم وتنسم في ظلاله شذى التلاوة وأريج التقوى فأبوه هو الشيخ عبد الله دراز الفقيه الأصولى الذي جعل من بيته منتدى للعلم وكعبة للعلماء تهفو لغشيانه القلوب وتأنس لما يلقى فيه من بينات العلم ولوامع الفكر وجوامع الأدب وسديد الرأي الأمر الذي أورث مترجمنا ملكات شتى، والعهد فيها من الكسب لا الوراثة، غير أنها لما رأت لشيخنا من كرامة المحتد وطيب الأرومة ما جعلها تخرج عن طبعها وتأتيه طيعة خالصة. وقد علمت فيه طيب الغرس وحسن المنبت فأكرم وفادتها ومكن لها من نفسه وأنزلها منزلة الطبع فنمت وربت ولعل في تقديم هذه الشذرات من حياة الشيخ ما يقرب المثل العليا لدنيا الناس.

شمائل الشيخ:

عرف الدكتور دراز بالعديد من الصفات والمزايا ونستطيع أن نقول إن مفتاح شخصية الشيخ هو التقوى بمعناها الواسع والشامل حيث رزق الشيخ لباس التقوى وكان لباسا سابغا تمثل في القراءة اليومية لسدس القرآن الكريم وفي التهجد والصلاة

---

(١) رجب عبد المنصف – منبر الإسلام السنة ٦١ العدد السادس.

وقد وصفه المقربون منه بأنه لا يشاهد في خلوته إلا قارئا للقرآن أو مصليًا، وتظهر هذه الصفة كأقوى ما تظهر في حياة الشيخ وسلوكه في الفترة التي قضاها في باريس والتى طالت بعض الشيء لتصل لإثنتى عشرة سنة فلم يضعف أمام مغريات الحياة «الفرنسية» و لم يلن وإنما ازداد تمسكا بدينه وحرصًا على تجلية مبادئه وإظهار كنوزه.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة وكان قريبًا منه مصاحبًا إياه قبل إقامته في فرنسا: (وقد عاد بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة المجهدة وتوقعنا أن نجد تغيرًا في مظهره أو ملبسه أو عاداته أو تدينه كما رأينا في بعض من ذهبوا وأقاموا بعض إقامته ولكنا وجدناه كما تركناه خلقًا ودينًا وإيمانًا فأثبت بذلك سلامة جوهره لأن جيد المعادن تجلوه التجارب وتصقله الحوادث من غير أن يفنى ويبلى. ولقد ازداد استمساكًا بدينه وتشددًا فيه فزاد بهاء ونورًا وجلالا). ويقول فيه أيضًا: «عالم فقيه عميق النظرة صادق الإيمان ثبت في علمه قوي في تدينه». ويستمر الشيخ أبو زهرة في الكشف عن صفات الشيخ الأخرى وهي : «سلامة تفكيره، وحسن قصده، واستقامة في الغاية وفي العقل يتجه إلى طلب الحقيقة لا يريد سواها ولايبغي عوجًا ولا أمتًا، لا يستهويه بدع الآراء ولا يستطير لبه بذيء الأفكار كما لا يقفه عن طلب الحقيقة تقليد لرأي سابق، فلا يتبع الرجال على أسمائهم ولا يأخذ بريق الجديد ولمعانه بل هو مستقل التفكير في فهم النصوص وطلب الحقائق لا يقيده إلا قيد واحد وهو النصوص القرآنية والنبوية.

عوالي الأمور:

من الصفات التى جبل عليها الشيخ تمسكه بعوالي الأمور والشغف بها والابتعاد عن سفاسفها، فكان ذلك ديدنه ودأبه منذ نعومة أظفاره فهو الأول على أقرانه في كل مراحل التعليم حتى إذا ما ابتعث إلى السوربون تجلت هذه الصفة أظهر ما يكون التجلي حيث فضل ـ كما يقول الدكتور السيد محمد بدوي، أن يسير في الطريق الأكاديمي من بدايته ويفعل ما يفعله طلاب العلم من الفرنسيين الذي يعدون أنفسهم

إعدادًا أكاديميا رصينا فالتحق بالسوربون للتحضير لدرجة الليسانس ودرس الفلسفة والمنطق والأخلاق وعلم النفس وعلم الاجتماع على أيدي أساتذة السوربون والكوليج دي فرانس من أمثال ماسينيون وليفى بروفسال.. ونجد أثر هذا التكوين العلمي الرصين في رسالته - دستور الأخلاق في القرآن الكريم - حيث لم يكتف بتوضيح وجهة النظر الإسلامية، بل كان يجتليها بمقارنتها بآثار المفكرين والفلاسفة، وكان لا يترك مناسبة إلا استعرض فيها رأي عالم من علماء الغرب أو نظرية من النظريات السائدة ثم بين ما في هذه النظرية أو في ذلك الرأى من قصور أو خطأ ويعقب على ذلك ببيان كمال النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم .

أيضا من مظاهر تمسكه بعوالي الأمور نفوره من الإعادة والتكرار لما سبق درسه وإنما هو مشغول باستنباط رأى لم يسبق إليه أو الكشف عن معنى لم يأخذ حظه من دراسة السابقين فيقبل عندئذ على البحث والفحص. فكتبه وأبحاثه وإن كانت محدودة من حيث الكم إلا أن ما بها من المعاني والآراء والنظر الثاقب والفكر المتجدد ما يعوض هذا الكم ، وهذا الكيف خير وأبقى من مجرد الكم مهما كثر وكبر .

يصف الدكتور محمد بدوي خلق الشيخ وأبوته لتلاميذه في الغربة وهي محك الاختبار والكشف عن معادن الرجال فيقول: «كنت مع الطلبة العرب في باريس نتلمس في رحاب الأستاذ الجليل ما نحتاج إليه من رعاية في وقت الشدة وكان هو يجمعنا في منزله في المناسبات الدينية والقومية ليشعرنا بما افتقدناه من جو عائلي.

وكنا نجد عنده كرم الضيافة العربية ونستمتع بأحاديثه ومناقشاته في شئون الدين والعلم والسياسة وكان - رحمه الله - لايضيق بما نثير من آراء متطرفة أحيانًا بل يفندها بروح العالم المستنير في سماحة ورحابة صدر ولا يزال بنا حتى يقنعنا بوجهة نظره المستندة إلى البرهان العلمي والمنطقي» .

ألمعية الفكر:

تميز الدكتور دراز في أعماله العلمية بالجدة والطرافة - على ما سلف - وشواهد ذلك وآياته عديدة لا تخطئها العين ويكفي أن نذكر في هذا الصدد تفسيره لسورة الفاتحة، فمع تتابع المفسرين الذين سبقوا الشيخ وهو ولا شك ألوف يتحفنا الدكتور دراز بالجديد في تفسيره هذا والمتمثل في سبق الخاطرة ودقة التعليل وسلامة الاستنتاج فضلا عن طرافة الفكرة التي ساقها إلى كل هذه المعاني.

ولعل القارئ في حاجة إلى ما يظهر له هذه الجدة والطرافة التى تمثلت في تفسير الفاتحة خاصة وأن تفسيره هذا مما لا يتيسر لكثير من القراء الاطلاع عليه الأمر الذي يحتم علينا الإشارة إلى أمهات المعاني التي تضمنتها السورة والمتمثلة في قول الشيخ «أن سورة الفاتحة هي السورة الوحيدة التى وضعت أول الأمر لا على لسان الربوبية العليا ولكن على لسان البشرية المؤمنة»[1] تعبيرًا عن حركة نفسية جماعية متطلعة إلى السماء، بينما سائر السور تعبر عن الحركة المقابلة حركة الرحمة المرسلة من السماء إلى الأرض، وهكذا حين ننظر إلى القرآن في جملته نراه يتمثل أمامنا في صورة مناجاة ثنائية، الفاتحة أحد طرفيها وسائر القرآن طرفها الآخر، الفاتحة سؤال، وباقي القرآن جواب، الفاتحة هي طلب الهدى والباقي هو الهدى المطلوب».

فإذا ما انتقلنا إلى أثر آخر من آثار الشيخ وليكن كتاب الدين[2] ، فإننا نجد فيه أيضا العديد من الشواهد والدلالات على عمق فكره وأصالة رأيه، فالكتاب ينقسم إلى مقدمة وأربعة بحوث، أما المقدمة فينبئنا فيها المؤلف أنه يهيئ للقراء (فرصة للنظرة الفاحصة والبحث الهادئ الرصين) ، ويظهر فيها تواضعه الجم حين يقول فيها موجهًا كلامه للقراء (حتى إذا لمسوا موطن حاجة لتهذيب أو تكميل كان من حقهم - بل من

---

(١) انظر تفسير سورة الفاتحة في مجلة «المجلة» العدد الرابع - والمعنى في قول الشيخ (ولكن على لسان البشرية) أنها مناجاة بين العبد وربه بتعليم الله إياه فهي بمعنى قولوا الحمد لله"

(٢) الكتاب بعنوان (الدين بحوث ممهدة لتاريخ الأديان) وقد صدر عام ١٩٥٢م .

حق العلم عليهم - أن يهدوا إلينا ملاحظاتهم القيمة مشكورين مأجورين).

ثم يتابع الكاتب عرض الفكرة الدينية في مختلف العصور وعند سائر الأمم الإغريق والرومان والفراعنة والنصارى، ويبدي المؤلف ملحظًا ذكيًا في استغرابه من أن الاختلاط بين الرومان واليونان قرونًا متوالية من قبل ومن بعد، ولم يضع منها أمة واحدة في اللغة والدين والفن والتشريع وسائر مقومات الحياة الجماعية، كما صنع الفتح الإسلامي في الأقطار التى دخلها .

ثم يبدأ البحث الأول وهو خاص بالدين فيطوف على سائر المعاني التي وردت للدين سواء على المستوى الإسلامي أو المستوى الغربي مناقشًا ومفندًا لينتهى إلى أصالة الكلمة في معاجمنا العربية .

وفي البحث الثاني الذي خصص لبيان علاقة الدين بأنواع الثقافة والتهذيب فيتناول علاقة الفلسفة بالدين مقررا «أن الاتحاد في موضوع البحث لا يعنى دائما الاتفاق على نتائجه» فبين أن «غاية الفلسفة المعرفة وغاية الدين الإيمان، ومطلب الفلسفة فكرة جافة ترتسم في صورة جامدة ومطلب الدين روح وثابة وقوة محركة» .

ثم يعرج الشيخ على موضوع الساعة وهو العلاقة بين الدين والعلم فبين أن العلاقة بينهما إن لم تكن التناسق فهي الحياد انظر إليه يقول: « إنه إذا كان واجب الأديان أن تهادن العلوم ولا تنابذها ، وكان من الخير لها أن تستثمر المعارف البشرية كافة وتتسلح بنتائجها فإن من الخير للعلوم كذلك أن تدع الأديان تكمل ما فيها من نقص وتملأ ما تتركه في النفوس من فراغ بما يملؤها من الحقائق الروحية فإن لم تفعل فلا أقل من أن تلتزم شقة حياد فلا تعادى الأديان ولا تنكرها جملة» .

أما المبحث الثالث فهو خاص بـ «نزعة التدين ومدى أصالتها في الفطرة».

والمؤلف هنا يرجع نزعة التشكيك التى سادت في القرن الثامن عشر في أوروبا إلى ذوى السفسطة من اليونانيين القدماء مبينا السبب في هذا الرجوع القهقري الأمر الذي

يعنى، ثم يعرض بعد ذلك للآراء والمذاهب المختلفة حول نشأة العقيدة الدينية فيسرد لنا آراء الطبيعين والروحانيين والنفسانيين والأخلاقيين والاجتماعيين والتعليميين ، وما إن ينتهى من هذا التطواف الشاسع والشامل لمختلف الاتجاهات والأفكار حتى يعود للقرآن الكريم الذي يتسع لهذه المعاني كلها ليخرج بنتيجة هي إعجاز آخر للقرآن الكريم (وأنه لن يسع الباحث المنصف متى تحققت هذه الإحاطة العلمية الشاملة إلا أن يرى فيها آية جديدة على أن القرآن المجيد ليس صورة لنفسية فرد ولا مرآة لعقلية شعب ولا سجلاً لتاريخ عصر، وإنما هو كتاب الإنسانية المفتوح ومنهلها المورود).

وهكذا شأن سائر أعمال الدكتور دراز تتآخى فيها عمق الأصالة ودقة التحليل وطرافة الاستنتاج والاستنباط مع قوة الحجة وسلامة الوجهة وحسن القصد وبراعة التوجيه .

ترى ذلك واضحًا جليًّا في كتابه (دستور الأخلاق في القرآن الكريم) وكذلك الأمر ذاته في كتابيه (النبأ العظيم) و(مدخل إلى القرآن الكريم) فضلاً عن سائر أبحاثه ومقالاته .

وبجانب هذه الوجهة العقلية التى ميزت آثار شيخنا الجليل فهناك سمة أخرى للدكتور دراز تمثلت في محافظته على السند. فهو حافظ مسند ولنسمع إليه يقص لنا من نبأ هذا الإسناد حين يقول: أروي صحيح البخارى ، وجل صحيح مسلم طريق شيوخنا المصريين قراءة منهم وأنا أسمع، وأما سائر الكتب الستة فبالإجازة، كتابه عن عالم المغرب السيد محمد عبد الحي الكتاني المحدث المشهور، عند اجتيازه للديار المصرية في طريقه إلى الحج، وبالإجازة والمناولة ومقابلة النسخ والقراءة للبعض والسماع للبعض الآخر من أستاذنا الكبير القارئ المحدث الأصولي الفقيه الأديب الجامع بين أسانيد المشارقة والمغاربة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي[1] .

---

(١) انظر النص في مقدمة كتابه (من كنوز السنة) ط الأنصار .

الباب الثاني

دراسات حول آثاره في السنة النبوية

١ـ مع كتاب المختار من كنوز السنة.

الشيخ / بخارى أحمد عبده رحمه الله

٢ـ كلمة حول كتاب الميزان بين السنة والبدعة.

أ.د/ محمد أبو سيد أحمد

مع كتاب

المختار من كنوز السنة[1]

بقلم الشيخ/ بخاري أحمد عبده
رحمه الله

الحمد لله ، نشـهد ألا إلـه إلا هو، ونصلي ونسـلم على صفوة الأنبيـاء ، المبعوث رحمـة للعـالمين، ونورًا يهـدى بـه الله مـن اتبع رضوانـه سـبل السـلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه .

وبعد، ففي غمرة الفتن التي خيمت بظلماتهـا على أمة الإسـلام باغية عادية صاخبة كأمواج البحر، أضـاع المسلمون كثيرًا من مقومات وجودهم كأمـة ربيت على عين الله حتى أصبحت خـير أمـة أخرجت للناس، وتسـرب ذلك الأريج العطر الـذي بثته نفثات زكية إنبعثت من أقطار دينهم الحنيف وضعفت تلك الشحنة القوية التي شحنهم بهـا رسـول الله ﷺ، وافتقدوا ثقلهـم المتزن ومقـامهم المحمود وصـاروا - كغيرهـم - يلاحقـون الدنيـا ويؤلهـون الأهـواء ، ويتحرون المكاسـب الرخيصـة الـتي لا تمت إلى التقوى، ولا تنم عن المثالية التي صبغهم بها محمد ﷺ .

وفي «دوامة» هذه الآفات لانوا للأعداء ، وتأثروا بما يحيكون، ورددوا ما يأفكون.

وواتـت الفرصـة الأعداء، ووجهـوا قواهم التي عجـزت عن أن تنـال من القرآن إلى السنة الشريفة التى خالوها عرضًا سهلاً ، سرعان ما ينهار، ولقد أوهوا قرونهم وظلت السنة شامخة في حمى الذي أنزل الذكر ووعد بحفظه .

ولكن سمومهم وجدت مراحها ومأواهـا في أنفس مفتتنة تلهث وراء الدنيا وتستبيح

(١) هذه مقدمة الشيخ بخاري أحمد عبده لكتاب المختار، الطبعة الثانية، دار الأنصار سنة (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

كل وسيلة تمكنهم من غايتهم .

مرق الخوارج من الدين مروق السهم من الرمية وجادلوا بالقرآن والقرآن لا يجاوز حناجرهم، واضمروا العداوة للحديث النبوي الذي سجل إفكهم وباطلهم واتبعوا الهوى ، ودانوا بالرأي وازدروا النصوص مهما كانت صحيحة وخلط المعتزلة، واستخفوا بما لم يوافق هواهم من الحديث وتعددت الفرق، ووضعت الأحاديث، وبدلت الآثار وظهر المستشرقون ، ودخلوا بثقلهم في الميدان ضد الحديث، ودسوا السم في الدسم، وضربوا بمعاولهم ومعاول ضحايا مركب النقص وأسارى عقد التخلف من المسلمين .

ولا زالت تلك السموم تنتقل عبر الأجيال.

وكادت العقلانية تكون عبادة ووثنية تزينها الطواغيت واستنسر البغاث، وتسمرت الهزرة، واهتزت الذيول، وانتعشت الديدان.

أحوال تقتضينا أن نفزع من أجل الحديث إلى الحديث نفسه نصونه، ونجمع أوابده، ونضع العقل والقلم في خدمته نستخرج بهما الأسرار، ونستنبط الحكم، ونكشف المغزى والمرمى.

فإن غم عليهما شيء رحمنا قصورهما وعذرنا ، لنرتد إلى النص الصحيح ونشيدنا، آمنا به كل من عند نبينا الذي لا ينطق عن الهوى.

وهذا هو الدرس الذي نتلقنه من هذا الكتاب .

ولقد راع المؤلف رحمه الله أن يعوق مجرى السنة شوائب تنذر بالخطر، وعوائق تهدد بالتبدد تراث الرسول ﷺ ، وقد استُودِعناه لننثل من خيره إنتثالا إلى يوم القيامة.

راعه ذلك فشمر وراح يرتاد مناجم الحديث يسبر أغوارها ويبلو كنوزها ويجمع الشتيت، ويستدنى الشارد، وينظم النظائر التى كثرت فيها الأقاويل، وتنوع التأويل

والتعليل وغايته أن يجمع كل ذلك في نظام واحد حتى تبدو ماثلة للعيان سهلة التناول.

ولطالما أرقه تنوع موارد الحديث ، وتعدد مظانه بشكل يجعل الطريق إلى قطوف السنة وعرًا محفوفًا بالعقبات، فلا يصل الباحث ـ في يسر ـ إلى تلك المتفرقات الحيوية المبثوثة في كتب السنة كأنها الذهب في المناجم .

وهذه المتفرقات تبحث عن مزيد من الجهود التي تتيح لها أن تنفرد بالتأليف وتبرز واضحة للأنظار والألباب ، تبل الصدى، وتشفى الصدور، وتصون العقائد، وترسى الآداب والأحكام والسيرة وتسكن ـ مع كل هذا ثائرة الفتن التي يذكى أوارها حمقى، من ورائهم أعداء يزينون لهم عملهم، وغايتهم أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون .

ومن أجل ذلك اهتم المؤلف بالتنقيب في المناجم وتتبع الأوجه المختلفة من زيادة ونقصان، مستهديًا بأقوال أئمة الفقه وشراح الحديث.

ولاشك أن هذا المقام مقام محمود .

ولكن ما يكتنفه من جلال وهيبة .

وما يتطلب من بصر ووعي ودقة تتناسب مع مقام الريادة وتطمئن الذين يحذون الحذو ويقتفون الأثر .

كل هذا جعل المؤلف يسارع فيذكر دعائم أهليته للرواية، وشواهد الممارسة والدراية.

ومن هنا كانت إشارته إلى شيوخه الذين أجازوه وزكوه .

وقد اقتضت حكمة الله أن يولد الإنسان على الفطرة منطويًا على أجنة الخير والشر وأن تحوي كل نفس ملهمة فجورها وتقواها .

والإنسان ـ بمقتضى هذه الفطرة ـ يعيش نهب نزعتين ينزعه عرق الخير فيغدو كلمة طيبة، عميقة المسرى والمأوى ، راسخة ، فارعة كريمة العطاء، وينزعه عرق الشر فيغدو كلمة خبيثة واهية قريبة المقطع، عديمة الجنى وأجنة الخير كي تنمو وتعطى عطاء موصولا ، فيه زاد المعاش وزاد المعاد لابد أن تروى .

والله تعالى بشرعه الروي يكفل لها أسباب الري، وغيرها بعوامل النمو وأسباب الحياة .

فالشريعة بشعبتيها من كتاب وسنة ، نبع يفيض بمعاني الحياة وتغدو أوعية الأمن والأمانة والإيمان، وتلك من دواعي صحة النمو واستقامة الحياة .

ولعل هذا مما يعنيه رسول الله ﷺ بقوله : نزلت الأمانة في جذر قلوب الرجال ـ ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة »[1] .

فينابيع السنة ـ كينابيع القرآن ـ تكفل الري لمعاني الخير، وتضمن النمو الصحي لفطرة الهدى التي تولد مع الإنسان .

وهذه العناصر مجتمعة تصنع مثل الشجرة الطيبة، فوق التربة الطيبة مصداق لقول الله : ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(٢٤)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ (سورة إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥)

وفقدان هذه العناصر عناصر الفطرة الطيبة، والبيئة الطيبة، والروافد الزكية الطيبة، يخمد بذور الخير، ويعطى الفرصة لبذور الشر فتطغى وتحرر النفوس من قدراتها التي تحتضن بها بذور الخير فتغدو قيعانا لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً أو كالكوز مجخيًّا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرًا[2] وصدق رسول الله ﷺ .

---

(١) البخاري عن حذيفة ك/ الرقاق ب/ رفع الأمانة (٦٠١٦)

و«مسلم» حذيفة ك/ الإيمان ب/ رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض (٢٠٦) .

(٢) مسلم عن حذيفة ك/ الإيمان ب/ بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا (٢٠٧) .

ورأى أن التزكية والتدسية في قول الله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(٩)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَ﴾ (من سورة الشمس) تعنيان: «وصل النفس بأرواح السماء ومناهج السنة الغراء التى تزكى الوجدان والأبدان مصداق قول الله ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (الجمعة) .

أو قطعها عن تلك الينابيع فتذوى القيم وتجف العروق ويذهب الرواء ويوشك كل خبر فيها أن يعود حصيدًا كأن لم يغن بالأمس كهشيم المحتظر تذروه الرياح، وصدق الله ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٢٦) .

وإذا كانت السنة ثانية أمرين يكفلان الهدى، ويحييان النفوس فإن سبيلها يجب أن ينقى من الشوائب والأخلاط والزبد المحتمل حتى يذهب الزبد جفاء ويمكث ما ينفع الناس في الأرض .

السنة إذن عنصر حيوي في وجودنا الديني.

فلا غرو أن حظيت بعناية بالغة لم تتوفر لتراث آخر في القديم والحديث.

وهي ـ رغم ما بذل من جهد مضن مخلص حقق نتائج معجزة لا تزال تتطلع إلى مزيد من الجهود، يستدنى بها النائي وتتصيد الأوابد.

تتطلع إلى عقول مؤمنة تبرز خفى الحكمة في بعض دررها تجلو مواطن النور في كل غررها. وتذود في غيرة عن رياضها شياطين الإنس والجن .

ثم تعكف على ما تشابه ترده إلى المحكم، وتبين فيه وجه الحق الذي عميت عنها أبصار قوم وبصائر آخرين أعرضوا بالهوى عن الحق، وعموا عن الهوى فاستحقوا ـ بذلك ـ العمى الأكبر يوم الحشر .

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى

(١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا(١٢٥)قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى(١٢٦)وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ (طه ٢٤ ، ٢٧) .

وبفعل أولئك العمى المسرفين استشرى مرض العبث بالسنة . وشاعت ظاهرة الرفس، والركل والرفض والانكار ـ لكل ما جاوز الأحجام القميئة والأفكار الفجة العليلة.

وهذه الظاهرة تهدد بالثبور، وتلزم الراسخين في العلم بالنفور ليتصدوا لهؤلاء الذين ينَبّونَ حول أحاديث المصطفى نبيب التيوس خلف أمهاتها .

ويحرصون الحرص الشديد على التشكيك والتجريح والتهكم والتشهير بأئمة الحديث .

والله تعالى أنزل على رسوله ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (من سورة آل عمران) .

والمتشابهات هي التي تلتبس على بعض العقول فتورث الخلط واللبس وتختلف مواقف الناس إزاء المتشابهات .

أما القلوب التى تنطوى على نطف العلة، وتحمل أجنة الزيغ فتعرض مفتونة فتانة .

وكلمة الله في مثل هذه القلوب المتخبطة المثقلة يحملها أن يطيل لها طول الغي، ويمد أمامها أسباب الضلال ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلاَلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (مريم: ٧٤) .

وأمـا القلوب التي يعمرهـا الإيمـان ويطمئنهـا العلم فـتردد ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ .

هذه القلوب يبارك الله هداها ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾(مريم) .

وتأكيد لهذا القانون «قانون الإضلال والهدى» تعددت الآيات التى تقرر حقيقة أن الله يُسـلِك الأفئدة التى اسـتطابت العلة، واسـتمرأت الزيغ في سلاسـل الشيطان فيزدادون علة وبعدا .

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ(٣٦)وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ(٣٧)حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف ٣٦ : ٣٨) .

والشريعة كما نعلم قوامها كتاب وسنة .

وكلاهمـا ردء للآخر مصداقـا لقول رسـول الله : «ألا وإنى أوتيت القرآن ومثلـه معه»[١] وفي رواية « ألا إن ما حرم رسول ﷺ مثل ما حرم ا لله»[٢] .

وظني أن أداة التعريف «ال» في كلمـة «الكتـاب» في قول ا لله «وهـو الذي أنزل عليك الكتاب ..» استغراقية عهدية .

والأداة «ال» بهذا الشـمول تمنح كلمـة «الكتاب» في الآيـة . وكلمة «الذكر» في قول الله من سـورة الحجر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سـعة تحيط بجوانب الكتاب والسنة .

ومفاد هذا: أن في السنة أيضًا متشابهات يلاحقها معتلو القلوب والمدارك ابتغاء الفتنة ويشادّون الدين بها مشادة خاسرة إذ الدين كله يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه .

---

(١) مسند أحمد عن المقدام بين معدي كرب الكندي ك/ مسند الشاميين ب/ حديث المقرام ١٦٥٤٦) .

(٢) ابن ماجة عن المقدام بن سعد يكرب الكندي ك/ المقدمة ب/ تعظيم حديث رسول (١٢).

والله يفتن بالحسنات والسيئات ، ويبلو بالخير والشر ومن بلائه بالخير هذه المتشابهات التى تكتنف صراطها جوادّ ومتاهات تتلقف الشذاذ المقامرين «ومن شذ شذ في النار» .

ولعل هذه المتاهات هي مما حذر الله منه في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة الأنعام)

وكذلك فعل رسول الله ﷺ ، فقد خط خطا - فيما رواه الإمام أحمد والنسائي عن ابن مسعود رضى الله - ثم قال هذا سبيل الله، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله، وقال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطانا يدعو إليه. وقرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي﴾[1].

ولقد تركنا رسول الله ﷺ - كما روى ابن مسعود رضى ا لله عنه - في أدنى الصراط المستقيم المفضي إلى الجنة، وعن يمين الصراط دروب، وعن يساره دروب، وثم رجال يدعون من مر بهم فمن أخذ في تلك الدروب انتهى إلى النار، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى إلى الجنة .

ولا شك أن القلوب القلقة المتذبذبة التى تخوض في المتشابهات، وتلاحق مظان الفتن ، هذه القلوب ترعى المحارم ، وترتع في حمى الشيطان وتبول وتسلط وتنفث سمومها عبر الأجواء .

واتقاء هذا الخطر، كان لزاما أن ترفع منارات على الطريق تكشف الغمة وتجلي الظلمة وتفحم أولياء الشيطان وتلقمهم الأحجار.

وكتابنا «المختار من كنوز السنة» من المعالم التى رفعها مؤلفه على الطريق يعالج

(١) الدارمي عن عبد الله بن مسعود ك/ المقدمة ب/ في كراهية أخذ الرأي (٢٠٤).

بها قضايا يتكلف في شأنها المتكلفون . منهم من بشر وأفرط في التبشير واغتر بالأماني وفتح أبواب الجنــة عريضــة للعالمين، ومنهــم من نفر فغــالى في التنفـير وصد عن أبواب الجنة جموعًا من المسلمين ، ومنهم ومنهم .

مذاهب مجمل القول فيها أنها سبيل بلبلة وقلق واضطراب يضرب اليأس في أنحائها حيارى ، قاب قوسين أو أدنى من انهيار تنسف به ركائز الرجاء والخوف والثقة.

وهكذا تتزلزل القيم، وتتزحزح الأمـة عن المقام الوسـط الذي تمركزت فيه وكانت به أمـة وسطا تعتدل بين الرجـاء والخوف، فالمؤلف في بحوثـه، ينشد الأغوار ، ويلمس بتوفيق رباني أوتار المشكلات، وعـدد القضايا التى يعرضها يستقصى في عمق الأبعاد، ويمحص بثقة الآراء.

ويمنح أعمـاق الكلمـات حتى يربـط بين سـائر معانيهـا والمعنى الاصطلاحي يطيل رشــاءه ، ويجند قدراتـه الواعيـة في تقليب كل الوجـوه التى تتحملهـا متون الأحاديث المختـارة، من غـير هضم ولا هـدم، دون أن تكبه العجلــة أو يشـكمه الغرور، فيجمح رافضا ، راكلا بقدميه كل مـا استغلق عليه فهمـه أو تعارض مع هواه، مروجًا لفكره، معريا غيره باعتناق فكره كما يفعل أدعياء المعرفة وعشاق الريادة والظهور.

بهذه الروح خاض عمار قضايا معقدة يحظر فيها وتزل الأقدام.

يقف حيالها وقفـات تطول وتقصر تبعا لمقتضى الحـال وعمق المسـتقى، فإذا أشرف على الدّخَن ومثار الفتن جال وصـال واستطرد واسـتقصى حتى يخشع الدّخَن وتسكن الفتن.

والعجيب أن جـل مختاراتـه من هذا النـوع الذي تصطـرع في حلبتـه الآراء، وترقص الأهواء ، وتتعدد المذاهب منذرة بتفكك الوحدة، وتفرق الكلمة، وتمزق الأمة .

واختيـاره لهذه النوعية المتميزة لم يجـئ عفو الخاطر، ولكنـه نثر الكنانة واصطفى من

الأحاديث أحفلها بالشبه وأجمعها للغموض ، وأكثرها تداولا بين أهل الأهواء والفرق. وهو حين يركز على هذه النوعية إنما يريد أن يسد مداخل الفتن ويكبح جماح الشيطان ويضمن لقرائه الأمن والأمانة والإيمان .

وغايته أن يجلى أن الدين لا يساس بالعقل فالعقول لا تنهل من معين واحد وأن حصائد العقول يبطل بعضها بعضًا، من هنا كان التعويل على العقل في رد النص سبيل تفرق وتهلكة. يريك الاشراق في فكر فرقة من الفرق. ثم يقذف عليه بفكر فرقة أخرى فيبهرك وترى في وميضه الفكر الأول زهوقا خامد الأنفاس.

هكذا هكذا ينتقل بك من فكر إلى فكر ثم يعرج بك في مبارح السلف ، ويوئبك مقامات السنة حيث تجد عندها السكينة والشفاء وتتم بعدها كل محاولات وزن مسائل الدين بالعقل. إذ هي محاولات لاتلد غير التباعد، ولا تورث إلا الضلال والهدى كل الهدى في طريقة السلف، أن تؤمن بما جاء، وتفوض إلى الله علم ما يعرض من شبهات **﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾**

ومما يثبت خطر عبادة العقول ما رواه الإمام مسلم من أن زيد بن صهيب يشغفه رأى من الخوارج خرج في عصابة ذو عدد[1] بغية الترويج لهذا الرأي الذي رأى فمنهم من آمنوا به، وجزموا بغلبة أدلته، ويقيض الله للركب جابر بن عبد الله ، ليقوض بالسنة والقرآن أركان ما اعتقدوا ، ويقفهم على مغبة إعجاب كل ذي رأي برأيه.

ويرى المؤلف، أن من جاوز المحكمات وخاض في المتشابهات يضطرب الأمر أمامه، وقد يؤدى به إلى تحكيم نزوات العقل في صريح النقل، بل إلى تحكيم الهوى في النقل، فيكون ممن أتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه، وهو في يسرته إلى هذه الغاية يعالج معتقدات مبعثها اللبس والخلط وعاقبتها الخرافة والوهم.

---

(١) انظر صحيح مسلم عن يزيد الفقير ك/ الإيمان ب/ أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٢٨٢) .

وعلى سبيل المثال تجده في صفحة ١٢[1] يفصل بوعي قضية الإلهام وصادق الأحلام، فيقرر أن الأحلام الصادقة قد يشارك فيها غير الأنبياء، وبين أن ما يقع للصالحين من الإلهامات ليس من العلوم اليقينية في شيء، وإنما هي سوانح مظنونة قد تلتبس فيها لمة الملك بلمة الشيطان .

وأن الرؤى الصادقة قد تعرض للفساق والكفار وهو بتقرير هذا إنما يريد أن يفسد ألاعيب الدجالين والمشعوذين ومشايخ الطرق الذين يوسوسون بالأوهام ويشرعون بالأحلام ، ويخذرون ضحاياهم برؤى مفتعلة كاذبة ، يزعمون أنها تجيء كفلق الصبح، وهم بهذه البدع المفتراة يمسخون وجه الإسلام الجميل .

والمؤلف لتقديره خطورة هذه القضايا، يفضى إليها عبر بحوث تمهيدية تعين على فهم المعاني الدقيقة التى يعالجها فهو مثلا حين يبحث في كلمتي - الإيمان والإسلام، يستفتح يبحث عن كلمتي مفهوم كلمة الدين ثم يجول في معطيات الكلمتين.

ويستطرد بلا شطط فيتكلم كلامًا طيبًا عن زيادة الإيمان ونقصه من حيث الأدلة . ومن حيث قضاياه وما تستتبع من تفاصيل فترى المفهوم، وتوسع آفاق العلم، وتفسح رقعة الإيمان.

ويواصل الحديث بجواره الذي ينم عن تبرمه وإنكاره على أولئك الذين يقفون على شفير جهنم منذ كلموا بالمتشابهات فكأنه رحمه الله انزعج مبكرًا بهذه الحركات الخرقاء التي تستهدف كبد الإسلام بما تنكر من أحاديث وترفض من مقدسات تنظر ببصيرة نفاذة ، ويتحدث باستفاضة عن نوع من المعلومات الدينية يحمل في نفسه شاهد صدقه، وصدق ما وراءه من كلمات .

وعن نوع آخر قد يثير الشكوك وينقض الأصول بما يعكس من مشكلات ويحمل

---

(١) انظر طبعة دار الأنصار بالقاهرة - الطبعة الثانية [١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م].

من شبهات تلتبس على العقول التى تسلم أشرعتها للرياح الهوج فتفتح أبواب الفتنة ومنافذ الحيرة والشك ، وربما كان مبعث كل هذا جزئية لم توافق الهوى فعميت عليهم، مسالك الهدى، وتاهوا عن صواب ينعش في التضاعيف ومثل هذه العقليات الصابئة العمياء كثيرًا ما تلتقي لتشكل جبهة سعادتها في الرفض والانكار .

ورب آخرين اهتدوا فزادهم الله هدى وآتاهم تقواهم يتلقون عن تلك الجزئيات التى أثارت في نفوس أولئك ما أثارت ولكنهم يتلقونها بروح مؤمنة وبنفس مشرقة . فلا يرون فيها نبوًا ولا إشكالا ولا يجدون في أنفسهم إلا إيمانًا وتسليما .

هكذا يتفاضل الناس وتتفاوت درجات الإيمان فهذا الذي يستعين على الخفي بالجلي ورد المتشابه إلى المحكم ، ويهتف آمنت به كل من عند ربنا أزكى نفسًا وأنقى روحًا وأكمل إيمانًا من ذلك الذي شد إلى بواعث العبث. وتخبط وأشرف إيمانه على إنهيار .

وظنى أن أبا بكر لم يظفر بلقب «الصديق» إلا لأنه عَبَرَ على متن إيمانه وهاد **الشك** والرفض، يوم ضلت الأفهام وزلت الأقدام .

بهذا العمق واجه المؤلف مشكلات الأحاديث وشطحات الفرق، والله نسأل أن يسد بهذا الكتاب خصاصة المسلمين. ويجعله ركنا يأوي إلى بابه ويستمد من رحابه الذادة عن الحديث النبوي، وأن يعم نفعه خاصة المسلمين وعامتهم .

كلمة عن كتاب

الميزان بين السنة والبدعة[1]

بقلم الأستاذ الدكتور
محمد ابو سيد احمد

كتاب «الميزان بين السنة والبدعة» لفضيلة الدكتور/ محمد عبد الله دراز رحمه الله ـ تعالى ـ وأسكنه فسيح جناته .

قرأت أكثره بتدبر، وكلما كررت النظر في عبارته ازدت يقيناً بسعة أفق مؤلفه ، وغزارة علمه، في اللغة وأصول الفقه وفروعه، فهو يأخذ القارئ بهدوء ورفق من حيث هو واقف إلى حيث يريد الشيخ له أن يقف دون أن يشعر القارئ بقلق أو اضطراب بل إنه ليرى من الواجب عليه أن يبادر ليكون مع الشيخ سهل الانقياد .

والشيخ ـ رحمه الله ـ يبدأ كتابه بالبحث في أصل الكلمة «البدعة والسنة من جهة اللغة. ثم الاستعمال الشرعي. وهو يفرق بين استعمالين لعلماء الشريعة أحدهما في الصدر الأول والآخر بعده، وهذه التفرقة لابد وأن تكون في محل الاعتبار لدى الباحث في هذا العلم حتى لا ينسب للغير ما هو منه بريء.

ثم يشد المؤلف ـ رحمه الله ـ انتباه القارئ بطرح سؤالين هما من الأهمية بمكان هل كل مخالفة للشرع تسمى بدعة؟ وهل تختص البدع بقسم العبادات من الشريعة؟ ويأخذ القارئ ليضع الأمور في نصابها .

وبعد ذلك يتكلم الشيخ عن منزلة علم السنة والبدعة من علوم الدين. واشتباه الأمر بين السنة والبدعة على كثير من الناس، ويضرب الأمثلة من التطبيقات العملية للصحابة الذين هم أعلم الناس بالوحي بعد رسول الله ﷺ لترسخ الحقيقة في عقل الباحث وقلبه .

ثم يطرح سؤالين آخرين، أحدهما عن الحد الفاصل بين خلاف المبتدعين وخلاف

---

(1) هذا الكلمة كتبها لنا صديقنا الدكتور محمد أبو سيد أحمد الأستاذ المساعد بكلية الشريعة والقانون - جامعة الأزهر الشريف حين قرأ بحث الميزان .

المجتهدين، والثاني: عن الحد الذي يفصل بين خطأ المجتهدين وصوابهم حتى نستبين حقيقة السنة ناصعة من بين خلافهم، ويصل إلى الميزان الدقيق وطريق الصحابة المسلوك في استنباط الأحكام ، وأن حكم الشرع كان عندهم هو السابق المقدم، وحكم العقل والهوى تابعًا متأخرًا.

ثم يقرر ـ رحمه الله أن البحث والاجتهاد طريق ليس لكل أحد أن يسلكها بل لاينهض بهذا العبء إلا من اجتمعت فيه صفات ثلاثة:

أولاها: أن يقف على ما أخذ كل إمام في تلك المسألة المراد معرفة الحكم فيها .

الثانية: أن يكون قد رزق حظًا من الفقه في الدين .

الثالثة: أن يكون على قدم المجتهدين في التحرر من الهوى والعصبية. وبعد هذا كله يكون حكم المجتهد بصوابية هذا الرأي أو غيره لا يعبر دائمًا عن الحق والواقع في نفس الأمر، وإنما يعبر عن الحق في رأيه ويصور وجهة نظره فيه .

ثم يصل الشيخ ـ رحمه الله ـ بهدوء العالم ـ إلى تحديد أصل البدع ومنشأ الابتداع في الدين ويُرجع ذلك إلى أربعة أصول:

الأصل الأول: تحكيم العقل في الدين والأخذ بالرأي المذموم .

الأصل الثاني: اتباع الهوى الذي يضل صاحبه عن سبيل ا لله .

الأصل الثالث: الجهل بتصاريف اللغة وأساليبها .

الأصل الرابع: الجهل بقواعد الشريعة ومقاصدها .

كل هذا بعلم العالم وعقل الحكيم، يذكر الفروع ليقعد القواعد ، ويطرح التساؤلات، ليثير الانتباه، ينقد الفكر بلا تجريح، ويقرر الحق بالدليل بعد الدليل ، ويفند الشبهات فيراها المنصف أهون من بيت العنكبوت .

رحم الله الشيخ ـ رحمة واسعة ـ ورفع درجاته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، والكتاب ذخر للمكتبة الإسلامية، ولايستغنى عنه باحث في ا لعلوم الشرعية، وهو في حاجة إلى شروح وتعليقات من باحثين مخلصين ليعم به النفع طبقة المثقفين .

الباب الثالث

دراسات حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن

١- الإلزام الخلقي عند الدكتور دراز.
أ.د./ السيد محمد بدوي

٢- دستور الأخلاق في القرآن. أ/ محمد عبد الله السمان

٣- دستور الأخلاق الكتاب الأم في الأخلاق الإسلامية.
أ.د./ مصطفى محمد حلمي

٤- من أهم رواد البحث في الأخلاق القرآنية.
أ.د./ أحمد عبد الحليم عطية

٥- العبقرية اللغوية في الرسالة . أ/ محمد عبد العظيم علي

٦- المنهج العلمي في الرسالة يحمل طابع النور والصفاء.
أ.د./ محمد إبراهيم الفيومي

٧- مؤسس علم الأخلاق القرآني. أ/ أنور الجندي

الإلزام الخلقي

عند الدكتور محمد عبد الله دراز[1]

دراسة بقلم
الدكتور السيد محمد بدوي[2]
رحمه الله

إذا استعرضنا كتب الأخلاق التي كتبها كتابُ الغرب وجدنا فيها ثغرة كبيرة؛ فهؤلاء الكتاب في تأريخهم للمذاهب الأخلاقية، قد عرضوا لهذه المذاهب في العصور اليونانية القديمة، ثم في الديانتين اليهودية والمسيحية؛ وقفزوا منها فجأة إلى المذاهب الأخلاقية في العصور الحديثة في أوروبا أي منذ عصر النهضة إلى وقتنا الحاضر، بدون أن يعرجوا في قليل أو كثير على ما يتصل بالقانون الأخلاقي في الإسلام .

ومع ذلك فإن ما جاء به القرآن في مجال الأخلاق ذو قيمة عظيمة، لا بالنسبة للحياة العملية للمسلمين أنفسهم فحسب، بل بالنسبة لأبناء البشر جميعًا . ومعرفة القانون الأخلاقي كما جاء به القرآن يكمل النقص في تاريخ المذاهب الأخلاقية. ويفتح آفاقًا جديدة في دراسة المشكلة الأخلاقية ذاتها. وفي حل كثير من المسائل والصعوبات التي تثيرها .

وإذا كان بعض الكتاب قد تعرض في كتاباته عن النظم الإسلامية بوجه عام لسرد بعض القواعد الأخلاقية التي تستخلص من القرآن ومن التشريع الإسلامي. فقد كان يعالج هذه المسائل في عجالة دون أن يكون فيما يسرده ما يشفى غلة الباحث الذي يريد أن يتعمق الدراسة العلمية. ولم يتعرض أحد ـ فيما نعلم ـ لبحث الجانب النظري من المسألة، ولم يحاول استخلاص المبادئ الأخلاقية العامة التي تستمد من القرآن؛

---

(١) نشرت هذه الدراسة في مجلة المجلة من العدد السادس عشر (رمضان ١٣٧٧هـ ـ إبريل ١٩٥٨م) ، وننشرها هنا بناءً على رغبة الدكتور السيد بدوي قبل وفاته بعام.

(٢) الكاتب صهر الدكتور دراز وأستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية .

وكل ما فعله هؤلاء الكتاب أو المستشرقون هو جمع بعض الآيات القرآنية التى تحتوي على قواعد للسلوك الأخلاقي وترجمتها.

أما المفكرون من المسلمين فقد جروا في كتابتهم عن الأخلاق: إما على سرد بعض النصائح العملية التى تهدف إلى تقويم أخلاق الشباب، وإما على وصف طبيعة النفس الإنسانية وقواها والخلوص من ذلك إلى تعريف الفضيلة وتقسيم الفضائل إلى أنواعها الهامة كل بحسب وجهة نظره. ومن أشهر المؤلفات التى تسير على هذا النهج كتاب ابن مسكويه «تهذيب الأخلاق» . وقد يجمع الكاتب أحيانًا بين الأغراض العملية والتحليل النظرى كما نشاهده كثيرًا في كتب الغزالي. وخاصة في كتابه الجامع «إحياء علوم الدين» . وقد حاول الغزالي في مؤلف آخر هو «جواهر القرآن» أن يحلل مادة القرآن. ويصنف منها قسمين كبيرين في مجال الأخلاق: أحدهما . يتصل بالمعرفة (أي بالناحية النظرية). والآخر يتصل بالسلوك (أي بالناحية العملية). وخص بالقسم الأول ٧٦٣ آية من آيات القرآن. وبالقسم الآخر ٧٤١ آية. فيكون المجموع ١٥٠٤ آية وتمثل ما يقرب من ربع عدد آيات القرآن، أما الآيات الباقية فهي لا تتصل في نظره، إلا بمسائل فرعية أو مكملة.

هذا الجهد الذي لا ينكر والذي يقوم على الرغبة في التصنيف المنهجى قد وضع **أساسًا** صالحًا للدراسة العلمية ولكنه لسوء الحظ، لم يجد فيما مضى من يتابعه ليقيم صرح البناء كاملا، ويبرز الفلسفة الأخلاقية القرآنية في صورة مذهب كامل.

لم يحاول أحد إذن لا من فلاسفة الغرب ولا من فلاسفة الشرق أن يستخلص القانون الأخلاقي كاملا من القرآن، وإذا قلنا القانون الأخلاقي فإن هذا الاصطلاح يعني عند فلاسفة الأخلاق الأسس والمبادئ النظرية العامة التى تكون بمثابة إطار تتحقق في داخله وحدة التفاصيل وانسجامها .

ومن حسن الطالع أن تصدى لهذا العمل الكبير. في العصر الحاضر، عالم جليل من

علمـاء الأزهر هو المغفـور لـه الدكتور محمد عبد الله دراز عضو جماعـة كبـار العلماء. سـافر إ لى فرنسـا في بعثـة الأزهر الأولى عـام ١٩٣٦، ومكث بهـا مـا يقرب من اثني عشـر عامًـا أتم فيهـا رسـالته الكبـيرة القيمـة التـى تقدم بهـا لنيل درجـة الدكتواره من السربون وعنوانها «أخلاق القرآن La moral du Koran » والرسالة باللغة الفرنسية في أكثر من سبعمائة صفحة، وقد نشرتها أكبر دار للنشر في فرنسا، وهي «دار النشر الجامعية» .

فجـزاه الله عن العلم وعن الإسـلام كل خير؛ فقـد سد بتأليفهـا ذلك الفراغ الكبير الذي أشـرنا إليـه في كتب الفلسـفة الأخلاقيـة، وأصبحت بذلك مرجعًـا يرجع إليـه مفكرو الغرب من مستشرقين وغيرهم. كمـا يرجع إليه محبو الثقافة للتزود بما يعوزهم مـن معرفـة بفلسـفة القرآن الأخلاقيـة. وقـد كنـا نرجو أن يتـاح الوقت لذلـك العالم الجليل، فيزود قراء العربية، بترجمـة هذه الرسالة حتـى يعمّ النفع بها بين أبنائنا الذين لا يستطيعون الإفـادة منهـا في أصلها الفرنسـي. ونحن نقدم هذه الدراسـة التى استقينا مادتها الأساسية من هذه الرسالة القيمة .

لا يخلو أي مذهـب خلقـي جدير بهذا الاسـم من فكرة الإلزام ؛ فالإلزام هو العنصر الأساسـي أو المحور الذي تـدور حوله المشـكلة الأخلاقيـة ، وزوال فكرة الإلزام يقضي علـى جوهر الحكمة العملية التـى تهدف الأخلاق إلى تحقيقها. فإذا عدم الإلزام عدمت المسئولية ، وإذا عدمت المسئولية ضـاع كل أمل في وضـع الحق في نصابه، وإقامة أسس العدالة؛ وحينئذ تعم الفوضى ، ويسود الاضطراب ، لا في عـالم الواقع فحسب، بل من الناحيـة القانونيـة ، ومن جهـة نظر المبدأ الأخلاقي ذاتـه، وإذا كانت الأخلاق تئول في النهاية إلى مجموعة مـن القواعد، فكيف يتسنى للقـاعدة أن تكون قاعدة بدون أن تُلزم الأفراد اتباعها؟

على أنـه إذا كانت هذه هـي أهمية الإلزام في كـل قانون أخلاقي، وفي كل مذهب

من المذاهب الأخلاقية مهما اختلفت صيغه وتفاصيله، فإننا مع ذلك لم نعدم من الفلاسفة من ادعى إمكان قيام «أخلاق بدون إلزام ولا جزاء» ونشير من بين هؤلاء على الخصوص إلى الفيلسوف الفرنسي «جويو» Guyeau الذي ألف كتابًا بهذا العنوان . وقد حاول هذا الفيلسوف وأمثاله أن يستعيضوا عن فكرة الإلزام بفكرة التقدير الفني، بحيث يصبح الضمير، في نظرهم، أداة للإعجاب بكل ما هو جميل. وهم يقولون: إننا إذا استطعنا تربية الذوق الفني في النفوس فلا شك أن إعجابنا بالجمال سيشمل إعجابنا بالأفعال الطيبة والخصال الحميدة؛ مما يدفعنا إلى التمسك بها، والتعلق بأهدابها، ونحن مع اعترافنا بأن هذا الرأي قد يستميل كثيرًا من النفوس، لما ينطوي عليه من إبعاد فكرة الإلزام التى توحي بالقهر ومغالبة النفس، ولما ينادى به من النظر إلى الجمال كوحدة سواء أكان ذلك في مجال الطبيعة أم في مجال الأخلاق، نرى أن هناك مع ذلك فروقا لا نستطيع إغفالها بين ما يتصل بمحيط الأخلاق وما يتصل بمحيط الفن.

حقا إن كل ما هو خير جميل، ولكن هل العكس صحيح؟ وهل كل ما هو جميل خير؟ إن الشيطان قد يزين لنا أشياء تبهر أبصارنا وحواسنا بجمالها، و لكنها لا تنطوى إلا على الشر. ولا تترك في النفوس إلا حسرة وألما .

ومما لا شك فيه كذلك أن فكرة الفضيلة لها جمالها الذاتي الذي تستشعره النفوس وإن لم يتضح حقيقة ماثلة أمام الأعين، ولكن الفضيلة إلى جانب ذلك قوة كامنة إذا ملأت نفس المرء حفزته إلى العمل النافع وإلى النشاط المثمر؛ وعن طريق هذا النشاط تصبح الفضيلة حقيقة حسية بعد أن كانت قوة معنوية كامنة في النفوس. أما الشعور بالجمال فإنه إذا نظرنا إليه في حقيقته المجردة وجدنا أنه لا يتصل بتاتا بميدان النشاط والعمل. ولاسيما إذا كان موضوع هذا الشعور لا يرتبط بإرادتنا: فنحن قد نتأمل بإعجاب عظمة القبة السماوية دون أن يبعث فينا هذا الإعجاب أية فكرة لمحاكاتها،

وحتى في الحالات التى يفكر فيها الفنان في إبراز شعوره وتحقيقه عن طريق العمل الإيجابي ، نجد أن هذه الرغبة التى تخامر نفسه ليست قوة قاهرة أو ملزمة بحيث تفرض عليه حتما أن ينفذها ويخرجها إلى حيز الوجود . إن فكرة الجمال تدعوه في رفق وفي دعة لأن يحققها حينما تصبح الرغبة في نفسه مُلحة ، وحينما يتاح له الوقت لذلك؛ وحتى مع تسليمنا بأن فكرة الجمال قد تفرض نفسها على بعض الفنانين وتحفزهم إلى العمل، فإن هذا الفرض لا يقع على نفوس جميع الفنانين بالقدر نفسه من الضرورة .

ويمكننا أن نقول كذلك : إن الشعور الفني لا يتعارض هو والعواطف، بل إنه يعبر عنها، على حين أن الشعور الأخلاقي قد يتعارض هو والعواطف. ويوجهها أحيانا وجهة ربما لا تميل إليها . ولا ترتضيها بطبيعتها .

وأخيرًا فإن الخطأ أو الإهمال بالنسبة للعمل الفني قد يصدم الحس، ولكن لايتحتم لذلك أن يثير الضمائر. ولا ينحرف المرء عن الأخلاق لمجرد أنه أخطأ أو أهمل في أداء عمل فني .

كل هذه الملاحظات تشعرنا بأن مجال الشعور الأخلاقي غير مجال الشعور الجمالي: فالخير الأخلاقي يتصف بتلك السلطة الملزمة التي يتقيد بها الجميع، وبتلك الضرورة التى يشعر بها المرء من وجوب تنفيذ أوامر محددة، بغض النظر عما تكون عليه حالة عواطفه . وسوف نرى بعد قليل كيف أبرز لنا القرآن هذه الضرورة، وكيف حدد لنا واجباتنا الخاصة والعامة .

والآن بعد أن وضحنا مبدأ الإلزام ، وبيَّنا كيف يرتبط بشروط كل حياة أخلاقية، نبحث في مصادر هذا الإلزام على ضوء بعض المذاهب الفلسفية، ثم ننظر في موقف القرآن من هذه التفسيرات الفلسفية .

يرجع علماء الاجتماع الإلزام الخلقي إلى سلطة المجتمع: فقواعد الأخلاق تُفرض على الأفراد داخل نطاق مجتمع معين، ولكل شعب قواعد خلقية تسود فيه في حقبة

معينة من الزمن، وباسم هذه القواعد التى تسود فيه تصدر المحاكم أحكامها، ويظهر الرأي العام سخطه أو رضاه. والأفراد داخل نطاق المجتمع يُجبرون على التزام هذه القواعد ولو لم ترق لهم: أو لم تنشأ هذه القواعد لتنظيم علاقات الأفراد دون النظر إلى أهوائهم الشخصية؟ والمرء إذا انحرف عن القواعد التى رسمها له المجتمع، فإن هذا الانحراف يحدث موجة من الامتعاض تثير ضمير المجتمع؛ ولذا فإن المجتمع يدرأ ما قد يلحق به من الضرر عن طريق الجزاءات الاجتماعية المختلفة التى تتدرج من التأنيب، واستهجان الرأي العام ، إلى العقوبة بمعناها الحقيقي. ومجموعة التصورات الجمعية (وهي التي نتجت عن تبلور العادات والتقاليد والمعتقدات إلخ..) ، هي التى تحدد ضمير المجتمع. وهذا الضمير الجمعي هو الذي يتردد صداه أو ينعكس في ضمير الفرد؛ فالمجتمع هو الذي يملي علينا طريقة تفكيرنا وطريقة تصرفنا، وإذا كانت لنا المثل العليا فإنها ناتجة عن رغبتنا في إرضاء المجتمع، أما آلامنا ووخز الضمير الذي نتعرض له أحياناً فإنها نتيجة ما نقدم عليه من خرق القواعد التي رسمها المجتمع .

إن علماء المدرسة الاجتماعية وعلى رأسهم «دوركايم» Durkheim يفسرون جميع القيم، بما في ذلك القيم الأخلاقية، بأنها صادرة عن المجتمع. وهذا المصدر، أي المجتمع، هو الذي تستمد منه الظاهرة الأخلاقية طابع التقديس، وقد حرص دوركايم، في تحليله لهذه الخاصية، على عدم ضياع القوة العاطفية التى تكمن في العمل الأخلاقي، والتى تكسبه ذلك النشاط التلقائي، وتيسر له الانتشار بين النفوس؛ ثم انتقل من ذلك إلى غرضه الأساسي وهو أن يجعل من المجتمع دين الفرد والغاية القصوى التي يهدف إليها الفرد من نشاطه. ولا يتسنى ذلك إلا إذا ظهر المجتمع بمظهر الكائن الأعلى الذي يسمو على الفرد، ويكون أهلا لتعلقه به في آن واحد .

حرص المذهب الاجتماعي إذن على أن تكون «التربية الأخلاقية» عقليةً صرفة، وأراد أن يبعد كل تأثير للعقائد الدينية في بث عناصر الأخلاق في النفوس، ومع ذلك

فقد أدرك أن للعاطفة وللشعور مكانا في الحاسة الخلقية، ولكنه بدلا من أن يربط هذه العاطفة أو هذا الشعور بقوة معنوية، هي فكرة الإله الذي تحض الأديان على عبادته، وتجعل في إرضائه أسمى غاية لكل عمل أخلاقي، ربطها بفكرة الجماعة التى يجب أن يتعلق بها الفرد؛ لأنها مصدر ما يتمتع به من الخير، بل مصدر ما يتمتع به من صفة الإنسانية.

هذه هي وجهة نظر المدرسة الاجتماعية في مصدر الإلزام الخلقي، وهي كما نرى تفصل مجال الأخلاق عن مجال الدين، وتربط الإلزام الخلقي بالسلطة المنبعثة من المجتمع.

ويكفي في نقد هذا المذهب أن نقول: إن المثالية الأخلاقية تصبح حينئذ في أن يجرد الإنسان نفسه من كل نوازعه الداخلية ومن كل ميل أو رغبة نحو التمرد على المجتمع ونظمه ؛ وعلى هذا الأساس كيف نفسر ظهور المصلحين والزعماء والقديسين الذين يدفعون بمجتمعاتهم خطوات نحو الأمام، ويخرجون على النظم والأوضاع السائدة في المجتمع؟

لقد فطن «برجسون» إلى هذا النقص، وهو فيلسوف فرنسي من فلاسفة القرن الحالي. فبين في كتابه «مصدر الأخلاق والدين» أن الإلزام الخلقي لا ينبعث عن مصدر واحد بل عن مصدرين: أحدهما سلطة المجتمع، وهو يتفق في ذلك مع علماء الاجتماع؛ والآخر قوة الإلهام التى تدفع بعض النفوس إلى إعلاء القيم الإنسانية ومحاولة الاتصال بالقوة الخالقة العليا مصدر الخير جميعه.

أما من حيث المصدر الأول فإن قيام الإنسان بواجبه لا يعدو في نظر «برجسون» قيامه بوظيفة اجتماعية معينة، وسيره في الطريق الذي رسمه له المجتمع. وهذا الواجب لا يلبث أن يصبح تحت تأثير العادة غير ملحوظ يؤديه المرء بصفة تلقائية، كما تؤدى النحلة واجبها في جمع الرحيق وبناء الخلية. وإذا حاول الفرد أن يقاوم هذا الواجب، أو أن يغير خط السير الذي رسم له، فإنه يجبر على العودة إليه ، إن عاجلا أو آجلا،

وســواء رضيَّ أم لم يرض؛ وذلـك بفضل القـوة القـاهرة الـتي تفرضهـا علينـا الحيـاة الاجتماعية .

أما المظهر الآخـر للإلزام فيختلف عن هذا المظهر تماما ؛ فإذا كان هذا المظهر الأول للإلزام الخلقي يعبر عما يسود في المجتمع من حالة خلقية عامة نتيجة لجبرية المجتمع، فإن المظهر الآخر يعبر عن حال ممتازة من السمو الأخلاقي، يعبر عن التطلع نحو المثل العليا. ومـا هو إلا حـالٌ من الحب الخـالق، الذي لا يقتصر على دفع سـلوك المرء نحو غايات أسمى فحسب، بل يجعل كذلـك من هذا الفرد قائدًا أو زعيمًا أو مصلحًا يجذب المجتمع وراءه، ويوجهه بدلا من أن يتلقي منه التوجيه .

وأول مـا نوجــه من النقـد إلى مذهـب برجســون أن فكرة الإلـزام إذا أصبحت غريزيــة، تحت تأثير الحياة الاجتماعيــة ، أو أصبحت بجرد عـادة توجـه الفرد بطريقـة تلقائيـة تبعًـا لرغبـات المجتمع، فقـد انتفت عنهـا صفـة الخلقيـة، وأصبح حكمهـا حكم الغرائز الأخـرى التى توجه الإنسـان في مختلف شـئون حياتـه وتعينـه على حفظ كيانه. ولا يمكننـا أن نضفـى صفـة الأخـلاق على الغرائز التـى تلزمنـا الدفـا ع عن أنفســنا أو البحث عن القوت؛ وإنما للأخلاق مجال آخر، ولا تظهر القيمة الأخلاقية على حقيقتها إلا إذا وجد الضمـير نفسـه أمـام حالات يتعـين عليه أن يـوازن بينها ويختـار أيها أقوم، وهذا الاختيار لا يخضع لحكم الغريزة ، بل إنه غالبا ما يعارضها. أما في الحال الأخرى أي في حال الإلزام الذي ينبعث عن قوة الإلهام والتطلع إلى المثالية، فإن الشعور يتعدى نطـاق الأخلاق: فالقديس ، الـذي تصبح حياتـه كلها مثلا أعلى، يسـير بحسـب هدى الإلهام دون أن يـتردد، ويحقـق قول «بســكال» حين يقـول : « إن الأخلاق الحقيقيـة تسخر من الأخلاق» .

إن مجال الأخلاق، في الحقيقـة، هو مجال إعمال الفكر والتدبير في الأمور قبل اختيار السلوك؛ فإذا عدمت هذه الشروط بحيث هبط المرء إلى محيط الغريزة أو ارتفع إلى ذرى

القدسية فقد خرج سلوكه عن نطاق الأخلاق بوضعها الإنساني .

وهكذا نرى أن «برجسون» قد أغفل في الإلزام الخلقي عنصرًا هامًا هو العنصر العقلي، وهذا العنصر يقوم على ثلاثة أمور: التدبر الحكيم، وحرية الاختيار، ومشروعية الفعل. هذه هي العوامل الهامة اللازمة لكل حياة أخلاقية؛ فجوهر الأخلاق هو النشاط العاقل المنبعث من باطن الذات.

لننظر الآن كيف يفسر القرآن مصدر الإلزام الخلقي:

إن النفس الإنسانية ، كما تدل على ذلك بعض آيات القرآن، قد عرفت في تكوينها الأول معنى الخير والشر: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٨) .

كما ألهم الإنسان الحس الخلقي، فعرف طريقي الفضيلة والرذيلة: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١٠) ، ولا مراء في أن الطبيعة الإنسانية قد تندفع نحو الشر: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف: ٥٣) ، ولكن الإنسان قادر على أن يكبح جماح شهواته، وإذا لم يكن في مقدور كل إنسان أن يغالب نفسه فيغلبها ، فإن هناك من يتيسر لهم ذلك بفضل العون الإلهي وقد قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبد خيرًا جعل له واعظًا من نفسه يأمره وينهاه».

هناك إذن قوة كامنة في نفس الإنسان، لاتهيئ له النصح ولا تضئ له السبيل فحسب، بل إنها تحدد له ما يجب عمله، وما يجب تحاشيه، هذه السلطة الكامنة التى تسيطر على قدراتنا وعلى غرائزنا السفلى، هي أسمى جزء في نفوسنا، هي العقل: فخارج ما يأمر به العقل لا تكون هناك قاعدة أو سلوك له ما يبرره ، وسلطة العقل هي السلطة الشرعية الوحيدة .

وقد أشعرنا الله بفضل العقل هذا وبما يسبغه على الإنسان من الكرامة الإنسانية

حين قال في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠) ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء : ٧٠) ويخيل إلينا أن القرآن لم يصور لنا النفس الإنسانية . بالرغم من اندفاعها أحيانا نحو الشر، على أنها شريرة في أصلها، بل على العكس نرى في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤) ما يدل على الأصل الطيب. ولا يفسد الإنسان إلا عدم استخدامه للقوى والمواهب التي أودعها الله نفس الإنسان : ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (الأعراف : ١٧٩) فالأمر يتوقف إذن على مدى استخدامنا للقوى العليا التى أودعها ا لله إيانا؛ وتنميةُ هذه القوى وتزكيتها يرفع النفوس، وإهمالها يخفضها إلى الحضيض: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(٩)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس : ٩) .

و لم يقتصر القرآن في دعوته على إشعارنا بضرورة إيقاظ قوانا العقلية، بل إنه عُنِيَ كذلك بإيقاظ مشاعرنا النبيلة بشرط أن تعمل هذه المشاعر تحت رقابة العقل، وهو يدعونا دائمًا لأن نزن الأمور بميزانها الصحيح قبل أن نحكم على قيمتها. ومن المشاعر النبيلة التى تثيرها فينا أخلاق القرآن مشاعرُ الأخوة واحترامُ الكرامة الإنسانية .

ومصادر التشريع الإسلامي بما في ذلك التشريع الأخلاقي أربعة: القرآن، والسنة، والإجماع، والقياس.

أما القرآن فهو كلام الله عز وجل، وهو يعبر عن الإرادة الإلهية؛ فهو إذن المصدر الأساسي للتعاليم والأحكام الدينية والأخلاقية. وتؤكد لنا آيات القرآن هذه الحقيقة: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ (يوسف: ٦٧) وحكمُ الله لا سبيل إلى التشكيك فيه، ﴿لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ (الرعد:٤١) ويبين لنا القرآن كيف أن النبي نفسه لا يخضع للقانون الإلهي فحسب، بل إنه أول من يخضع له : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢)لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

(الأنعام: ١٦٣) .

فإذا كان الأمر كذلك فماذا يعني إذن القول بأن هناك مصادر أخرى للإلزام إلى جانب القرآن؟ وهل تشارك الحكمة الإلهية أنواعٌ أخرى من الحكمة لها القوة الآمرة نفسها؟ لننظر في حقيقة السلطة التي تتمتع بها المصادر الأخرى.

لقد أجمع رجال الفقه على أن القواعد العملية التي اتبعها الرسول ﷺ ، أي السنة، هي المصدر الهام الثاني للتشريع الإسلامي بعد كلام الله . والقرآن نفسه يحث المؤمنين على الأخذ بما يعمل به الرسول ﷺ. ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (النساء :٨٠) ، ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (الحشر:٧)

ولكن إذا نظرنا إلى الأمر عن كثب وجدنا أن الإلزام الذي يأتي عن الرسول ﷺ لا يكون إلزاما حقيقيًا ونهائيًا إلا إذا كان مصدره الوحي، أما الأفعال الأخرى التي تنتفي عنها صفة الوحي الإلهي فإن سلطتها ليست ملزمة إلزاما كليا. وهذا التمييز واضح في القرآن : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الأنفال: ٢٤) على أن الرسول نفسه قد أوضح ذلك بصفة قاطعة حين قال: «إذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به، فإني لن أكذب على الله»[١] . وقد أعلن كذلك أن رأيه قد يخطئ في تقدير أشياء الحياة المادية حيث يقول عليه السلام: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[٢] . وقد كان يحدث حين يؤم الرسول المسلمين أن ينسى شيئا أو يضيف شيئا، فيسأله الناس في ذلك فيجيبهم: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون. فإذا نسيت فذكروني»[٣] .

---

(١) ابن ماجة عن سماك ك/ الأحكام ب/ تلقيح النخل (٢٤٦١) .

(٢) مسلم عن عائشة وعن ثابت وعن أنس ك/ الفضائل ب/ وجوب إمتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره من ٤٣٥٨) .

(٣) البخاري عن علقمة ك/ الصلاة ب/ التوجيه نحو القبلة حيث كان (٣٨٦) ومسلم عن علقمة ك/ المساجد ومواضع الصلاة ب/ السهو في الصلاة (٨٨٩) .

فالرسول ﷺ يبلغ الرسالة ويوضحها للناس، وأوامره وأحكامه إذا لم ينزل الوحي بما ينقضها أو بما يعدلها تصبح في حكم الأحكام الإلهية، كما أن تصرفاته والقواعد العملية التي يرسمها. يضعها المسلمون أمامهم مثالا يحتذون حذوه، ما دام لم يعترض عليها. وخلاصة القول أن أحاديث الرسول الصحيحة الموثوق بصحة نسبها إليه تعد ملزمة كإلزام القرآن؛ لأنها ليست إلا تعبيرًا عن الإرادة الإلهية .

ننتقل الآن إلى المصدر الثالث للإلزام في التشريع الإسلامي وهو الإجماع. إن السلطة التى تنبعث عن الإجماع يمكن الاستدلال عليها من بعض آيات القرآن: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ (آل عمران: ١١٠) . وسواء أكانت هذه الآية موجهة إلى الأمة المحمدية عامة أم إلى الجيل الأول منها ، وهو ما يبدو أكثر احتمالا، أي إلى الجيل الذي عاصر نزول الوحي، فهي تبين على كل حال أن هناك جماعة من الناس يعترف القرآن لها بحصافة الرأي ولا سيما في مسائل الأخلاق، فلا يمكن أن ينقلب ميزان الأمور بين يديها، فتبيح الشر وتمنع الخير. وفي القرآن آية أخرى تحض على الخضوع لسلطة أولي الأمر، ولكن بشرط أن نرجع إلى المصدرين الأولين، أي إلى القرآن والسنة ، في حال الاختلاف على أمر من الأمور: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ (النساء: ٥٩) .

ويجب ألا نفهم من كلمة «الإجماع» أن الإجماع يتحقق بالتصويت أو بالاستفتاء العام بين المسلمين جميعا، بحيث تشترك جميعُ العقول سواء من تفقه منها في أمور الدين أو من لم يتفقه في تقرير أمر من الأمور، كما أن الإجماع لا يعنى اجتماع نخبة من الناس في شكل هيئة أو مجمع ديني في مكان معين لبحث أمور تتعلق بالفقه أو بالاقتصاد أو بالسياسة؛ إن الإجماع لا يشبه في موضوعه ولا في شكله مثل هذه التنظيمات الغربية .

أما من حيث الموضوع فوظيفة الإجماع هي اتخاذ قرار في مسألة جديدة تتعلق بالسلوك الأخلاقي أو بالتشريع أو بالعبادة. والمسائل التي يبحثها الإجماع مسائل فرعية لا تتصل بالعقيدة ذاتها؛ فالمسلم لا يستعين بسلطة الآخرين لكي يبرر عقيدته. وما دام إجماع الرأي يتحقق في أمر من الأمور فذلك هو المطلوب ، ولا يهم بعد ذلك الشكل الخارجي للهيئة التى اتخذت ذلك القرار الإجماعي: فسواء أكانت هذه الهيئة مكونة من أعضاء رسميين نصبتهم الدولة، أم من أعضاء اختارهم الشعب للإفتاء في أمر من الأمور، وسواء اجتمع هؤلاء الأعضاء في صعيد واحد، أم اتخذوا قرارهم الإجماعي متفرقين. فإن هذا جميعه لا يؤثر في قيمة النتيجة التى وصلوا إليها، ما داموا قد وصلوا إليها بالطرق الصحيحة. وجوهر الأمر أن يكون كل عضو شاعرًا باستقلاله التام في التفكير وبمسئوليته الأخلاقية وأن يعبر عن رأيه بحرية بعد أن يُقلب المسألة التى يبحثها على جميع وجوهها. ويجب أن نلاحظ أن من يُرجع إليهم في الرأي إنما هم العلماء المتفقهون في المسائل التي يستشارون فيها، كما يجب أن يكون تحت أيديهم الوثائق الضرورية والشواهد التي يعتمدون عليها في تقرير رأيهم، ويجب أن يكونوا من المتضلعين في تاريخ الفقه الإسلامي عارفين بظروف تكوينه وبحلقات تطوره .

فالإجماع ، في التشريع الإسلامي، ليس كما يدعى بعض علماء الغرب مجموعة آراء تعسفية تلقى جزافا، بل إنه يعبر عن الوحدة التى تأتى عن طريق الاقتناع . وهذا الاقتناع تفرضه الحقيقة على جميع العقول المستنيرة. وإذا كان العلماء يصلون في مسألة ما إلى الإجماع فما ذلك، في الحقيقة، إلا لأنهم يرجعون إلى النصوص القرآنية وإلى الأحاديث النبوية محاولين أن يستخلصوا منها الرأي الأمثل. واتفاقهم على رأى معين بعد التمحيص معناه أن هذا الرأي هو الصواب أو هو أقرب الآراء إلى الصواب، وعلى هذا الأساس يلتزمه المسلمون جميعا.

ننتقل أخيرًا إلى الكلام عن القياس: فبينما ترى المدرسة «الظاهرية» في الفقه أن من

الواجب الاقتصار على المصادر الثلاثة التى تكلمنا عنها ، وهي (الكتاب والسنة والإجماع) ، فإن المدارس الأخرى ترى أن هناك مصدرًا رابعًا أساسه القياس على الأمثلة التى وضعها الصحابة وعلى الآراء التى تصرف بمقتضاها من جاء بعدهم من قادة المسلمين. والقياس عليها فيما يعرض من حالات جديدة: فإذا كانت الحال النموذجية قد اشتق الحكم فيها رأسا من القرآن أو السنة أو الإجماع، فلا خلاف إذن على القياس عليها ، ولكن قد تعرض بعض الحالات التي لا يكون فيها حكم القرآن أو السنة صريحا، فيترك الأمر للاجتهاد الشخصي: ولنضرب مثلا لبعض تلك الحالات: هل يُسمح لنا في حال الحرب أن نصوّب أسلحتنا نحو العدو وهو يتقدم محتميا بأسرانا الذين يضعهم في المقدمة؟ إننا إذا أطلقنا الرصاص قد نقتل أرواحا بريئة، وقد يكون في ذلك مخالفة للآية التي تقول: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ (الإسراء:٣٣) . ولكن الإمام «مالك» أفتى في ذلك بالحل الذي يضمن أخف الضررين: أفتى بمواصلة القتال؛ لأن التوقف عنه قد يودى بمصلحة الجماعة الإسلامية بأسرها، وإذا انتصر العدو فإنه سيقتل أكبر عدد من المسلمين، ولن يكون الأسرى الذين أردنا حمايتهم أحسن حظا من غيرهم؛ فاستنباط حل جديد، ولو كان في ذلك بعض المخالفة لحرفية القانون، يباح في نظر بعض الفقهاء إذا كان الغرض منه تحقيق المصلحة العامة.

* * *

ننتقل الآن إلى مسألة أخرى وهي الخاصة بوحدة الإلزام الخلقي أو تعدده، وسنرى فيها أيضا رأي الفلاسفة ورأي القرآن:

إذا كان القانون الأخلاقي عاما تعين أن تكون قواعد السلوك التى يفرضها علينا ثابتة لا تتغير، أما إذا كان نسبيا فإن هذه القواعد تصبح مما يحتمل التغيير والتعديل تبعا لتغير ظروف الحياة .

هذه، في الواقع، مشكلة من أهم مشكلات علم الأخلاق: فإما أن نحتفظ بوحدة القانون الأخلاقي وإما أن نحترم تنوع الطبيعة واختلاف ظروف الحياة، وإما أن تحتفظ القاعدة بصرامتها أو تنثني تبعًا لتركيب شئون الحياة وتعقدها ، وإما أن نصعد إلى المثال الخالص الأبدي أو نهبط إلى مجال الواقع المتغير. ونحن كلما اقتربنا من أحد هذين القطبين زاد بُعدنا عن الآخر، ولنكتف الآن بعرض المشكلة على أن ننظر في كيفية التوفيق بين طرفيها فيما بعد.

السلطة والحرية: وهناك مشكلة أخرى تتصل بهذه المشكلة الأولى: فالإلزام يوحي بوجود علاقة تضع إرادتين وجها لوجه: إرادة المشرع الذي يأمر وهو حريص على سلطته، وإرادة المشّرع له الذي يتصرف وهو حريص على حريته. وسلطة المشرع يزداد احترامها وتقديرها في النفوس كلما كانت القواعد التى تقررها هذه السلطة ثابتة الأسس وطيدة البنيان لا تزعزعها تقلبات الظروف الفردية. ومعنى ذلك أن الإلزام المطلق يقابله بالضرورة خضوع تام وانتفاء للحرية؛ وحينئذ نتساءل: وما فائدة الضمير الأخلاقي ، إذا كان وجوده أو عدمه لا يغير شيئا مما فُرض علينا ؟

ونحن إذا نظرنا، من ناحية أخرى، بعين الاعتبار إلى قيمة هذا الضمير، ومنحناه حرية الاختيار والتصرف المطلقة فستكون النتيجة عكسية، ويصبح الإلزام مجرد نصيحة يمكن أن نقبلها أو نرفضها بحسب تقديراتنا الشخصية .

ما الذي يتعين علينا بإزاء هذه المشكلات المتعارضة؟ هل يجب أن نختار بين أحد الاتجاهين المتضادين، أو نحاول الالتقاء بهما في منتصف الطريق؟ وإذا تعين الاختيار فأي الاتجاهين نختار؟ وإذا تعين التوفيق فعلى أي أساس يكون التوفيق؟

هذه هي بعض مشكلات الأخلاق العويصة، فلننظر الآن في الحلول التى اقترحت للتغلب عليها، وسنرى أن المذاهب المختلفة قد نزع كل منها إلى أحد الاتجاهات، على حين أن القرآن قد استطاع بمذهبه الأخلاقي أن يوفق توفيقا محكما بين هذه الدوافع

المختلفة. وقد اخترنا من بين المذاهب الفلسفية مذهبين : أحدهما يمثل الاتجاه نحو السلطة الصارمة لفكرة الواجب وهو مذهب «كانت» ؛ والآخر يمثل الاتجاه نحو إعلاء القيمة الذاتية للنفس واحترام الابتكار الشخصي وهو مذهب « رو Rauh».

كان مذهب الفيلسوف الألماني «كانت» ثورة على المذاهب التي أضعفت سلطة الأخلاق، وأخضعتها لمطالب الحياة المدنية المترفة، فأراد أن يضع حدًا فاصلاً بين فكرة الأخلاق وفكرة الحياة الحسية، وقد ذهب في ذلك إلى أبعد حد ممكن، فجرد معنى الواجب من كل ما قد يعلق به من شئون التجربة الحسية، بل جرّده أيضًا من مادته التي تظهر في شكل القواعد المختلفة، ونظر إليه ، في صيغة شكلية مجردة Caractere formel وجعل منه قانونا عامًا يصلح لأن يطبق على كل إرادة، ومن هنا جاء تعريفه للواجب بأنه : «كل سلوك يمكن أن يصاغ في قاعدة عامة بدون أن يكون عرضة لنقد العقل أو تسخيفه له » . وبهذه الطريقة استطاع أن يقدر قيمة الواجبات الخاصة، من حيث إنها أخلاقية أو لا أخلاقية، وذلك بوزنها بذلك الميزان الوحيد وهو: مقدار صلاحيتها لأن تكون واجبات عامة تفرض على كل إنسان. وعمومية القانون الأخلاقي عند «كانت» يمكن أن تصاغ في هذه العبارة: « تصرف بحيث يمكن القاعدة التى تخضع لها إرادتك أن تسري كمبدأ يُتخذ أساسًا لتشريع عام» .

ولننصرف الآن إلى نقد هذا المذهب الذي أجمع مؤرخو المذاهب الأخلاقية على أنه أسمى ما عُرف عن فكرة القانون الأخلاقي.

وأول ما نلاحظه أن الارتباط ليس ضروريا بين فكرة العموم وفكرة الأخلاق، وقد يؤدى بنا تطبيق فكرة «كانت» إلى أنواع من الخلط بين القيم الأخلاقية، وذلك حين تعطى المرء الحق في أن يضفي الصفة الأخلاقية على كل فعل يسمح له ضميره بأن يعممه فمن هذه الأفعال التي يسمح لنا ضميرنا بأن نعممها ما قد يكون غير أخلاقي، إن لم يكن في نظر الرأي العام فعلى الأقل في نظر «كانت» ذلك الفيلسوف

الذي كـان يسمو بـالأخلاق إلى مرتبـة رفيعة: مثـال ذلك تصرف الطبيب الذي يخدع المريـض أو يكذب عليـه إذا وجـد أن في ذلك مـا قد يُسـاعد على شـفائه ، وتصرفُ الإنسـان المرهف الحس حين يفضل الانتحـار على تحمل إهانـة تنال من شـرفه: إننا إذا سـألنا ضمـيرَ أو عاطفـة من يقدمـون على مثل هذه التصرفـات ، وهـي بلا شـك تمثل خروجًـا واضحًـا على القـانون الأخلاقـي، فـإن هذا الضمـير لن يـتردد في إعطـاء تلك التصرفات صيغـة القانون العام بمعنى أن يحتمهـا على جميع الناس إذا وُجدوا في ظروف مماثلـة، بل إن هناك ما قد يكون أخطر من ذلـك: إذ ماذا يضير الشخص المتبجح الذي ينغمس إلى أذنيـه في الرذيلـة مـن أن يعم تصرفـه هذا بـين النـاس جميعًـا بحيث يحذون حذوه؟

ولنسـلم بـأن الإلـزام في أداء الواجب إلـزام عـام. ولكـن هذا لا يمنـع مـن أن نميز درجـات من هذا ا لعموم: فهنـاك الواجب الأبوي، والواجب الزوجي، والواجب على الرئيـس لمرءوسـيه، والواجب على الصديـق لصديقـه، والواجب علـى المواطن لوطنـه، والواجب علـى الإنسان بصفـة عامـة للإنسانية. وهنـاك واجب العمل وواجب التفكير وواجب الحب: فهل نسـتطيع أن نعمم جميع هذه المعـاني على جميع الأشخاص، وعلى جميـع الأشـياء بنسـبة واحدة؟ وهـل نسـتطيع مثلا أن نطلب مـن زوج أن يعامل نسـاء العالم جميعا كما يعـامل زوجته؟ إن الواجب في مثل هـذه الحال إذا تعدى نطاقًا خاصًا لم يصبح واجبًـا، بل إنـه قد يصبح جريمـة: فصفـة العموم التـى نلحقها بفكرة الواجب إذن صفة نسبية، ولا نستطيع أن نحدد مداها إلا بالنسبة لظروف خاصة، ولا يكفي أن نقول إن الأخلاق هي أداء الواجبـات التي يقتنع المرء بضـرورة تعميمها بالنسـبة لجميع النـاس، بل إن تقسـيم الواجبـات وتعريفهـا وتحديدها مسـألة جوهريـة يجب أن توليها الأخلاق أكبر شطر من عنايتها .

فلننظر الآن في النظرية المضادة، أي في نظرية «رو».

يبلغ التضـاد بين «كـانت» ومعارضيــه مداه عنـد «جوبو» الـذي أراد أن يقصر الأخلاق على نوع من الشعور بالجمال؛ وعند «نيتشة» الذي جعل السيادة لقوة الحياة وحكم علـى الأخلاق بأنها أخلاق العبيد، وأنها من صنع الإنسـان، وأن الإنسان يجب أن يتخطاها ليصبح إنسانًا متفوقًا (سوبرمان) .

غير أن هنـاك فيلسـوفًا لم يذهب هذا المذهب الثوري، ولم ينزع إلى القضاء نهائيًا على فكرة الإلزام، ولكنـه مـع اعترافه بسيطرة فكـرة الواجب على الفرد، رأى أن من حق الفرد أن يتمتـع بشـيء من الحريـة في اسـتنباط قواعد السـلوك التـى يلتزمها. هذا الفيلسوف هو « رو Rauh» .

لقد كـان «رو» علـى حق حين أعلـن أن أيـة قـاعدة عامـة لا يمكـن أن تنظم جميع الوقائع الحسـية الخاصـة، وكما أننـا لا نستطيع أن نحدد نقطـة على خريطـة إلا بالنسبة لنقطة أخرى، ولا نستطيع أن نفسر كلمة في عبارة إلا إذا راعينا سياق الحديث، وكما أن الطبيب لا يسـتطيع أن يؤكد مفعـول الدواء إلا إذ أدخل في حســابه مزاج المريض الخـاص وتطـورات مرضـه، فكذلك عـالم الأخـلاق لا يسـتطيع أن يغفل من التصرف الإنســاني عـامل الزمــان والمكـان؛ لأن التصرف في جوهـره يحدث في زمـان ومكـان معينين، ولا يكفـي في السلوك أن نحكم بمشـروعيته منطقيًا بل يجب أن ننظر إلى إمكان تحقيقـه عمليا، وإلى إمكان انسـجامه مع الظروف المحيطـة: ومعنى ذلك أنه يتحتم علينا قبـل أن نتخذ قـرارًا مـا، أن نحيـط علمًــا بالحقـائق الموضوعيــة لا في حالهــا المعـاصرة فحسب، بل في تاريخهـا وتطورها كذلك، ولا يقتصر الأمر على ذلك ؛ بل يجب أيضًا أن نحسب حسابًا في الوقت نفسه ، لاختلاف العوامل النفسية التي تحدد تصرفاتنا، وإذا أدمجنـا هذين النوعين من التحوطات كل في الآخر وجدنا أننا نحصل في حال تُعرض لنا على تصرف مُبتكـر . ويذكرنـا ذلك بقول بعـض الفلاسـفة: إن لحظتين مـن لحظات التاريخ لا يمكـن أن تتشـابها تشـابهًا مطلقـا؛ فالحياة الأخلاقيـة بنـاء على ذلك تتصف

بالنسبية المحضة .

ولا يصعب علينا أن نبين أن «رو» قد أغرق هو الآخر في المبالغة: فعدم التطابق التام بين لحظتين من لحظات التاريخ أو من لحظات الحياة، لا ينفي بتاتًا وجود نوع من التشابه بينهما، ووجود مقياس مشترك يمكن عن طريقة النظرُ إليهما. والصفاتُ المميزةُ للفرد لا تنفى مطلقًا وجود صفات نوعية. ومرور الحوادث خلال الزمن لا ينفي أبدًا بقاء آثارها . إن هذا الفيلسوف يدعونا لكي نركز جهودنا على اللحظة الحاضرة، ويدفعنا في صراحة لأن نتحرر من المبادئ العامة ومن المثل العليا: فبدلاً من أن نُخضع لها أفعالنا، يجب أن نُخضعها هي للتجربة؛ ولا تقتصر النتيجة حينئذ على إعطاء كل امرئ الحق في أن يشرع لنفسه واجباته بحسب ما يلائم طبعه واستعداداته ومطامحه فحسب، بل إن الشخص الواحد يصبح في حل من إعادة النظر على الدوام فيما رتب لنفسه من قواعد، ويصبح في حل من أن يهدم في كل لحظة ما انتهى من بنائه في اللحظة السابقة!

ظهر بوضوح أن المذاهب الأخلاقية التي استعرضناها لم تبرز من الحقيقة الأخلاقية - وهي حقيقة مركبة متشابكة - إلا بعض وجوهها، والمتتبع لتاريخ الفلسفة يلاحظ العيب نفسه في المذاهب الكبرى التي تتعرض لنظرية المعرفة: فهناك المذهب المثالي، والمذهب الواقعي، والمذهب العقلي ، والمذهب التجريبي، وكلها يتعارض بعضها وبعضها الآخر، لا لسبب إلا لأنها ادعت لنفسها إمكان تفسير المعرفة الإنسانية بالرجوع إلى مبدأ وحيد .

وما حدث بالنسبة للفلسفة النظرية حدث كذلك بالنسبة للأخلاق: فأراد فلاسفة الأخلاق كل بدوره أن يبني قواعد الأخلاق على مبدأ وحيد: فهو أحيانًا مبدأ السعادة، وأحيانا مبدأ اللذة، وأحيانًا مبدأ المنفعة، وأحيانًا مبدأ العقل إلخ .. والحقيقة أنه لا يكفي لتوجيه إرادتنا أن نرجع إلى قاعدة عامة، أو أن نحلل بدقة الموقف الخاص

الذي نجدُ أنفسنا فيه، بل إننا نحتاج إلى الجمع بين هذين الشرطين، وإلى التوفيق بين مثال أعلى يأتينا من مصدر علوي، وبين الحقيقة الواقعية التي نعيش في وسطها، ومهمة الضمير الأخلاقي هي أن يكون همزة الوصل بين المثالي والواقعي، بين المطلق والنسبي بحيث يتحقق للفعل الأخلاقي الثبات الذي يميز كل قانون عام، والتنوع الذي يلائم ظروف الحياة، ويشعر الإنسان بذاتيته وبحريته في التصرف.

والإلزام الخلقي في القرآن يقوم على مراعاة هذه الحقيقة المزدوجة . فلنستمع إلى القرآن حين يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦) . ألا نلاحظ الصفة المميزة لهذه الصيغة. إنه لا يقول لنا: اعملوا ما يتراءى لكم أنه الأحسن بحسب وحي الساعة، كما أننا لا نرى في هذه الصيغة الأمر الصارم الذي لا يقبل استثناءًا ولا تعديلا. إن هذه الآية القصيرة لا تترك الحبل على الغارب، كما أنها لا تحدد تحديدًا صارمًا عنيفًا؛ ومع ذلك فقد جمعت بين الاتجاهين. وفي هذه الكلمات الموجزة الواضحة يدعونا القرآن لأن نوجه أنظارنا نحو الله وأن نطيع أوامره، وأن نعمل ما في وسعنا للتوفيق بين أوامر الله ومقتضيات الحقيقة الواقعية؛ وبذلك تتصل الحلقات التى حاول الفلاسفة فصمها، ويتحقق الارتفاع نحو المثال الأعلى مع مراعاة ما تقتضيه الطبيعة الإنسانية . وإذا شئت فقل: يتحقق الخضوع للقانون وحرية الإرادة .

إن ضمير المؤمن لا يسمح له بأن يقوم بأفعال غير مشروعة إلا إذا كان أمام ضرورة لا محيص عنها، وفي هذه الحال لا يؤاخذ بما فعل، كما أن الله يصفح عنه إذا أخطأ عن غير تعمد: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (الأحزاب: ٥) . هناك أشياء لم تفصل تفصيلا واضحًا وفي هذه الحال قد نخطىء في تفسيرها أو تعريفها . وهذا الاحتمال هو نتيجةٌ طبيعية لإنسانيتنا ولحرية الاختيار والتصرف التى منحناها .

وواجب المؤمن هو أن يحاول، في حال الشك، أن يتبين في إخلاص ما يتفق مع

أوامر الله، فإذا أخطأ بعد ذلك فهو ليس بمذنب ما دام قد بذل الجهد الضروري الذي في وسعه .

على أن الأمور إذا اشتبهت علينا فمن الخير أن نتقي الشبهات ، وقد أكد الرسول ﷺ ذلك مستوحيًا الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء: ٣٦) ، فقال: «**الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات. فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه**»[١] ، وقال كذلك: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ؛ فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**»[٢] . ولما سُئل الرسول عن تعريف الخير والشر أجاب: «**استفت قلبك، واستفت نفسك: البر ما اطمأنت إليه النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**»[٣] .

هذا هو موقف القرآن من الإلزام الخلقي: دعوة إلى اتباع القواعد العامة التي أمر بها الله مع ترك حرية التصرف والاختيار للمرء في نطاق التفاصيل التي تعرضُ لنا تبعًا لتغير ظروف الحياة: لا يدعى القانون الأخلاقي في القرآن أن هناك طريقة واحدة لفهم القاعدة، وأن هناك طريقة واحدة لتطبيقها ، وأن هناك طريقة واحدة للتوفيق بينها وبين القواعد الأخرى، فالقاعدة مهما بلغت من الدقة والإحكام تترك أحيانًا بعض التفصيل دون تحديد؛ وهنا يظهر مجال الاجتهاد الشخصي والتفكيرُ المستقل الحر، والاعتمادُ على ملكة العقل التى أودعها الله الناس .

فالمجهود الفردي واجب في نطاق الأخلاق، وهو مجهود يحبذه القرآن ويدعو إليه .

والخلاصة أن القواعد العامة للأخلاق ليست من صنعنا، بل إننا قد تلقيناها عن المشرع الأسمى، ونستطيع أن نستنبطها من كتابه العزيز وسُنة رسوله الكريم؛ أما الواجبات الخاصة فإننا نكيفها تبعًا لظروف حياتنا على شرط ألا نخرج بها عما رسمه لنا المثال الأعلى، وأن نبذل فيها الجهد لنتبين وجه الحق والعدل .

---

(١) البخاري عن النعمان بن بشير ك/ الإيمان ب/ فضل من استبرأ لدينه (٥٠) مسلم عن النعمان بن بشير ك/ المساقاة ب/ أخذ الحلال وترك الشبهات (٢٩٩٦) .

(٢) الترمذي عن أبى الحوراء السعدي . ك/ صفة القيامة والرقائق والورع ب/ منه (٢٤٤٢)

(٣) الدارمي عن وابصة بن معبد الأسدي . ك/ البيوع ب/ دع ما يريبك إلى مالا يريبك (١٤٢١).

دستور الأخلاق في القرآن

بقلم المفكر الإسلامي الكبير
محمد عبدالله السمان(*)

هذا الكتاب القيم الذي أسهمت في نشره دار البحوث العلمية بالكويت، ومؤسسة الرسالة في بيروت يقع في زهاء ثمانمائة صفحة من القطع الكبير وهو الدراسة التي استوعبتها الرسالة الأساسية التي نال بها المؤلف دكتوراه الدولة من السوربون والكوليج دي فرانس في ١٥ / ١٢ / ١٩٤٧، وقد كتب المؤلف الرسالة بالفرنسية، وطبعت النسخة الفرنسية على حساب مشيخة الأزهر عام ١٩٥٠، وظلت فكرة تعريبها زهاء ربع قرن تتأرجح بين الأزهر ووزارة الأوقاف المصرية، حتى قيض الله لتحقيق الفكرة من هم أهل لكل عمل جاد، وكل جهد مشكور.

ولا أظن أن القراء بحاجة إلى التعريف بالمؤلف رحمه الله، وهو من العلماء الأفذاذ، القلائل، الذين توافر لهم بسطة في العلم، وقوة في الإيمان، وعزة في النفس والذين قدر لهم أن يعرفوه عن كثب، يدركون أن المغفور له الدكتور محمد عبد الله دراز نموذج رفيع لعالم الدين قد لا يتكرر إلا كل حين ..

أما دراسته التي بين أيدينا : (دستور الأخلاق في القرآن) فهي على المستوى العلمي الرفيع، ولا أظن أن كلمات - أيًا كانت - تفي حقها من التقدير، وقد قدم لهذه الدراسة بمقدمة موجزة مركزة الأستاذ الدكتور السيد محمد بدوي أستاذ علم الاجتماع بجامعة الاسكندرية، الذي قام أيضا بمراجعة الرسالة، وقد عاش معها مرتين: مرة أثناء تأليفها - حيث كان يدرس في باريس، ومرة أثناء ترجمتها، والحق، أن المقدمة

(*) مجلة الوعي الإسلامي - السنة العاشرة العدد ١١٨ .

ـ على إيجازها تلقي أضواء على هذه الرسالة الجامعية، هي بمثابة خلاصة سريعة للأفكار الرئيسية فيها تيسر للقارئ استيعاب هذه الدراسة القيمة .

كذلك كانت كلمة المعرب الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين أستاذ مساعد الدراسات اللغوية بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ـ جديرة بكل تقدير لأنها بمثابة تقييم فني دقيق لرسالة المؤلف، والدكتور عبد الصبور شاهين الذي قضى ثلاثة أعوام متفرغًا لهذا العمل الكبير، عاش بعقله ووجدانه مع هذه الدراسة القيمة، فهو ليس متمكنًا من اللغة الفرنسية ـ وحسب ـ بل هو أيضًا متمكن من دراسة الفكر الإسلامي لذلك لم يشأ أن يقوم بعمل آلي يهتم بالدقة في الترجمة الحرفية للنص الفرنسي، وإنما أراد أن يقدم عملا متكاملاً أقدم عليه، مدركًا أن غيره من العلماء القادرين على الترجمة تردد أكثر من مرة في قبول هذا العمل، وانتهى به المطاف إلى الرفض بأدب لأن دراسة تنسب إلى المؤلف العالم الجليل، لم يتوقع لها إلا أن تكون على مستوى من العمق يحتاج في نقله إلى العربية إلى جهد مضن ـ لا يتوافر له العلم والأناة وحسب ـ بل أيضًا القدرة على الصياغة العربية التى تقارب في أساليبها، أسلوب المؤلف البلاغي العميق، الذي نلمسه فيما كتب باللغة العربية .

إن الهدف الرئيسي من هذه الدراسة ـ كما يقول الدكتور السيد محمد بدوي ـ هو إبراز الطابع العام للأخلاق التي تستمد من كتاب الله الحكيم، وذلك من الناحيتين النظرية والعملية، وتهيمن على الكتاب من أوله إلى آخره، فكرة رئيسية، هي أن الحاسة الخلقية إنبعاث داخلي فطري وأن القانون الأخلاقي، قد طبع في النفس البشرية منذ نشأتها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا(٧)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس:٧،٨) غير أن هذا القانون الأخلاقي المطبوع فينا ناقص وغير كاف وليس فقط. لأن العادة، والوراثة، وأثر البيئة، والمصالح المباشرة تفسد نوازعنا التلقائية، وليس فقط لأن شواغل الحياة في الدنيا تستوعب القسط الأكبر من نشاطنا الواعي بل إن ممارسة الأخلاق في

أحسن الظروف الملائمة تواجه صعوبة أخرى رئيسية وهي أن الضمير إذا اقتصر على مصادره الفطرية وحدها، وجد نفسه عاجزًا في غالب الأحيان عن أن يقدم في جميع الظروف قاعدة ذات طابع عام، تستأثر باعتراف الجميع فإذا تجاوزنا حدًا معينًا نجد أن (اليقين) الأخلاقي قد ترك مكانه للإحتمالات والتردد والمتاهات وهذا هو السبب الذى من أجله بعث الله في الناس - من حين لآخر - نفوسًا متميزة ملهمة بالوحي الرباني.

يجدر بنا هنا قبل أن نعرض لموضوع الدراسة القيمة، أن نجلي للقارئ الفكرة الرئيسية لدى المؤلف - رحمه الله - والتي حدت به إلى اختيار دراسة مضنية شاقة وهذا ما نلمسه من واقع مقدمته، وهذه كلمات وجهها إلى القارئ نفسه حيث يقول: ولسوف يكون لدى قارئنا الواعي فرصة أن يقدر إلى أي مدى يوفى كتابنا - بهذه الشرائط ؛ فلم يكن شروعنا في هذا المؤلف الجديد عن القرآن عبثًا نضيع فيه وقتنا، ونثقل به على قرائنا ونزحم به مكتباتنا، فإذا لم يأت عملنا هذا بشيء جديد في عالم الشرق أو الغرب، فلن يكون سوى مضيعة وزحمة وإثقال .

يرى المؤلف رحمه الله: أن في مؤلفات علم الأخلاق العام، التى كتبها غربيون - فراغًا هائلاً وعميقًا نشأ عن صمتهم المطلق عن علم الأخلاق القرآني، وهذه المؤلفات تذكر لنا بإيجاز أو بإفاضة، المبادئ الأخلاقية كما ارتأتها: الوثنية الإغريقية، ثم أديان اليهودية والمسيحية .. ثم تنقلنا بغتة إلى العصور الحديثة في أوربا مغفلة كل ما يمس الدستور الأخلاقي في القرآن أما المحاولات التى تمت خلال القرن التاسع عشر من أجل استخراج المبادئ الأخلاقية من القرآن فقد كان إطارها في الغالب محدودًا، كما كان مضمونها بعيدًا عن المطابقة الدقيقة للنظرية القرآنية الحقة فمن حيث الإطار نجدهم قد أغفلوا الجانب النظري من المسألة، ومن حيث عيوب المضمون نجد مرجعها إما إلى ترجمات غير صحيحة، وإما إلى تلخيص سيء، وإما إلى الأمرين معًا.

ثم يشير المؤلف إلى أن هـذا هو الدافع الأساسي إلى هـذه الدراسة فقد أصبح من الضروري أن يتناول الموضوع من جديد، وأن يعالج تبعًا لمنهج أكثر سلامة، من أجل تصحيح هـذه الأخطاء ، وملء هـذه الفجوة في المكتبـة الأوربيـة وحتـى نري علمـاء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية ..

* * *

قسم المؤلف الدراسة إلى خمسة فصول:

في الفصل الأول يبحث المؤلف فكرة الإلزام - إن أي مذهب أخلاقي يستند في نهاية الأمر على فكرة الإلزام وإذا لم يعد هنـاك إلزام فلن تكون هناك مسؤولية ، وإذا عدمت المسئولية فلا يمكن أن تعود العدالة وحينئذ تتفشى الفوضى، لا في مجال الواقع فحسب بـل في مجال القـانون أيضـا فإلى أي إتجاه يريد أن يقودنـا بعض أصحـاب النظريات مس المحدثين أمثـال (جييو) في كتابـه (نحو أخلاقيـة بلا إلـزام ولا جزاء؟ إذن فكيف نتصور قـاعدة أخلاقيـة بـدون إلزام؟ أليس هـذا تناقضًـا في الحدود؟ ويعرض المؤلـف بعد ذلك لمصـادر الإلزام الأخلاقي لدى الفلاسـفة والمفكرين، فالفيلسـوف الفرنسـي (برجسون) يكشـف في تحليلـه العميق لقضيـة الإلزام الأخلاقي عن مصدريـن: هما قوة الجذب ذي الرحابـة الإنسانية، المستمدة من العون الإلهـي، وهي قوة أوسع مدى من سابقتها ويرى المؤلف أن عرض (برجسـون) هـذا، إذا نظرنا إليـه علـى أنـه وصف وتحليل لواقع معين نجده في التجربة أمكن القول بأنـه لم يغفل كثيرًا من الأسـاس، أما إذا تناولناه - على أنه نظرية في الإلزام الأخلاقي - فـإن تحليله يحمل بعض الصعوبات وشيئا من الإنحراف عن الجـادة بالنسبـة إلى وجهة النظر القرآنيـة .. أما الفيلسـوف (كانت) الـذي كشف عن مصدر الإلزام الأخلاقي في تلك الملكة العليا في النفـس الإنسانية والتـى توجد مستقلة عن الشـهوة، وعن العـالم الخارجي معـا، فيرى المؤلـف أن (كانت) قـد أحسـن صنعا، برغـم بعض النقص في طريقـة تقديمه لنظريتـه، فـإذا ما رددناهـا إلى أبسـط تعبير عنها،

وخلصناها من جميع مظاهر الدقة الشكلية ونزعتيّ التسامي والتشاؤم، ومن بعض ما شابهما من البرود العاطفي، فهي بعد هذا لا تعد من المسلمات فحسب، بل إنها لتتفق تماما - فيما نرى - مع النظرية المستخلصة من القرآن.

ويطرح المؤلف - رحمه الله - تساؤلا: هل للشريعة الإسلامية مصدر واحد أو عدة مصادر ؟ ثم يعقب قائلا: إن الفقهاء قد حددوا لها بعامة أربعة مصادر: القرآن والسنة، والإجماع والقياس، وإذا كان التحليل الذي قدمنا صحيحا - باستثناء بعض التحديدات التي يجب أن نضيفها إلى هذا القول - فلا ينبغي أن يكون لدينا سوى سلطة لشريعة واحدة بالمعنى الصحيح، والقرآن ذاته لا يفتأ يؤكد لنا هذه الفكرة في كثير من آياته: إن الحكم إلا لله - ألا له الحكم - ولا معقب لحكمه) .

وفي الفصل الثاني يبحث المؤلف فكرة (المسؤولية) فيرى أن فكرة الإلزام، يرتبط بها ناتجان، يستلزم أحدهما الآخر بدوره، ويؤيده ويدعمه، هما فكرة المسئولية، وفكرة الجزاء التي سيعرض لها في الفصل الثالث والواقع - كما يقول المؤلف - أن هذه الثلاث يأخذ بعضها بحجز بعض ولا تقبل الانفصام فإذا ما وجدت الأولى تتابعت الأخريان على أثرها، وإذا اختفت ذهبتا على الفور في أعقابها ..

وفي دراسة المؤلف لفكرة المسئولية بحث الصفات العامة التى تنبع من تحليل هذه الفكرة ، ثم شروطها من الوجهة المزدوجة الأخلاقية والدينية ، وأخيرًا جانبها الاجتماعي ثم قرر المؤلف في النهاية أن القرآن تولى بصفة جوهرية وجهة النظر الأخلاقية ، وراح يقر في هذا الصدد الشروط التي تتفق تمامًا مع المقتضيات المشروعة لأعظم الضمائر استنارة واهتمامًا بالعدالة .

وفي الفصل الثالث ، بحث المؤلف فكرة الجزاء فالعلاقة بين الإنسان والقانون تتمثل لأعيننا في شكل حركة إقبال وإدبار، مكونة من (ثلاثة أزمنة، ولقد كنا مع فكرة الإلزام ما نزال في نقطة البداية، ولكننا مع فكرة الجزاء نجد أن دائرة هذه العلاقة

الجدلية سوف تقفل، والجزاء هو رد فعل القانون على موقف الأشخاص الخاضعين لهذا القانون الـذي هو مطلب لا يقـاوم لأنفسـنا وفرض صـارم لضميرنا الجمـاعي وهو في الوقت جديـرة بأن تطلب لذاتهـا، أو باعتبارهـا نظامًا لنجـاة النفس، فـإن هذه ليسـت أخلاق القرآن على وجه التأكيد ذلك أن هذه الأخلاق لا ترى أن يبحث الإنسان عن الألم البدني صراحـة فضلا عـن أن تأمر بـه فهي قد فرقـت تفرقـة واضحـة بين الجهد البدني الذي يتضمنـه واجـب مقرر أو الـذي يصحبـه من وجـه طبيعـي، وبين جهد مندوب هو إبداع خالص لهـوى أنفسنا، إن هذه الأخلاق ترفض هذا النوع الأخير من الجهد وتحرمه .

ثم يقرر المؤلف في نهاية هـذا البحث أنه لو افترضنا أن الإنسـانية سوف تبقى أبدًا، وأنها سـوف تغير ظـروف حياتها إلى مـا لا نهايـة فإننـا نؤمل أن نجد في القرآن ـ أنى توجهنا ـ قاعدة لتنظيـم نشاطها أخلاقيًا، ووسـيلة لدفع جهدها ورحمة للضعفاء، ومثلاً أعلى للأقوياء .

إذا كـانت الفصول الخمسـة التي سـبقت قد عالجت الجـانب النظري في الموضوع، فإن المؤلف بالنسبة للجانب العملي اكتفى بتقديم نماذج قرآنية في فصول خمسة أخرى سـريعة عرض فيها الأخلاق الفردية والأخـلاق الأسرية والأخلاق الإجتماعية وأخلاق الدولة، والأخـلاق الدينية ، ثم بعد ذلك إجمال أمهات الفضائل الإسلامية التى يميز بها القرآن المسلم الحق ..

وبعد :

فقـد حرصـت على قـراءة الكتـاب أولا، قبـل قراءة: مقدمـتي المراجع والمعـرب، ثم سـاءلت نفسي: هل تجود الأيـام بعقلية كعقليـة المغفور له الدكتور دراز؟ وهل كان أو سـيكون في مقدور غيره أن يقدم إلى المكتبـة الإسلامية دراسـة كهذه؟ وهل هنـاك سر جعل من هذه الدراسـة دراسة على أعلـى المستويات وأرفعها؟ وأرجـأت الأجابة عن

الســؤال الثـالث، في كلمــة المعرب إذ يقول: (والحـق أن المؤلف فيمـا أرى - لم يكن يكتب هـذا العمل على أنـه مجرد وسيلة إلى هدف، هـو نيل إجازة دكتـوراه الدولة في الفلسفة من السوربون، فقد كان بوسعه أن يحقق هدفه بأقل مما بذل من جهد، ولكنه كان يحمل في ضميره رسالة هذا الدين).

وأضيف : لقد أدى العـالم الجليل واجبه وحسبه من العقوق لفكره العظيم، أن ظل عمله الكبير في انتظار التعريب زهاء ربع قرن ولست أدري بعد إنجاز المهمة الصعبة أن كانت جامعاتنـا الإسـلامية وفي مقدمتهـا جامعـة الأزهـر سيقدر لهـا أن تفيد من هذه الدراسـة المقارنة أم ان العقوق الـذي رافق النص الفرنسـي سوف يشـمل النص العربي أيضًا ؟

وكلمـة إنصـاف لابد منها الحـق: أن الدكتور عبد الصبور شـاهين الذي قـام بمهمة الترجمة، لم يقم بعملـه كما يقوم بأعمـالهم سائر المـترجمين وإنما بذل جهدًا واضح الأثر في الدراسة، ولقد عايش النص بعقله ووجدانه واقتنع بالعمل العظيم، لذلك جاء جهده مشكورًا ، وجديرًا بكل تقدير.

«دستور الأخلاق في القرآن»

الكتاب الأم في علم الأخلاق القرآني(*)

بقلم أ. د/ مصطفى بن محمد حلمي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعد،

فإن كتاب «دستور الأخلاق في القرآن» للدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله والذي نضع بين أيدي القراء الكرام مختصره بقلم الأستاذ محمد عبد العظيم علي، يُعد من أمهات الكتب في علم الأخلاق، بل الكتاب الأم في الأخلاق الإسلامية لأنه سدّ فراغًا في هذا اللون الخاص من الثقافة الرفيعة سواء في مكتبة علماء الغرب بسبب صمتهم المطبق عن علم الأخلاق في القرآن أو في المكتبة الإسلامية التى عرفت نوعين من التعاليم الأخلاقية : إما نصائح عملية وإما وصفا لطبيعة النفس وملكاتها ، إذ قام المؤلف رحمه الله تعالى باستخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعه(1) .

ولمع اسم الدكتور دراز في قلب باريس وفي أعرق جامعة بفرنسا، فلم تُزغ بصره أضواء باريس، و لم تفتنه ثقافة أوروبا، فقد عصمته ثقافته الإسلامية بقلعتها الصلبة أن تنفذ إليها السهام ، بل إنه - رحمه الله وأجزل مثوبته - قام وحده بغزو ثقافي مضاد للثقافة الأوروبية في عقر دارها .

فقد قدّم باجتهاده الخاص الآيات القرآنية المتصلة بعلم الأخلاق في أرقى إطار يتقبله

(*) نقلاً عن كتاب الأستاذ / محمد عبد العظيم علي (مختصر دستور الأخلاق في القرآن) نشر دار الدعوة بالاسكندرية .

(1) مختصر مقدمة المؤلف ص١:

وإن قام بعض علمائنا بجهد مشكور لاستكمال هذا النقص ولكنهم لم يطلعوا على رسالة الدكتور دراز - لأنها لم تكن قد ترجمت بعد - نذكر منهم الدكتور محمد يوسف موسى، والدكتور توفيق الطويل والشيخ نديم الجسر والشيخ الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار والأستاذ أحمد أمين وغيرهم .

الفكر الغربي بفروعه الثقافية المتنوعة ـ لاسيما النفس والأخلاق والتربية والاجتماع.. ولا يسع القارئ بعد استيعاب أدلته والسير مع منطقه الهادئ الرزين الذي يخاطب العقل مقدّمًا الدليل تلو الدليل ـ لايسعه إلا الدهشة المشوبة بالإعجاب .. إذ يكتشف إعجازًا للقرآن لم نكن نعرفه من قبل ـ وهو الإعجاز في مجال علم الأخلاق ـ فلا نملك إلا الإقرار والإعتراف بأنه حقًا وصدقًا من لدن عليم خبير.

وربما لم يكن المؤلف يدرى حينذاك أنه يقدم أيضًا أعظم هدية لأمته الإسلامية ـ وهي في أشد الحاجة إليها الآن أكثر من أي وقت مضى ـ لانقاذها من الأضاليل التى تبغي سلخها من هويتها ووضعها مع قافلة التبعية الذليلة، باسم ألفاظ جوفاء مزورة كالتنوير وحرية الثقافة والفكر، بينما هي خير أمة أخرجت للناس إن أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وآمنت با لله !

لقد عاش الدكتور دراز عمره مع القرآن الكريم، واغترف من منابع الثقافة الغربية ما أهله لتوجيه الخطاب إلى العقلية الأوروبية بما تفهمه وتقدره، فقام بتحليل فلسفاتهم الأخلاقية وفضح ثغراتها ـ لأنها إفراز للذهن البشري الذي جبل على النقص مهما أوتى من مواهب الذكاء والعبقرية ـ وها هي مذاهب الفلاسفة تتهاوى واحدًا وراء الآخر أمام النسق الأخلاقي المتكامل للقرآن الكريم الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ويقصد بالأخلاق بالمفهوم الدارج محاسن الأخلاق والتمييز بينها وبين مساوئها، ولكن الأخلاق كعلم ـ أو فرع من فروع الفلسفة ـ لها تعريف خاص أوسع مدلولاً وأكثر تشعبًا : فإن الأخلاق (علم معياري يدرس ما ينبغي أن يكون عليه السلوك) . وهو بهذا التعريف (أضيق مجالاً من علم النفس من حيث أنه ينصب على دراسة السلوك الإنساني الذي يصدر عن عقل دارك وإرادة حرة)[1].

(١) ص ٢١ من مقدمة كتاب (المجمل في تاريخ الأخلاق. سدجويك ، بقلم د/ توفيق الطويل ـ دار نشر الثقافة بالاسكندرية سنة ١٩٤٩م .

ونضيف إليه التعـريف بالمثل العليا لأنها السماء التي يدور في فلكها علم الأخلاق. (فإن المثل العليا في الأخلاق إنسانية أو ينبغي أن تكون إنسانية عامة لا يحدها زمان ولا مكان، ومطلقة غير مشروطة بنتائجها وآثارها)[1] .

وقد تـأرجحت أشـهر المذاهـب في العصر الحديث بـين النفعية اللذيـة (بل بانجلترا) والعمليـة البرجماتيـة (وليـم جيمس بأمريكا) ، وبـين المثاليـة كأخلاق الضمـير (باطلر) وأخلاق الواجب (كانت)، وغيرهـا من المذاهب المتطاحنة، فصورهـا جوستاف لوبون بـالفوضى العميقـة) نـاقلاً وصف مونتنيـه (وإليـك أيضًـا الأخلاق التلذاذيـة والأخلاق النفعية.. وإليك .. وإليك فالأمر هو «ضوضاء أدمغة»)[2] .

وهنـا يتضح للدارس المستوعب لآراء الدكتور دراز أنه تفوق على أقرانه من العلماء والفلاسفة فإن كان علم وظـائف الأعضاء والتشريح يُعنى بالبدن، فإن علم الأخلاق ـ وفق نظرة عالمنا الكبير ـ قـد وسع دائرته وطوع قضايـاه ووصفها في مجموعة متماسكة تشـمل تشريح العقل والقلب والنفس والإرادة الإنسانية، جاعلاً من معرفتنا بها أدوات ضروريـة لتنميـة قدراتنـا للسـيطرة الواعيـة على سـلوكنا ومقاومـة الانسـياب التلقائي لصدى الأحداث والتجارب والابتلاءات التي نمر بها طوال حياتنا!

وإلا فتأمل معي بعـض كلماتـه وهو يكتب بحرارة (.. أعكف علـى الفضائل بدافع مـن رغبتي في اكتسـاب الصفـات النفسـية المتينـة ، نقـاء قلبي ونور عقـلي وقوة إرادتي..)[3].

ولعـل من أبرز الحقـائق التـى أراد المؤلف منـا أن نعيهـا معـه لنفيد منهـا، أن القرآن الكريم يوجه خطابه إلى الإنسـان الحي الواقعي بفضائله ورذائلـه، بقوته وضعفه، محيطا

---

(١) نفسه ص ٣٥ وشذ عن هذا التعريف المذهب الاجتماعي من وضع دوركايم وأوجست كونت إذ هبطا بقيم الأخلاق العليا المطلقة، وزعما أنها مجرد (عادات اجتماعية) وأطلقا على علم الأخلاق (علم العادات الاجتماعية).

(٢) حياة الحقائق، جوستاف لوبون ص ١٠٨ .

(٣) أنظر الفصل الرابع ـ (النية والدوافع) .

بكـل مـا يكتنف حياتــه من صعـاب وعراقيل تعوقــه عن تحقيـق الحيـاة الفاضلـة، وفي مقدمتهـا الصراع بين هواتف الشـيطان ونوازع النفس الأمارة بالسـوء، وبين الروح العلوية التى نفخت فيه فجعلتـه يتطلع إلى الارتقاء الروحي والسـمو الاخلاقي، وكأنه يود التخلص من الهيكل الجسماني الذي يحبسه عن الانطلاق وراء اللانهائي .

وبحسـب تعريفـه عن الإنسـان ـ ككـائن أخلاقي ـ (كمـا أنه نـاقص فهو في نفس الوقـت قابل لاكتسـاب الكمـال عن طريـق الجهد الوارد في تعريف الإيمـان ذاتـه بقوله تعـالى ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا**[1] **بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ (الحجرات :١٥) ويتابع فكرة التدرج في التقديرات الأخلاقية في القرآن الكريم بدءًا من طلب فعل (الخير) دون زيادة إلى الترقي لبلوغ مستوى الكمال إلى مالا نهاية .. متمثلاً في التضحية بكل شيء نفيس ـ حتى النفس ـ من أجل القيمـة العليا الأعلـى من الحياة حيث حققـه الصحابة ـ كأول تطبيق في حياة الأمة ـ في موقعة بدر الكبرى .

كذلك نجد الحل لمشكلاتنا الحالية المعقدة وفي بؤرتها ـ الأزمة الخلقية ـ نجده في نداء الدكتور دراز بكتابه منذ نحو نصـف قرن ، إذ يبرهن عن توافـق الأعمال مع الشـرع، ومؤكـدًا أن الأخلاق هي روح الشـريعة التى من دواعـي الفخر بهـا أنها تقيـم مجتمعًا سعيدًا وقويًا ومتضامنًا ، فالإسلام وسط واعتدال بين شريعة الخوف وشريعة الحب .

ومـا أبرعـه عندما يدمـج بوعي وعلم قـائم على البرهان، يدمج شـرط (الأخلاقية) بالإيمان، ويعرفه بـأن (يقبل المرء مختارًا جميع أوامـر الشريعـة بخضـوع وبلا تردد) ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ (النسـاء: ٦٥)[2] .

---

(١) الفصل الخامس ـ (الجهد) .

(٢) انظر الفصل الرابع ـ (النية والدوافع) .

ثم يكتب هذا التوجيه الذي يستحق بأن يكتب بأحرف من نور (وخلاصة القول فإن فكرة طاعة الله عز وجل لا تخلو من الاعتقاد بأن أوامره هي أحكم الوسائل لتحقيق أعظم الخير للإنسانية وللكون كله) .

هذا هو التقويم الأولي للكتاب حاولت فيه جاهدًا الالتزام بالموضوعية، ثم طغى عليّ الإنفعال الوجداني الشخصي فأحببت إضافته أيضًا استكمالا للتعريف بالكتاب، لأنه يتضمن جاذبية خاصة كالمغناطيس، تشدك إليه، وتغمرك عند قراءته دوافع قوية للعمل بإرشاداته المخلصة .

ولا تفسير لهذه الجاذبية إلا روح الإيمان والإخلاص لمؤلفه الذي يرسم لك لوحات جميلة بفصول الكتاب ـ بالنص والعقل والعاطفة ـ بما يمتعك ويسحرك فتنقاد معه برفق إلى الروح الشفافة لإنسان عاشق للحق والعدل، ويريدها لبني آدم جميعا.

اللهم اجزه عن الإسلام والمسلمين والإنسانية خير الجزاء.

* * *

ويعرض في الفصل الأول ـ الإلزام ـ إن القرآن يتوجه إلى النفس الإنسانية بأكملها، ويقدم إليها غذاء كاملا يستمد منه العقل والقلب نصيبًا متساويًا . إذ أن التمييز بين الخير والشر إلهام داخلي مركوز في النفس الإنسانية .

وحدد منهجه بعرض نظريات المدارس الإسلامية المشهورة، وقارن نظام الأخلاق في القرآن ببعض النظريات الغربية .

ويحثنا القرآن الكريم على أن نوجه أنظارنا إلى السماء، ونحن نستند على قواعد صلبة من الواقع. وهكذا يلتقي طرفا الخيط: صعوداً نحو المثل الأعلى وحفاظاً على الفطرة، خضوع للقانون وحرية للذات. علما بأن الإنسان مركب من علاقات متعددة ـ منها الحيوية والأسرية والاجتماعية والإنسانية والربانية ـ وهي مؤهلة للتقدم بغير

إهمال أحداها على حساب الأخرى .

ولعل أهم ما يلفت إليه النظر في هذا الفصل أن القرآن الكريم يُعنى عناية فائقة بربط كل تعليم من تعاليمه بالقيمة الأخلاقية التي يتأسس عليها .

* * *

الفصل الثاني - عن المسئولية :

قسم المسئولية إلى ثلاثة أقسام: المسئولية الدينية ، والمسئولية الاجتماعية، والمسئولية الأخلاقية الخالصة، ذكرها القرآن في آية واحدة بنفس الترتيب ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (الأنفال :٢٧) .

وبعد استبعاد القرآن الكريم لخطيئة آدم عليه السلام، يقرر المسئولية الفردية لكل إنسان - مستبعدًا كل مسئولية موروثة أو اجتماعية بمعناها الحقيقي. وبعد مناقشات مستفيضة لدعاة الحتمية، ومعارضيهم في الفلسفة الغربية منتقلاً إلى بحث قضية القضاء والقدر بين المعتزلة وأهل السنة والجماعة. يبين كيف حسم القرآن الكريم القضية بقوله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ (الرعد: ١١) مفسرًا هذه الآية بأن الله تعالى لا يفعل ذلك بمبادرة منه، وإنما يجريه كإجراء مقابل، وردّ على شيء من جانبنا .

* * *

الفصل الثالث - عن الجزاء:

يقسم أنواع الجزاءات إلى أخلاقي وقانوني وإلهي ويقصد بالجزاء الأخلاقي تحقيق الشعور الداخلي بالمتعة أو الألم..بشرط تدخل الجهد، ويقدم التوبة ويبين ثراءها في الإسلام إذ أن التوبة من خصائص الأخلاق الإسلامية، لا تعرفها المذاهب الأخلاقية الأخرى - حتى المثالية منها - فيعرفها الدكتور دراز بأنها واجب جديد - فوق مستوى

الندم - يفرضه علينا الشرع عن أي تقصير في الواجب .. ووظيفة التوبة وظيفة إصلاحية في الأخلاق الإسلامية ، ودورها العدول السريع عن الذنب ثم إصلاح الماضي والتخطيط لمستقبل أفضل.. مع تكرار جهودنا بلا يأس - من أجل الإصلاح .. مشبهًا الشرع بسلم درجاته على الأرض، يُعِدُّ من يريدون الصعود أن يرفعهم إلى السماء .

وبعد بيان محاسن الفضيلة وقبح الرذيلة، يشرح تفاصيل النظام العقابي في التشريع الإسلامي الذي يميز بين طبقتين مختلفتين «الحدود» التى حددها الشرع بدقة وصرامة، «والتعزيرات» التي تركها لتقدير القاضي .

ويحسم المؤلف قضية ما يسميه بالضمير الأوروبي الذي ينزعج من إجراءات النظام العقابي في التشريع الإسلامي لعلاج الإضطراب في سلوك الإنسان، مبينا أن الأمة الإسلامية لم تكن تنقصها الرأفة والرحمة الإنسانية، ولكنها كانت تتجاوزهما بروح النظام والطاعة لحكم الله تعالى .. مدعمًا رأيه باحصائيات الجرائم ومبينا آثار تطبيق الشريعة وآثار القانون الوضعي.. التي تثبت أن القسوة في حقيقتها هي قسوة نظرية، فمن الناحية العملية كلما كانت العقوبة أشد، كلما قلت فرص تطبيقها والعكس صحيح.. فالحقيقة أنه - ليس الشرع - وإنما هو الفرد في نهاية الأمر هو الذي يكون قاسيًا على نفسه ومفرطًا في حق إنسانيته .

ويمضي المؤلف مع آيات القرآن الحكيم ليعرضها بمنهج إحصائي مذهل - يعكس مدى ما كابده من عناء (قبل ظهور الكمبيوتر) ويبوبها بطريقة مبتكرة ليجمع الآيات القرآنية الشاملة للوصايا الإيجابية والمحاسن الأخلاقية والفضائل والمحرمات.. والجزاء الإلهي في الحياة العاجلة وفي الحياة الآخرة للعقوبات المعنوية والمادية .. وهو حصر غير مسبوق، لم يترك شاردة أو واردة إلا سجلها فيستخلص منها المعنى ويضعه في الصدارة فيلفتك إلى لون من التفسير المؤثر الذي ينفذ إلى القلب والوجدان ويُعدُّ من جوامع

الكلم.. وذلك بعـد عرض موضوعي للعقوبات والجوائـز في (الكتاب المقدس)، يوضح للقارئ كيف أن النظريـة اليهودية ونقيضهـا النظرية المسـيحية ، تتصالحان داخل دعوة القرآن في توافق وانسجام ..

ويطالب في النهاية المربـي الناجح أن يلجأ إلى أسلوب القرآن الكريم الذي يذكرنا دائمًا بالنتائج الطبيعية المترتبة على سلوكنا .. ناقدًا الأخلاق العلمانية .. ومفضلاً ـ بناء على الدراسـة الإحصائيـة التحليليـة ـ الأخلاق القرآنيـة التى تتجاوزهـا بشـكل قاطع. ويغلق باب الجدل أمام الأخلاق العلمانية ..

* * *

الفصل الرابع ـ النية والدوافع :

بعد عرض عميق ومتابعة دقيقة، يحثنا على التنقيب داخل أنفسنا مع مداومة الحرص على تصحيح النية والسـلوك معًا ، مع إعطاء القيمة للنيـة.. ويحسم الأمر بقوله أن النية خير، والعمل القائم على النية الحسنة خير أكبر، لأنه العمل الأخلاقي المتكامل .

كمـا نـاقش النظـام الأخلاقي العقلاني ـ مثل أخـلاق قدمـاء الاغريق والرواقيين.. و«كانت» في العصـر الحديث ـ باعتبـاره ممثلاً للاتجـاه المتشـدد في الأخلاق العقلانيـة، لأنه يرى في الواجب قانونًا شكليًّا للعقل.. والإنسان العقلاني يخضع للحكم من حيث طابعه الآمـر فقط .. أما الذي يطيع الأمر وهو مدرك تمـام عدله ومعقوليتـه، فإنه يشعر تجاه الشـرع بقدر عظيم من الإعجاب والاحـترام معًا . ثم يصدر حكمه على كانت ، بأنه قلد وجهة نظر الأخلاق الدينية بعد أن جردها من مادتها الحيوية .

ثم عرض آراء الأخلاقيـين الإسـلاميين، وضرب الأمثلـة الـتي تتبـاين فيهـا القيمـة الأخلاقية تباين الليل والنهار واستخلص حقيقة الأخلاق الإسلامية .. وأوضح أنها لا تستهدف فقط إقامة العدالة في الدنيا، وإنما كذلك سمو أشخاصنا.. والارتفاع بها فوق المنافع الأرضية والحياة الحيوانية .. وأن الغاية العامة المقصودة من الشرع الإسلامي هي

صحة النفس.. فإن تقوى الله تعالى تتركز حولها تقريبًا جميع الأحكام القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ..

* * *

الفصل الخامس ـ الجهد:

يوضح المؤلف أن القرآن الكريم يرشدنا أن الإنسان كائن أخلاقي ، ناقص ولكنه ـ عن طريق العمل ـ قابل لاكتساب الكمال .. ويعرف المؤلف العمل بأنه جهاد بقوة وإصرار .

وقد التقط المؤلف كلمات «الجهد والجهاد» من القرآن الكريم مقترنة بالأمر الإلهي في الآيات الآمرة بالعمل «الفعال» ، مصورًا ما يكابده الإنسان في الحياة، متحملاً المسئولية لتحقيق ما أسماه «الإبداع الخير» أي أن يبدع أعمال الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا.. ومهما قابله من عقبات.. كما أنه ميز بين جهد المدافعة التى يعارض بها الميول السيئة، وجهد الإبداع عملاً بالآيات القرآنية المعنية بهذا الواجب العام .. باستخدام الفعل «إعملوا» بدون مفعول لاستثارة همتنا بلا تحديد .

* * *

أما فيما يتعلق بالقسم العملي من الكتاب وهو «دستور الأخلاق العملية في القرآن الكريم» ، والملحق في نهاية هذا المجلد، فقد اتبع فيه المؤلف ـ رحمه الله ـ منهج تبويب الآيات لاحسب ترتيب السور في القرآن وإنما بمنهج منطقى، وكان غرضه هنا هو إبراز إعجاز النظام الأخلاقي في أنه يغطى نشاط الإنسان كله ـ فردًا كان ، أم أسرة، أم جماعة، أم دولة حيث يجد المسلم ما يشبع حاجته في مجال الأخلاق العملية .

* * *

من أهم رواد البحث في الأخلاق القرآنية(*)

بقلم أ. د/ أحمد عبد الحليم عطية
الأستاذ بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

يعد محمد عبدالله دراز من أهم رواد البحث في الأخلاق القرآنية، فهو الرائد الذي تبعه عدد كبير في هذا الاتجاه، يشيرون إليه صراحة ويقتبسون منه ويكملون نفس الاتجاه، وتعتبر دراسته «دستور الأخلاق في القرآن» التى كتبها بالفرنسية ١٩٤٧ أصدق تعبير عن الاتجاه القرآني في الأخلاق، وتميز هذا الاتجاه عن الاتجاه الإسلامي أو الأخلاق الإسلامية التى تقبل مع القرآن والسنة مصادر أخرى في تناولها لقضايا الأخلاق. القرآن هنا هو المصدر وهو المبدأ والأساس، وكما أطلق عليه المترجم «دستور» الأخلاق وعلى الرغم من أن الشيخ وهو عضو جماعة كبار العلماء، ومن أهم الدعاة المسلمين، فقد درس في باريس واستغرق فترة طويلة في إعداد دراسته، تعمق في الفلسفة والمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع على أيدي ماسينيون وليفي بروفنسال ولوسن وفانون وفوكونيه، لذا فهو «لم يكتف بتوضيح وجهة النظر الإسلامية بل كان يجليها بمقارنتها بآراء المفكرين والفلاسفة» محللا مناقشًا ناقدًا معقبًا على ذلك ببيان النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم .

ويوضح الدكتور السيد محمد بدوى أن الهدف الرئيسي من هذا البحث هو إبراز الطابع العام للأخلاق التى تستمد من كتاب الله الحكيم، وذلك من الناحيتين النظرية والعملية. ويبين أن المؤلف كان يضع قدميه لأول مرة على أرض لم تطأها قدم من قبل. ولكن وعورة المسالك التى عزم على الخوض فيها لم تضعف من عزيمته ، بل

---

(١) نقلاً عن كتاب د. أحمد عبد الحليم عطيّة (الأخلاق في الفكر العربي المعاصر) ط [١٤١٠هـ - ١٩٩٨م] دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة .

كانت حافزًا له على تحدى الصعاب في سبيل خدمة دين الله الحنيف. يقول: «إن مؤلفنا قد وضع نفسه منذ اللحظة الأولى على أرض الأخلاق، وأخذ يعالج المسائل الأخلاقية الواحدة بعد الأخرى بحسب المفاهيم والمعايير التى تعالج بها عند علماء الأخلاق المحدثين. ومن ناحية أخرى نجده يُعنى بمناقشة الحلول التى جاء بها بعض المفكرين متخذًا من آرائهم وسيلة للمقارنة. وهو أثناء ذلك كله يجعل من القرآن دائمًا مصدر المبادئ المختلفة مثل: الواجب والسلطة والإلزام والمسئولية وشروطها والجهد نقطة ارتكازه .

لقد تأمل باحثًا في القرآن الكريم عن سمات المفاهيم الأخلاقية المطلوبة في العمل الاخلاقي والمبدأ الأسمى الذي يجب أن يحفز الإرادة. مستخلصًا الصيغ العامة التى تبين رأي القرآن .

وتهيمن على البحث فكرة أساسية هي أن الحاسة الخلقية انبعاث داخلي نظري، وأن القانون الأخلاقي قد طبع في النفس الإنسانية منذ نشأتها . غير أن هذا القانون الأخلاقي المطبوع فينا ناقص غير كاف إذا اقتصر على مصادره الفطرية وحدها ووجد نفسه عاجزًا عن أن يقدم قاعدة ذات طابع عام تستأثر باعتراف الجميع. وهذا هو السبب الذي من أجله بعث الله في الناس الرسل لإيقاظ الضمائر، وإزالة الغشاوة عن النور الفطري الذي أودعه الله فينا . ويرى أن هذه التعاليم لا تلقى علينا كأمر تعسفي بل على العكس تقدم إليه مدعمة بميزتين: الأولى أنه يخاطب ضمائرنا ليتحصل على مواقفنا والثانية أنه يبرز المثل الأعلى في ذاته ليدعم به شريعته. وهاتان الميزتان شرط ضروري لتأسيس مفهوم «القانون الأخلاقي» .

والفكرة الرئيسية الثانية التى أكد عليها الدكتور دراز في مؤلفه هي أنه لا مكان للأخلاق بدون عقيدة، كما يتضح ذلك في مؤلفاته الأخرى وخاصة كلمات في مبادئ علم الأخلاق وعلينا هنا أن نعرض لمحتويات هذه الدراسة الهامة بالتفصيل

متابعين المؤلف في عرضه، مع إبراز الطابع المقارن الذي يسيطر على الدراسة حيث يشير للفلاسفة الأخلاقيين وفي مقدمتهم امانويل كانط صاحب «نقد العقل العملي» و«أسس ميتافيزيقا الأخلاق» وهذا ما يؤكده المؤلف في المقدمة فقد تناول مع الأخلاق القرآنية آراء بعض المدارس الإسلامية، كما يقارن ذلك ببعض النظريات الغربية .

ويحدثنا المؤلف في مقدمته عن الوضع السابق للمشكلة حيث يرصد جهد الغربيين في هذا المجال فيجده غير ذي بال، وفي الدراسات الأخلاقية لم يجد سوى «نوعين من التعاليم الأخلاقية : إما نصائح علمية هدفها تقويم أخلاق الشباب .. وإما وصف لطبيعة النفس وملكاتها ثم تعريفه للفضيلة وتقسيمه لها .. ويخرج من ذلك إلى أن أحد لم ينهض حتى الآن باستخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعه، و لم يحاول أحد أن يقدم لنا مبادئها وقواعدها في صورة بناء متماسك مستقل عن كل ما يربطه بالمجالات القريبة منه، ويرى أن هذه المهمة هي التى انتدب نفسه للقيام بها .

وفيما يلي بيان للموضوعات التى احتوتها فصول الرسالة وكيفية معالجة المؤلف لها.

ويتناول في الفصل الأول الإلزام، فأي مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم يستند على فكرة الإلزام L'obligation فهو القاعدة الأساسية الذي يدور حولها كل النظام الأخلاقي، والذي يؤدى فقده إلى سحق جوهر الحكمة العلمية ذاتها، ذلك إنه إذا لم يعد هناك إلزام فلن تكون هناك حرية. ويناقش المؤلف نظريات المحدثين في ذلك وفي مقدمتهم جويو Guyou في كتابه «أخلاق بلا إلزام ولا جزاء» . وبعد أن يبين معنى الإلزام، يعرض لطبيعته ومصادره وخصائصه ومناقضاته حيث يعتمد على برجسون في «منبعا الدين والأخلاق» في بيان مصادر الإلزام الخلقي ويناقشه اعتمادًا على الموقف القرآني، كما يناقش كانط، ويبين أن الإلزام الأخلاقي في الإسلام قانون إيجابي، ثم

يتحدث عـن خصائص التكليف الأخلاقي. وهي: إمكـان العمل، اليسر العملي، تحديد الواجبات وتدرجها . ثم يتحدث في فقـرة ثالثة عن «تناقضات الإلزام» التي يجب على كل أخلاقي أن يتخـذ موقف حيالها ويذكر منهـا : الوحدة والتنوع، السـلطة والحرية. ويتوقف في نهاية الفصل لمناقشة اتجاهين في الإلزام الأول لدى كانط Kant، الذي يمثل السـلطة الصارمـة الواجبة والثـاني روه Routh الذي يدافع عن أصالـة العـامل النفسي ضد فكرة الصرامة المنطقية عند الأول .

موضـوع الفصل الثـاني المســئولية التي ترتبط بـالإلزام ويسـتلزم أحدهمـا الآخر، والمسئولية المتولدة عن الإلزام هـي نفسها نوع من الإلزام. ويقوم الدكتور دراز في هذا الفصل بـ «تحليل الفكرة العامـة للمسئولية» . ثـم يتناول المسـئولية الأخلاقية والدينية، فيعـرض الطابع الشـخصي للمســئولية، ثم الأسـاس القـانوني، حيث يبين العلاقـة التى تربـط الفرد المسئول بالقانون موضحًا أن المسئولية لا يمكن أن تسـوغ في نظر القرآن الكريم إلا بشـرط أن تذيع شـريعة الواجب وتكون حاضرة في العقـل لحظة العمل، ثم يتحدث عن العنصـر الجوهري في العمـل. وينـاقش الحريـة، وقدرتنـا وفاعليـة جهدنـا باعتبارهـا شرط رابع في المسئولية. وهو موضـوع عالجه في دراسته «كلمات في مبادئ الأخلاق» ونقلها عنه كثيرٌ من الباحثين ثم يتناول الجانب الاجتماعي للمسئولية.

ويعرض في الفصل الثـالث لموضوع الجزاء فيتحدث عـن الجزاء الأخلاقي موضحًا ـ علـى العكس من كـانط ـ ضرورة اقـتران المشــاعر واللذات الباطنيـة مع أداء الواجـب، ويقدم أمثلـة من القرآن تثبت أن ممارسـة الخير والشـر تحدث أثرهـا في النفس الإنسانية فيتحدث عن محاسن الفضيلة، وقبح الرذيلة .. ثم يتحدث عن الجزاء القانوني وفي فقرة تاليـة يعرض المســوغات الباطنيـة، واعتبـارات الظروف المحيطـة وموقـف الإنسـان. ثـم اعتبـارات النتـائج المترتبـة على العمل متوقفًـا عند النتـائج غـير الطبيعيـة (الجزاء الإلهي) فيتحدث عن طبيعتـه وأشـكاله ويذكر الجزاء الإلهي في العاجلة. ثـم الجانب المادي، ثم

الجـانب العقلـي والأخلاقي ويوضـح قصور الجـزاء العـاجل ويتحدث ثانيًـا عن الجزاء الإلهي في الحياة الأخرى .

ويخصـص الفصل الرابـع لدراسـة النيـة والدوافـع، يتحدث أولاً عن النيـة ، والنيـة كشـرط للتصديـق على الفعل. والنيـة وطبيعـة العمل الأخلاقـي، ويبن فضل النيـة على العمل، ثم يناقش هل تكتفـي النية بنفسها. لينتهي إلى أن النيـة خير والعمل القائم على نيـة الخير خـيرٌ أرفع، لأنـه العمل الأخلاقي الكـامل، ثم يتنـاول بعد ذلك دوافع العمل ويقـدم النظريـة القرآنيـة مقـابل نظريـة كـانط التى تجعل المبـدأ المحدد للإرادة الطيبـة في الفكرة المجردة للواجب باعتباره القانون الشكلي للعقل ثم يتحدث عن النيات السيئة : نية الإضـرار ، نية التهـرب من الواجب، نيـة الحصول على كسـب غـير مشـروع، نية إرضاء النـاس (الرياء) ويحيل القـارئ إلى ما خصصـه الأخلاقيو ن المسـلمون من فصول لبحث منابع هذا الفساد القلبي وأشكاله وأدواته وبخاصـة المحاسبي والغزالي ثم يتحدث عن إخلاص النية واختلاط البواعث .

ويتنـاول الفصل الخـامس موضوع الجهـد فـإذا كنـا نميز في البنـاء الأخلاقـي بين عنصريـن: النيـة والعمل، فهـو يتحدث هنـا عن عنصـر العمل ، الـذي يعتـبره السـلاح الوحيد الهجومي والدفاعي في معركـة الفضيلة. ولذا فهـو يناقش في هذا الفصل النقاط التالية:

- هل يجب أن ننفي قيمة الجهد، الانبعاث التلقائي؟
- ما نصيب الجهد العضوي في هذه القيمة؟
- هل للجهد حد يقف عنده؟

فيتحدث أولاً عن الجهـد والانبعـاث التلقائي، يذكـر في البدايـة جهد المدافعـة وهو تلك العمليـة التي نضـع فيها في مواجهـة الميول الخبيثـة التـى تحثنا علـى قوة الشـر؛ قوة مقاومـة قادرة على دفع تأثيرهـا . ثم الجهد المبدع الذي يـأتى بعد جهد المدافعة، وبعد

تناول الجزء الباطني من الجهد يتجه إلى درس الجهد في شكله الحسي (الجهد البدني).

ويختتم البحث بقوله أننا لو افترضنا أن الإنسانية سوف تبقى أبدا، وأنها سوف تغير ظروف حياتها إلى ما لانهاية فإننا نؤمل أن نجد في القرآن أنى توجهت قاعدة لتنظيم نشاطها أخلاقيا ، ووسيلة لدفع جهدها ورحمة للضعفاء ومثلا أعلى للأقوياء .. وأدنى ما يمكن أن نقوله في الأخلاق القرآنية أنها تكفى نفسها بنفسها على وجه الاطلاق، فهي: أخلاق متكاملة .

ويخصص الجزء الثاني ـ وهو بمثابة ملحق للدراسة ـ للأخلاق العملية حيث يقدم لنا نصوصا من القرآن توضح قواعد الأخلاق أو مبادئ الدستور الأخلاقي؛ وذلك في خمسة فصول تتناول على التوالي: الأخلاق الفردية، والأخلاق الأسرية، والأخلاق الاجتماعية، ثم أخلاق الدولة، وأخيرًا الأخلاق الدينية وذلك على الوجه التالي:

في الأخلاق الفردية يعرض أولا: الأوامر فيذكر لنا آيات في التعليم العام، تعليم أخلاقي، جهد أخلاقي، طهارة النفس، الإستقامة والعفة والاحتشام وغض البصر، والتحكم في الأهواء ثم الامتناع عن شهوتي البطن والفرج وكظم الغيظ، الصدق، الرقة والتواضع، التحفظ في الأحكام، واجتناب سوء الظن، الثبات والصبر، القدوة الحسنة، الاعتدال، الأعمال الصالحة، التنافس، حسن الاستماع والاتباع، إخلاص السرائر، ثانيا: النواهي مثل: انتحار الانسان وبتره لعضو من أعضائه وتشويهه. الكذب والنفاق الأفعال التى تناقض الأقوال، البخل، الإسراف، الرياء، الاختيال الكبر والعجب، التفاخر بالقدرة والعلم، التعلق بالدنيا، الحسد والطمع، الأسى على ما مضى والفرح بما يأتي، الزنا، تعاطي الخمر والخبائث، تعاطى الكسب الخبيث، سوء الإرادة، ثم يتحدث ثالثًا عن التمتع بالطيبات، رابعًا المخالفة بالاضطرار.

ويتناول في الفصل الثاني الأخلاق الأسرية ويتحدث **أولاً**: عن الواجبات نحو الأصول والفروع وهي: الإحسان إلى الوالدين، خفض الجناح لهما، طاعتهما، احترام

حياة الأولاد، التربية الأخلاقية للأولاد، وللأسرة بعامة.

ثانيًا: الواجبات بين الأزواج:

(أ) دستور الزوجية يتحدث فيه عن العلاقات المحرمة والمحللة، خصال «مأمور» بها ومستحبة، شروط تعدد الزوجات.

(ب) روابط مقدسة ومحترمة، ويذكر غايات الزواج: السلام الداخلي والمودة والرحمة، انتشار النوع، المساواة في الحقوق والواجبات، التشاور والتراضي، التعامل الإنساني، المعاشرة بالمعروف حتى في حال الكراهية، معاودة الاصلاح حتى في حال النزاع.

(ج) الطلاق، الافتراق شر مذهب، السكنى والمعاملة بالمعروف على أمل الصلح، وبعد العدة فإما الإمساك بمعروف وإما الافتراق الذي يسمح بالزواج مرة أخرى، تعويض للمطلقة غير الممهورة.

ثالثًا: الواجبات نحو الأقارب: عطاء الغير، الوصية.

رابعًا: حق الإرث ويبين بالآيات أن حق الإرث لايقتصر على الذكور أو الكبار أو الأولاد الوحيدين، وبيّن قواعد القسمة، ويذكر أن الإرث متصل من ا لله وليس حقًا.

ويخصص الفصل الثالث للأخلاق الاجتماعية فيذكر أولا المحظورات مثل: قتل الإنسان، السرقة، الغش، القرض بفائدة، الاختلاس، كل تملك غير مشروع، أكل مال اليتيم، خيانة الأمانة، الإيذاء بلا داع، الظلم، التواطؤ على الشر، الدفاع عن الخونة، عدم الوفاء بالأمانة وبالوعد، الغدر والخداع، غش القضاة وإفسادهم، شهادة الزور، كتمان الحق، وقول السوء ، سوء معاملة اليتيم والفقير، السخرية، احتقار الناس، التجسس، الافتراء والغيبة، سوء القصد وسرعة تصديقه، القذف، التدخل الضار، اللامبالاة بالشر العام. ثانيا الأوامر ويتحدث فيها ـ ذاكرًا الآيات القرآنية الدالة عليها ـ

عن أداء الأمانة، تنظيم العقود للقضاء على الريبة، أداء الشهادة الصادقة، إصلاح ذات البين، التشفع، التراحم المتبادل، الإحسان ولاسيما إلى الفقراء ، تثمير أموال اليتيم، تحرير العبيد، أو تيسير حريتهم، العفو، عدم تجاهل الإساءة في كل حال، دفع السيئة بالحسنة، الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، نشر العلم، الأخوة والكرم، الحب العام، العدل والرحمة والإحسان، ويتحدث عن شروط الإحسان: مصارفه، غايته، نوع العطاء، طريقة الإعطاء: أن يكون خفية، مع عدم الإساءة إلى آخذه، ثم يذكر آيات في توجيه السخاء، ذم الاكتناز والبخل وفي الفقرة ثالثًا: قواعد الأدب وهي: الاستئذان قبل الدخول على الغير، خفض الصوت وعدم مناداة الكبار من الخارج، التحية عند الدخول، رد التحية بأحسن منها، حسن الجلسة، وأن يكون موضوع الحديث خيرًا، استعمال أطيب عبارات الاستئذان عند الذهاب.

ويدور الفصل الرابع على «أخلاق الدولة»، يتناول أولا: العلاقة بين الرئيس والشعب ويذكر أولا واجب الرؤساء: مشاورة الشعب امضاء القرار النهائي، طبقًا لقاعدة العدالة، إقرار النظام، صون الأموال العامة وعدم المساس بها، عدم قصر الانتفاع بها على الأغنياء ويبين أن للأقليات داخل المجتمع الإسلامي حريتها القانونية. وبعد ذلك يتناول واجبات الشعب: النظام، الطاعة المشروطة، الاتحاد حول المثل الأعلى، التشاور في القضايا العامة، تجنب الفساد، إعداد الدفاع العام، الرقابة الأخلاقية، تجنب موالاة العدو أو التعامل معه. ثم يتحدث ثانيا في العلاقات الخارجية سواء في الأحوال العادية، كالاهتمام بالسلام العام. وترك المساس بأمن المحايدين وتحقيق حسن الجوار، والعدل والبر، أو في حالة الخصومة: كعدم القتال في الأشهر الحرم، أو في الأماكن المحرمة، ويوضح مشروعية الحرب في الدفاع عن النفس أو لمساعدة المستضعفين، وأنه لاهروب من ملاقاة المعتدين، والصبر والمصابرة وعدم الاستسلام والوفاء بالمعاهدات المبرمة، مواجهة الخيانة بحزم وأن الأخوة الإنسانية في النهاية رباط مقدس فوق اعتبار الجنس والنوع.

ويعرض الفصل الخامس للأخلاق الدينية. حيث يتناول الواجبات نحو الله : الإيمان بالله وبما أنزل من حقائق، الطاعة المطلقة، وتدبر آياته، وصنعه، شكره على نعمائه والرضا بقضائه والتوكل عليه مع عدم اليأس من رحمته أو الأمن من بأسه، وتعليق كل فعل مستقبل بمشيئته، الوفاء بعهد الله، عدم رد سباب المشركين، تجنب مجالسة الخائضين في آيات الله، عدم الاكثار من الحلف بالله واحترام اليمين، ودوام ذكر الله ، وتسبيحه وتكبيره، وأداء الصلاة المفروضة، وحج البيت والدعاء والتوبة إلى الله والتماس مغفرته، وأخيرًا حب الله وأن يكون حبه فوق كل شيء .

ثم يجمل في النهاية أمهات الفضائل الإسلامية. هذا فيما يتعلق بالكتاب الهام ذائع الصيت (دستور الأخلاق في القرآن) .

وهو يعود إلى الكتابة الأخلاقية ١٩٥٣م حينما يصدر بحثًا صغيرًا هامًا عنوانه «كلمات في مبادئ الأخلاق» أعاد نشرها ثانية في كتابه «دراسات إسلامية» في العلاقات الاجتماعية والدولية، حيث يتناول المباديء الأساسية في الأخلاق، ويعرض لها عرضًا نقديًا مهّد به لغيره من الباحثين السير في نفس الطريق، حيث عرض أولاً للأخلاق وتقسيمها إلى غريزية ومكتسبة اعتمادًا على كتابات الأخلاقيين العرب مثل: مسكويه والغزالي حتى يخلص إلى تعريف الخلق بأنه قوة راسخة في الإرادة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح . وبهذا تتميز الحقيقة الخلقية عما عداها من الصفات النفسية. ويفرّق بين الخلق والسلوك، الأول أمر معنوي وهو صفة النفس وسجيتها، أما السلوك فهو أسلوب الأعمال ونهجها وعادتها، وما هو إلا مظهر الخلق ومرآته ودليله، ويعرض لآراء من يرى أن الخلق فطرة مجبولة في النفس وهم ما أطلق عليهم أهل الجبر: شوبنهور، كانط، سبينوزا ، ليفي بريل وهيوم. أما أنصار الحرية فيتناول آرائهم ويقسمهم إلى مذاهب ثلاثة: أن الإنسان خيّر بطبعه (روسو، وسقراط، الرواقين)، والثاني أن الإنسان شرير بطبعه (البوذية)، والمذهب الثالث أن الإنسان

خلق مستعدًا للخير والشر جميعًا وهو مذهب وسط نجده لدى الغزالي وابن خلدون. ويشير إلى أن اتجاه النصوص الإسلامية يشهد لهذا المذهب الوسط (مذهب الاستعداد المزدوج) .

ثم يتناول في الفقرة الثانية: علم الأخلاق وتقسيمه إلى نظري وعملي، العملي يبحث في أنواع الملكات الفاضلة التى يجب علينا التحلي بها، والثاني بحث عن المبادئ الكلية والمعاني الجامعة التى تشتق منها تلك الواجبات الفرعية كالبحث في حقيقة الخير المطلق وفكرة الفضيلة وعن مقصد العمل وأهدافه العليا وتسمى فلسفة الأخلاق أو علم الأخلاق النظرى «وهو من علم الأخلاق العملي بمنزلة أصول الفقه من الفقه. ثم يناقش الاعتراضات على علم الأخلاق النظرى، التى تقدمها المدرسة الاجتماعية الفرنسية لدى : كونت ودوركيم وليفى بريل، ويورد اعتراضات الأخير التي قدمها في كتابه «الأخلاق وعلم العادات الاجتماعية» ويرد عليها.

ويتوقف وقفة هامة في الفقرة الرابعة البحث في «الأخلاق الفلسفية والأخلاق الدينية» هل هما مختلفان من حيث موضوعهما ومصدرهما، ومن حيث بواعث العمل وأهدافه وجزاءاته المقررة في كل منهما؟

ويرى أن القول أن موضوع الأخلاق في الديانات ينحصر في مادة العبادة والشؤون الإلهية إن صح في دين ما فهو أبعد أن يكون طابعًا لقانون الأخلاق في الإسلام. فالناظر في أسلوب الدعوة الأخلاقية في الإسلام يجد أنها منزهة عن ذلك الطابع التعبدي التحكمي الذي زعموه في الأخلاق الدينية . أما الحديث عن الأجزية والجزاءات والبواعث والأهداف ودعوى اختلاف طبائعها في نظر الدين عن نظائرها في نظر الفلسفة، فإنه أبعد ما يكون عن وجهة النظر الإسلامية وهو أكثر انطباقًا على المسيحية منه على اليهودية ويتحدث في الفقرة الخامسة والأخيرة عن علاقة الأخلاق بالتربية. ويناقش قضية العلاقة بين المعرفة والأخلاق كما أثارها سقراط وأفلاطون،

ويرى أن المعرفة وحدها ليس لها كبير جدوى إن لم يكن لها رمز من قوة الإيمان فليست الفضيلة عملا آليا تسخيريًا تجد النفس فاعلته، ويأباه طبعه بل هي عمل انبعاثي محبب إلى القلب، وإننا لنجد مصداق هذه النظرات الدقيقة السديدة في القرآن المجيد الذي يستشهد به طول البحث .

ويتناول الدكتور دراز في البحث الثاني من كتابه «الله» علاقة الدين بأنواع الثقافة والتهذيب «الدين والأخلاق ويفرق بين طريقتين في الدراسة؛ الأولى النظرية (التجريدية) والثانية (واقعية تاريخية)؛ وخلاصة القول في هذه الناحية التجريدية أن الدين والأخلاق في أصلهما حقيقتان منفصلتا النزعة والموضوع ولكنهما يلتقيان في نهايتهما فينظر كل منهما إلى موضوع الآخر من وجهة نظره الخاصة. أما من الوجهة الواقعية فإننا لا نرى الصلة بين الدين والأخلاق تبلغ دائما هذا الحد من التساند والتعانق.

وفي البحث الرابع «في نشأة العقيدة الإلهية» يوضح موقف المذهب الأخلاقي ويقصد به موقف كانط وقوله بعدم قدرة العقل على معرفة الذات الإلهية . وكان دراز يتخذ من كانط أكبر فيلسوف أخلاقي في تاريخ الفلسفة رمز للأخلاق الفلسفية يناقشه ويظهر نقص فلسفته ويكملها ويقدم لنا الأخلاق الدينية مقابلاً لها اعتمادًا على القرآن، فكان بهذا مؤسس الاتجاه القرآني في دراسة الأخلاق، وأفضل معبر عنه . حيث سار من ورائه الكثيرين فيتابع الدكتور السيد محمد بدوي: موضوع «الإلزام الخلقي في الإسلام» في الفصل الرابع من كتابه «الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع» ويشيد بجهد الرائد المؤسس لهذا العمل في قوله «تصدى لهذا العمل الكبير منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا عالم جليل من علماء الأزهر في رسالته القيمة التي نال بها درجة الدكتوراه من السوربون وعنوانها «أخلاق القرآن» .. وبين اعتماده على هذه الرسالة تلخيصًا ونقلاً .

وكذلك يعتمد على هذا البحث كل من د. فيصل بدير عون ود. سعد عبد العزيز في «دراسات في الفلسفة الخلقية» في حديثهما عن الإلزام الخلقي في القرآن يقولان: «وعندنا أن أعظم الكتابات الخلقية التى كتبت عن الأخلاق الإسلامية كتاب الدكتور محمد عبد الله دراز إذ يعد كتابه «دستور الأخلاق في القرآن» من أعظم الكتب التى تعرضت لهذا الموضوع ـ ولقد أفادنا ـ في الحقيقة من هذا الكتاب إلى حد كبير.

ويبين الدكتور مصطفى حلمي في «الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام» أهمية هذه الدراسة وأنه لابد لأي باحث في الأخلاق الإسلامية من الاستناد إليها لأن العالم الجليل استكمل وسائل البحث التى أهلته للخوض في ميدان الأخلاق بتكوينه الإسلامي الأصيل واستيعابه للثقافة الغربية القديمة والحديثة.. وقد وفق وبرع في الإحاطة بالقانون الأخلاقي في القرآن بمنهج جديد لم يسبقه إليه أحد فيما نعلم. يقول في الهامش : «اعتمدنا كثيرًا على كتبه وأهمها الكتاب الفريد في بابه "دستور الأخلاق في القرآن" وينقل عنه في الفصل الأول من الباب الثاني من كتابه والذي يدور حول "معالم القانون الأخلاقي في القرآن الكريم"» .

وينقل عنه د. محمد عبد الله الشرقاوى في كتابه الفكر الأخلاقي دراسة مقارنة فصلا طويلا عن المسؤولية الأخلاقية ويشيد به كل من الجليند وينقل عنه، وكذلك د. عبد الحي قابيل في كتابه المذاهب الأخلاقية في الإسلام وأحمد عبد الرحمن إبراهيم ومقداد يالجن .

عبقرية الشيخ اللغوية في الرسالة(*)

محمد عبد العظيم علي (باحث ومترجم)

كنت قد أعددت ورقة للحديث عن العالم الأزهرى الكبير د. محمد عبد الله دراز للمشاركة في الندوة التي عقدتها «آفاق عربية» الغراء عنه، حددت فيها ملامح لأحد جوانب عبقرية هذا العالم الجليل وهي العبقرية اللغوية التي أستطيع القول إنني لامستها عن قرب في شخصية الدكتور دراز من خلال مصاحبة مؤلفاته نحو نصف قرن بدأتها بقراءة رسالته الخالدة «دستور الأخلاق في القرآن» في نسختها بالفرنسية ، ووقتها كنت ما زلت طالبًا واستمرت صحبتي له إلى أن قمت بترجمة بعض مؤلفاته ومن ضمنها هذه الرسالة التي أعددت لها مختصرًا بالفرنسية وآخر مترجمًا بالعربية .. ولما حالت الظروف دون مشاركتي في الندوة فقد أثرت أن أرسل ملاحظاتي للنشر علّي أكمل الفائدة.

سوف أتعرض إن شاء الله للجانب اللغوي في نشاط الاستاذ الدكتور دراز في كلمات بسيطة تتركز أكثر ما يكون على موهبته وقدراته اللغوية في اللغة الفرنسية كما تجلت في رسالة الدكتوراه .

فلا غرابة أن نلاحظ ما بلغه مستوى الدكتور دراز في اللغة العربية ومصطلحاتها الإسلامية والفلسفية وقد سمت إلى هذا المستوى الرفيع من القوة والرصانة والجمال والدقة العلمية. فهو ـ رحمه الله ـ من علماء الأزهر الشريف الذين نهلوا من علومه الإسلامية المتعددة الجوانب، وأحاطوا بمصطلحاتها إحاطة كاملة، فضلاً عن السنوات التي قضاها في التدريس بالأزهر الشريف قبل وبعد سفره إلى فرنسا لإعداد رسالة الدكتوراه . التي كانت في موضوع (فلسفة الأخلاق في القرآن الكريم) وعنوان الرسالة الرئيسية مترجمًا هو «دستور الأخلاق في القرآن» وعنوان الرسالة الفرعية

(١) نشر في جريدة آفاق عربية ـ العدد ٤٣٤ الخميس ١٠ شعبان ١٤٢٠هـ ، ١٨ نوفمبر ١٩٩٩ م .

«مدخل إلى القرآن الكريم».

ولكن الذي يثير الدهشة حقا هو ما بلغه الدكتور دراز من مستوى رفيع في اللغة الفرنسية التى لم يتعلمها في صغره في مدرسة أجنبية. وإنما درسها في سن الرجولة بجهوده الشخصية . فضلا عن لغات أخرى. حيث لاحظنا في مراجع الرسالة الفرعية مرجعين باللغة الإنجليزية ومرجعا بالألمانية .

لقد بلغ في لغته الفرنسية وأسلوبه مستوى أديب فرنسي من الطراز الأول، وتميزت لغته الفرنسية برشاقة الجمل، وجمال الأسلوب ووضوح الأفكار وبخاصة الإسلامية، والدقة في اختيار العبارات والمصطلحات مع ثراء بلا حدود في الكلمات والمترادفات والعبارات والأوصاف والتراكيب اللغوية .. مع القدرة على تحليل ودراسة الفكر المعارض، ومجادلته والرد عليه ، وعرض الحجة تلو الحجة ، وضرب الأمثلة في بساطة وقوة .

ولقد اقتضى عرض نظام الأخلاق في القرآن الكريم والسنة الشريفة أن ترجم الدكتور دراز عددا هائلاً من الآيات القرآنية ترجمة فريدة ومتميزة وجميلة تحمل خصائص العالم الإسلامي الفاهم لمعاني القرآن، فهي أقرب ماتكون إلى التفسير منها إلى الترجمة . فضلا عن عدد كبير من الأحاديث النبوية الشريفة.

بالإضافة إلى نصوص لعلماء الأخلاق الإسلاميين وعرضها في أسلوب فرنسي عصري يلغي مئات السنين التى فصلت بين الدكتور دراز وعصر هؤلاء العلماء (نقلها الدكتور عبد الصبور شاهين في ترجمة في نصوصها العربية الأصلية من مراجعها العربية، أما في المختصر فقد فضلت ترجمة ما ترجمه الدكتور دراز إلى العربية لإفادة القارئ العربي من جهد الدكتور دراز في خدمة هذه النصوص وتوضيحها وإضافة سمات الحداثة عليها .

وننقل بعض الأمثلة لتوضيح ما سبق :

ـ لقد وصف بالفرنسية لغة القرآن بما ترجمته «لغة القرآن مادة صوتية، تبعد عن طراوة لغة أهل الحضر، وخشونة لغة أهل البادية . وتجمع ـ في تناسق حكيم ـ بين رقة الأولى وجزالة الثانية. وتحقق السحر المنشود. بفضل التوفيق الموسيقى البديع بينهما. إنها ترتيب في مقاطع الكلمات في نظام أكثر تماسكا من النثر، وأقل نظاما من الشعر . يتنوع في خلال الآية الواحدة ليجذب نشاط السامع، ويتجانس في آخر الآيات سجعًا لكي لا يختل الجرس العام للوقفات في كل سورة أما كلماته فمنتقاة من بين الكلمات المشهورة، دون أن تهبط إلى مستوى الدارج، ومختارة من بين الكلمات السامية، التي لا توصف بالغريب إلا نادرًا، وتمتاز بالإيجاز العجيب في الكلام، والتركيز الشديد في المعنى والوضوح الأخاذ، مع العمق والمرونة والإيحاء والإشعاع في كل جانب مثل أوجه قطعة الماس البراقة.. إلخ».

ـ ولقد اشتمل قسم الأخلاق العملية في دستور الأخلاق على مقدمة وخمسة فصول في ٩٠ صفحة كلها آيات قرآنية مترجمة بالفرنسية، ومرتبة حسب مجالات الأخلاق الفردية، والأخلاق الأسرية، والأخلاق الاجتماعية ، والأخلاق الخاصة بالدولة خاصة (العلاقة بين الرئيس والشعب، وواجبات كل منهما.. والعلاقات الخارجية في الأحوال العادية وفي حالة العدوان) وأخيرًا الأخلاق الدينية وكل آية من هذه الآيات فوقها عنوان بالفرنسية يلخص مضمون الآية والمجال الأخلاقي. وبلغ عدد هذه العناوين ٢٢٧ عنوانًا عن ٦٨٠ آية قرآنية .

ـ أما القسم النظري من كتاب دستور الأخلاق، فقد عرض فيه الدكتور دراز الأسس النظرية والمبادئ الكلية، ونظام الأخلاق في القرآن طبقا لمنهجة وتبويب فلاسفة الغرب لموضوعات علم الأخلاق . وفي السياق ناقش كانط وبرجسون وشوبنهور وسبينوزا، وهوم وديكارت وليفى بروفيل في نظرياتهم مناقشة الند للند ، وأثبت في نقاط كثيرة قصور نظرياتهم أمام كمال نظام القرآن الأخلاقي الذي عرضه عرضًا كاملاً ومفصلاً موضحًا عظمة القرآن ونظامه المتميز.

ولما وصل الدكتور دراز رحمه الله إلى فصل الجزاء نهج أسلوبا متميزًا لتوضيح نظام

التربية القرآنية ثم الجزاء الإلهي في الحياة العاجلة، والجزاء الإلهي في الآخرة، وجعل لكل فقرة عناوين عديدة بالفرنسية تعبر عن مضمون الآيات القرآنية ، وأوضح في الهامش بيانا إحصائيًا تحت كل عنوان يحدد عدد الآيات المكية والمدنية التي تعبر عن معنى كل عنوان . وأحصى كل الآيات بأرقامها وسورها التى تخص كل عنوان ، وعلى مستوى القرآن الكريم كله بلغ مجموع الآيات الكلي التى أحصاها ١٣٣٣ آية مكية و ١٠٦٠ آية مدنية تحت عناوين بلغ عددها ٣٥٥ عنوانًا .

ولكي نقدر المجهود الذي بذله الدكتور دراز في إعداد هذه الاحصائيات يدويا، وفي زمن لم يكن الحاسوب الالكتروني قد اخترع بعد .. نقدم نموذجًا واحدا لبيان ذلك. إذ جاء بهامش صفحة ٣٨٢ ما ترجمته «أحصينا ذكر اسم الله في القرآن فكانت ١٠٦٢٠ مرة أي ٢٠ مرة في الصفحة الواحدة. ووجدنا ٣٢ صفحة فقط يقل ذكر الله فيها عن ١٠ مرات (علما بأن الصفحة ١٥ سطرا ، وعدد الصفحات في المصحف ٥٠٠ صفحة) فانظر إلى هذه السطور القليلة ومقدار ما تخفيه من جهد وصبر ووقت ودقة».

وعلينا أن نتسائل عن الظروف التى تم فيها إعداد رسالة الدكتوراه هذه فقد كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها، وكانت غارات الألمان على باريس من الكثافة بحيث كانت تجبر الناس على اللجوء إلى المخابيء .

ولقد أراد الله أن يتم الدكتور دراز رسالة الدكتوراه ونجاه وأسرته الكريمة من كل سوء .. والله متم نوره، ولو كره الكارهون.

فرحم الله فقيدنا الدكتور محمد عبد الله دراز وأجزل مثوبته، وأعان المسلمين على الانتفاع بجهوده، وعلى نشر العقيدة الصحيحة، والإسلام الصحيح، أمام تحديات هذا العصر .. والله المستعان .

ونشكر لـ «آفاق عربية» الاهتمام بعقد هذه الندوة، ونرجو أن تتكرر مثل هذه اللقاءات ، وإعداد مؤتمر أو أكثر لإبراز أهمية جهود الدكتور محمد عبد الله دراز وما حققه من نتائج علمية غير مسبوقة والتي يحتاج نشرها إلى مضاعفة الجهود .

منهج الرسالة

العلمي يحمل طابع النور والصفاء

بقلم أ. د/ محمد إبراهيم الفيومي

كتب الدكتور محمد إبراهيم الفيومي مقالاً[1] عن رسالة «دستور الأخلاق في القرآن» أثنى فيها على علم الدكتور دراز وفكره العميق الذي تميز به وجهاده على توضيح جوانب الإسلام الأخلاقية في الغرب وذلك الصقع الذي تزدحم فيه المذاهب الأخلاقية بمعاييرها المختلفة .

ونحن نقتطف من المقال ما يبرز مكانة الرسالة في فكر الدكتور الفيومي وأثرها في نفسه فكان مما كتبه أكرمه الله :

لما كان القرآن الكريم كتابًا لدى الاستشراق غير محكم ، وأنه من وضع الرسول ﷺ وأنه صورة مشوشة أو مشوهة من الأناجيل إلى آخر تلك المزاعم الغربية ، فبدأ الدكتور الإمام الشيخ دراز بالكتابة التمهيدية للدكتوراه عن تاريخ القرآن وعلاقته بالكتب، وعرض تهم الاستشراق للقرآن وأخذ يفندها واحدة بعد واحدة إلى أن وصل إلى النتيجة المقدمة وهي كما قال الله تعالى في سورة هود ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود :١) ورغم أني أشتريت : الكتاب «دستور الأخلاق في القرآن» الطبعة الفرنسية التي طبعتها دار المعارف ـ والطبعة العربية التي طبعتها مؤسسة الرسالة: فلقد حالت بيني وبين قراءته كاملاً شواغل علمية.

ثم نأى بي العهد غير أن تعلقي به، عصمه من أن ينزلق إنزلاقًا في دائرة النسيان. وحين صح العزم مني وخلّتني المشاغل، نهضت لقراءة الكتاب، ورغم ضخامته وجد

(١) نشرته مجلة الأزهر الغراء في عدد رمضان ١٤٢١هـ ديسمبر ٢٠٠٠م .

ثقافته لم يمسني نصب، ولا لغوب، و لم يأخذني ملل ولا سأم، ولا أخال أن شيئًا من هذا يصادفك وأنت تقرأ كتابًا للشيخ محمد عبد الله دراز، لا أستطيع تفسيرًا لتلك الميزة، إنما قد استطيع استلهامها من وحي بيان الشيخ، ومنهاجه العلمي ، الذي يحمل طابع النور والصفاء.

لقد كان منهج الشيخ واضحًا كل الوضوح عميقًا كل العمق يعكس إحاطته بالثقافة الغربية، وتشبعه بالثقافة الإسلامية الأصيلة، ولقد كان رائدًا في الدراسات المقارنة بين ثقافتين : الإسلامية والغربية وفي حياد يحوطه حرارة الإيمان، قدم حلولاً للمشكلة الأخلاقية ، كحل نموذجي للقلق ، الذي انتاب حضارتنا، وكحل للإنسان المعاصر، الذي وقع في براثن التوتر، وعدم الأمان فأفرز جوانبها السلبية، من جوانبها الإيجابية، وكان علاجه ناجعًا حين استمده من الأمن الديني والوحي الإسلامي، فأصلح من شأن العقل وشأن الإنسان، ولقد عَمُرَ كتاب «دستور الأخلاق في القرآن» للإمام الشيخ / محمد عبد الله دراز بالموضوعات ، التى تتعاون على حل المشكلة الأخلاقية فقدم عرضًا تاريخيًا للمشكلة. كما عرض للمذاهب الفلسفية، ولاسيما الفيلسوف الألماني :«كانت» وعرضه لنظرية الواجب، منصفة من المذاهب الشوهاء، التى أوقعت مسيرة الحضارة الغربية في حرج، ثم قدم الأصول الإيمانية والعقلية من القرآن والسنة والتراث الإسلامي ثم قدم في وضوح تام الإسلام ونظريته الأخلاقية، و لم يقف الشيخ عند عرض الأخلاق النظرية إنما عرض شعائر الإسلام عرضًا يتناسب مع العقلية الغربية، لتقرأه في سهولة ويسر، وبيّن أن تلك الشعائر هي سلوك المسلم وأخلاقه العملية لا يقوم بها المسلم عملاً عشوائيًا كيفما اتفق له، إنما تسبقه النية، والقصد والعزيمة .

مؤسس علم الأخلاق القرآني(*)

للأستاذ
أنور الجندي
رحمه الله

إن نظرة سريعة نلقيها على مؤلفات علم الأخلاق العام - التى كتبها علماء غربيون - كافية لنلحظ فيها فارغًا هائلاً وعميقًا، نشأ عن صمتهم المطلق عن علم الأخلاق القرآني، والواقع أن هذه المؤلفات تذكر لنا باختصار أو بإفاضة، المبادئ الأخلاقية كما ارتأتها الوثنية الإغريقية ، ثم أديان اليهودية والمسيحية، ولكنها حين تنتهي من عرض هذه المراحل الثلاثة نجدها تنقلنا بغتة إلى العصور الحديثة، في أوربا، مغفلة كل ما يمس الدستور الأخلاقي في الإسلام .

وبرغم هذا، فإن الإضافة القرآنية، في هذا الباب ذات قيمة لا تقدر، ولسوف يفيد منها تاريخ النظريات الأخلاقية سعة أو عمقًا، وتوافقًا، كما تفيد المشكلة الأخلاقية ذاتها منها، في حل مصاعبها، سواء في ذلك المصاعب المتجددة والدائمة.

أليست إذن خسارة ضخمة أن يغفل أمر نظرية كهذه، وأن يلفها الصمت، والحق أنه لو أننا - بدلا من أن نبحث في هذه المؤلفات في علم الأخلاق العام لجأنا إلى الكتب الأوربية التى تعالج مسائل الإسلام بخاصة، فسوف نجد أن محاولات قد تمت خلال القرن التاسع عشر، من أجل استخراج المبادئ الأخلاقية من القرآن، بيد أن إطار هذه المحاولات، كان في الغالب محدودًا كما كان مضمونها بعيدًا عن المطابقة الدقيقة للنظرية القرآنية الحقة.

فمن حيث الإطار نجدهم أغفلوا الجانب النظري من المسألة، فليس هناك عالم أوربي واحد حاول أن يستخلص من القرآن مبادئه الأخلاقية العامة، وفضلا عن ذلك

(*) نقلاً عن كتاب - المدرسة الإسلامية ط دار الاعتصام بالقاهرة .

فلم يكن لدى أي من بينهم اهتمام بأن يصوغ قواعده العلمية، ويقدمها في صورة دستور كامل، وإنما انحصرت كل جهودهم في أن جمعوا عددًا قليلاً أو كثيرًا، من الآيات القرآنية المتعلقة بالعبادة، أو بالسلوك وترجموها ترجمة حرفية .

ويبدو لنا أن الذي استهل هذه المجموعة من النصوص المختارة من القرآن كان المستشرق جارسان دي تاسي فقد قدم لنا مؤلفًا صغيرًا بعنوان : «القرآن: مبادئه وواجباته» باريس ١٨٤٠ وتبعه المستشرق لوفيفر الذي نشر عام ١٨٥٠ قطعًا مختارة من ترجمة سفري بعنوان (محمد: قوانين أخلاقية ومدنية ودينية) ثم جاء من بعدهما بارتلمي سانت هيلر في كتابه (محمد والقرآن) هذا من حيث الإطار الذي سيقت في داخله بحوث ذلك العهد. أما من حيث عيوب المضمون فمرجعها إما إلى ترجمات غير صحيحة، وإما إلى تلخيص سيء، وإما إلى الأمرين معًا، وهو ما تجده واضحًا لدى المستشرق جول لابوم في كتابه (تحليل آيات القرآن) وهو مع ذلك أقل الأعمال التحليلية في هذا المجال بعدًا عن التمام .

ولذلك بدا لنا من الضروري أن نتناول الموضوع من جديد، وأن نعالجه تبعًا لمنهج أكثر سلامة، من أجل تصحيح هذه الأخطاء، وملء هذه الفجوة في المكتبة الأوربية، وحتى يرى علماء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية، وذلكم في الواقع هو هدفنا الأساسي.

بيد أننا بالرجوع إلى مكتبتنا الإسلامية نفسها، لاحظنا أنها لم تعرف حتى الآن سوى نوعين من التعاليم الأخلاقية، فهي إما نصائح عملية، هدفها تقويم أخلاق الشباب، حين توحي إليهم الاقتناع بالقيمة العليا للفضيلة، وأما وصف لطبيعة النفس وملكاتها، ثم تعريف الفضيلة وتقسيم لها، قريب في غالب الأمر بحسب النموذج الأفلاطوني أو الأرسطي وكثيرًا ما نرى المنهجين يتعاقبان في حكم كاتب واحد.

وإذن فلم يكن هناك سوى كتب إنسانية محضة، أجهد مؤلفوها أنفسهم

فاستودعوهم ثمرات تأملاتهم ودراساتهم الفلسفية، و لم يظهر فيها النص القرآني كلية، أو هو لا يكاد يظهر إلا بصفة ثانوية، فلم تكن (الأخلاق القرآنية) إذن الموضوع الرئيسي للدراسة والتقنين ، لدى المسلمين أو المستشرقين، لا من الناحية النظرية ولا من الناحية العملية ونحسب أن من الواجب أن نضيف بعض التحديد إلى هذا التأكيد المزدوج، ليصبح أكثر دقة وتخليص من كل لبس أو غموض .

ولسنا ندعي أن بحوثنا في المجال النظري تخوض في أرض لم يرتدها آخر قبلنا، فإن العلماء المسلمين قد أعملوا قرائحهم منذ عهد مبكر في هذا الموضوع، علماء الكلام، وعلماء الأصول، فكروا جميعًا في مقياس الخير والشر (أو بحسب تعبيرهم مسألة الحسن والقبح) وفكر الفقهاء في شروط المسئولية وفكر الأخلاقيون والصوفية في فاعلية الجهد وإخلاص النية والقصد، ولكنا إذا صرفنا النظر عن أن هذه الأفكار قد بقيت متناثرة في مختلف المذاهب التي تمس الأخلاقية من قريب أو من بعيد) والتي لم تعن دائمًا بوجهة النظر الأخلاقية بمفهومها الخاص - فإن النظرة الأخلاقية التي يقدمها هؤلاء تصدر في جانب كبير منها على الأقل عن روح المذهب الذي ينتمي إليه مؤلفوها ، إن لم تكن من محض نظراتهم الشخصية لأن القرآن لا يرد ذكره فيها إلا بصفة مكملة، شاهدًا أو برهانًا على فكرة أو أخرى سبق الأخذ بها .

أما في المجال العملي فمن الحق أن (الغزالي) - كما نعلم - قد حاول في كتابه جواهر القرآن) - إن يحلل جوهر القرآن وأن يرده إلى عنصرين أساسيين، يتصل أحدهما بالمعرفة ويتصل الآخر بالسلوك، وانتهى إلى أن حصر في القرآن من النوع الأول سبعمائة وثلاثًا وستين آية كما حصر من النوع الثاني سبعمائة وإحدى وأربعين آية .

ومن المؤسف أن هذا النوع من الحصر والتصنيف، الذي يعد خطوة أولى في سبيل إعداد المواد للتشييد - لم يعقبه - ما يقتضيه من عمل ضروري يهدف إلى إعلاء البناء.

ومع ذلك يجب أن نعترف بأن اختيار المواد في العمل قد تم بوجه عام تبعًا لقاعدة، وأن الآيات المختارة من القسم العملي تتوافق غالبًا مع موضوع دراستنا، وليس الأمر على هذا النحو بالنسبة إلى ما استخرجه القاضي أبو بكر الجصاص الحنفي في كتابه (أحكام القرآن) وإلى ما استخرجه القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في كتابه المعنون باسم (أحكام القرآن) وكذلك بالنسبة إلى ما استخرجه ملا أحمد جيون الهندى الحنفي في كتابه (التفسيرات الأحمدية في بيان الآيات الشرعية) .

و لم يقتصر الأمر في هذه الكتب على أن نجد النصوص القرآنية ذات المغزى الأخلاقي وقد عُرِفَت بطريقة غامضة وسط نصوص تتصل بموضوعات فقهية أو أصولية أو كلامية أو كونية أو غيرها، بل لقد رأينا لدى القاضيين آيات مذكورة بمناسبة مسائل، لا يتصل النص بهما إلا من بعيد، وعلى كل حال فإن جميع المؤلفين بما فيهم الغزالي قد جمعوا بطريقتهم الآيات القرآنية بترتيب السور - جعلوا من مختاراتهم مجرد جمع لمواد متفرقة، لا تربط بينها روح قرابة، ولا يظهر فيه أي تسلسل للأفكار ، ولذلك فعندما فقدت الوحدة الأولى لكل سورة لم يستطيعوا أن يكملوا عملهم بإيجاد وحدة منطقية، تربط بين الأجزاء المختارة، أو تصنيف منهجي تقتضيه قاعدة التعليم .

وقد وجدنا هذا النظام المنطقي لدى بعض علماء الشيعة من مثل الشيخ أحمد ابن محمد الأردبيلي في كتابه (درة البيان في آيات الأحكام) ومن مثل الشيخ أحمد ابن إسماعيل الجزائري النجفي في كتابه (قلائد الدرر في بيان أحكام الآيات بالأثر) غير أن هذين الكتابين اللذين يمكن أن يعدا فهرسًا لنصوص القرآن المتعلقة بالفقه الإسلامي - لا يعالجان به الأوامر الأخلاقية إلا نادرًا وهكذا لم ينهض أحد فيما نعلم - حتى الآن باستخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعه، و لم يحاول أحد أن يقدم لنا مبادئها وقواعدها في صورة بناء متماسك مستقل عن كل ما يربطه بالمجالات القريبة

منه، وتلكم هي المهمة التى انتدبنا للوفاء بها هنا بقدر ما تطيقه وسائلنا.

نحن نميز تحت لفظة (القانون الأخلاقي) كما يميز جميع الباحثين تحت اسم الجنس ـ فرعين مختلفين هما : النظرية والتطبيق.

والواقع أن دراستنا للنص القرآني قد أوحت إلينا، لا بوجود هذين الفرعين لعلم الأخلاق في القرآن ـ فحسب، بل لقد كشفت لنا عن أن الصورة التى جاءت بها بلغت درجة من الكمال لا يبتغى وراءها شيء.

وقد بحثنا الأخلاق العملية في القرآن في علاقتها بالحكمة القديمة، واستطعنا أن نكشف فيها عن ثلاث خصائص أوجزها فيما يلي:

فالقرآن من حيث كونه حافظًا لما سبقه واستمرارًا له قد تميز عنه بذلك الامتداد الرحب الذي ضم فيه جوهر القانون الأخلاقي كله، وهو الذي ظل متفرقًا في تعاليم القديسين والحكماء من المؤسسين والمصلحين، الذين تباعد بعضهم عن بعض، زمانًا ومكانًا ربما لم يترك بعضهم أثرًا من بعده يحفظ تعاليمه. ولعل هذا الجانب هو السمة البارزة من سمات القرآن وإن لم تكن أثمن سماته ولا آصلها.

وإنما تبدو أصالة هذا التعليم الأخلاقي في أجمل صورها، في طريقته التى سلكها لتقديم الدروس المختلفة عن الماضين، وتقريبها، بحيث يصوغ تنوعها في وحدة لا تقبل الإنفصام ويسوقها على اختلافها في إطار من الإتفاق التام ، وذلك لأنه بدأ بأن نزع عن الشرائع السابقة كل ما كان من مظاهر الأمر إفراطًا أو تفريطًا، وبعد أن حقق وضع التعادل في ميزانها، الذي كان يميل تارة إلى جانب، وأخرى إلى جانب آخر، دفعها جميعها في اتجاه ثم نفخ فيها روح واحدة، بحيث صار حقًا أن ينسب إليه بخاصة مجموع هذه الأخلاق. وأعجب من ذلك وأعظم أصالة جانبه الخلاق، فليس يكفى ـ في الواقع ـ لكي نصف أخلاق القرآن أن نقول: إنها حفظت تراث الأسلاف ودعمته وأنها وفقت بين الآراء المختلفة التي فرقت أخلاقهم، بل ينبغي أن نضيف: إن الأخلاق

القرآنية قد رفعت ذلكم البناء المقدس وجملته، حين ضمت إليه فصولاً كاملة الخبرة، رائعة التقدم، ختمت إلى الأبد العمل الأخلاقي.

في القرآن الجوانب الثلاثة: (إجمال لما سبق، وتوفيق بين وجهات مختلفة فيه وإكمال لجوانب ناقصة) .

ولسوف يكون علينا أن نعالج الأحكام العملية التي جاء بها القرآن في ذاتها وفي مرحلتها النهائية من تطورها، ولسوف يختلف منهجنا كثيرًا عن المنهج الذي اتبعه سابقونا، اتبعنا نظامًا منطقيًّا في ترتيب النصوص، بما يبني لنا منهجًا كاملاً للحياة العملية كما رسمها القرآن : كيف ينبغي على الإنسان أن يسلك مع نفسه وأسرته ومع الناس أجمعين، وما المبادئ التي يجب أن تحكم العلاقات بين الحاكمين والمحكومين، وبين الدول والمجتمعات، وكيف يؤدى الإنسان العبادة لله ، وكل ذلك قد قيل بطريقة واضحة ومحددة.

هذا الطابع الإجمالي يجد ما يكمله في طابع آخر يمنحه قيمته العليا، ذلك أن القرآن - بعد أن رسم لكل مجال من مجالات الحياة خط سلوكه - يقدم لنا أُطرًا معدة على هيئة دوائر مشتركة المركز، كل واحدة منها قابلة لأن تتسع وتنكمش في توافق مع المجموع، بل لقد تتداخل هذه الدوائر بالتبادل، دون أن تطغى إحداهما على الأخرى.

كيف استطاع القرآن أن يحدث هذا الأثر المعجز؟

لقد كان منهجه غاية في البساطة، حين تخير لبيان قواعده أقوالاً ذات تأثير خاص، وهي أقوال تقف دائمًا في منتصف الطريق، بين المجرد: غامضة ومبهمة وبين الحس المفرط في الشكلية، وكذلك نجد أن الأطر التي يبنيها صارمة ومرنة في آن، فمن حيث وضوح المضمون نجد أن وضوح كل قاعدة يوجد نوعًا من الحجاج، يقف في مواجهة الفوضى وجموح الهوى، ولكنها من حيث عدم تحديد هذا المضمون تترك لكل فرد حرية اختيار الشكل الذي يكيف في نطاقه مثله الأعلى، طبقًا للشروط التي تمليها

التجربة ، كما تختار الشكل الذي يوائم به بين الواجب العاجل والمقتضيات الأخرى التى تُمليها الأخلاقية، فهما أمران: تكييف ومواءمة، ينبغي أن يتما بوساطة جهد راشد، بعيد عن الإرخاء وعن الغلواء، التى لا ضابط معها .

وبهذه الطريقة أيضًا: أتاحت الشريعة القرآنية للنفس الإنسانية أن تطمئن إلى سعادة مزدوجة ، تجمع أيضًا بين النقيضين: خضوع في الحرية، ويسر في المجاهدة، ومبادأة في الاستمرار ، وقليل من فهم تلك الحكمة الرفيعة .

ومن ثم أخذ بعضهم على الإسلام أنه لم يحدد مثلاً الطريقة التي يستشار بها الشعب في القضايا العامة، و لم يحدد شكل الدولة المسلمة، وطريقة اختيار رئيسها: أهي اقتراع شامل، أم مقتصر على الصفوة، وهل هي جمهورية، أو ملكية ، إلخ.

هذا البحث المفرط في التحديد القانوني، يمكن أن يظهر لدى أولئك الذين يضعون القانون، أو أولئك الذين يخضعون له، ففي الحالة الأولى يفرض القانون ويحتمه نوع من الحذر لدى المشرعين، إزاء الأفراد الذين يناط بهم تطبيقه، ومع ذلك فهو يتجه إلى إلغاء كل مبادئه، وإلى أن يجعل الحياة المشتركة رتيبة لا تطاق، وإلى أن يجعل من أعضاء المجتمع ما يشبه النسخ المكررة من نموذج آلي واحد.

إن القرآن لا ينقض الاتجاه إلى حصر كل القواعد، كما لا ينقض الاتجاه المضاد، فهل كان هذا التصرف الحكيم، وذاك الموقف الوسط الذي يقف فيه الفرد دائمًا بمعزل عن طرفي نقيض، بمجرد اتفاق، أو تحكمًا واعتسافًا، أو أن له غاية معينة .

إن القرآن في إيجازه وفي تفصيله يهدف إلى تلك الحكمة التشريعية المنزهة، لاستبعاد المبالغة والإفراط في (كيف وكم) من القواعد القرآنية، كما يتسنى لكل فرد أن يمارس طاقته العقلية الجسمية والخلقية بطريقة تختلف عن غيره، فهذا هو ما يتصل بالأخلاق العملية والسمات العامة التي تحددها .

وفي الجانب النظري نجد أن علمائنا مهتمون في المقام الأول بالجانب الاقتصادي أو

الشـرعي ، بينما نحن نركز اهتمامنا على المجال الأخلاقي، واضعين كل مسألة في المصطلحات التي تصاغ بها لدى الأخلاقيين المحدثين.

ونحن من ناحية أخرى نتخذ من القرآن ذاته نقطة انطلاق، بحيث كان دأبنا الدائب أن نستخرج منه الإجابة عن كل مسألة بالرجوع المباشر إلى النص وهنا تكمن الصعوبة، فإن النصوص المتعلقة بالنظرية الأخلاقية ليست بالكثرة والوضوح اللذين تمتاز بهما الأحكام العملية، غير أن هناك سؤالاً مسبقًا ينبغي أن يطرح:

هل القرآن كتاب نظري، أو هل يمكن أن يلتمس فيه ما يلتمس من المؤلفات والأعمال الفلسفية.

إن الفلسفة بالمعنى المألوف للكلمة هي عمل فكر منطقي، معتمد على مجرد ومضات الذهن الطبيعي ينتقل فيه المفكر من حكم إلى آخر، بمنهج معين للتوصل إلى إقرار نظام معين، قادر على تفسير الأشياء في عمومها، أو تفسير وضع معين لأحد هذه الأشياء، وبدهي أن هذا الجهد العقلي، وهذه الخطوة التدريجية لا يتناسبا مع ضوء وحي يغمر النفس دون بحث أو توقع، ويقدم لها على حين فجأة جملة من المعرفة، لا تسبق فيها المقدمات نتيجتها، ولا المقدم تاليه .

فليس القرآن إذن عملا فلسفيًّا بمعنى أنه ليس ثمرة فلسفة وهو لا يستخدم طرق الإكتساب الفلسفي، بالإضافة إلى أنه لا يتبع كذلك طرق التعليم التي يتبعها الفلاسفة، وهي طرائق المنهج العقلي التي تقوم على : (التعريف والتقسيم والبرهنة والاعتراضات والإجابات) وهي كلها أمور متلاحمة دون جدال، ولكنها لا تؤثر إلا على جانب واحد من النفس، وهو الجانب العقلي، على حين أن للقرآن منهجه الذي يتوجه إلى النفس بأكملها، فهو يقدم إليها غذاءًا كاملاً، يستمد منه العقل والقلب، كلاهما نصيبًا متساويًا .

وهكذا يفارق التعليم القرآني التعليم الفلسفي، سواء في المصادر أو في المناهج، فهل

هما يتفارقان كذلك في موضوعهما، وفي هدفهما.

إن القول بهذا معناه أننا نقرر - بعلم أو بلا شعور - إن القرآن ليس كتاب دين، ذلك إنه مهما تكن الفروق بين الفلسفة والدين والتى تتمثل في أن الأولى تستمد منبعها من ارتياب العقل، على حين أن الدين يستمده من الضوء الكامل للوحي، أو أن كليهما قد يقاد أحيانًا وراء سراب التخيل وأن أحدهما (وهو الفلسفة) ليس سوى معرفة محضة وبسيطة، والآخر اقتناع عميق ومؤثر وأخاذ، فمهما تكن الفروق بينهما فإن للفلسفة جانبها الأسمى، والدين في جميع أشكاله موضوعًا مزدوجًا مشتركًا، هو حل مشكلة الوجود، أصله ومصيره، وتحديد الطريقة الحكيمة والمثلى للسلوك ولتحصيل السعادة، بيد أن أفضل ما يدل على التشابه بين المادة القرآنية خاصة وبين الفلسفة - أن نلحظ أن القرآن حين يعرض نظريته عن الحق وعن الفضيلة لا يكتفي دائمًا بأن يذكر بهما العقل ويثير أمرهما باستمرار أمام التفكر والتأمل، وإنما يتولى هو بنفسه التدليل على ما يقدم، ويتولى تسويغه ؛ فضلاً عن ذلك فإن طبيعة استدلالاته والطريقة التي يسوق بها الدليل، قد اختيرت كلتاهما على وجه يفحم أعظم الفلاسفة دقة، وأشد المناطقة صرامة؛ في الوقت الذي تلبى فيه أكثر المطالب واقعية، كما تروق أرقى الأذواق الشعرية وأرقها، وأبسط المدارك وأثقلها، فليس يكفى إذن أن نقول: إن القرآن لاينكر الفلسفة الحقة، وليدة التفكير الناضج، وعاشقة اليقين، ولايكفى كذلك أن نقول: إنه يوافقها ويشجعها وإنه يرتضى بحثها المنصف، بل ينبغي أن نضيف إلى ذلك: إنه يمدها بمادة غزيرة في الموضوعات وفي الاستدلالات.

ولا ريب أن القرآن لا يقدم إلينا هذه الحقائق الأساسية مجتمعة، في صورة نظام موحد ، بيد إننا نتساءل: إذا كان نظام كهذا لم يوجد كاملاً أفلا يوجد في هذا الكتاب جميع العناصر الضرورية، والكافية لبنائه.

الحق إنه لا مراء في أن القرآن مشتمل على جميع العناصر الأساسية للفلسفة

الدينية: أصل الإنسان ومصيره، وأصل العالم ومصيره، ومبادئ السبب والغاية، وأفكار عن النفس وعن الله.. إلخ وإن دراسة مثل هذا الموضوع لجديرة بأن يخصص لها عمل مستقل.

فإما أن يكون هذا الكتاب قد تحدث في الوقت نفسه عن أسس النظرية الأخلاقية ـ فذلكم هو السؤال الأول الذي طرحناه في دراستنا هذه والذي خصصناه بأعظم قدر من جهدنا ، وإنا لنعتقد أن بوسعنا أن نعلن منذ الآن أننا قد وجدنا لهذا السؤال إجابة واضحة، وإيجابية تمامًا .

إن القرآن لا يكتفي في الواقع بأن يضع قاعدة السلوك، على وجه أكثر شمولاً وتفصيلاً، كما لم يفعله أي تعليم عملي، فقد وجدناه يرسي تحت هذا البناء الضخم قواعد من المعرفة النظرية أعظم متانة وأشد صلابة، ولنطرح عليه مثلا السؤال الآتي:

على أي أساس ترتكز شريعة الواجب القرآني؟ ومن أي معين تستقى سلطانها؟!

ولسوف يجيبك بأن التمييز بين الخير والشر هو إلهام داخلي مركوز في النفس الإنسانية قبل أن يكون شريعة سماوية، وبأن الفضيلة في نهاية المطاف ـ إنما تتخذ مرقاتها من طبيعتها الخاصة ومن قيمها الذاتية، وبأن العقل والوحي ـ على هذا ـ ليسا سوى ضوء هاد، مزدوج ، لموضوع واحد وترجمة مزدوجة، لواقع واحد أصيل، تمتد جذوره في أعماق الأشياء .

وأسأله بعد ذلك عن صفات هذه الشريعة وامتداد سلطانها؟

ولسوف يقول لك: إنها شريعة عامة وأبدية تكفل للبشرية مطامحها المشروعة، ولكنها تعترض بكل وضوح وتأكيد على شهواتها الجامحة والمتحكمة .

وزد في سؤاله عن المسئولية الإنسانية وعن شروطها وحدودها وعن الوسيلة الناجعة لكسب الفضيلة، وعن المبدأ الأسمى الذي ينبغي أن يحد الإرادة عن العمل.

أو سله عن أي مبدأ عام لا يملك أي أخلاقي بصير بعمله أن يغفله؟ ولسوف تجد فيه لكل سؤال حكمًا محددًا وقاطعًا، يفرض نفسه إجابة فريدة من شأنها أن تؤلف بين أكثر المشاعر نباهة واتزانًا .

والذي استولى في النهاية على إعجابنا هو ما رأينا من التباين المذهل بين الطريقة التى يقدم بها القرآن إجاباته على هذه الأسئلة وطريقة غيره.

فعلى حين أن هذه الحقائق الإنسانية الأساسية قد برزت إلى الوجود في ضوء القرآن اللامع منذ أربعة عشر قرنًا نجد أن مجتهدي المفكرين ممن يبحثون عن هذه الحقائق خارج ضوء القرآن يصدرون دائمًا عن تردد وارتياب ولا يصلون إلى أبعاض منها إلا بعد جهد جهيد دون أن يتوقوا الوقوع في أخطاء فادحة .

الباب الرابع

دراسات ومقالات حول بعض مؤلفاته

١- النبأ العظيم — أ.د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني

٢- النبأ العظيم — بقلم: الأستاذ/ منصور الأحمد

٣ - النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن

إعداد: أ/ نزار قنديل

٤- النبأ العظيم — أ. د/ عبد الغني بركة

٥- مدخل إلى القرآن الكريم — أ. د/ السيد محمد بدوي

٦- الدين : عرض وتحليل — أ. د/ محمد فتحى عثمان

٧- سفر قيم لعالم جليل — أ/ حمدي متولى مصطفى صالح

٨- من كنوز المعرفة — أ. د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني

٩- كلمات في التقديم لرسالة الماجستير [محمد عبد الله دراز وجهوده البلاغية] للباحث محمد أمين أبو شهبة

بقلم: أ. د/ عبد العظيم المطعني

كتاب «النبأ العظيم»

للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز

د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني

الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز، أحد أعلام الأزهر بوجه خاص، وعلماء الإسلام بوجه عام ، في القرن الماضي.

هو عالم فذ، وداعٍ ملهم ، جمع بين العلم والعمل، وكان قلمه في مجال الكلمة، يقوم بمهمات جيش عرمرم في مجال الجهاد، تثبيتًا للحق ، ونصرة للدين على الصعيدين القومي والدولي.

وقد عاش حياته، منذ كان طالبًا للعلم في المرحلة الثانوية الأزهرية مدافعًا عن الإسلام في كل الميادين بما آتاه الله من قلب صاف، وعقل وقاد، ولسان زرب، وعلم واسع، فدبج المقالات، وكتب الكتب وأذاع الأحاديث، وشارك في الكثير من المؤتمرات العالمية، وتصدى لكل ما كان يثار في حياته عن الإسلام وما أعجزته فرية على الإسلام ردّها، ولا شبهة ظالمة نقدها. ولا مشكلة عويصة فندها.

وظل على هذه الحال حتى آخر لحظة، من حياته الحافلة بالنضال المر، والكفاح الشاق ، حتى صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها غريبًا عن وطنه، وهو يمثل الأزهر في مؤتمر دولي عام في لاهور (عام ١٩٥٨م) .

وبعد أن عاد «جثمانه الطاهر» إلى أرض الكنانة مصر رعاها الله ، على متن طائرة شيعت جنازته بعد أن صُلِّيَ عليه في «الجامع الأزهر» وكان في مقدمة مشيعيه علماء الأزهر ، معاهده وكلياته، وعارفو فضله من الشعب المصري، وكبار الشخصيات من مصر، ومن العالم الإسلامي وإن أنس فلا أنسى جلال الموكب الرهيب لمشيعي

جنازته ، حتى يخيل إليك أن كل فرد في القاهرة لما يشترك في تشييعه ، وتعطلت حركة المرور من الأزهر إلى أرض المدفن، وحين وصول أوائل مشيعيه إلى أرض المدفن كان آخرهم يبدأ سيره من ساحة الجامع الأزهر متجهًا إلى أرض المدفن.

وبعد دفنه نعاه الشيخ محمود شلتوت ـ شيخ الأزهر الأسبق بكلمة، كان مما جاء فيها كما وعتها الذاكرة عنه سماعًا مباشرًا:

«لقد مات مشعل النور، الذي أطفأ مشاعل الجهل» رحمهما الله جميعًا، ورحم معهما صالحي المؤمنين.

وللشيخ دراز كتب كثيرة كلها في نصرة الإسلام ، وبيان محاسنه ومزاياه في كل مناحى الحياة وأصول العلم والمعرفة وفروعها .

وكتابه «النبأ العظيم» واحد مما دبجه قلمه القدير وأفرزته قريحته الصافية. وهو موقوف على بيان وجوه جديدة من وجوه «الإعجاز القرآني البياني اللغوي العقلي. وما ورد في هذا الكتاب عن إعجاز القرآن . وإثبات أنه «كلام الله» ولو لم يكن في موضوع الإعجاز كتاب غيره ، لا سابق عليه، ولا لاحق له، لكان كتابه كافيًا في هذا المجال الحيوي . ولقامت به الحجة ، لله قوية على منكري «سماوية القرآن» من قدامى ومحدثين فقد أثبت رحمه الله، أن هذا القرآن يستحيل عقلاً وعلمًا وواقعًا أن يكون له مصدر غير الله عز وجل.

هذا الفرع بدأ به الشيخ محمد دراز ـ رحمه الله ـ فصول كتابه، وكتب فيه ما يزيد على المائة صفحة مواجها بهذه «الحقيقة» القوى المدركة عند الإنسان، أيًا كان هذا الإنسان ، مسلمًا أو غير مسلم، ممن له عقل وفهم، ولا شيء غير العقل والفهم.

وسوف يلمس القاريء بنفسه كيف قذف الشيخ دراز بهذه «الحقيقة» في العقول والقلوب ، وقطع كل الأعذار أمام المشككين، ومن ادعوا ـ جهلاً وحماقة وعنادًا ـ أن القرآن «بشـــري المصدر»؟ كبرت كلمـــة، تخرج من أفوههم إن يقولون إلا كذبًا.

إن مهمة الدعـاة ، ومنهم الرسل، أن يبلغوا النـاس ما أنزل إليهم من ربهم. وأن يقيموا الحجـة كاملة على الناس ليؤمن من يؤمن عن بينة، ويكفر من كفر عن بينة وهو شاهد على نفسه بالعناد والمكابرة. وهذا هـو الذي قام به أستاذنا محمد عبد الله دراز بالنسبة لـ «سماوية القرآن» فقد جلاهـا أمام العقل والقلب حتى لكـأن من ينكرها ينكر نفسه وهو في هذا الموقف ، وكفى بمن ينكر وجود نفسه رعونة وجهلاً وحماقة وتخريفًا.

وبعد فراغـه من إثبات هذه الحقيقـة بكل وسـائل القوة والإقناع، أخذ يتحدث عن مواضع حافلة بدلائل الإعجاز، منها ما يعم القرآن كله، ومنها مواقف فردة فذة، فأقنع وأمتع ، وطلع على الباحثين في الإعجاز القرآني من حيث لا يعهدون ولا يعرفون.

ومن ذلـك ما وسـم بـه الأسـلوب القرآني المعجز كلـه في هذه الخصـائص البيانية المعجزة ، التي لم تعرف في كلام سواه:

- خطاب العامة وخطاب الخاصة .
- القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى .
- اقناع العقل وامتاع العاطفة.
- البيان والإجمال.

يقصـد الشيخ أن القـرآن يجمع ين الأغراض التي هي عنـد الناس على طرفي نقيض، لكنك ترى القـرآن يجمع بينهـا في تـآلف وتـآزر فيخـاطب الخاصـة بخطـاب العامـة، والعامـة بخطـاب الخاصـة، ويقنع العقل ويمتـع العاطفـة في عبـارة واحـدة يجمل ويبين، ويوجز مع الوفـاء بحق المعنى، وهذا غـير معهود في كلام البشـر مهمـا كـان نصيبه من الفصاحة والبلاغة والروعة.

* * *

ثم تـراه يثبت ـ بكـل جدارة ـ أن من سمـات الإعجـاز في النظم القرآني أنـه كلـه «إيجـاز» لا إطنـاب فيـه ولا مسـاواة كمـا يقول جمهـور البلاغيين والنقـاد والأدبـاء واللغويين.

وفي تقرير هذه الحقيقة «الجديدة» يقول شيخنا الجليل: القرآن إيجاز كله يستوي في ذلك مواضع الإطناب والإيجـاز والمساواة ، التي اتفق علمـاء البلاغة على تقسيم الكلام إليها.

وأن مـا من عبارة في القـرآن توسم بالإطنـاب ، أو الإيجاز أو المسـاواة إلا وهي في حاجة إلى بسط أكثر مما هي عليه .

وهذا الرأى ينفرد بـه أستاذنا الدكتور محمد عبـد الله دراز وحده بين سـلف الأمة وخلفها وقد سـاق نماذج كثيرة على توضيح هذا الرأي ثم ينتقـل إلى بيان وجه جديد من وجـوه الإعجـاز القرآني وهو «الإيقـاع الصوتي» ويضع بـين يدي القراء تجـارب سهلة يمكن أن يقوم بها كل سامع للقرآن وهو يتلى .

وهذه التجـارب كما عرضهـا الشـيخ الملهم أن نسـتمع للقرآن وهو يتلى ، وبينك وبين من يتلو القرآن تلاوة جيدة مسافة مكانيـة ، بحيث لا تسمع إلا الصوت يتردد في الفضـاء، دون أن تميز بين الكلمـات مفردة، ولا الـتراكيب ، وإنمـا تسـمع ذبذبـات الصوت مجملة .

يقول الشيخ: إنك إذا فعلـت ذلك سمعت إيقاعًا صوتيًا عجيبًـا غريبًا يترك آثارًا في وجدان السـامع لا عهد لـه بها، ولا يمكـن صدور هذا الإيقـاع الصوتي الذي يسـميه الشيخ دراز بـ «القشرة السطحية» لا يمكن حدوثه عن كلام آخر من غير القرآن.

فهذا ـ إذن ـ وجه جديـد يعرضه شـيخنا في كتابـه الرائع «النبأ العظيم» أو نظرات جديدة في القرآن الكريم .

ويمكن إجراء هذه التجارب الآن بالإستماع إلى القرآن من «الحاكي» أو المسجل بالشروط التى وصفها الشيخ رحمه الله .

ومن النقاط الجديرة بالاهتمام، التى لا تراها إلا في «النبأ العظيم» ما شاع في كتب التفسير واللغة من وجود حروف أو أدوات أو كلمات زائدة في النظم القرآني.

فقد رفض الشيخ، وهو محق «التسليم بوجود أي حرف أو أداة أو كلمة ، زائدة في القرآن ليس لها معنى تؤديه».

وضرب لذلك مثلاً بقوله تعالى في سورة الشورى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي لمثل الله. وذكر أن فيها مذهبين.

الأول: القول بأنها زائدة لا معنى لها. وأن الأصل أن يقال: ليس مثله شيء لأن الكاف بمعنى «مثل» فلو سلمنا بأنها غير زائدة لكان المعنى: ليس مثل مثله شيء. ويكون في هذا إثبات «المثلية لله» وهذا ينافي عقيدة التوحيد؟

الثاني: فريق يدافع عن وجود «الكاف» وينفى عنها الاتهامات التى توجه إليها.

ولم يرتض شيخنا لا هذا ولا ذاك. فلم يسلم بأن «الكاف زائدة أصلا».

ولم يسلم بأن هذه «الكاف» متهمة بحسن الدفاع عنها .

بل أثبت لهذه «الكاف» مزايا بيانية ولمحات «عقدية» ما كانت لتفاد إلا من ورود الكاف . وسوف يمتع القارىء نفسه ويقنع عقله، وينير قلبه حين يطالع ماكتبه الشيخ دراز في هذا المقام .

ومما ينبغي أن نلفت ذهن القارئ إليه مهارة الشيخ دراز وثقوب عقله، وحدة ذكائه في إبراز أخفى وأدق أسرار البيان القرآني المعجز في آية من كتاب الله كنموذج يجب أن يحتذى في دراسة النظم القرآني .

تلك هي الآية التي نزلت في شأن اليهود: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:٩١) . هذه الآية قال الشيخ إنه اختارها لأنها ليست من الآيات التى يهتم بها البيانيون في استخراج الوجوه والصور البلاغية منها، مما فيه تشبيه رائق ، أو مجاز آسر، أو كناية لطيفة، أو تمثيل أخاذ، وإنما هي آية من «عُرْض القرآن» ومع ذلك استخرج ما فيها من دقائق النظم، وأسرار البيان، وحكمة المعنى ما لا يملك القارئ معه إلا أن يقول بعد الاطلاع عليه:

«الله أكبر، الله أكبر»

وهذا منهج مثمر في دراسة القرآن ترسم فيه الشيخ دراز خطى الإمام عبد القاهر الجرجاني منهجه التحليلي الممتع المقنع في كتابيه :

«أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز»

وبعد فإن هذا الكتاب فتح جديد فتحه الله على يد الشيخ محمد عبد الله دراز، الذي كافأه الله على جهاده في سبيله لهدايته إلى الحق والدفاع عنه كما قال في كتابه العزيز : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وفي الختام نتقدم بجزيل الشكر وخالص الدعاء للقائمين على «دار القلم» على اهتمامهم بتراث الشيخ دراز وهو أحد معالم نهضة إسلامية نأمل ان تؤتي ثمارها .

مع دعائنا بالتوفيق والسداد لفضيلة الشيخ الشاب أحمد فضلية على رعايته المشكورة لإعادة نشر تراث د. دراز ونشر مالم ينشر من قبل، نشكره ونسأل الله أن يسدد خطاه في كل أمره، وفي رعاية مشروع نشر فكر العمالقة من علماء الأمة من ألفه إلى يائه وأن يجعل ذلك ذخرًا له ولنا وللأمة أجمع، وكلمة أخيرة نقولها عن أستاذ الجيل بحق الشيخ الدكتور الإمام محمد عبد الله دراز:

«أنه لو لم ينجب الأزهر الشريف عالمًا سواه في القرن الماضي لكفاه هذا الإنجاب.
رحمنا الله وإياه في العالمين .

القاهرة في ربيع الأول ١٤٢٦هـ **عبد العظيم إبراهيم المطعني**

أبريل ٢٠٠٥ م

«النبأ العظيم»

عرض وتحليل[1]

بقلم الأستاذ / منصور الأحمد

لاشك أن كل موضوع يكتبه الكاتب، وكل مقالة يخطها قلمه، يكون وراءهما أسباب ودوافع تدفعه إلى اختيار ما اختار .

فما الذي دعاني إلى اختيار هذا الموضوع، وما الشيء الذي يحسن التنويه به، الذي ألحّ عليّ لأقدم هذه الكلمة حول كتاب :«النبأ العظيم»؟ .

هناك سببان رئيسيان:

١ـ شخصية الكاتب.

٢ـ وموضوع الكتاب.

أما الكاتب، فهو الدكتور محمد عبد الله دراز، رحمه الله ، وهو عالم غنيٌّ عن التعريف، من حملة لواء الثقافة الإسلامية المعاصرة.

وفي حياة هذا العالم مواطن للعبرة، يحسن بنا أن نقف عندها ونقدمها للشباب المسلم في كل مكان .

فأول ما يفجؤك في هذه الشخصية هذا التزاوج الفذ، والتلاقح الغني بين ثقافتين متباينتين، عادت نتيجته بالخير العميم على الثقافة الإسلامية .

وفي مجال الصراع الفكري والثقافي الذي خاضه المسلمون في العصر الحديث، وجدنا ألوانًا متعددة من التأثر .

ـ فهناك طائفة خضعت خضوعًا كاملاً وذليلاً للثقافات الغازية.

---

(١) نشرت هذه الدراسة بمجلة البيان العدد الثالث ـ ربيع الثاني / ١٤٠٧ هـ ـ كانون الأول (ديسمبر ١٩٨٦م).

ـ وطائفة شعرت بشراسة الهجمة الفكرية ووطأتها، فاستعصمت بخطط دفاعية، إن نفعت في رد عادية الغازي الواغل (الذي يدخل في القوم وليس منهم) مؤقتًا، فهي لن تنفع أمام فكر لايزال يستخدم كل أساليب الحيلة والمكر، وينصب كل أحابيل الشيطان الكرة بعد الكرة ليستأنف هجومه عودًا على بدء.

ـ وطائفة ثالثة أغمضت عيونها، وأصمت آذانها عن كل ما هو غريب عن الإسلام والمسلمين، متجاهلة أن هذه الأرض يعيش عليها المؤمن والكافر، ويتجاور فيها البر والفاجر، وأنها ـ بفضل المكتشفات العلمية الحديثة، والسرعة الخيالية التي تطورت فيها وسائل الاتصال ـ قد ضاقت رقعتها، وتضامت أطرافها، فكان من شأن هذه الطائفة ـ مع توفر النيات الطيبة ـ أن عزلت نفسها في عالم خاص اصطنعته لنفسها، ورضيه لها من يفرضون على أمتنا فكرهم وطريقة حياتهم، فصار يُنظر إلى هذه الفئة نظرة منكرة، وكأنها خارجة للتو من تحت أطباق القرون، مع أنها تعيش في هذا العصر، ولكن بجسمها، وقد خلقه الله ليلتفت إلى الجهات الست .

ـ وهناك طائفة رابعة، تشبعت بالثقافة الإسلامية الأصيلة، ولم يشغفها ذلك، حيث رأت نفسها تعيش في عالم تمور فيه الأفكار من كل لون، والثقافة التي تشبعت بها قد زوحمت وحوصرت وأقصيت من مجالاتها الحيوية، فلم يفت ذلك في عضدها، بل رأت أن الأمر جد، وأنه لابد من معرفة كنه هذه الثقافة الغازية، ولابد من سبر غورها، وذلك لا يكون إلا بأخذ العدة لها، وخوض غمارها، فأقبلوا على ذلك، غير مدخرين جهدًا ، بنفوس واثقة لاتعيقها عن غايتها، عقدة نقص، ولايفتنها عن دينها بهرج الحضارة الغربية .

ومن هذه الفئة الأخيرة مؤلف هذا الكتاب د. محمد عبد الله دراز، فبعد أن حاز أعلى الدرجات العلمية من الأزهر سافر إلى فرنسا ، فقضى هناك حوالي أحد عشر عامًا درس فيها مناهج البحث عند الغربيين، حتى هضمها وتمثلها أحسن تمثل، وليس

هذا القول من قبيل الدعاوى العريضة، فنظرة إلى مـا ترك من آثار علمية تجعلنا نستيقن ذلك.

وأن ما يستوقف النظر في شخصية هـذا العالم أنـه حينما يتنـاول ثقافة الغرب تراه ناظرًا إليها من علٍ، مشرفًا عليها من قمة الفكر الإسلامي ، واضعًا لها في الموضع الذي يجب أن تكون فيـه، ثقافـة أرضية مبتوتـة الصلة عـن وحي السـماء، قامت على مبادئ الهيمنـة، وبلغت أشـدها في ظـل الظلم والغرور، فصـارى أهلهـا والمفتونين بهـا أنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:٧) .

والثقافـة «الموسـوعية» لهذا الرجل تغـري الإنسـان أن يلتفت حولـه في أرجاء العالم الإسـلامي ليرى كثيرًا من علماء المسـلمين من يقف نفسـه على كتب سـلفنا الصالح - ونعمـت - لايغادرها إلى غيرهـا، وينقضي عمره بالبحث عـن دقائق مـا اختلفوا فيه من المشـكلات، لا ليستخلص من ذلك منهجًا يعالج بـه مشكلات الحاضر، بل ليقنع نفسه ومن حوله بأن العلم هو هذا ، وأن ما وراءه لا يعدل شيئًا.

نعم، إن هذا مـن العلم، ولكن بمقدار أن لا يشـغلنا المـاضي عن الحـاضر وبمقدار ما يفيدنـا في حل المعضلات التي تأخذ منـا بالنواصي والأقدام، وبمقدار ما نتسـلح منه بما نناضل بـه في سـاحة صـراع شـرس، وحرب معلنـة هجمـت علينا مسـتهدفة عقيدتنا وفكرنا وثقافتنا ووجودنا كله، وأي بقاء لأمة تذوب في غيرها؟! .

ومـن أعجب العجـب أنك تجـد العـالم في علـم النحو والبلاغـة والتفسـير والفقـه والحديث لا يشق لـه غبار، إلا أنه قد يجهل أين تقع قدمه من خريطة العالم، ومن الذي يتحكم بمصيره ومصير أمتـه ومن يتصرف بالنيابـة عنـه في أخص خصوصياتـه، بل قد يجهل من الـذي ضيق مجـال علمـه، وأبعده من واقع الحيـاة، حتى جعلـه مقصورًا على حلقات بحث - إن وجدت - أشبه بمراجعة آثار بائدة، ومن أعجب العجب كذلك من تراه يريـد تطبيق ما فعلـه رسول الله ﷺ مـع وفد نصارى نجران على الغـرب الصليبـي

وعلى أمريكا ! .

إنه قد يكون استظهر حادثة وفادة وفد نصاري نجران على رسول ﷺ وقارن بين الروايات، ووازن بين أقوال الصلحاء فيها ورجّحَ .. ولكنه يجهل حال الغرب الصليبي العقائدية، ولا يعرف عن التطورات التى انتابت المسيحية عبر تاريخها، لامن حيث بدايات التأثير الوثني، ولا من حيث تلاعب الأهواء البشرية، بل و تلاعب اليهود بها حتى وقتنا الحاضر، فأين حال من حال، وأين نصارى من نصارى؟!

وهذا مثال ضربته لأشير من خلاله إلى أن تغير حال المسلمين لايكون إلا بحسن فهم لثقافتهم ، واعتزاز عميق بها مع معرفة عميقة ونظر وتحليل للظروف الداخلية والخارجية التى تؤثر فيهم، أو يمكن أن تؤثر فيهم في المستقبل القريب أو البعيد.

منهج المؤلف في التأليف:

نستطيع أن نتبين منهج المؤلف في التأليف من كلمة أحد العلماء (شمس الدين البابلي، ت ١٠٧٧هـ) وصدر بها كتابه : «دستور الأخلاق في القرآن» ، وهي:

«لايؤلف أحد كتابًا إلا في أحد أقسام سبعة، ولا يمكن التأليف في غيرها، وهي:

- إما أن يؤلف من شيء لم يسبق إليه يخترعه،
- أو شيء ناقص يتممه،
- أو شيء مستغلق يشرحه،
- أو طويل يختصره، دون أن يخل بشيء من معانيه،
- أو شيء مختلط يرتبه ،
- أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه ،
- أو شيء مفرق يجمعه. » ،

ومن هنا فإنه يتحدد مقصده من موضوعه هذا، وليس أكثر من الكتب المؤلفة حول القرآن الكريم، تفسيرًا، وأسباب نزول، وبيانٌ إعجاز، ولكن كتاب «النبأ العظيم» على صغر حجمه يظل معلمة بارزة تقف شامخة بين كل الدراسات القرآنية، وسر ذلك يكمن في:

١ـ الوحدة الموضوعية:

فالقضية الأساسية التى يدور عليها الكتاب، والمحور الذي أدير عليه البحث هو بيان مصدر القرآن هل هو الوحي الإلهي، أم أن محمدًا ﷺ ابتدعه وألفه؟ .

حول هذه القضية تحتشد الأدلة المنطقية من أول البحث إلى منتهاه سواء ما تعلق بشخصية الرسول ﷺ ، أو ما تعلق بظاهرة الوحي، أو ما تعلق منها بنص القرآن الكريم نفسه .

ففيما يتعلق بشخصية الرسول ﷺ يعرض شواهد من سيرته تجاه القرآن «لها شواهد ناطقة بصدقه في أن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه وأنه لم يفض من قلبه بل أفيض عليه» .

وكذلك يستنبط من سيرته العامة مجموعة من الأخلاق العظيمة، كأمثلة تصور لنا هذا النبي «إنسانًا الطهر ملء ثيابه، والجد حشو إهابه، يأبى لسانه أن يخوض فيما لا يعلمه، وتأبى عيناه أن تخفيا ما يعلنه، ويأبى سمعه أن يصغي إلى غلو المادحين: تواضع هو حلية العظماء، وصراحة نادرة في الزعماء، وتثبت قلما تجده عند العلماء».

ويفنّد الاحتمالات التى يثيرها الملحدون والمعاندون خلال محاولاتهم القديمة والحديثة للتشكيك في مصدر القرآن، مارًا خلال تفنده بالفروق الجوهرية بين القرآن والحديث، واستحالة أن تكون المعلومات التى تضمنها القرآن الكريم مما يستنبطه العقل والتفكير، ومما يدركه الوجدان والشعور .

ثم يخلص إلى شبهة أن يكون رسول الله ﷺ قد تلقى هذا القرآن من معلم وبعد مناقشة مستفيضة لهذه الشبهة ودحضها بالبراهين الدامغة يقول لمن يزعم أن محمدًا كان يعلمه بشر: قيل لنا ما اسم هذا المعلم؟ ومن الذي رآه وسمعه، وماذا سمع منه، ومتى كان ذلك، وأين كان؟ ..» .

وبعد أن أثبت استحالة أن يكون للقرآن مصدر إنساني، لا في نفس صاحبه، ولاعند أحد من البشر، انتقل إلى المرحلة الثالثة ليبحث عن ذلك المصدر في أفق خارج عن هذا الأفق الإنساني جملة، وذلك بدراسة الأحوال المباشرة التى كان يظهر فيها القرآن على لسان محمد بن عبد الله ﷺ، فاستعرض الكيفيات التى كان الرسول ﷺ يستقبل فيها الوحي، وأنها لم يكن فيها شيء متكلفًا مصنوعًا، وأنها «مباينة للأعراض المرضية، والنوبات العصبية التي تصفرُّ فيها الوجوه، وتبرد الأطراف، وتصطك الأسنان وتتكشف العورات، ويحتجب نور العقل، ويخيم ظلام الجهل» .

وبعد أن درس الطريق التي جاء منها القرآن، ولم يجد «في اعترافات صاحبه، ولا في حياته الخلقية، ولا في وسائله وصلاته العلمية، وفي سائر الظروف العامة والخاصة، ولا في وسائله وصلاته العلمية التى ظهر فيها القرآن إلا شواهد ناطقة بأن هذا القرآن ليس له على وجه الأرض أب ننسبه إليه من دون الله»، تقدم مع الذين لا يعلمون عن تلك الحياة النبوية إلا قليلاً، ويريدون أن يأخذوا حجة القرآن لنفسه من نفسه، تقدم معهم خطوة أخرى، فبين لهم أن هذا الكتاب يأبى بطبيعته أن يكون من صنع البشر، فدرس نواحي الإعجاز القرآني الثلاثة:

الإعجاز اللغوي، والإعجاز العلمي والإعجاز الإصلاحي.

فمن ناحية الإعجاز اللغوي فند الشبهة الممكنة حول هذه القضية، وهي:

- شبهة القدرة على محاكاة القرآن .

- وشبهة من ينسب هذه القدرة إلى غيره.

ـ وشبهة أن عدم معارضة العرب للقرآن لم تكن بسبب عجزهم بل لسبب إنصراف هممهم .

ـ وشبهة من يظن أن إعجاز القرآن لم يكن من الناحية اللغوية .

ـ وشبهة من يقول: إن عدم قدرة الناس على مجاراة أسلوب القرآن ليست بسبب خصوصية القرآن، بل لأن أسلوب كل قائل أو كاتب صورة لنفسه لايستطيع أحد غيره أن يجاريه فيه .

وهنا يصل إلى إبراز بعض أسرار الإعجاز القرآني، فينظر أولاً في القشرة السطحية للفظ القرآن، ثم يقدم نظرات في لب البيان القرآني وخصائصه التى امتاز بها عن سائر الكلام ، سواءًا في الفقرة التى تتناول شأنًا واحدًا، أو في السورة التى تتناول شؤونًا شتى، أو فيما بين سورة وسورة، أو في القرآن جملة .

ويطبق هذه النظرات على آية يختارها من عرض القرآن، فيبلغ القمة: ثم يختم الكلام على الوحدة الموضوعية لسور القرآن، ممثلاً لذلك بأطول سورة منه : « سورة البقرة» .

٢ـ امتلاك المؤلف أدوات البحث والهيمنة عليها :

ويظهر هذا ا لأمر ـ بادئ ذي بدئ ـ من تحديده للموضوع الذي يطرحه ، فيحرر محل النقاش ـ شأنه شأن علمائنا القدامى ـ ويستبعد مالا يدخل تحت التساؤل، انظر إليه كيف يدخل إلى المشكلة :

«لقد علم الناس أجمعون علمًا لا يخالطه شك، أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أمي ولد بمكة في القرن السادس الميلادي، اسمه محمد بن عبد ا لله بن عبد المطلب ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ـ هذا القدر لاخلاف فيه بين مؤمن وملحد، لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ولا

لحادث غيره ظهر على وجه الأرض.

أما بعد، فمن أين جاء به محمد ﷺ؟ أمن عند نفسه، ومن وحي ضميره، أم من عند معلم؟ ومن هو ذلك المعلم؟».

وأنت، إذا قرأت الكتاب بروية، وجدت فصوله وفقراته، كلاً منها يسلمك إلى ما بعده، ويأخذ بعضها بأكناف بعض، وقد انتظمت حججه وأدلته، فبعضها يستنبط من البدهيات العقلية، وبعضها متضمن للقواعد المنطقية، وبعضها مأخوذ من المعلومات التاريخية والأدبية، ويغذي كل ذلك خلفية علمية بادية في أسلوبه واستحضار مدهش لآيات القرآن الكريم والمسائل المطروحة حوله.

يقول بعد أن أنهى الكلام على ٩١ من سورة البقرة:

«ولو ذهبنا نتتبع سائر ما في هذه القطعة من اللطائف لخرجنا عن حد التمثيل والتنبيه الذي قصدنا إليه. فلنكتف بتوجيه نظرك فيها إلى سر دقيق، لا تراه في كلام الناس، ذلك أن المرء إذا أهمه أمر من الدفاع أو الإقناع أو غيرهما بدت على كلامه مسحة الانفعال بأغراضه، وكان تأثيره بها في نفسك على قدر تأثره هو، طبعًا وتطبعًا، فتكاد تحس بما يخالجه من المسرة في ظفره ومن الامتعاض في إخفاقه، بل تراه يكاد يهلك أسفًا لو أعرض الناس عن هداه إذا كان مؤمنًا بقضيته، مخلصًا في دعوته، كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام . أما هنا فإنك تلمح وراء هذا الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض، قوة تؤثر ولا تتأثر، تصف لك الحقائق خيرها وشرها، في عزة من لا ينفعه خير، واقتدار من لا يضره شر .

هذا الطابع من الكبرياء والعظمة تراه جليًا من خلال هذا الأسلوب المقتصد في حجاجه أخذًا وردًا، المقتصد في وصفه مدحًا وقدحًا».

٣- التوفيق بين الدقة العلمية وإشراق الأسلوب:

إنهـا معادلة صعبة، أن يوفق الكاتب بين هذين الأمريـن: دقة علمية بالغة، وأسلوب يملك عليك فكرك ويأسرك بإشراقه وحيويته.

وكثيرًا ما ضحى علماء كبـار بجمال الأسلوب ونصاعته في سبيل تحديد الفكرة التي يعالجونها وإيضاحهـا، وعلى النقيض من أولئك جـاءت أسـاليب بعض العلمـاء فارغة جوفاء حينمـا ولوا وجوههم شطر التجويد في الأسلوب، والتنميق في الشكل، فسوّدوا صحائف يحسبها الظمآن ماء، وماهي إلا سراب.

أما هنـا، فتجد هذه الميزة ـ ميزة عدم طغيـان أحد طرفي هذه المعادلـة على الآخر ـ واضحـة جليـة، وكأنمـا ذاك نتيجـة للمـيزة الثانيـة للكتـاب (امتلاك المؤلف لأدوات البحث).

ومما عزز ذلك ـ والله أعلم ـ تشبعه بأسلوب القرآن الكريم ومنهجه، فلا تكاد تجد فقرة من فقرات الكتـاب لا يظهر فيها انعكاس الأسلوب القرآني على أسلوب الرجل، واستخدام الجملـة القرآنيـة استخدامًا أخاذًا في مطابقتـه للفكرة، ومناسـبته وامتلاكه لشعور القارىء .

وإنـه ليصعب على الدارس أن يختـار مثالاً علـى هذه الميزة من الكتـاب، وذلك لأنه كل دليل علـى ذلك، وأية فقرة أخترتهـا فأنت واجد في غيرهـا ما قد يكون أدل على ذلـك . ولكن خروجًـا من هذه الحيرة فإننـــا نثبـت هنا تعقيبه على موضوع الآيات (١٣٥ ـ ١٦٢) من سورة البقرة :

«أرأيت هذه المراحل الأربع التى سلكها القرآن في دعوة بني إسرائيل، كيف رتبها مرحلـة مرحلـة، وكيف سـار في كل مرحلـة منهـا خطوة خطوة؟ فـارجع البصر كرة أخرى إلى هذه المرحلــة الأخـيرة منهـا، لتنظـر، كيف اســتخدم موقعهـا هذا لتحقيق غرضين مختلفين، وجعلهـا حلقـة اتصال بين مقصديـن متنائيين، فهي في جملتهـا مناجاة

من الله للنبي والمؤمنين في خاصة شأنهم وفيما يعنيهم من أمر دينهم، ولكنه جعل هذه النجوى طرفين، لّون كل طرف منها بلون المقصد الذي يتصل به، فالتقى المقصدان على أمر قد قدر.

ألم تر كيف بدأها بأن قص على المؤمنين مقالة أعدائهم في بعض حقائق الإسلام، وعمد إلى هذه الحقائق التى تماروا فيها فجعل يمسح غبار الشبهة عن وجهها، حتى جلاها بيضاء للناظرين، فكانت هذه البداية ـ كما ترى ـ نهاية لتلك المعارك الطويلة التي حوربت فيها الباطل في كل ميدان ثم رأيت كيف ساق الحديث فجعل يثبت أقدام المؤمنين على تلك الحقائق النظرية والعملية، ويحرضهم على الاستمساك بها في غير ما آية ..

أفلا تكون هذه النهاية بداية لمقصد جديد بعدها يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام مفصلة؟ .

بلى.. إن ذلك هو ما توحى به سياقة هذه النجوى المتواصلة، التى مدت في خطاب المؤمنين مدًّا، وحولت مجرى الحديث معهم رويدًا رويدًا، حتى صار كل من ألقى سمعه إليها مليًّا، يسمع في طيها نداء خفيًّا: أن قد فرغنا اليوم من الأعداء جهادًا وأقبلنا على الأولياء تعليمًا وإرشادًا، وأن قد طوينا كتاب الفجار، وجئنا نفتح كتاب الأبرار، وأن هذه الصفحة الأخيرة من دعوة بني إسرائيل لم تكن إلا طليعة من كتاب الحق، تنبيء أن سيتلوها جيشه الجرار، أو شعاعة من فجر الهدى سيتحول الزمان بها من سواد الليل إلى بياض النهار. ألا ترى الميدان قد أصبح خاليًا من تلك الأشباح الإسرائيلية التى كانت تتراءى لك في ظلام الباطل تهاجمها وتهاجمك، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا؟» .

وبعد؛ فإن لا أكن قد وفيت هذا الكتاب حقه من التعريف، فلا أقل من أن أكون قد أغريت القارئ بقراءته، وذلك حسبي.

«النبأ العظيم»

نظرات جديدة في القرآن

إعداد : نزار قنديل

... ويبقى القرآن الكريم معجزة الإسلام الأزلية، والتى تنطلق منها وتدور في فلكها أية معجزة أخرى لهذا الدين العظيم ولرسوله محمد ﷺ .

وليس عجيبًا ولا غريبًا أذن أن يرتبط النبوغ في دراسة العلوم الدينية ارتباطًا وثيقًا بالقدرة على استنباط بعض من كنوز هذا القرآن الكريم وشرحها وتفسيرها بصورة تناسب العصر والعقلية التى تسود فيه .

وليس غريبًا أيضًا أن تنطلق كل محاولات أعداء الإسلام صوب هذا الكتاب العظيم، لأن هؤلاء الأعداء يدركون جيدًا أن هذا هو حائط الصد المنيع الذي يلجأ المسلمون إليه احتماءًا به من أي خطر يواجههم، وتأسيسًا وتشييدًا لكل حضارة تريد أن يكتب لها البقاء والاستمرار.

وكما فضل الله سبحانه وتعالى المسلمين على الأمم كلها بالقرآن الكريم فإنه كذلك فضل من يجتهد في تفسير هذا القرآن على المجتهدين في فروع أخرى من المعرفة الدينية والدنيوية .

ولعله ليس من قبيل المبالغة أن نؤكد أن الله سبحانه وتعالى أعطى هذه الأمة في قرنها الثالث عشر الهجري واحدًا من رجالها الذين سعوا نحو فهم القرآن الكريم ونواحي إعجازه الثلاث: اللغوية، والعلمية والتشريعية بشكل متميز اكتسبه صاحب المحاولة من استعداده الفطري، ومن دراساته العميقة، ومن خلال دراسته في الخارج واحتكاكه بأناس ليسوا من ديننا فحاربهم في خندقهم واستطاع - بتوفيق الله -

الانتصار عليهم .

إنه الدكتور المرحوم محمد عبد الله دراز وأنه كتابه «النبأ العظيم .. نظرات جديدة في القرآن». وإن ما نكتبه عنه اليوم إنما هو محاولة متواضعة للقراءة في هذا الكتاب القيم.

يبدأ المؤلف كتابه ببيان أن تسمية كتاب الله العزيز الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ «بالقرآن» أشارة إلى صفتين أساسيتين هما أنه «يتلى» باللسان و «يدون» بالقلم، وبالتالى فيجب حفظه في «الصدور» و «السطور» جميعا، ومن هنا فلا ثقة لنا إلا بجمع الصفتين معًا .

ويشير إلى فارق مهم بين القرآن الكريم وبقية الكتب السماوية الأخرى، وهو أن الله سبحانه وتعالى تكفل بحفظه حيث يقول : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، لكنه سبحانه وتعالى لم يتكفل بحفظ الكتب الأخرى ووكل ذلك إلى الناس فقال تعالى : ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ (المائدة:٤٤) .

ويرد الدكتور دراز على شبهة حاول المستشرقون وأعداء الإسلام إلصاقها بالقرآن الكريم، وهي زعمهم أن هذا القرآن من تأليف محمد - ﷺ - ولو أن هناك من يقض بالحق لاكتفى في نفي هذه الشبهة بما يؤكده الكتاب نفسه على لسان محمد من أنه لا دخل له في ابتكار معانيه وصياغة مبانيه :

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٤)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ (يوسف: ٢)

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ (الأعراف: ٢٠٣) .

وعشرات الآيات الأخرى التى تنفى هذه الشبهة بإقرار من يتهمونه بها بأن هذا العمل ليس من صنعه .

ويفترض المؤلف افتراضا هو أن هذا الرسول ﷺ زعم هذا الكلام لله تعالى بحجة انه قد يكون في ذلك ما يعينه على أن يطيع الناس كلامه!.

ويؤكد أنه حتى لو افترضنا ذلك فإن هذا يصبح قياسًا فاسدًا في ذاته، فاسدًا في أساسه، فهو فاسد في ذاته لأنه لو أراد ذلك فما كان به حاجة إلى أن يجعل لنفسه كلامًا آخر ليس من عند الله وهو الأحاديث النبوية، خاصة وأن الله سبحانه وتعالى جعل طاعة كلامه من طاعته ومعصيته من معصيته.

وهو فاسد من أساسه لأنه مبنيّ على افتراض باطل وهو جواز أن يكون محمد من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية صلاحية أي طريق ولو كان كذبًا وتمويها، وهذا الأمر ينكره الواقع التاريخي وينسفه من الأساس، فمن يتتبع سيرة هذا الرسول العظيم ﷺ في حركاته وسكناته، وعباراته، وإشاراته، وفي كل أحواله يدرك أنه كان، أبعد الناس عن الكذب لدرجة أعجزت أعداءه عن الصاق هذه الصفة به، فهم - هؤلاء الأعداء - لقبوه بالصادق الأمين، على مر الزمان ابتداء من شهادة أبي سفيان وهو في الجاهلية بين يدي هرقل لما سأله: هل كنتم تتهمونه بالكذب؟ قال: لا، فسألهم: هل يغدر؟ قال : لا[1] .

مرورًا بكل الذين حاولوا إثارة الشبهات حول شخصيته العظيمة وهو ماتؤكده شهادتا «كارليل» الانجليزي، والكونت «هنري دي كاستري» الفرنسي في كتابيهما: «الأبطال» «وخواطر وسوانح عن الإسلام».

ويستعرض الدكتور محمد عبد الله دراز جانبًا من سيرة الرسول ﷺ مما ينفى شبهة

(١) البخاري عن عبد الله بن عباس ك. بدء الوحي ب/ بدء الوحي
ومسلم عن ابن عباس ك/ الجهاد والسير ب / كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (٣٣٢٢) .

أن هذا الكلام - القرآن الكريم - هي من صنعه وأنه الصقها با لله سبحانه وتعالى وذلك في مواقف كـان في حاجة قصوى إلى أن يتكلم ويوضح للناس، لكنه كان يمضى الليالي مؤرقًا انتظارًا لقرآن ينزل إليه ويؤيد موقفه.

ويشير إلى موقفه في حديث الإفك الـذي افترى فيه المنافقون على أم المؤمنين زوجه عائشة رضي الله عنها وكيـف أنه انتظر شـهرًا كاملاً مكتفيًا بكلامه لهـا: «يا عائشة: أمـا أنـه بلغـني كذا وكـذا فـإن كنت بريئـة فسـيبرئك ا لله ، وإن كنـت ألممت بذنب فاستغفري الله»[1] .

ويتسـاءل ماذا كان يمنعـه - لو أنه هو واضـع القرآن - أن يتقول بكلمة حاسمة يحمي بها عرضه ويخرس ألسنة المتخرصين بنسبتها إلى الوحي؟!! .

ويتنـاول الدكتور دراز مواقف أخـرى كان يجيء فيـه الوحي إلى محمد علـى غير ما يحبـه ويهـواه، فيخطئـه في الرأي وينقـده نقدًا مرًا، ومنهـا قـول ا لله سـبحانه وتعالى : ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ﴾(التحريم: ١) .

وقولـه تعالى :﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (الأحزاب: ٣٧) .

ويتسـاءل مرة أخرى: ألم يكن لـه في السكوت عن تقريع نفسـه سـتر لها، واستبقاء لحرمة آرائه؟

ويشـير إلى مواقف أخرى كان يأتيه فيها الأمر مجملا فلا يستبينه هو وأصحابه حتى يـنزل الله عليه كلامًا يوضحـه، فقد نزل قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (البقرة:٢٨٤).

---

(١) البخاري عن عائشة ك/ الشهادات ب/ تعديل النساء بعضهن بعضًا (٢٤٦٧) .

ومسلم عن عائشة ك/ التوبة ب / في حديث الإفك وقبول (٤٩٧٤) .

فانزعج الصحابة انزعاجًا شديدًا لأنهم اعتقدوا أن الله سيحاسبهم على كل شيء حتى خطرات القلوب فقالوا: يارسول الله أُنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها!.

فقال لهم النبي: اتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير.

فظلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله:

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)[١] .

ويتساءل الدكتور دراز: أي عاقل توحى إليه نفسه كلاما لا يفهم هو معناه، وتأمره أمرًا لا يعقل هو حكمته؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟ .

ويرد على شبهة أخرى أثارها أعداء الإسلام حيث شككوا في أن النبؤات الموجودة في القرآن الكريم كانت من جنس ما توحى به الفراسة والألمعية!

ويضرب مثلاً يتعلق بنبؤات القرآن نحو مستقبل الإسلام في نفسه أو في شخص كتابه ونبيه وهي ما جاء في آية :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر :٩) .

حيث أن هذه الآية مكية نزلت في عشر سنوات كلها إعراض من قوم محمد ﷺ عن الاستماع للقرآن، وكلها اضطهاد وتعذيب ومحاصرة ومؤامرات سرية وعلنية على قتله أو نفيه، فهل لإنسان أن يلمح في ذلك شعاعًا ولو ضئيلاً يعطى أملاً لهذا الدين ولأنصاره المظلومين؟!

ومثال آخر هو: النفي المؤكد وتعجيز العالم كله عن الإتيان بمثل هذا القرآن:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨) .

ومثال ثالث: هو تلك الآية التي يضمن الله بها لنبيه حماية شخصه والأمن على حياته حتى يبلغ رسالات ربه :

﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧).

ويشير الدكتور دراز إلى أمثلة أخرى تتعلق بمستقبل الحزبين: حزب الله وحزب الشيطان، فالقرآن الكريم أكد للمهاجرين الذين فروا بدينهم من مكة أنه سينصرهم، فلما هاجروا هاجمتهم الحروب المسلحة من كل جانب فانتقلوا من خوف إلى خوف أشد حتى أصبحت كل أمنيتهم أن يجيء يوم يضعون فيه أسلحتهم، وفي هذه الأوقات العصيبة ينبئهم القرآن بما سيكون لهم من الخلافة والملك:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور: ٥٥)

ويضيف : أن الأعجب من ذلك هو ما أنزله الله تعالى في شأن الوليد بن المغيرة المخزومي (الرجل الزنيم) الذي كان يقول في القرآن أنه أساطير الأولين فنزل قوله تعالى :﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (القلم:١٦) .

فأصيب بالسيف في أنفه يوم بدر، وكانت تلك علامة يعير بها ما عاش!!

وبعد رحلة طويلة وممتعة فند فيها الدكتور محمد عبد الله دراز كل دعاوى المستشرقين والملحدين من أن هذا القرآن كتاب وضعه محمد وادعى أنه من عند الله تعالى ينتقل إلى مناقشة وتفنيد زعم آخر من دعاوى الجاهلين وهو أنه تلقى وتعلم العلم الذي ورد في القرآن الكريم من غير الله سبحانه وتعالى .

ويقول : أما أن محمدًا ﷺ لم يكن له من قومه «الأميين» فذلك ما لا شبهة فيه

لأحد، ولا نحسب أحدًا في حاجة إلى الاستدلال عليه بأكثر من اسم «الأمية»، و«الجاهلية» اللذين كانا أخص الألقاب بعصر العرب قبل الإسلام .

وأما أنه لم يكن له معلم من غيرهم فحسب الباحث فيه أن نحيله على التاريخ، ثم نسأله: هل قرأ فيه سطرا واحدًا يقول أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب تلقى عن أحد من العلماء ـ قبل البعثة أو بعدها ـ شيئًا من العلم؟!

وينتقل المؤلف إلى مرحلة أخرى من كتابه الممتع القيم، وهي بيان الإعجاز القرآني من ثلاثة وجوه وهي الاعجاز اللغوى، والعلمي، والتشريعي، مشيرًا إلى أنه اختار ذلك لأن من الناس من يعاند فيقول: كما أخبر القرآن:

﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ١٣٢).

وآخرين لايجدون طمأنينتهم إلا في اضطراب الشك:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(١٤)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ (الحجر: ١٤، ١٥)

ويوضح الدكتور دراز أن عنايته في الكتاب الذي بين أيدينا ستكون بناحيته اللغوية لأنها ـ على حد قوله ـ هي التى وقع من جهتها التحدي بالقرآن جملة وتفصيلاً في سورة منه، وهي سورة البقرة .

ويناقش الذين يشككون في أن القرآن معجزة لغوية ويحدد أن ذلك ينحصر في ستة وجوه، يرد على كل منها بشيء من التفصيل.

الوجه الأول: إذا كان مسار الشبهة أن المتشكك زاول شيئا من صناعة الشعر أو الكتابة، ووسوس له شيطان الإعجاب بنفسه والجهل بالقرآن أنه يستطيع الإتيان بمثل أسلوبه، فيؤكد أن علاج ذلك في شيء واحد هو أن يطيل النظر في أساليب العرب، ويدرسها جيدًا حتى يمتلك القدرة على النقد البياني، وسيرى أن كل خطوة في هذا

الاتجاه ستزيده معرفة بقدره، سيزداد بها إنكارًا لقوته وخضوعًا أمام أسلوب القرآن.

أمـا إذا استمر في غروره وكبر عليه أن يقر بعجزه فليخرج لنا أحسن ما عنده لننظر إن كان صادقًا أم إنه من الكاذبين ؟ .

ويشير إلى أن التـاريخ أتى بمثل هذه المحاولات الفاشـلة التي أقرت بعد ذلك بعجزها مثـل ابن المقفع، والمتنبي، والمعري، ومحـاولات معتنقي القاديانيـة والبهائيــة، ومسـيلمة الكذاب.

والوجـه الثاني: إذا كان مدخل الشبهة أنـه رآى في الناس من هو أعلى منه كعبًا في هـذا المجـال ولمثـل هذا نقـول: ارجع إلى أهـل الذكر مـن أدبـاء عصرك فاسـألهم: هل يقـدرون أن يـأتوا بمثلـه؟ فـإن قـالوا لـك: «لو نشــاء لقلنـا مثل هـذا» فقل: «هـاتوا برهانكم!».

وإن قالوا: «لا طاقة لنا به» فقل: أي شيء أكبر من العجز شهادة على الإعجاز؟!

الوجـه الثالث: إذا علـم المتشـكك أنـه لم يسـتطع أحد أن يـأتى بشـيء في معارضة القرآن، ولكنه قال: ليس كل ما يفعله الناس يكون خارجًا عن حدود إرادتهم!

وهنا يشـير الدكتور دراز إلى أنه إذا قـال أن السبب في ذلـك هو عدم وجود سبب لهـذه المحاولة فهو قـول فاسد، لأن أسـباب المعارضـة كانت موفـورة دائمة، فـأى شيء أقوى من هذا التقريع المتكرر الذي يعلن أن خصوم القرآن عاجزون عن مضاهاته؟.

وإذا قال: أنهم عجزوا عن المعارضة لأن شيئًا حال بينهم وبين المحاولة، فإن ذلك لم يكن ليحـدث إلا بعد أن يجربوا قدرتهم علـى ذلك حتى يتبين لهم إن كـانوا قادرين أم عاجزين، وهذه المحاولة جعلتهم جميعًا يقولون : «ما هذا بقول بشر».

الوجـه الرابع: إذا آمن المتشكك بأن السـكوت عن المعارضة كان عجز ولكنه قال: أنى أقـرأ القرآن فـلا أجده يخـرج عن معهـود العرب في لغتهـم وحـروفهم وكلمـاتهم، فالرد على ذلـك سـهل، فالقرآن الكريم لم يخرج في لغتـه عن سـنن العرب في كلامهم إفرادًا وتركيبًا، وبذلك كان أكثر أعجازًا ، وأوضح في قطع الأعذار.

الوجه الخامس: إذا قال المتشكك أن كل هذه الحجج مقبولة لكنها تفتح بابًا جديدًا للشك، وهو أن كل كلام يصدر عن أحد من البشر يكون له أسلوبًا متفردًا ومتميزًا عن سائر البشر! .

ويرد الدكتور دراز على ذلك بأن هذه حقيقة لا جدال فيها، ونحن لا نطالب أحدًا بأن يجيء بنفس الصورة الكلامية للقرآن الكريم، ولكن نطالبه بأن يأتي بكلام على أي نمط ومنهج، بحيث إذا قيس مع القرآن على أساس الفضيلة البيانية حاذاه أو اقترب منه، فإن عجز عن ذلك قلنا له: أيبقى لك من الحجج شيء؟!

الوجه السادس: وهي افتراض أن السائل المتشكك كان من طلاب الحق، وانتهى بعد بحث إلى أن هذا القرآن الكريم معجزة لغوية بكل المقاييس ولكنه يسأل، هل من سبيل إلى عرض شيء من ذلك لتطمئن به القلوب ويزداد به الإيمان؟.

ويجيب الدكتور محمد عبد الله دراز بأن هذا طلب صعب وجسيم، ولكنه شرف يستحق المحاولة، ثم يبدأ في عرض شيء من هذه المعجزة مستعينًا بتفسير سماه «نظرات في إحدى سور القرآن الكريم وأطولها»؟ وهي سورة البقرة.

ويشير إلى أن خصائص القرآن الكريم البيانية يمكن ترتيبها إلى أربعة مراتب هي: القرآن في قطعة .. قطعة منه ، وفي سورة.. سورة منه، وفيما بين بعض السور وبعض، ثم القرآن في جملته .

ويقول في نهاية كتابه القيم: لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات لعمري أنه في ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات.

وأقول: أنه إذا كان المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز لم يخرج لنا سوى هذا «النبأ العظيم» لاستحق أكثر من هذا التكريم الذي لحق به بعد وفاته.

«النبأ العظيم»

للدكتور محمد عبد الله دراز[1]

بقلم
أ. د. عبد الغني بركة
الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف

إن كتاب «النبأ العظيم» الذي كان مرجعنا الأساسي في التعرف على آراء الدكتور دراز - رحمه الله - في قضية الإعجاز القرآني، يعتبر كتابًا فريدًا في منهجه الذي اتبعه في دراسة هذه القضية والإقناع بها .

ذلك لأنه كما يقول عنه مؤلفه : « حديث يبدأ من نقطة البدء، فلا يتطلب من قارئه انضواءًا تحت راية معينة، ولا اعتناقًا لمذهب معين، ولا يفترض فيه تخصصًا في ثقافة معينة، ولا حصولاً على مؤهل معين، وإنما يناشد القارئ فقط أن يعود بنفسه صحيفة بيضاء، إلا من فطرة سليمة، ورغبة صادقة في الوصول إلى الحق» .

وسوف يأخذ المؤلف بيده، مجتازًا به مراحل البحث المتتابعة، التى يسلم بعضها إلى بعض، في رفق وأناة، ليصل في نهاية المطاف إلى الحق، الذي لا يسع القارئ إلا التسليم به، والاطمئنان إليه .

والبحوث التى تضمنها هذا السفر القيم، تمثل مرحلتين متتابعتين في البحث.

المرحلة الأولى: دراسة تمهيدية، خارجة عن جوهر القرآن نفسه، هدفها الوصول إلى أن القرآن الكريم إلهي المصدر، وليس للرسول عليه الصلاة والسلام فيه إلا الوعي والحفظ، ثم الحكاية والتبليغ، ثم البيان والتفسير، ثم التطبيق والتنفيذ.

المرحلة الثانية: دراسة في جوهر القرآن نفسه، هدفها إثبات الإعجاز القرآني من

---

(١) دراسة من إعداد الأستاذ الدكتور / عبد الغني بركة.

ضمنها كتابه الممتاز «الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره» نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

أي النواحي اتجهنا إليه، سواء في ذلك ناحية أسلوبه، أو ناحية علومه ومعارفه، أو ناحية أثره الذي أحدثه في العالم وغيرّ به التاريخ.

وسوف يتجه اهتمامنا ـ بطبيعة الحال ـ إلى الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم، باعتباره هدفنا الأول في هذه الدراسة، ولكننا سنمر مسرعين على بقية الجوانب، مبرزين أوضح معالمها، وأهم منا تضمنته من أفكار.

أولا: القرآن الكريم إلهي المصدر:

بعد بحثه في تحديد معنى القرآن الكريم، والفرق بينه وبين الحديث القدسي والنبوي، انتقل الدكتور دراز إلى بحث ثان عن مصدر القرآن.

فلا خلاف على أن القرآن الكريم جاء على لسان رجل عربي أمي وُلِدَ بمكة، هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، صلوات الله وسلامه عليه، أما من أين جاء به محمد ﷺ ؛ أمن عند نفسه ووحي ضميره؟ أم من عند معلم؟ ومن هو هذا المعلم؟ فهذا ما يحتاج إلى جلاء وبيان.

وأول ذلك أن القرآن صريح في أنه لا صنعة فيه لمحمد ﷺ ، ولا لأحد من الخلق، وإنما هو مُنزل من عند الله ، بلفظه ومعناه قال تعالى :﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا** ﴾ يوسف:٢) . وقال سبحانه لنبيه ﴿**قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ** ﴾ (يونس: ١٥) .

وكان من الواجب ألا يدور خلاف حول هذه القضية، بعد هذه الشهادة التى جاءت على لسان صاحبها، لأنها ليست من جنس الدعاوى التى تحتاج إلى بينة، وإنما هي من نوع الإقرار الذي يؤخذ به صاحبه، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه.

فالمعروف أن كثيرًا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها، أما أن أحدًا ينسب لغيره أنفس آثار عقله، وأغلى ما تجود به قريحته، فهذا ما لم يلده الدهر أبدًا .

وقد يحيك في صدر جاهل أن هذا الزعيم قد نسب القرآن إلى الوحي الإلهي لأن في في ذلك ما يعينه على تحقيق غرضه من استجابة الناس له، ونفاذ أمره فيهم، لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه لنفسه .

وجلاء هذه الشبهة يتحقق إذا تذكرنا أمرين مسلمين، أولهما: أن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه، والكلام المنسوب إلى الله تعالى، فلم تكن نسبة ما نسبه إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئًا، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدة فيه شيئًا، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء ، فكانت حرمتهما في النفوس على سواء.

ثانيهما: أن هذه الشبهة مبنية على افتراض باطل، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من الذين يرون الوصول إلى غايتهم بأية وسيلة كانت ، مستبيحين في ذلك الكذب والتمويه، مع أن الواقع التاريخي يؤكد أن محمدًا عليه الصلاة والسلام كان في حركاته وسكناته، وعباراته وإشاراته، وفي رضاه وغضبه، وسائر جوانب حياته مثالاً في دقة الصدق، وصرامة الحق، وأن ذلك كان أخص شمائله ، قبل النبوة وبعدها، ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه ، وسنته المطهرة زاخرة بالمثل الواضحة الدالة عل مبلغ صدقه وأمانته في دعوى الوحي هذه .

فقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه على القول، وتلح عليه أن يتكلم، بحيث لو كان الأمر إليه لسارع إلى الكلام، ولكنه كانت تمضي الأيام والليالي، ولا يجد في شأن ما نزل به قرآنًا يقرأه على الناس[1].

من ذلك ما أرجف به المرجفون من حديث الإفك[2] عن زوجه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقد طال الأمر، وأبطأ الوحي، والناس يخوضون، ولو كان الأمر إليه

---

(١) انظر النبأ العظيم ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) انظر البخاري عن عائشة ك/ المغازي ب/ حديث الإفك (٣٨٢٦)

انظر مسلم عن عائشة ك/ التوبة ب/ في حديث الإفك وقبول توبة (٤٩٧٤) .

لسارع إلى تبرئتهـا، صيانة لعرضه، ولكنـه عليه الصلاة والسـلام ظل صابرًا، حتى نزل بعد طول انتظار ـ صدر سورة النور معلنًا براءتها.

وأحيانًـا يجيئه القول على غير ما يهوى، فيُخطِّئـه في الرأي يراه، ويأذن له في الشيء لا يميل إليـه، فإذا تلبث فيه يسيرًا تلقـاه القرآن بالتعنيف الشديد والعتاب القاسي، حتى في أقل الأشـياء خطـرًا ، ولو كان الأمـر إليه لكـان في السـكوت عن هذه الأمور سـتر على ما فَرَط منه، واستبقاءٌ لحرمة آرائه[1].

وأحيانًا كان يجيئه الأمر بالقول المجمل، أو المشكل الذي لا يستبين هو ولا أحد من أصحابه تأويله، حتى يُـنزل الله عليهم بيانه، فلا يعقل أن يصدر عنه كلام لا يفهم هو معناه، ولا يعقل حكمته، وهذا دليل على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر[2] .

وكان عليـه الصلاة والسـلام ـ أول عهده بالوحي ـ حينما يـنزل عليه القرآن يتلقفه متعجلاً، فيُحرك بـه لسـانه وشـفتيه طلبًا لحفظـه ، ولم يكن ذلك معروفًـا من عادته في تحضير كلامـه، لا قبل الدعوة ولا بعدهـا ، ولا كـان ذلك من عـادة العرب، فلو كان القرآن منبجسًـا من معين نفسه لجـرى على سنة كلامه وكلامهـم، ولكان له في الروية والأناة ما يكفل لـه حاجته من إنضاج الرأي، وتمحيص الفكرة، ولكنه كان يرى نفسه أمـام تعليم يفاجئه ، بحيث لا تجدي الروية شيئًا في تداركـه لو ضاع منـه شيء، وكان عليـه أن يُبَلغ ما يُلقى إليه حرفيًا ، فلابـد أن يكون شديد الحرص على المتابعة الحرفية. وظل كذلك حتى ضمن الله لـه حفظه وبيانـه بقوله سبحانه : ﴿**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ(١٦)إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ(١٧)فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ(١٨)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه**﴾ (القيامة:١٦ ـ ١٩) .

علـى أن الأمر أوضـح من أن يحتـاج إلى سمـاع هـذا الاعـتراف القـولي منـه، أو إلى

---

(١) انظر النبأ العظيم ص ٢٤ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ص ٢٨ وما بعدها .

دراسة تلك الناحية الخلقية من حياته؛ فإن في طبيعته البشرية - ﷺ - ما يقوم شاهدًا بعجزه عن إنتاج ذلك العمل .

فقد كان له - عليه الصلاة والسلام - من الذكاء الفطري، والبصيرة النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء، والحسن والقبيح من الأخلاق، إلا أن ما في القرآن الكريم لم يكن كله من هذا النوع الذي يُدرك بالملكات البشرية مهما بلغ اكتمالها.

إذ فيه جانب كبير من المعاني النقلية البحتة، التى لا مجال فيها للذكاء والاستنباط، ولا سبيل إلى علمها إلا بالدراسة والتلقي والتعلم، ولنأخذ كمثال لهذه الجوانب التى يستعصى إدراكها على الملكات البشرية، ما تضمنه القرآن من أنباء ما قد سبق، وما فصّله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع.

فلا يمكن القول أنه ﷺ قد ورث كتب الأولين، وعكف على دراستها ، حتى أصبح من الراسخين فيها، وفي علم دقائقها: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا**﴾ (هود: ٤٩) .

حقيقة أن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية، وبمجمل ما جرى من حوادث، كالتدمير في ديار عاد وثمود، وطوفان نوح - قلما يغيب عن أحد من أهل البدو والحضر. ولكن الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة، والكنوز المدفونة في بطون الكتب؛ فذلك هو العلم النفيس، الذي لم تنله يد الأمين، ولا يعرفه إلا القليل من الدارسين ، ومع ذلك نجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محررًا في القرآن، حتى إن الأرقام طبق الأرقام .

فنجد مثلاً في قصة نوح عليه السلام في القرآن، أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفي سفر التكوين من التوراة: أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة.

ونرى في قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب، أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية وفي القرآن أنهم لبثوا في كهفهم: ﴿**ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا**﴾ (الكهف: ٢٥)

وهذه السنون التسع هي الفرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية.

أليس غريبًا من رجل أمي عاش بين أميين، مشغولاً برزق نفسه وزوجه وأولاده، لا صلة له بالعلم والعلماء، ويقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره ، ثم يطلع على قومه فيما بين عشية وضحاها بحديث لا عهد له به في سالف حياته، ومما لم يتحدث إلى أحد بحرف منه قبل ذلك، ويُبدي من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في كتبهم؟

لا مناص من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سر يلتمس خارج حدود النفس، وبعيدًا عن دائرة المعلومات القديمة . ﴿**قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ (يونس:١٦) .

إذا أضفنا إلى ذلك ما تضمنه القرآن الكريم من أنباء الغيب، ازددنا يقينًا بأن القرآن الكريم ماهو إلا وحي يُوحى، وأنه لا سبيل للقوى البشرية إليه بحال.

ذلك؛ أن سبيل العاقل في الحكم على الأمور الغيبية، أن يتخذ من تجاربه الماضية مصباحًا يكشف على ضوئه بضع خطوات من مجرى الحوادث المقبلة، جاعلاً الشاهد من هذه مقياسًا للغائب من تلك، ثم يصدر فيها حكمًا محاطًا بكل تحفظ وحذر قائلا: ذلك ما تقضي به طبيعة الحوادث لو سارت الأمور على طبيعتها ما لم يقع ما ليس في الحسبان؛ أما أن يبت الحكم بتًا ويحدده تحديدًا حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية، ولا تلوح منه أمارة من الأمارات الظنية العادية، فذلك ما لا يفعله إلا مجازف، لا يبالي أن يقول الناس فيه، صدق أو كذب، شأن جهلاء المتنبئين والكهان، أو رجل اتخذ عند الله عهدًا فلن يُخلف الله عهده، وتلك سُنة الأنبياء والمرسلين، ما كان رسول الله ﷺ من النوع الأول، ولا كانت أخباره كأخبارهم، خليطًا من الصدق والكذب، والصواب والخطأ، بل كان عليه الصلاة والسلام ـ مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه ـ يجيئه عفوًا ما تعجز صروف الدهر

وتقلباته المتطاولة أن تنقص منه حرفًا واحدًا[1] .

والأعجب من ذلك أن هذا النبي ﷺ الذي يُخبر بكل هذه الغيبيات الصادقة، كان ـ فيما عدا تبليغ الوحي ـ ربما غاب عنه ما هو أولى بالصواب وأحرى، فحكم بغيره، ولنستمع إليه ﷺ يقول عن نفسه : « إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صادق. فأقضي له على ما نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها»[2] . ويقول أيضا: «إنما أنا بشر مثلكم، وإن الظن يُخطىء ويُصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله . فلن أكذب على الله»[3] .

أهناك ما هو أبلغ من هذا في عجز الرسول عليه الصلاة والسلام ـ باعتباره بشرًا ـ عن اختراق حُجب الغيب؟ فإن من كان عاجزًا بنفسه عن إدراك حقيقة ما وقع بين خصمين في زمنه ، وفي بلده ، وقد رأى أشخاصهما، وسمع أقوالهما هو بلا شك أشد عجزًا عن إدراك ما فات وما هو آت[4] .

وهكذا يمضي الدكتور دراز، يسوق الشواهد والدلائل، ليصل من هذا كله إلى أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صادرًا عن نفس محمد ﷺ ولابد أن له معلمًا قد وقفه على هذا القرآن، بطريق الإملاء والتلقين .

هذا هو الشق الثاني من السؤال الذي طرحه الدكتور دراز لنصل إلى أن القرآن الكريم إلهي المصدر.

ومن المسّلم به أن وجود معلم لمحمد ﷺ من قومه الأميين امر لا حاجة إلى

(١) انظر النبأ العظيم ص ٤٠ .

(٢) البخاري عن أم سلمة ك/ الحيل ب: إذا غضب حارية فزعم أنها ماتت (٦٤٥٢) .

(٣) ابن ماجة عن سماك أنه سمع موسى بن طلحة بن عبيد الله يحدث عن أبيه ك/ الأحكام ب/ تلقيح النحل (٢٤٦١) .

(٤) انظر نفس المصدر ص ٥٥ .

الاستدلال على نفيه، فذلك شيء لا شُبهة فيه لأحد، ويكفى شاهدًا على ذلك إسم الأميـة الذي دل على أنهم كـانوا كما خرجـوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شـيئًا من أمر الدين .

أما إنه لم يكـن له معلم من غيرهم، فحسب الباحث فيه أن يُقَلبّ صفحات التاريخ القديم والحديث، الإسلامي والعالمي، فلن يجد فيه سطرًا واحدًا، يشير إلى أن محمدًا ﷺ قد لقى قبل إعلان نبوتـه فلانًا من العلماء، فجلس يستمع إليه، ويأخذ منه علوم الدين وقصص الأولين والآخرين .

لا نُنكر أنـه قد لقي في طفولته راهبًا أسمـه «بحيرا» في سـوق بصري بالشام، غير أن لقاءه في طفولته لهذا الراهب كان مع عمه أبى طالب، ولم يزد ما رواه التاريخ عن هذا اللقـاء على أن هـذا الراهب قـد رأى في هذا الكلام سـيما النبـوة الأخـيرة وحليتها في الكتب الماضية، فبشّره بها قائلاً: الغلام سيكون له شأن عظيم .

كمـا لا ننكر أنـه لقى في مكـة نفسـها عالمًـا اسمه «ورقـة بن نوفـل» وكان هذا إثر نزول الوحي عليه، وكان هذا اللقاء بوجود زوجه خديجة، ولم يزد ما رواه التاريخ عن هذا اللقـاء، على أن ورقـة هذا قـال لـه بعد أن سمع مـا قصـه النبي ﷺ عليـه مـن صفة الوحـي: إن هذا هـو النـاموس الـذي نزل علـى موســى . وتمنى أن يعيـش ليكون من أتباعه.

فكيف يعقل أن رجـلاً رأى علامات النبوة قبـل وقوعها، فبشـره بها، أو أن رجلاً آمن بها بعد وقوعها، أن يكون أي منهما معلمًا له؟!

أما الذين لقـوه بعد النبوة، فقد سمع منهـم وسمعوا منـه، ولكنهم كـانوا له سـائلين، وعنه آخذين، وكان هو لهم معلمًا وواعظًا، ومنذرًا ومبشرًا .

علـى أن من يقرأ ما جاء في القرآن الكريم من محاورات لعلماء اليهود والنصارى في العقـائد والتواريخ والأحكـام ، فسـيجد أنـه كـان يُصَوّر عقـائدهم بأنهـا الضلالات،

وعلومهم بأنها الجهالات، وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات.

من ذلك مثلاً قوله تعالى تفنيدًا لأغاليطهم التاريخية: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران: ٦٥).

وقوله تعالى : تفنيدًا لخرافاتهم الدينية: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (آل عمران:١٨١)، وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة: ٧٢) .. إلى غير ذلك من الآيات، فهل بعد هذا يمكن أن يُقال إن هؤلاء كانوا معلمين لمحمد ﷺ ، أم أنه هو المعلم الذي يصحح أغلاطهم، وينعى عليهم سوء حالهم.

وهذا لا يعنى أنه لم يكن في أهل الكتاب بعض قليل من العلماء الراسخين، لكن هؤلاء الراسخين في العلم آمنوا بالقرآن ونبي القرآن، وسجل القرآن وذلك في قوله : ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٤٣) فلو كانوا له معلمين لآمنوا بأنفسهم بدل أن يؤمنوا به.

ويمضي الدكتور دراز على هذا النهج، يناقش كل حجة، ويكشف كل شبهة توحى بأن يكون له من البشر معلم، فلم يبق إلا أن يكون متلقيًا من غير البشر .

وهنا يشير الدكتور دراز، إلى أنه على من يلتمس الأسباب الصحيحة لأثر ما، أن يلتمس ذلك حيث يظهر هذا الأثر، وحيث يدور وجوده وعدمه، فلندرس إذن الأحوال المباشرة التى كان يظهر فيها القرآن على لسان محمد بن عبد الله ﷺ والمظاهر التى كانت تبدو على وجهه الكريم ، في كل مرة ينزل فيها القرآن، وكان أمرها لا يخفى على أحد ممن ينظر إليه .

فقد كان يبدو على وجهـه الكريم حين ينزل القرآن عليه (أن يحمر وجهه فجأة)، (وتأخذه البرحاء، حتى يتفصد جبينه عرقًا) ويثقل جسمه، حتى يكاد يرض فخذه فخذ الجالس إلى جانبه، وحتى لو كان راكبًا لبركت به راحلته، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتًا مختلطة، تشبه دويّ النحل، ثم لا يلبث أن تنكشف عنه تلك الشدة، فإذا هو يتلو قرآنًا جديدًا، وذكرًا محدثًا.

ويتناول الدكتور دراز هذه الظاهرة العجيبة بالتحليل، ليصل إلى أنها حال غير اختيارية ، ليس لها من داخل النفس منشأٌ من الأسباب الطبيعية العادية كباعثة النوم، أو الأسباب الطبيعية الشاذة كاختلال القوى العصبية، وإنما هي انفعال بسبب خارج عن قوى النفس، إنها قوة خارجية تتصل بالنفس المحمدية حينًا بعد حين، وهي لا محالة قوة عالمة، لأنها تُوحي إليه علمًا، وهي قوة أعلى من قوته ، لأنها تُحدث في نفسه وفي بدنه تلك الآثار العظيمة ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى(٥)ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى**﴾[1] (النجم: ٥ - ٦) كما أنها أيضًا قوة خيرة معصومة؛ لأنها لا توحي إلا الحق، ولا تأمر إلا بالرُّشد ، فماذا عسى أن تكون هذه القوة، إن لم تكن قوة مَلكٍ كريم؟

هذا هو مبلغ العلم في وصف هذه القوة الغيبية، حسبما يهدي إليه البحث المستقيم، وهو كاف للمؤمن في إرضاء شهوته العلمية، فمن شاء المزيد في وصفها، فليس سبيله الرجوع إلى دلالات العقل، وإنما سبيله الرجوع إلى النقل الصحيح عن مهبط سرها، عليه الصلاة والسلام، الذي أخبر أنه جبريل يُبَلِّغه عن ربه عز وجل.

ويمضي الدكتور دراز فيسخر من غير المؤمنين في إنكارهم أن يرى إنسان الملائكة ويُكلمهم، وأن يكون في الدنيا خلق لا يرونه بأعينهم، ولا يسمعونه بآذانهم ، ويسوق إليهم الدليل تلو الدليل، مما ابتكره العلم الحديث، كالهاتف الذي يُنقل الحديث بواسطته من شرق الأرض إلى غربها بين المتخاطبين، من حيث لا يرى الجالسون في

---

(١) البخاري عن عائشة ك/ الشهادات ب/ تعديل النساء بعضه بعضا (٢٤٦٧).

بجلس التخاطب شيئًا، ولا يسمعون إلا أزيزًا كدويّ النحل ، وكما يحدث في التنويم المغناطيسي، فيه يستطيع الرجل القوي الإرادة أن يتسلط بقوة إرادته على من هو أضعف منه، حتى يجعله ينام بأمره نومًا عميقًا، لا يشعر فيه بوخز الإبر، وهناك يكون رهن إشارته وتنمحى إرادته في إرادته، فإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان، فما بالنا بمن هو أشد منه قوة؟ .

وهكذا يصل الدكتور دراز بالقارئ إلى الاقتناع العقلي والاطمئنان القلبي بأن القرآن الكريم إلهي المصدر، وهذا القدر من البحث كاف لذوى الفطر السليمة الذين يتعرفون على الأشياء بمثالها، ويهتدون إليها بأقرب آثارها، ويكونون على ذكر من حياة هذا النبي الكريم ﷺ وملابساتها .

أما الذين لا يعلمون شيئًا عن تلك الحياة النبوية، والذين يريدون أن يأخذوا حجة القرآن لنفسه من نفسه، فهؤلاء لابد لنا أن نسير معهم خطوة أخرى، نبين لهم فيها أن هذا الكتاب يأبى بطبيعته أن يكون من صنع البشر، لأن قدرة البشر مهما عظمت لا تصل إلى شيء منه، شأنها في ذلك شأن عجزها عن مضاهاة شيء خلقه الله ، هان أم عظم ، فيكون عجزها أمارة على أنه ليس من صنع الناس.

والقرآن معجز من أي النواحي أتيته، ولكننا سنكتفى بالحديث عن الإعجاز اللغوي، لأنه غايتنا من هذه الدراسة.

* * *

القرآن معجزة لُغوية، هذا ما يريد الدكتور دراز إثباته في هذا الجزء من الدراسة، وقد صاغها في صورة حوار هادئ، يناقش ويقنع، دون تعسف أو انفعال، شأن الواثق المطمئن.

وتتناول الدراسة في مرحلتها الأولى، استعراض الشبهات النظرية التى يمكن أن تُثار حول الموضوع، ثم تنتقل ـ بعد أن تُشفى الصدور ـ إلى الجزء التطبيقي، الذي يتناول النص القرآني نفسه، فيكشف عن خصائصه وسماته التى كان بها معجزًا .

وكعادته ـ رحمه الله ـ بدأ من نقطة البدء، فإذا كان الشاك في إعجاز القرآن يزعم أنه قادر على الإتيان بمثله ، فدواؤه نصحه بأن يطيل النظر في أساليب العرب، وأن يستظهر على فهمها بدراسة طرف من علوم الأدب، حتى تستحكم عنده ملكة النقد البياني، ونحن على ثقة أن كل خطوة يخطوها ستزيده معرفة بقدره، وخضوعًا بكليته أمام أسلوب القرآن، فإن أبى إلا الإصرار على الغرور، دعوناه إلى الميدان ليجرب نفسه، وكلما أخرج أحسن ما عنده قلنا له: أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟

وإن له لعبرة من أناس حاولوا مثل هذه المحاولة، فنزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة، فمنهم عاقل حطم قلمه، ومنهم ماكر طوى صحفه إلى حين، ومنهم طائش برز بها إلى الناس، فكان سخرية الساخرين[1].

أما إذا اعترف بعجزه، ولكنه يرى من المحتمل أن يكون في الناس من يستطيع ما عجز هو عنه، فدواؤه أن نقول له: ارجع إلى أهل الذكر من أدباء عصرك فاسألهم، هل يقدرون على مثله؟ فإن قالوا : نعم، فقل: هاتوا برهانكم. وإن قالوا: لا طاقة لنا به، فأي شيء أكبر من الإعجاز، ثم ارجع إلى التاريخ فاسأله ينبئك أن أحدًا لم يرفع رأسه أمام القرآن في عصر من عصوره، وأن بضعة النفر الذين تطاولوا إلى ما فوق قدرتهم،

(١) انظر النبأ العظيم ص ٨٠ ـ ٨٣ .

قد باءوا بالخزي والهوان[1] .

فإذا سلم السائل بأن سكوت العرب عن المعارضة كان عجزًا، ولكنه زعم أنه لا يرى من الناحية اللغوية للقرآن ما يمكن أن يكون سببًا في الإعجاز، لأن القرآن لا يخرج عن معهود العرب في لغتهم، فمن حروفهم رُكِّبَتْ كلماته، ومن كلماتهم أُلفَتْ جمله وآياته، وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه، فأي جديد في ذلك كله، حتى نقول إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللُّغوية؟

والجواب أننا نُسَلِّم بأن القرآن لم يخرج في لغته عن سنن العرب، إفرادًا وتركيبًا، لكن هذا لا يمنع أن يأتي القرآن بما يُعجز البشر من الناحية البيانية، ذلك أن صنعة البيان كصنعة البنيان، فكما يتفاوت المهندسون في البناء، وفي إخراج البناء على صورة متفاوتة في الحسن، باختيار أمتن المواد، وأبقاها على الدهر، وأكنّها للناس من الحر والبرد، إلى غير ذلك من الميزات، مع أن أحدًا منهم لم يخلق مادة لم تكن موجودة، و لم يخرج في عمله عن القواعد العامة لصنعته، فكذلك أهل اللغة الواحدة، يؤدون الغرض الواحد بطرق شتى، تتفاوت في الحسن والقبول، مع أنهم جميعًا ملتزمون باستعمال ألفاظ لغتهم، ومقيدون بأوضاعها في الصياغة. لكن حسن الاختيار في تلك المواد والاوضاع ، قد يعلو بالكلام حتى يملأ القلب إعجابًا، كما أن سوء الاختيار في شيء من ذلك قد ينزل بالكلام حتى تنفر منه الطباع .

فالجديد في لغة القرآن، أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول، يتخير له أشرف المواد، وأمسها رحمًا بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في وضعها الذي هو أحق بها، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة .. وعلى الجملة، يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان .

---

(1) انظر النبأ العظيم ص ٨٣ - ٨٥ .

وهذا إجمال سيأتي تفصيله عندما يتعرض المؤلف للخصائص المميزة للأسلوب القرآني.

ثم يورد الدكتور دراز شبهة أخرى، قد تثور في نفس الشاك مؤداها: أنه إذا كانت صناعة البيان ليست في الناس بدرجة واحدة، فما علينا من حرج أن نعد الإعجاز الذي ذكرتموه أمرًا مشاعًا، يجري في أساليب الناس كما يجري في القرآن .

ذلك أن كل قائل إنما يضع في بيانه قطعة من عقله ووجدانه، على الصورة التى تهديه إليها فطرته ومواهبه، وأن اختلاف الناس في هذه المواهب يتبعه حتمًا اختلاف في طرائقهم في التعبير عن أغراضهم، حتى إننا نستطيع أن نحصي في اللغة العربية صورًا كلامية بعدة الناطقين بها، فكيف تأمرون الناس أن يجيئوكم بمثل القرآن ، وهم لا يقدرون أن يجيء بعضهم بمثل كلام بعض؟ وكيف تعدون عجزهم عنه آية على قدسيته، وأنتم لا تعدون عجز كل امريء عن الإتيان بمثل أسلوب غيره آية على أن ذلك الأسلوب صنعٌ إلهي، لا كسب فيه للذي جرى على لسانه؟ أليس هذا القياس يسوغ لنا أن نفترض القرآن كلامًا بشريًا كسائر الكلام، غير أن أسلوبه اختص بصاحبه، كما اختص كل امرئ بأسلوب نفسه[1] .

ويجيب الدكتور دراز على هذه الشبهة، فيعترف بأن كلام المتكلم صورة تمليها عليه فطرته ومواهبه، وأن تفاوت هذه المواهب عند الناس تترك أثرها لا محالة في صور كلامهم، غير أن ذلك لا ينال من الإعجاز القرآني شيئًا .

بيان ذلك: أن القرآن حين تحدى الناس ، لم يطالبهم أن يجيئوا بنفس صورته الكلامية، وإنما طلب منهم أن يأتوا بكلام أيًا كان نمطه ومنهاجه، بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية حاذاه أو قاربه .

فإن المتنافسين في حلبة البيان، يعمد كل منهم إلى التعبير عن غرضه بالطريق التى

(١) انظر النبأ العظيم ص ٩٤ - ٩٥ .

يرضاها، وعلى الوجه الذي يستمليه من نفسه، ثم يقع بينهم التماثل أو التفاضل على قدر ما يتحقق في كلامهم من حاجات البيان، أو ينقص منها، وإن اختلفت المذاهب التى انتحاها كل منهم .

«هب أن المدعوين لمعارضة القرآن فيهم الأكفاء لنبي القرآن ﷺ في الفطرة والسليقة، أو من هم أكمل فيها، أو هبهم جميعًا دونه في تلك المنزلة؛ فأما الأعلون، فسيجيئون على وفق سليقتهم بقول أحسن من قوله، وأما الأنداد، فسيجيئون بشيء مثله، أما الآخرون فلن يكبر عليهم أن يقاربوا ويجيئوا بشيء من مثله، ولو تحقق شيء من هذه المراتب الثلاثة، لكان كافيًا في رد الحجة، وإبطال التحدى»[1] .

ويقلّب الدكتور دراز الموضوع على نحو آخر. فقد يقول الشاك: إن العرب على اختلاف مراتبهم في البيان لم يصلوا إلى طبقة البلاغة المحمدية، وهذا القصور الذي قعد بهم عن مجاراته في عامة كلامه هو الذي قعد بهم عن معارضة قرآنه، فلا يكون هذا العجز حجة على قدسية القرآن، كما لم يكن حجة على قدسية الأسلوب النبوي .

والجواب عن ذلك: أننا نسلم بأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أفصح العرب، وكان له المقام الأول في الفضيلة البيانية، لكن: أكان هذا التفاوت بينه وبين الناس مما يتفق مثله في العادة بين بعض الناس وبعض، في حدود القدرة البشرية، أم كان أمرًا شاذًا خارقًا للعادة بالكلية ؟

فإذا كان شبهًا بما يكون في العادة بين البليغ والأبلغ منه، وبين الحسن والأحسن، فإن هذا النحو من العلو إن حال بينهم وبين المجيء بمثل كلامه كله، لم يكن ليحول بينهم وبين قطعة واحدة منه ، ولئن أعجزهم هذا القدر اليسير من الكلام، لم يكن ليعجزهم أن ينزلوا منه بمكان قريب، فيأتوا بشيء من مثله .

أما إن كان التفاوت بينه عليه الصلاة والسلام وبين سائر البلغاء إلى حد انقطاع

(١) انظر النبأ العظيم ص ٩٥ - ٩٦ .

صلتهم به، لاختصاصه دونهم بفطرة لا تنتسب إلى فطرهم في قليل أو كثير، فهذا القول مما لا يقبله عاقل، إذ هو بمثابة أن يزعم زاعم بأن من الإنسان ما ليس بإنسان. فالطبيعة الإنسانية واحدة، والطبائع الشخصية تقع فيها الأشباه والأمثال في الشيء بعد الشيء، وفي الواحد بعد الواحد، وكم رأينا من تتوافق قلوبهم وعقولهم وألسنتهم ، فتتوافق خواطرهم وعباراتهم حينًا وتتقارب أحيانًا، كما رأينا من يكتب بأسلوب ابن المقفع وعبد الحميد ، ومن يكتب بأسلوب الهمذاني والخوارزمي إلى غير ذلك، فلو كان القرآن من أسلوب النبي عليه الصلاة والسلام، لكان من الممكن لمن كان أشبه به مزاجًا، وأقرب إليه هديًا وسمتًا، أن يأتي بشيء من من مثله، ولكان جديرًا بأصحابه الذين تذوقوا القرآن واستظهروه، واغترفوا من مناهله، أن يدنو أسلوبهم شيئًا من أسلوبه، لكن شيئًا من ذلك كله لم يحدث .

فقد نقرأ القطعة من الكلام النبوي، فنطمع في مجاراتها، وقد نقرأ الحكمة فيشتبه علينا أمرها، أمن كلام النبي هي أم من كلام الصحابةوالتابعين، أما الأسلوب القرآني، فإنه يحمل طابعًا لا يلتبس معه بغيره، ولا يجعل طابعًا يحوم حول حماه[1] .

وهنا يشعر الدكتور دراز أنه قد بلغ المدى الذي ينزع كل شبهة، ويمحو كل شك، فينتقل إلى الجانب التطبيقي الذي يبرز الخصائص الموضوعية للأسلوب القرآني، وليزداد الذين آمنوا إيمانًا .

* * *

خصائص الأسلوب القرآني

أولا: القشرة السطحية للجمال القرآني:

أول ما يسترعى انتباه المستمع للقرآن الكريم ، خاصية «تأليفه الصوتي» ذلك أننا حين ننصت عن بعد إلى القارئ حق ترتيله بحيث لا يصل إلى مسامعنا جرس الحروف،

(١) انظر النبأ العظيم ص ٩٧ - ١٠٠ .

وإنما نسمع فقط حركاتها وسكناتها ومدَّاتها وغناتها، واتصالاتها وسكتاتها، سوف نجد أنفسنا بإزاء لحن غريب عجيب لا نجده في كلام آخر جُرّدَ هذا التجريد، وجُوّد هذا التجويد، وسيسترعي سمعنا ذلك الاتساق والائتلاف الذي لا نجده إلا في الموسيقى والشعر، لأن القصائد تتحد فيها الأوزان بيتًا بيتًا، وشطرًا شطرًا، وكذلك الموسيقى تتشابه أصداؤها وتتقارب فلا يلبث السمع أن يملها إذا أعيدت وكُررت عليه بتوقيع واحد .

بينما نحن مع القرآن في لحن متنوع متجدد، يأخذ بأوتار القلب، فلا تحس على كثرة ترداده ملالة أو سأمًا.

ومن هنا كانت حيرة العرب في إطلاق لقب الشعر على القرآن الكريم بين مثبت ونـاف. «إذ لا عجب أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن، في خيال العرب أنه شعر، لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئًا منها إلا في الشعر، ثم لا عجب أيضًا أن ترجع إلى أنفسها فتقول: إنه ليس بشعر، لأنه ليس كأعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده ، ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيرًا إلى أنه ضربٌ من السحر، لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حد وسط، فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته»[1] .

على أننا إذا اقتربنا من القارئ ، فاستمعنا إلى جرس الألفاظ، فاجأتنا في نظم حروفه، وترتيب أوضاعها فيما بينها لذة جديدة « هذا ينفر وذاك يصفر وثالث يهمس ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النَفَس، وآخر يحتبس عنده، فنرى الجمال اللُغوي ماثلاً في مجموعة مختلفة مؤتلفة، قد قُدّرَ فيها الأمر تقديرًا لا يبغي بعضها على بعض.

هذه القشرة السطحية للجمال القرآني، هي بمثابة الأصداف بما تحويه من اللآلىء النفيسة، فقد غشي الله تعالى جلائل الأسرار القرآنية، بأستار لا تخلو من متعة وجمال،

---

(١) انظر النبأ العظيم ص ١٠١ - ١٠٣ .

ليكون ذلك من عوامل حفظها «فعندما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التى أودعها هذا الكتاب الكريم، قضت حكمته أن يختار لها صوتًا يحببها إلى الناس بُعذوبته، ويغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة الحداء، يستحث النفوس على السير إليها. ويُهَوِّن عليهم وعثاء السفر في طلب كمالها[1] .

ويشير الدكتور دراز إلى معنى آخر في هذا الجمال الصوتي للقرآن الكريم، ذلك أن غرابة هذا الجمال، كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدى والإعجاز، لأن هذا الجمال، كان المفروض فيه أن يُغري العرب به، فالشأن في الناس أنهم إذا استحسنوا شيئًا اتبعوه، وتنافسوا في محاكاته، فكذلك أصحاب هذه الصناعة يتبع بعضهم بعضًا، فيما يستجيدونه من الأساليب، فما الذي منع العرب أن يخضعوا القرآن لألسنتهم وأقلامهم ، وهم مجمعون على استحسان طريقته، وأكثرهم حريصون على إبطال حجته؟

«وما ذلك إلا أن فيه منعة طبيعية، كفت وما زالت تكف أيديهم عنه، تتمثل أول ما تتمثل في غريب تأليفه في بنيته، وما اتخذه في رصف حروفه وكلماته وجمله وآياته من نظام له سمت وحده، خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه، ولهذا لم يجدوا سبيلاً يسلكونه إلى تذليل منهجه، وآية ذلك أن أحدًا لو حاول أن يُدخل عليه شيئًا من كلام الناس، لأفسد بذلك مزاجه في فم كل قارئ، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع، وإذن لنادى على نفسه بأنه واغل دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكير خَبث الحديد»[2] .

---

(١) انظر النبأ العظيم ص ١٠٤ .

(٢) انظر نفس المصدر ص ١٠٥ - ١٠٦ .

ثانيًا: الخصائص البيانية للقرآن الكريم:

لاشــك أن تفـاضل اللُّغـات من حيث هي بيـان، أكـثر من تفاضلهـا من حيث هي أجراس وأنغـام، ومـن هنـا كانت أهميــة دراسـة الألفـاظ القرآنيــة من حيث هي أداة لتصوير المعاني، ونقلها إلى المخاطب .

ويشـير الدكتـور في بدء دراسته لهـذه الناحيـة، إلى أنـه لن يتعرض لمـا حواه القرآن الكريم من علـوم خارجـة عن متنـاول البشـر، فتلك نظـرة أخرى خارجـة عن البحث اللغوى جملة ، إذ الفضيلة البيانية إنمـا تعتمد على دقة التصوير وإجادة التعبير عن المعنى كما هو، سـواء أكان ذلك المعنى من جنس ما تتناوله عقول الناس أم لا ، بل سواء أن يكون ذلك المعنى حقيقـة أو خيالاً ، هُدى أو ضلالاً، ولذلـك كانت حكايات القرآن لأقوال المبطلين لا تقصر في بلاغتها عن سائر كلامـه، لأنها تصف ما في نفوسهم على أتم وجه .

ويرتب الدكتور دراز دراسته لهذا الجانب على أربعة جوانب:

(أ) القرآن في قطعة قطعـة منه. ويعني بالقطعة ما يؤدى معنى كاملاً، يُؤدى عادة في بضع آيات، وقد يُؤدىَ في آية طويلة أو سورة قصيرة: وهو الحد الأدنى في التحدى .

(ب) القرآن في سورة سورة منه .

(جـ) القرآن فيما بين بعض السور وبعض.

(د) القرآن في جملته .

ويبـدأ المرتبـة الأولى، فلا يـرى في وصف الأسـلوب القرآني خـيرًا من «أنــه تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلها على تباعد ما بين أطرافها، ويمضي في تفصيل ذلك، فيستعرض نهايات الفضيلـة البيانية التي تلتقى في القرآن على تباعدهـا. ويحدثنـا عن كلام الناس حديثًا يفهمه كل من عالج بنفسه صنعة البيان، لنعرف من وجوه النقص ههنا ووجوه الكمال هناك .

(أ) و (ب) القصد في اللفظ، والوفاء بحق المعنى:

هاتان نهايتـان من نهايات الفضيلة البيانيـة، غير أن كل من حاول الجمع بينهما في كلام واحد، وقف منهمـا موقف الزوج بين الضرتين، لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل إلى إحداهما .

فالذي يعمد إلى إيجاز اللفظ لا مناص من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيرًا ، لأنه إن عبر عن مراده جملة لا تفصيلاً، كـان سـبيله سبيل مـن يقول في الحاجة، صدّقوا أو كذّبوا، وفي بـاب الوصف: حســن أو قبيح، ولا يزيـد على ذلك ، فـإن هو ذهب إلى شـيء من التفصيل، فـإن حرصـه على الإيجـاز يحملـه على بـذل جهده في ضم أطراف المعنى. وحذف ما استطاع من أدوات التمهيـد والتشويق، ووسـائل التثبيت والتقرير، إلى غير ذلـك مما تمـس حاجـة النفس إليـه في البيـان، فيخرج ثوبًـا متقلصًـا، يقصر عن غايته، ويرد إيجازه عيبًا وإلغازًا.

أمـا الذي يعمد إلى الوفـاء بحق المعنـى ، وإبراز دقائقـه، فلن يجـد بُدًا من أن يمد في نفسـه مدًا، لأنـه لا يجد في القليل من اللفـظ ما يؤدى عن نفسـه رسـالتها كاملـة، فإذا أعطى نفسـه حظهـا من ذلك، باعد بين أطـراف كلامه، وأبطـأ في الوصول إلى غايته، وعامة الفصحاء، يؤتون من هذا الجانب غالبًا، لأن البليغ مهما مدّ في كلامه، فلن يبلغ به أملـه، وإنما يصل إلى كمـال نسبي، أمـا الوفاء بحق المعنى بحيث لا يخطئـه عنصر منه، ولا ينضاف إليـه عرض غريب عنـه، يعد رقعـة في ثوبه، فذلك أمـر لا يستطيع بليغ أن يدّعيه .

والدليل على ذلك، أن البليغ حينما يتعقب كلام نفسه ـ الفينـة بعد الفينة ـ يجد فيه زائدًا يمحوه، أو ناقصًـا يُثبتـه، ويجد فيـه ما يُقدم أو يُؤخـر، ولو أعاد النظـر فيه مرات ومرات، كما يـروى عن زهير ـ وهـو من هو ـ في تهذيب قصـائده التي كان يسـميها «الحوليـات» فـالبليغ يـرى وراء جهده غايــة هي المثـل الأعلى، الذي يطمـح إليـه ولا

يطاوعه، والكمال البياني الذي يتعلق به خياله ولا يناله .

أما القرآن الكريم، فإن هاتين الغايتين على أتمهما فيه، فحيثما نظرنا في القرآن نجد بياناً قد قُدّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا نحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير، يؤدى لنا من كل معنى صورة نقية، لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها. وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية، ولواحقها الكمالية، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه ، ففي كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كل حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماته من جمله، وأوضاع جمله من آياته، سر الحياة الذي ينتظم المعنى بأدائه[1] .

(جـ) و (د) خطاب العامة وخطاب الخاصة:

لو أننا خاطبنا الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء، لنزلنا بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم، ولو أننا خاطبنا العامة باللّمحة الدالة والإشارة المعبّرة، لجئناهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم. بل لابد أن نعطى كلتا الطائفتين حقها كاملاً، وأن نخاطب كل واحدة منهما بغير ما نخاطب به الأخرى، أما في القرآن الكريم فإن جملة واحدة منه تُلقى إلى العلماء والجهلاء وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك، فيراها كل منهم مقدّرة على مقياس عقله، وعلى وفق حاجته، وهذا شيء لا يوجد على أتمه إلا في القرآن الكريم، وهاتان غايتان لا يلتقيان إلا فيه[2].

(هـ) و (و) إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

إن قوة التفكير في الإنسان، تبحث عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به ، أما قوة الوجدان فإنها تسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم.

والبيان التام هو الذي يوفي بهاتين الحاجتين، ويمنح النفس حظها من الفائدة العقلية

---

(١) انظر النبأ العظيم ص ١٠٩ - ١١٢ .

(٢) نفس المصدر ص ١١٣ .

والمتعة الوجدانية معًا، وهذا أمر لم يأت على أتمه إلا في القرآن الكريم .

فالحكماء يؤدون إلينا ثمار عقولهم غذاءً لعقولنا، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهوائنا واختلاب عواطفنا .

أما الشعراء فإنهم يسعون إلى استثارة وجداننا، وتحريك مشاعرنا، لا يبالون بأن يكون ما صوروه لنا غيًا أو رشدًا ، حقيقة أو تخيلاً.

ولا يوجد إنسان - كما يُجمع علماء النفس - تتعادل فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى النفسية، ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس، فإنها لا تعمل إلا مناوبة في حال بعد حال، وكلما تسلطت واحدة منهن اضمحلت الأخرى، وكاد ينمحي أثرها .

ولما كان الكلام صورة للحال الغالبة على الإنسان من تلك الأحوال، فإنه من غير الممكن أن نطالب إنسانًا بأن يمنحنا هاتين الطلبتين على سواء، إذ هو لم يجمعهما في نفسه على سواء.

أما في القرآن الكريم، فإنه يجمع بين يدينا هذين الطرفين معًا، فهو يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يُرضي حتى أولئك المتفلسفين المتعمقين، ومن المتعة الوجدانية بما يرضى هؤلاء الشعراء المرحين .

ولنقرأ قوله تعالى - في بيان الأحكام، كيف أنه لم ينس حظ القلب والوجدان : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٨) .

وللننظر إلى الاستدراج إلى الطاعة بقوله : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ وترقيق العاطفة

بين الواترين والموتورين في قوله : ﴿ أَخِيهِ﴾ وقوله : ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وقوله : ﴿بِإِحْسَانٍ ﴾ والامتنان في قوله:﴿تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ والتهديد في ختام الآية .

ثم لننتظر في أي شيء يتكلم، أليس في فريضة مفصلة وفي مسألة دموية[1] .

ـ البيان والإجمال:

إذا عمد الناس إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل، وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام والإلباس . فلا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد .

أما بالنسبة للقرآن الكريم ، فإننا نجد في أسلوبه من الملاسة والشفوف والخلو من كل غريب، ما يجعل ألفاظه تسابق معانيها إلى النفس، دون كد خاطر ولا استعادة حديث، كأننا قد أحطنا بكل ما تضمنه من معان .

ولكننا إذا أعدنا الكرة، ونظرنا فيه من جديد، رأينا أنفسنا بإزاء معنى جديد يلوح لنا غير الذي سبق إلى فهمنا أول مرة . «حتى نرى للجملة الواحدة، أو الكلمة الواحدة وجوهًا عدة، كلها صحيح أو محتمل للصحة، كأنما هي فص ماس يعطيك كل ضلع منه شعاعًا ، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها ..» ولعلك لو وكلت النظر فيها لغيرك، رأي منها أكثر مما رأيت، وهكذا تجد كتابًا مفتوحًا مع الزمان يأخذ كل منه ما يسر له[2] .

ولننظر في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (البقرة: ٢١٢) لنرى مصداق ذلك .

فهذه الكلمة على ما بها من وضوح في المعنى، إلا أن بها من المرونة ما يبيح لنا أن نذهب في معناها مذاهب متعددة .

(١) انظر النبأ العظيم ص ١١٣ ـ ١١٦ .

(٢) انظر النبأ العظيم ص ١١٧ ـ ١١٨ .

فإذا قلنا في معناها: إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله، لماذا يبسط الرزق لهؤلاء، ويُقَدّره على هؤلاء؟ أصبنا، ويكون هذا تقريرًا لقاعدة الأرزاق في الدنيا، وأن نظامها لا يجرى على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله، بل يجرى وفقًا لمشيئة الله وحكمته في الابتلاء، وفي ذلك تسلية لفقراء المسلمين، واستصغار لنفوس المغرورين من المترفين.

ولو قلنا: إنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاد، أصبنا، ويكون هذا تنبيه على سعة خزائنه، وبسطه يده جل شأنه.

ولو قلنا : إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب، أصبنا، ويكون هذا تلويحًا للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر، حتى يبدل عُسرهم يسرًا، وفقرهم غنىً من حيث لا يظنون.

ولو قلنا : إنه يرزق من يشاء بغير معاتبة، ومناقشة له على عمله، أصبنا، كما أننا لو قلنا: إنه يرزق من يشاء رزقًا كثيرًا لا يدخل تحت حصر ولا حساب، أصبنا، ويكون في هذا وذاك وعد للصالحين، إما بدخول الجنة بغير حساب، أو بمضاعفة الأجر أضعافًا مضاعفة كثيرة لا يحصرها العد .

وهكذا نرى أن ما اتسم به هذا النص الكريم من مرونة، وسع الفرق الإسلامية كلها، على اختلاف منازعها، كما وسع الآراء العلمية على اختلاف وسائلها.

وللدكتور دراز رأي في الإيجاز والإطناب، يخالف فيه ما ذهب إليه علماء البلاغة المتأخرون ، حين قسموا الكلام البليغ إلى مُوجز ومُطنب ومُساو، فهو يرى أن القرآن الكريم إيجاز كله، لأنه يستثمر دائمًا ويرفق أقل من ما يمكن من الألفاظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني، وتلك ظاهرة بارزة فيه كله، يستوى بها مواضع اجماله، التى يسميها الناس «مقام الإيجاز» ، ومواضع تفصيله التى يسمونها «مقام الإطناب» فنراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الإسراف ميلاً ما، ونرى أن

مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلي بأقل من ألفاظه، ولا بما يساويها، فليس فيه كلمة إلا وهي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى[1].

هذه الحقيقة يجب أن تكون ماثلة في ذهن الدارس لكتاب الله ، وعليه أن يغوص في طلب أسراره البيانية، وأن يدع تلك الدعاوى التى تزعم أن بعض الكلمات القرآنية مقحمة ، أو أن بعض حروفه زائدة زيادة معنوية : أو تلك التى تستخف كلمة«التأكيد» فترمى بها في كل موطن يُظَنُّ فيه الزيادة، لا تبالى أن تكون تلك الزيادة ، متضمنةً معنى المزيد عليه فتصلح لتأكيده أم لا تكون، ولا تبالى أن يكون بالموضوع حاجة إلى هذا التأكيد أو لا حاجة له به .

فإن عميَ على الباحث وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف، فلا يعجل، ولكن ليقل الله أعلم بأسرار كلامه، وأن يَجِدَ في الطلب فعسى الله أن يفتح عليه بابًا من الفهم، يكشف به شيئًا مما عمى عليه.

ويرى الدكتور دراز أن سر الإيجاز في القرآن لا يقف عند حد اجتناب الحشو وانتقاء الألفاظ الجامعة المانعة، بل إنه كثيرًا ما يسلك في إيجازه سبيلاً أعز وأعجب .

فقد نراه يعمد بعد حذف فضول الكلام وزوائده، إلى حذف شيء من أصوله وأركانه ، التى لا يتم الكلام في العادة بدونها، ولقد يتناول هذا الحذف كلمات وجملاً كثيرة متلاحقة ومتفرقة في القطعة الواحدة ، ثم نراه في الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ في تأدية المعنى كله بجلاء ووضوح، وفي طلاوة وعذوبة.. فإذا ما طلبت سر ذلك، رأيته قد أودع معنى تلك الكلمات أو الجمل المطوية في كلمة هنا أو حرف هناك، ثم أدار الأسلوب إدارة عجيبة، فإذا هو نير مشرق، لا تشعر

---

(١) انظر النبأ العظيم ص ١٢٧ ـ ١٣٠ ، هذا وقد أوفينا هذا الموضوع حقه من الدراسة المفصلة في كتابنا «رؤية جديدة للإيجاز والإطناب».

النفس بما كان فيه من حذف وطي، ولا بما صار إليه من استغناء واكتفاء إلا بعد تأمل وفحص دقيقين »[1] .

ولنأخذ واحدًا من النماذج التى أوردها الدكتور لهذا اللون من الإيجاز، يقول الله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ(٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (يونس: ٥٠ ـ ٥١).

المعنى : « نبئوني عن حالكم إن جاءكم العذاب بغتة في ليل أو نهار، ماذا أنتم فاعلون؟ إنكم بين أمرين: فإما الإصرار على ما أنتم عليه الآن من تكذيب واستعجال، وإما الإيمان، فأيهما تختارون؟ أتستعجلون بالعذاب يومئذ كما تستعجلون به اليوم؟ كلا ، فإنكم مجرمون، وكيف يتشوق المجرم لرؤية العذاب الذي إن جاء فهو لا محالة مواقعه؟ ثم نبئوني؛ أي نوع منه تستعجلون؟ فإنه ليس نوعًا واحدًا ، بل هو ألوان وفنون.. أم أنتم اليوم تُكذبون ثم إذا وقع آمنتم؟ ألا إنه لن ينفعكم يومئذ إيمانكم بعد أن ماطلتم وسوفتم، حتى ضيعتم الفرصة، وفاتكم وقت التدارك، بل هناك يُقال لكم تنديمًا: آلآن تؤمنون ، وقد كنتم به تكذبون وتستعجلون؟

هذا هو المعنى في ثوبه الطبيعي، فانظر كم من كلمة وكم من جملة طويت في صدر الكلام وفي شقيه؟ وكيف أنها طُويت ثم لم يُترك شيء منها إلا وقد جعل في اللفظ مصباح يكشف عنه، ومفتاح يُوصل إليه، فوضعُ استفهامين متقابلين في الكلام دلَّ على أن هناك استفهامًا جامعًا لهما، مرددًا بينهما، يقال فيه: فماذا تصنعون وأي الطرفين تسلكون؟

والاستفهام عن الصنف المعجل به من العذاب، دلّ على استفهام تمهيدي قبله عن حصول أصل الاستعجال، وكلمة «المجرمون» دلت على استحالة هذا الشق من الترديد، وكلمة «ثم» العاطفة دلت على المعطوف عليه المطوى بينها وبين الهمزة في

(١) انظر النبأ العظيم ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

قوله «أثم» ولفظ الظرف «آلآن» دَلّ على عامله المقدر، وقس على ذلك سائر المحذوفات، حتى إن مدة الاستفهام الداخلة على الظرف قد دلت على طول مدة التسويف، الذي منع من قبول إيمانهم، لأنهم قد عمروا ما يتذكر فيه من تذكر .

فمن ذا الذي يستطيع أن يجري في هذا المضمار شرقًا أو شرقين، ثم لا تضطرب أنفاسه، ولا تكبو به ركائب البيان، وأفراسه، إن من دون ذلك لحدًا للإعجاز»[1] .

* * *

---

(١) انظر النبأ العظيم ص ١٤١ - ١٤٢.

القرآن في سورة سورة منه

«الكثرة» و«الوحدة» :

بعد أن أفاض الدكتور دراز في حديثه عن خصائص الأسلوب القرآني ـ إذا نظرنا إليه كأجزاء يؤدي كل منها معنى كاملاً ـ انتقل إلى الحديث عنه كوحدات تتمثل في سور كاملة، ثم نظر إليه يمثل في مجموعة وحدة مترابطة وثيقة العرى.

بدأ ذلك بأن أشار إلى أن المعنى الواحد إذا ساء نظمه ، انحلت وحدة معناه، فتفرق من أجزائها ما كان مجتمعًا، كما تتبدد الصورة الواحدة على المرآة إذا لم يكن سطحها مستويًا ، فلابد إذن لإبراز تلك الوحدة الطبيعية المعنوية من إحكام هذه الوحدة الفنية البيانية، وهذا أمر يحتاج إلى قدر كبير من المهارة والحذق .

وإذا كانت تلك حال المعنى الواحد الذي تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالاً طبيعيًا، فلا شك أن المعاني المختلفة في جوهرها تحتاج أضعاف ذلك من الحذق والمهارة والاقتدار على تأليف اتجاهاتها المتشعبة ، وأمزجتها الغريبة .

ومن أجل ذلك عز هذا المطلب على البُلغاء، فنراهم وإن أحسنوا وأجادوا في غرض من الأغراض ، كان منهم الخطأ والإساءة في نظم تلك الأغراض كلا أو جلا .

وإذا كانت تلك حال الأغراض المختلفة إذا تناولها الكلام في المجلس الواحد، فكيف بها إذا جيء بها في ظروف مختلفة، وأزمان متطاولة؟

ومن هنا كان مجيء القرآن بهذه المثابة من الإحكام والترابط بين أجزاء السورة، ثم بين أجزائه كله ـ على الرغم من تنوع الموضوعات، وتفاوت الظروف ـ أمرًا أدخل في الإعجاز وأعجب .

فمن المُسَلم به أن القرآن الكريم أكثر الكلام افتنانًا وتنويعًا للموضوعات، وأسرعه تنقلاً بينها ، من وصف إلى قصص إلى تشريع إلى جدل، بل إن النص منه يتشعب إلى

فنون، والشأن الواحد فيه ينطوي تحته شئون وشئون.

ثم إن هذه المعاني المختلفة ما كانت تنزل جملة واحدة، بل كانت تنزل آحادًا مفرقة حسب الوقائع والدواعي المتجددة، وهذا الانفصال الزماني بينها والاختلاف الذاتي بين دواعيها، كان بطبيعتها مؤديًا إلى انفصال الحديث عنها على ضرب من الاستقلال والاستئناف لا يدع بينها مجالاً للترابط والتواصل.

وآية ذلك، أن نأخذ نصوصًا - من كلام أي من البلغاء شئنا - كان التحدث، بها في أوقات مختلفة، ونحاول أن نجيء بها سردًا، لنجعل منها حديثًا واحدًا من غير أن نزيد عليها أو ننقص، وسنرى أن معانيها متناكرة، ومبانيها متنافرة في الأسماع والأفهام.

فإذا أضفنا إلى كل ما تقدم من أسباب التفكك والتنافر سببًا آخر يزيدها تنافرًا وتشتيتًا، أدركنا أن التأليف بين أجزاء النص القرآني جاء خارجًا عن طبيعة التأليف الإنساني، هذا السبب الجديد هو تلك الطريقة التى اتبعت في ضم نجوم القرآن بعضها إلى بعض .

فإن الرسول ﷺ ، لم يكن في ترتيبه لهذه النجوم القرآنية، التى كانت تتنزل عليه استجابة لدواع متجددة - لم يكن على علم مسبق بوقوعها - وتتناول موضوعات متشعبة - حسب طبيعة الدواعي إلى تنزيلها - وترد على فترات غير متصلة - بحكم أن تنزيلها رهن بوقوع الدواعي في زمنها الذي وقعت فيه - أقول : لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام يتبع في ترتيب هذه النجوم طريقة من الطرق التى يمكن أن تُتاح لبشر.

فقد أخذ عليه الصلاة والسلام في ترتيب هذه النجوم منذ وصلت إليه باكورة رسائلها ، وكان يأمر بوضع كل نجم منها في مكان مهيأ لاستقباله في سورة خاصة وفي موضع خاص من تلك السورة ، على حين أن هذه الآيات والسور لم تتخذ في ورودها التنزيلي سبيلها الذي اتبعه في وضعها الترتيبي .

فإذا نظرنـا إلى هذه النجوم عند تنزيلها، رأينا كل نجم رهينًا بنزول حاجة ملحة، أو حدوث سـبب عام أو خـاص، فهـو ذكر محدث لوقتـه، وقـول مرتجل عند باعثتـه، لم يتقدم للنفس شعور به قبل حدوثه .

ولو نظرنـا في الوقت نفسه إلى مـا أُعِدّ لكل نجم منهـا سـاعة نزوله من موطن محدد يـأوي إليه، داخل سياج سـورة محددة، رأينا من خلال هذا التوزيع الفوري المحدد، أن هناك خطة تفصيلية شاملة، قد رُسمت فيها مواقع هذه النجوم كلها قبل نزولها، بل قبل أن تُخلق أسـبابها، وأن هذه الخطـة قد رُسمت علـى أدق الحدود والتفـاصيل ، فما من نجم وُضع في سورة ثم جاوزها إلى غيرها، ومـا من نجم جُعل في مكان ما من السورة، آخرًا أو أولا، ثم وجد عنه أبد الدهر لا منصرفًا ولا متحولاً . وكأن القرآن كله كان ظاهرًا علـى قلب هذا الرجل، قبل ظهوره على لسـانه، وكان على هذه الصورة مؤلفًا على صدره قبل أن يؤلفه بيانـه، وإلا فما باله يؤلـف هذا التأليف بين آحاد لا تتداعى إلى الاجتماع بطبائعها ؟ ولماذا لم يذرها كما جاءت فرادى منثورة؟

وهلا إذا جمعها أدخلها كلها في مجموعة واحدة، أو هلاّ قسّمها إلى مجاميع متساوية أو متجانسة ؟

وهـل يمكن أن يكون ذلك الـترتيب قد جرى على محض الصدفـة والاتفـاق؟ كلا؛ فقد ظهر في كل وضع منها أنه مقصود بعينه، كما ظهر القصد في كل طائفة أن تنتظم منها وحدة محدودة، ذات ترتيب ومقدار معين.

وليـس لكل هذه التسـاؤلات من جواب مقنع إلا أن يكـون الرسـول عليـه الصلاة والسـلام قد استمد ذلك من أفق أعلى من أفق نفسـه، ومحيط أوسـع من محيط علمه «إذ أنى للإنسـان وهو المحكوم بطبيعة الدهر، أن يكـون عليها متحكمًا؟ أم كيف يتهيأ له وهو في جهله العتيد بمقدمات عمله أن يكون بنتائجها التفصيلية عالمًا؟»".

نعم .. هذا هو الحق الذي لا مرية فيـه، فما سمعنا عن أحد من الأدباء ، أو الشعراء

استطاع في مفتتح حياته الأدبية أن يُحصى كل ما سيجيء على لسانه من جيد الشعر أو النثر، في المناسبات المتنوعة إلى آخر عهده بالدنيا، وأن يضع من أول يوم منهاجًا لديوانه المنتظر، يُفصله تفصيلاً، لا يقنع فيه بتقدير أبوابه وفصوله، حتى يُقدر لكل باب منه ما يحويه من خطاب أو قصيد، ويُحدد لكل واحد من هذين مكانًا معلومًا، لا يستقدم عنه ولا يتأخر، حتى إذا جاءه عند داعيته ردّه إلى مكانه الذي أعده له، ثم تنجح هذه التجربة، فيستقيم له النسق بين هذه المقطوعات كلها من غير أن يُقدم شيئًا أو يؤخر شيئًا، ومن غير أن يزيد عليها أو أن ينقص. تلك وا لله أمنية لا يظفر المرء منها إلا بعكس ما تمنى(1) .

هذا ولسنا في حاجة إلى أن نؤكد أن هذا النهج الذي اتبع في تأليف النظم القرآني - على ما به من أسباب متعددة للتفريق والتشتيت - لم ينل شيئًا من إستقامة النظم القرآني في السور المؤلفة .

فالعرب الذين تحداهم القرآن بسورة منه ، لو أنهم وجدوا في نظم سورة منها مطمعًا لطامع، لكان لهم معه شأن آخر، ولصوبوا سهامهم نحوه يرمونه من هذه الثغرة.

أما البلغاء من بعدهم، فما زلنا نسمعهم يضربون الأمثال في جودة السبك وإحكام السرد بهذا القرآن حين ينتقل من فن إلى فن، ونحن نقرأ السورة من هذه السور، فلا نجد في نظام معانيها أو مبانيها ما نعرف به أكانت قد نزلت في نجم واحد أو نجومًا شتى، فإذا حدثنا التاريخ أنها قد نزلت نجومًا ، لا نملك إلا أن نقول : «إنها إذا كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائمًا على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه، قُدّرت أبعاده، ورُقمت لبناته، ثم فُرق أنقاضًا، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصًا يشد بعضه بعضًا».

---

(1) انظر النبأ العظيم ص ١٤٩ - ١٥٣ .

فأي تدبير محكم، وأي علم محيط، لا يضل ولا ينسى، كان قد أعد لهذه المواد المبعثرة نظامها، وهداها في إبان تشتتها إلى ما قُدر لها؟

أليس ذلك وحده آية بيّنة على أن النظم القرآني ليس من وضع بشر، وإنما هو صنع العليم الخبير؟[1] .

وهكذا وصل الدكتور دراز. في إثبات إعجاز النظم القرآني، من جهة تلاحم أجزائه على الرغم من عوامل تفرقها - إلى ما لا مزيد عليه لمستزيد، ثم ختم ذلك، بأن قدّم لنا نموذجًا تطبيقيًا، جاء بمثابة شاهد عيان على ما أصله في هذا الفصل، فاختار سورة هي أطول سور القرآن كله، وأكثرها جمعا للمعاني المختلفة، وأكثرها في التنزيل نجومـا، وأبعدها في هذا التنجيم تراخيًا، إذ كانت الفترة بين نزول أولها ونزول آخرها تسع سنين عددًا، تلك هي سورة «البقرة» .

وأشار قبل أن يبدأ في عرضها إلى أنه ليس من همه أن يكشف عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التى تربط بين أجزاء هذه السورة بعضها ببعض، فتلك دراسة تفصيلية، لها موضعها من كتب التفسير؛ وإنما هدفه أن يعرض السورة عرضًا واحدًا، يرسم به خط سيرها إلى غايتها، ويبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها، لكي نرى كيف وقعت كل حلقة موقعها من السلسلة العظمى .

ويرى الدكتور أن هذا النهج الكلي في دراسة النسق القرآني هو السياسة الرشيدة التى يجب أن تُتّبع ، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء وجزء، إلا بعد أن يُحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها ، وضبط مقاصدها العامة، على وجه يكون معوانًا له على السير في تلك التفاصيل على بينة، فالسورة كما ذكر الأئمة قديمًا « مهما تعددت قضاياها، فهي كلام واحد، يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره ، يترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية

(1) انظر النبأ العظيم ص ١٥٣ - ١٥٧ .

الواحدة»[1].

كما يلفت نظرنا أيضًا إلى أن على الباحث في النسق القرآني، أن يعلم أن الصلة بين الجزء والجزء لا تعنى اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك من الصلات الجنسية فحسب، كما ظنه بعض الباحثين، الذين ذهبوا إلى التكلف والتعسف، في محاولة إيجاد هذا النوع من الاتصال، فلو أننا ذهبنا إلى محو الفوارق الطبيعية بين المعاني القرآنية المختلفة التى ينتظمها القرآن في سورة منه لجردناه من أولى خصائصه، وهي: أنه لا يسترسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالاً يرده إلى الإطالة والملل. ولو أننا من أجل المحافظة على استقلال هذه المعاني، ذهبنا نفرقها ونزيل التداعي المعنوي والنظمي من بينها ، لجردنا القرآن أيضًا من خاصية أخرى وهي: أنه لا ينتقل في حديث انتقالاً طفريًا، يُخرجه إلى حد الجمع بين الأحاديث على غير نظام .

فالقرآن حين يجمع بين الأجناس المختلفة، لا يدعها حتى يُبرزها في صورة مؤتلفة، حتى يجعل من اختلافها نفسه قوامًا لائتلافها، فتراه يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها، فيخرج بذلك محاسنها ومساوئها في أجلى مظاهرها، ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في إحكامها ، بسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير أو التفريع أو الاستشهاد أو الاستنباط أو التكميل أو الاحتراس.. إلى غير ذلك .

وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي، أو تجاور شيئين في الوضع المكاني دعامة لاقترانهما في النظم، فيكون ذلك إجابة لحاجات النفس التى تتداعى فيها تلك المعاني، فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها، نراه يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر. إما بحسن التخلص والتمهيد، وإما بإمالة

(١) انظر النبأ العظيم ص ١٥٩ .

الصيغ التركيبية على وضع يتلاقى فيه المتباعدان، ويتصافح المتناكران[1] .

ثم أخذ - رحمه الله - في عرض سورة البقرة، على هذا النهج الذي قدمه، فجعل منها وحدة مترابطة، لا تند منها عن إطار أهدافها العامة التى تناولتها .

وختم تلك الدراسة المستفيضة بقوله : « لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات ، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات، لعمري إنه في ترتيب آية على هذا الوجه، لهو معجزة المعجزات[2] .

وبعد .. فما لنا من إضافة نضيفها، إلا أن نبتهل إلى الله ضارعين أن يجزي هذا الإمام الجليل جزاء المجاهدين العاملين، والأتقياء المقربين، فقد كان رحمه الله - في كل ما كتب - كأنما ينظر بنور الله .

---

(١) انظر النبأ العظيم ص ١٥٩ - ١٦٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢١ .

دراسة حول

مدخل إلى القرآن الكريم

بقلم

أ. د/ السيد محمد بدوي

يقول الدكتور محمد رجب البيومي:

أما الرسالة الفرعية : [مدخل إلى القرآن الكريم] فقد كتبت لتصحيح الأخطاء المتداولة في أوربا عن كتاب الله، وفيمن تعرض الدكتور دراز إلى تخطئتهم أساتذته في جامعة السوربون، وأعلام الفكر الاستشراقي ممن رزقوا دويا رنانًا في بحوثهم الذائعة وما حفل الأستاذ بغضب أحد، إذ كانت لهجته المهذبة، وأدلته المقنعة كافية بأن يكبت كل انفعال مضاد[1] .

ويتناول الدكتور دراز في هذه الرسالة قضايا جوهرية بشأن القرآن ـ تاريخه ومضمونه ومصدره ـ لا غنى للمسلم عن الإلمام التام بها لكي يكتمل فهمه لكتاب ربه، وما يدور عنه في العالم. وقد أورد المؤلف رحمه الله من الحجج العقلية والبراهين والأدلة العلمية والتاريخية المؤيدة لربانية القرآن ورسالته السامية. ورد على الشبهات والمطاعن الباطلة التى يروجها أعداء الحق والفضيلة وعرض نتائج بحثه الفريدة والمتميزة بأسلوب عصري وبمنهج أكاديمي علمي[2] .

وعلى الرغم من مرور ما يقرب من نصف قرن على هذا البحث العظيم، فإن نتائجه تكاد تكون غير معروفة وغير متداولة في أوساط المسلمين رغم أهميتها وضرورتها ولاسيما في هذه الأيام العصيبة. وهذا الجو العالمي المشحون ضد الإسلام مما استدعى أن يقوم الأستاذ محمد عبد العظيم علي بإعداد تلخيص لهذا البحث لتعريف أكبر قطاع من قراء العربية بالجهود العلمية لأحد أكبر علماء المسلمين الأجلاء في هذا العصر.

---

(١) د. محمد رجب البيومي ـ النهضة الإسلامية جـ ٥ .

(٢) مختصر المدخل إلى القرآن الكريم ـ دار الدعوة .

وجزى الله الأستاذ محمد عبد العظيم علي خير الجزاء لتقديمه لهذا المختصر لقراء العربية في حجم صغير وأسلوب سهل وعرض مبسط، تقريبًا للأفهام، وتعميقًا للفائدة، وإسهامًا في صد ما يواجه العالم الإسلامي من تحديات ولكي يرى الناس جميعًا الوجه الحقيقي للقرآن الكريم الذي ما أنزله الله إلا رحمة للعالمين يقول الدكتور دراز: والغرض المبدئي من هذه الدراسة هو استخلاص قانون الأخلاق القرآني بعيدًا عن كل ما يربطه بباقي القرآن الكريم وهو العمل الذي خصص له الدكتور دراز كتاب آخر ترجم إلى العربية بعنوان «دستور الأخلاق في القرآن» غير أننا رأينا من المفيد عرض الخطوط الرئيسية لهذا البناء الفكري الشامخ وتوضيح مكان العنصر الأخلاقي داخل الإطار الكلي، فضلاً عن استخراج الأفكار الرئيسية الموجودة في كل جزء من أجزاء كتاب الإسلام .

٢- الموضوع الجوهري للكتاب:

يقول الدكتور دراز « إن الموضوع الجوهري لبحثنا هو عرض رسالة القرآن الكريم في جملتها كما يعرضها القرآن نفسه، لا كما وردت من خلال الأحكام أو التفسيرات أو التطبيقات التى اختلفت نسبة إخلاصها عبر التاريخ، وسوف نقابل في طريقنا بشأن القرآن إما بعض الأحكام القاسية فنصححها أو بعض الاستنتاجات العاجلة فنقومها، وفي كل هذا سوف نترك القرآن ليتولى الدفاع بنفسه عن نفسه ويقدم الحجة تلو الحجة ـ تاركين للقارئ الفرصة ليقدر بنفسه قيمة هذه الحجج تاريخيًا وفلسفيًا»(٢).

---

(١) مقدمة المدخل إلى القرآن.

(٢) هذا الملخص لأستاذنا الكبير الدكتور ـ السيد محمد بدوي وهو أوفى ملخص لما ورد في هذه الرسالة ـ لذا آثرنا نقله بنصه من تقديم الترجمة العربية للرسالة .

٣ـ ما حققه الكتاب للفكر الأوربي:

وجدير بالذكر أن استخلاص فكرة القرآن من غلافها وإخراجها على هذا النحو من إطارها المحلي لتقريبها للفكر الأوربي البعيد عن اللغة العربية هو تحقيق لجزء من رسالة القرآن الحقيقية. لأن القرآن يقصد الإنسان حيث يكون وإلى أي جنس ينتمي.. وذلك حين يوجه نداءه إلى العقل والذوق السليم والشعور النبيل في الإنسان .

إن القرآن دعوة عالمية تهدف إلى تطهير العادات وتوضيح العقائد والتقريب بينها، وإسقاط الحواجز العنصرية والوطنية، وإحلال قانون الحق والعدل محل قانون القوة الغاشمة .

٤ـ ملخص الكتاب:

ويحتوى البحث الذي ين أيدينا على ثلاثة أقسام، قسم تاريخي ، وقسم تحليلي، وقسم نقدي جدلي، وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة ينقسم بدوره إلى ثلاثة فصول.

ـ ويهتم **الفصل الأول** من القسم التاريخي بالقاء نظرة تاريخية عابرة على طفولة النبي الكريم ﷺ وشبابه حتى بداية بعثته ـ ونستخلص من هذه النظرة طابع الإخلاص المطلق الذي اتصف به الرسول ﷺ . والذي كان يوحى بالثقة الكاملة لكل من عرفه سواء من أصدقائه أو من أعدائه.وتعتبر شهادة «أبو سفيان»(١) في هذه النقطة وثيقة تاريخية ثمينة في مظهرها العربي والروماني على السواء ... وإن كانت مجهولة تمامًا في الكتب الأوربية . وإنها في صورة حوار قام فيه «أبو سفيان» بالرد على أسئلة محبوكة وجهها إليه الإمبراطور «هرقل» وكان أبو سفيان في ذلك الوقت من أشد أعداء محمد ﷺ ضراوة وحنقًا(٢) .

---

(١) انظر صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس ك/ بدء الوحي ب/ بدء الوحي (٦).
ومسلم عن إبن عباس ك/ الجهاد والسير ب/ كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (٣٣٢٢) .

(٢) انظر الصفحة السابقة هامش (٣).

وقد أوصى المؤلف على ضرورة نقل هذا الحوار بأكمله لأنه يوضح كثيرًا من المسائل التى تناولها البحث .

الفصل الثاني:

في هذا الفصل عرض المؤلف الظروف التى نزل فيها القرآن الكريم والظروف التى جمع فيها، ثم انتقل من خلالها حتى وصل إلينا. ويتضح من هذا البحث أن النص القرآني الذي بين أيدينا اليوم لا يرجع إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان كما يقال ولا إلى الخليفة الأول أبي بكر الصديق، وإنما هو مطابق مطابقة حرفية للنص الذي أملاه الرسول عليه الصلاة والسلام والذي حفظ بعناية وتقديس في صدور الصحابة وقرائهم .

وبعد أن حفظ النص القرآني على هذا النحو، بعيدًا عن أي خلط أو شكوك انتقل كما هو معلوم من جيل إلى جيل بأمانة وتقديس حتى وصل إلينا .

والدليل الذي يقطع بصحته يكمن في أنه رغم الخلاف الذي نزغ بين المسلمين مبكرًا بسبب تباعد آرائهم السياسية، فقد ظل القرآن واحدًا في العالم الإسلامي كله حتى بالنسبة للفرق الإسلامية الحانقة على الخلفاء الثلاثة الأول .

الفصل الثالث:

وأما الفصل الثالث فيفند الخطأ الشائع الذي يزعم أن الإسلام يبيح نشر الدعوة بالقوة. واستطاع المؤلف أن يثبت ما يخالف ذلك. ويؤكد أن حرية العقيدة والدين هي من المبادئ التي أرساها وعززها القرآن الكريم بصراحة ووضوح فإنه لا يكره الضمائر، وإنما يتصدى لكل من يحاول قهرها وإجبارها .

فالحرب الشرعية المقدسة في نظر الإسلام هي الحرب الدفاعية . وإذا كانت هناك مخالفات لهذه القاعدة قد وقعت عبر التاريخ فإنها في الواقع لا تستند إلى حرفية النص

القرآني ولا إلى روحه فضلاً عن أنها لم تكن السبب الرئيسي لانتشار الإسلام.

وتقودنا خاتمة القسم الأول التاريخي إلى القسم الثاني.

القسم الثاني:

القسم الثاني تحليلي حيث يحاول المؤلف استخلاص الأفكار الرئيسية في الدعوة القرآنية من جانبها الديني وجانبها الخلقي.

فالإسلام في معناه الحرفي، هو الإيمان بالله والخضوع للإرادة الإلهية وهو بهذا المعنى لا يتعارض مع اليهودية ولا مع المسيحية، وإنه يدعو للإيمان بجميع الكتب المنزلة وجميع الأنبياء إيمانًا يضمهم جميعًا بتقديس واحد دون التمييز بين أي منهم. والإسلام من هذه الناحية ليس دعوة جديدة، ولا حتى إصلاحًا، وإنما مجرد دعوة إلى الوحدة الأصلية . إنه الدين الأوحد الذي لم يأل الرسل عليهم السلام جهدًا في الدعوة إليه منذ نوح وإبراهيم حتى موسى وعيسى عليهم السلام .

هذا فيما يتعلق بالحقيقة الدينية. ولا يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالقانون الأخلاقي: فلقد أقام جميع الرسل ميزان العدل، وكلهم أمروا بأن يفعلوا الخير ويحثوا على الخير. ولقد سن الصلاة والزكاة كل من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى . كما كتب الصوم على الأمم السابقة وشرع إبراهيم فريضة الحج. ولقد أدان كل من هود وصالح حب قومه للأموال والمتع الدنيوية والعدوان والفساد. وقاوم لوط إنحلال قومه وإنغماسهم في الرذيلة، وقاوم شعيب الغش في التجارة فجميع الناس مرجعهم إلى الله، وستعرض عليه أعمالهم في الدنيا سواء في ذلك الرسل أم الشعوب التى أُرسلوا إليها .

وفضلا عن إحياء السلوك القديم والتضامن الفكري الذي يجمع بين رسل الله جميعا، فإن القرآن يذكر دائمًا في كلا المجالين العقيدي والعملي ما في نفس الإنسان

من عنصر مشترك : هو الحكم الفعلي والسليم الذي يميز به الإنسان الخير والشر.

وهكذا نرى أن الدعوة القرآنية دعوة عالمية في هدفها، وهي عالمية أيضًا في أسلوب ووسائل الإقناع التى يتبعها القرآن لتحقيق هذا الهدف السامي ولكن القرآن لم يأت فقط لتذكير الناس بالعقل السليم، ولإعادة الخلق القويم بينهم، فليست رسالته الوحيدة هي تعزيز الرسل السابقين والربط بين دعواتهم بسياج الوحدة والتصديق عليها، بعد أن وقف بين عدد من أحكامها التى كانت في الظاهر متعارضة. وإنما اضطلع القرآن ، كتاب الإسلام، بمهام أخرى جديدة .

أولاً : أن يخفف عن الإنسانية بعض الشرائع القاسية التى كانت قد سنت بصفة مؤقتة كتكفير عن معاصي ارتكبت، وإعادة الأمور إلى نظامها الطبيعي الرحيم.

ثانيًا: وبصفة خاصة إضافة تكملة ضرورية لكل ما سبق - ولقد اتضح من حصر بعض الأحكام في التوراة وفي القرآن أن كل مرحلة من مراحل الوحي الإلهي تعتبر - مع احتفاظها بما اكتسبته من المرحلة السابقة - تقدمًا ملموسًا عليها . وساق المؤلف كثيرًا من الأمثلة لهذه الخاصية التدريجية التقدمية سواء في الإنجيل بالنسبة للتوراة أو في القرآن بالنسبة للكتابين السابقين عليه ولا يعدو أن يكون هذا الحصر وهذه المقارنة إلا تعزيزًا لكلمة الرسول ﷺ الخالدة «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

* * *

أما القسم الثالث والأخير من هذا الكتاب . فقد كرسه المؤلف لدراسة طريقة القرآن في إثبات ربانية مصدره. ولقد تركز هذا الدليل، بصفة خاصة على النقاط التالية:

١- الطابع المفاجئ، وغير المنتظر فمحمد ﷺ لم يدر بخلده أنه سيبعث رسولا وبعد أن تلقى الوحي لم يكن يضمن استمراره.

٢- الجهل الذي كان فيه محمد ﷺ وشعبه ليس فقط فيما يتعلق بالقصص الديني،

وإنما في كل ما يتعلق بالإيمان والتشريع والكتب المنزلة والسلوك الأمثل عند الله .

٣ـ حالة الأمية، إذ أن محمدًا لم يكن يقرأ أو يكتب .

٤ـ وكانت اللغة الأجنبية للأديان السابقة أمام النبي ﷺ حائلاً طبيعيًا يمنعه من الوصول إلى هذه المصادر، وأن يفهمها من نصوصها الشفهية .

٥ـ ومع ذلك، شهد العلماء المتخصصون في الكتب المنزلة السابقة بصدق ما جاء به محمد ﷺ عن كتبهم .

٦ـ أما بالنسبة لقومه الذين عاش بينهم عددًا من السنين يعادل عمرًا، فقد أدركوا أنه لم يكن ليأتي بهذا الكتاب من عنده .

٧ـ قوة أخلاقه، وصدق إيمانه، وشعوره المرهف بمسئوليته يوم القيامة كلها حقائق لا تتفق مع إمكان أن يخترع شيئًا وينسبه إلى الله .

٨ـ وإذا نظرنا للقرآن في حد ذاته، وافتراضًا أنه كان من نتاج بشري وأخذنا في اعتبارنا ضخامة محتواه وطول مدة نزوله، فقد كان من المحتم أن يتضمن بعض التصريحات المتناقضة، أو المتعارضة مع بعض الوقائع السابقة أو اللاحقة له .

٩ـ ولكن الحقائق التي يقدمها القرآن ـ حسب تعبيره ـ لا يمكن الطعن فيها من بين يديها ولا من خلفها، أي لا في الماضي ولا في المستقبل.

١٠ـ وأخيرًا فليس من المستحيل فحسب أن يصدر القرآن عن قلب رجل أو عن قلب رجال وإنما إذا اجتمع عالم المنظور وعالم غير المنظور . وتضافرت جهودهم لإتيان شيء مثله، فلن يتمكنوا من ذلك أبدًا. هذا التحدي الإلهي لم يهدمه أحد في الماضي ولن يهدمه أحد في المستقبل. فلسنا نحن الذين نعلنه وإنما هو القرآن الذي يتولى الدفاع عن نفسه بنفسه .

ومما يزيد في قوة الحجج والأسانيد التي يوردها الباحث الجليل. أنه لم يكتف في مناقشته لنقاط البحث المختلفة بالرجوع إلى نصوص القرآن أو إلى ما أثر عن السلف الصالح وعلماء الفقه. بل وأنه كان ـ وفقا لطريقته في التعمق ـ يجهد عقله لكي يتصور

ما قد يمكن أن يواجه من اعتراضات على ما يقدمه من حقائق، ويقلّب كل مسألة من المسائل على وجوهها المختلفة المحتملة منها وغير المحتملة، ويورد ما جاء بشأنها في كتب المستشرقين والفلاسفة والمفكرين الغربيين ثم يرد عليهم بحجج عقلية من نوع حججهم ، فيكون في ذلك أبلغ الرد عليهم، وخير وسيلة لهدم دعاويهم .

ولا يسعنا في ختام هذا العرض إلا أن ننوه بالجهد الذي بذله المترجم الأستاذ محمد عبد العظيم علي - الذي وضع ثقافته الدينية وإيمانه العميق إلى جانب تمكنه من اللغة الفرنسية، وجعل كل هذه العناصر في خدمة النص الفرنسي فجاءت ترجمته موفقة غاية التوفيق، كما أن حرصه على خدمة النص اقتضى منه إثبات الآيات القرآنية في مواضعها من الهوامش بالرغم من كثرتها، ولم ترد هذه الآيات في النص الأصلي إلا بأرقامها ومواضعها من السور . كما أنه قام بتوثيق النصوص الأخرى التي وردت في الرسالة وذلك بالرجوع إلى مصادرها العربية في كتب الفقه والحديث .

أما مراجعة الأستاذ الدكتور السيد محمد بدوي(*) فقد كان هدفها الرئيسي أن يخرج الكتاب في صورة أكثر ما تكون مطابقة لفكر الدكتور دراز وأسلوبه وطريقته

(*) هو الأستاذ / السيد محمد بدوي - تخرج في كلية الآداب جامعة (فؤاد الأول) القاهرة حاليًا عام ١٩٣٨م - سافر إلى فرنسا في بعثة علمية ومكث بها سبع سنوات من عام (١٩٣٨م إلى عام ١٩٤٥م) وعاصر سنوات الحرب العالمية الثانية - حصل من جامعة (السوربون) على ليسانس الفلسفة عام (١٩٤٢) وعلى الدكتوراه في علم الاجتماع عام (١٩٤٥) بمرتبة الشرف الأولى .

- تعرف في باريس على فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز وخطب لنفسه إحدى كريماته وتزوج منها في باريس عام ١٩٤٠م .

- عاد إلى مصر في عام ١٩٤٥م، ونقل من وزارة المعارف إلى الجامعة (عام ١٩٤٧م) .

- عين مدرسًا لعلم الاجتماع في كلية الآداب جامعة الإسكندرية في عام ١٩٤٧ .

واستمر في التدريس بها إلى الوقت الحاضر حيث رقي إلى وظيفة أستاذ مساعد ثم أستاذ لكرسي علم الاجتماع.

- وهو الآن أستاذ متفرغ لعلم الاجتماع ومديرًا لمعهد العلوم الاجتماعية الذي يؤهل الخريجين للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه.

- عمل أستاذا زائرًا بعدد من البلاد العربية ومنها السودان، لبنان، ليبيا، والمغرب .

في التعبير . وقد كـان رحمه الله ـ حريصًا علـى هذا المعنى ـ يريد أن يقوم بهذه الترجمة بنفسه أو يعهد بهـا إلى أقرب النـاس إلى فكره، والحق أن الأستاذ المترجم والمراجع قد وفقـا غاية التوفيـق في تقديم هذا العمل الكبيـر فقد قـاموا بواجب الوفـاء نحو الدكتور دراز ووفيًّا ببعض ما كان يهدف إليه من نشر العلم وخدمة الدين الحنيف .

ـ ـ من مؤلفاته:

١ـ المجتمع والمشكلات الاجتماعية .

٢ـ مبادئ علم الاجتماع .

٣ـ نظريات ومذاهب اجتماعية .

٤ـ الأخلاق بين الفلسفة والاجتماع.

٥ـ علم الاجتماع الاقتصادي.

ـ كما أشرف على ترجمة ومراجعة رسالتيّ الدكتوراه اللتين تقدم بهما صهره إلى السوربون عام ١٩٤٨ وهما:

١ـ مدخل إلى القرآن الكريم (ترجمة الأستاذ محمد عبد العظيم علي).

٢ـ دستور الأخلاق في القرآن (ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين) .

وكتب لكل من الرسالتين مقدمة عن حياة المؤلف وملخصًا وافيًا لما ورد فيهما من آراء ونظريات علمية .

كتاب (الدين بحوث ممهدة لتاريخ الأديان)

للأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز

بحث بقلم الأستاذ/ فتحي عثمان

منذ سمعت بفاجعة وفاة الدكتور دراز المفاجئة وأنا أشعر بألم الجرح الذي أحدثه النبأ في قلبي ... وقرأت (المجلة) في عددها السابع عشر، فرأيت للفقيد «آخر بحث كتبه رحمه الله، ولم يمهله القدر ليقرأه على أعضاء المؤتمر الإسلامي بلاهور »، فهيج في نفسي ما حسبته قد سكن، وبدأت أقرأ افتتاحية المجلة، فإذا بي أمام رئيس التحرير يقول: «ومن مفاخر هذه المجلة أن تكون قد نشرت له في أوائل صدورها تفسيرًا (لفاتحة الكتاب) جاء نورًا على نور، وكان موضع إعجاب كل من طالعه، حتى من جاء على صفحات (المجلة) في عدد تال يعارض بعض الآراء التى وردت في ذلك التفسير العظيم » ...

واليوم يكتب (ما جاء يعارض بعض الآراء) وقد أثارت فيه هذه الكلمات ما أثارت؛ ليحيى الرجل الأمين، والعالم الباحث .. أحييه لتكون ذكراه نورًا لأهل الأرض، أما هو فإنه يلقى جزاء الخلود في عليين.

لقد كتبت حين عارضت شيئًا من آراء الأستاذ الكبير، في افتتاح حديثي ـ كما شهد الأستاذ الدكتور حسين فوزي ـ «استمتعت بقراءة المثال الرصين الذي كتبه الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز .. وأعجبني فيه نفاذ النظرة وجلاء البصيرة وعمق التحليل وسلامة العرض، وهذا في الواقع ما عود به الدكتور دراز قراء بحوثه ومؤلفاته، وعلى قمتها كتابه القيم عن الدين».

وهأنذا أحيي ذكرى الباحث العالم بأن أقدم للقراء كتابه الذي أشرت إليه (الدين)... وهو كتاب يدرس الدين من الوجهة التي يزكيها رئيس التحرير إذ هو

يتعرض له (من نواحيه الفلسفية والاجتماعية)..

وأنا - إذ أقدم هذا العرض وفاء بحق مؤلف الكتاب الذي افتقدناه . أستجيب - على حذر وتردد - للأستاذ رئيس التحرير ؛ إذ «يهيب بكتاب الشرق العربي كله أن يوافوا - المجلة - بعرض للكتب من مستوى هذا العرض الذي تقدمه الدكتورة سهير القلماوي لكتاب (قرية ظالمة) ... ووجه الحذر والتردد ما اشترط لعرض الكتب من مستوى وما تقدم من سوابق .. فلأكتب إذن على استحياء .

نشر الفقيد الكريم كتابه - كما هو مطبوع على غلافه ومسجل في مقدمته سنة ١٣٧١هـ الموافق سنة ١٩٥٢م .. وفي مقدمة الكتاب قرّر المؤلف في تواضع العلماء أنه يهيء به للقراء «فرصة للنظرة الفاحصة، والبحث الهادئ الرزين، حتى إذا لمسوا موطن حاجة لتهذيب أو تكميل كان من حقهم - بل من حق العلم عليهم - أن يهدوا إلينا ملاحظاتهم القيمة مشكورين مأجورين» .

وموضوع الكتاب كما حدده مؤلفه يتناول «.. بحوثًا عامة نستبين بها ماهية الدين، ونشأته، ووظيفته في الحياة - إلى أشباه ذلك من الأصول الكلية ..».

والكتاب في مائة وخمس وستين صفحة كبيرة . ونظرة إلى قائمة المراجع تكشف عن الجهد الذي بذله المؤلف. وعن مدى تمكنه في علمه ولغته؛ إذ الكتاب يشهد على رفيقه ومطالعه والباحث عنه . ومراجع الكتاب العربية معجم وفهارس وموسوعات. ثم مؤلفات من المحدثين أمثال الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق، والدكتور حب الله مؤلفًا ومترجمًا. والدكتور النشار، والأستاذ العقاد .. إلخ. أما المراجع باللغة الفرنسية - التي كان يتقنها المؤلف وبها نال إجازة الدكتوراه - فتبلغ زهاء الأربعين كتابًا وقد جعل المؤلف كتابه في مقدمة وأربعة بحوث .

مقدمـة الكتـاب : عـرض تـاريخي، والتـاريخ على الـدوام هو إطـار الدراسـات الاجتماعية.

والمؤلـف هنـا ينتقـل بـين العصـور: العصـر الفرعونـي والعصـر الإغريقـي والعصر الروماني، ثم العصر المسيحي. فالعصر الإسلامي ، وأخيرًا العصر الحديث.

وهو يشـهد للمصرين القدمـاء (بسعة صدورهم لمختلف العقائد علـى قدر سعة فتوحهم!) ، ويسـجل للإغريق الطـابع الأسـطوري والتمثيلي، ثـم الطـابع الفلسـفي، ويستغرب : (كيف أن الاختلاط بين الرومان واليونان قرونًا متوالية من قبل ومن بعد، لم يصنع منهـا أمـة واحدة في اللغة والديـن والفن والتشـريع وسـائر مقوّمـات الحياة الجماعيـة ـ كما صنع الفتـح الإسلامي في الأقطـار التى دخلها!) وهكـذا يفيء الأستاذ الدكتـور ـ في ثنايا كتابـه كلـه ـ إلى العقيـدة التى يحبهـا ، والدين الذي اختـاره لنفسـه يجعله مدار البحث وشاهدًا ودليلاً .

وهو يخرج من العصر المسيحي (بالطـابع الجدلي) في العقائد هجومًـا ودفاعًا وهدمًا وبنـاء، لا بين المسـيحية وغيرها فحسـب، بل بين المذاهـب المسيحية نفسـها)، ويخرج من العصـر الإسـلامي بتميز الحديـث عن الأديـان واسـتقلاله، واعتمـاده على المصادر الصحيحة .

وأخـيرًا وصل بنـا الدكتور دراز ـ تغمـده الله برحمتـه في مثواه ـ إلى نهضـة أوروبا الحديثـة باستكشـافاتها وإصلاحهـا الديـني وما وصـل إليـه علم الأديـان المقـارن وعلم الاجتماع الديني من تجديد وتحديد .

* * *

ما الدين؟...

سؤال شـائق شـائك، يبدأ بـه المؤلف بحوثـه الأربعـة، ويتعقـب الكلمـة في المعاجم

اللغوية ويخرج بأن «هذه المادة بكل معانيها أصيلة في اللغة العربية، وأن ما ظنه بعض المستشرقين من أنها دخيلة معرّبة عن العبرية أو الفارسية في كل استعمالاتها أو أكثرها بعيد كل البعد»، ثم ينتقل المؤلف إلى التعريفات الفلسفية والعلمية للإسلاميين والغربيين، وهو ينقل للغربيين أصول التعريفات بالفرنسية في الحاشية بجانب ترجمتها في أصل الكتاب، وتقرأ فيها لشيشرون، وكانت ، وماكس ميلر، وجوبو ، ودوركايم وغيرهم .. وينتهي من طوافه وتحليله إلى أن الدين، هو الاعتقاد بوجود ذات - أو ذات - غيبية علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشئون التي تعنى الإنسان. اعتقادًا من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد . هذا إذا نظرنا للدين كحال نفسية بمعنى التدين، أما إذا نظرنا إليه كحقيقة خارجة «فهو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها ».

والمؤلف فيما ينتهي إليه يأخذ على تعريف دوركايم ورينان وأتباعهما «أن هؤلاء الباحثين لم يعتبروا من القدسية سوى جانبها العملي السلبي، وهو تحريمها لبعض الأشياء والتحذير من مباشرتها والدنو منها وقد فاتهم أن المنع من لمس شيء ما ليس دائمًا دليل قدسيته، بل قد يكون على الضد دليل ما فيه من خبث ورجس، كما فاتهم أن الشعائر العملية تكون ترجمة كاملة لعقائدها، فإذا كان التقديس من أحد جانبيه تنزيهًا عن العيوب والنقائص، فهو من الجانب الآخر وصف بالجمال والكمال، وهو تعظيم للقيم الكبرى والمثل العليا. ثم إنهم بتجريدهم ماهية الدين من فكرتي (الروحية) و(الإلهية) قد جردوها من أخص صفاتها» .

والبحث الثاني يتناول (علاقة الدين بأنواع الثقافة والتهذيب) :

الدين والأخلاق، الدين والفلسفة، الدين وسائر العلوم: كلها دراسات حية تبين صلة الدين في حقائقه الكلية الشاملة بهذه العلوم الإنسانية والكونية: فالدين والخلق في

محاورتنا العصرية بينهمـا من المرونة في التداخل تارة والاستقلال تارة أخرى ما يجعلهما دائمًا في مد وجزر، إذا اكتفينا بقولنا (فلان ذو دين) . وكان المفروض أن الدين الذي نشير إليـه من الأديان الخلقيـة المعروفة، فإن كلمـة الدين هنا تتسـع لمعنى أختها المطوّية أيضًـا، وكذلك إذا اكتفينـا بقولنـا : (فلان ذو خلـق)، وكـان مفهومًـا أن الأخلاق المتواضع عليها جامعة للحقوق الإلهية والإنسانية، وحتى في هذه الحال لا تصبح الكلمة مرادفـة تمامًا لكلمـة الدين، لأن هـذه لا تزال تمتـاز بعنصر نظـري جوهري، ذلك هو عنصر المعرفة بالإله والإيمان .

ومـاذا عـن علاقـة الفلسـفة بـالدين؟ «أليس موضـوع الفلسـفة هـو نفسـه موضوع الدين؟»

عن هـذا التسـاؤل يجيـب المؤلف: « إن الاتحـاد في موضوع البحـث لا يعنى دائمًـا الاتفـاق على نتائجـه» وهو يسـتقصى الفروق بين الديـن والفلسـفة عند الفـارابي وابن سينا، وعند الغربيين ثم يناقش هذه الفروق ثم يقرر هو «فصل ما بين الفلسفة والدين أن غايـة الفلسفة المعرفة وغايـة الدين الإيمان، ومطلب الفلسـفة فكرة جافة ترتسم في صورة جامدة، ومطلب الدين روح وثابة وقوة محركـة «وبعد أن يكتب بيان العالم يختم بمشاعر المؤمن : ذلك أن الفلسـفة في كل صورهـا (عمل إنسـاني) يتحكم فيـه كل مـا في طبيعة الإنســان من قيـود وحـدود، وتدرج بطـيء في الوصول إلى المجهـول، وقابليــة للتغير والتحوّل، وتقلب بين الهدى والضلال، واقتراب أو ابتعاد عن درجة الكمال، أما الأديان السماوية (فإنها صنعـة إلهية) لهـا كل ما للإلهيات من ثبـات الحق الذى لا تبديل لكلماته وصراحة الصدق الذي لا يأتيه الباطل من بـين يديـه ولا من خلفــه، ثم هي فوق ذلك (منحة كريمـة) تصل إلى حامليها وسـفرائها عفوًا بلا كدح ولا نصب، وتغمرهم بنورها في فترات خاطفـة كلمح البصـر أو هي أقرب . فـإذا انفردت الفلسـفة في حكم لم يؤمن عليهـا العثـار، وإذا التقـى العقل والوحـي على أمر ، فقـد اتصلت مشــاعل الليل بضوء النهار: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (النور: ٣٥).

والدين والعلم:

إن علاقتهما مسألة عصرنا الحديث. والدكتور دراز لا يكتفى بأن يعقد (معاهدة عدم اعتداء) بيّن حملة العلوم وحملة الأديان، بل إنه يعقد معاهدة (تحالف وصداقة) ، وإنما الإنصاف أن يكون كل امرىء عارفًا بقدر نفسه، واقفًا عند حده، بنّاءًا غير هدام، والسبيل القاصد في ذلك أن يثبت كل فريق ما وصل إليه. ولا ينكر ما لم يصل إليه.. إنه إذا يثبت كل فريق ما وصل إليه ولا ينكر ما لم يصل إليه .. إنه إذا كان من واجب الأديان أن تهادن العلوم ولا تنابذها ، وكان من الخير لها أن تستثمر المعارف البشرية كافة وتتسلح بنتائجها ، فإن من الخير للعلوم كذلك أن تدع الأديان تكمل ما فيها من نقص، وتملأ ما تتركه في النفوس من فراغ، بما يملؤها من الحقائق الروحية، فإن لم تفعل فلا أقل من أن تلتزم شقة حياد، فلا تعادي الأديان ولا تنكرها جملة.. «وهو يرى أن الأديان حينما تتناول إلى جانب عنصرها الروحي شيئًا من موضوعات العلوم وحقائق المشاهدات ـ فإنّ هذا الجانب يكون عرضيًا في الأديان وسبيله في الغالب سبيل الوسائل لا المقاصد» . وينتهى إلى أنه إذا كان الدين حقا والعلم حقا وجب أن يتعاونا ويتناصرا ، أما إذا تكاذبا وتخاذلا فإن أحدهما لا محالة يكون «باطلاً وضلالاً». وإنه لمنطق الحق ممن يحترم العقل والعلم ويجلّ الدين.

وثالث الأبحاث في (نزعة التدين ومدى أصالتها في الفطرة):

والمؤلف هنا يعرض لكتابات القرن الثامن عشر التي تسخر من الدين ويراها «ليست مبتكرة، وإنما هي ترديد لصدى مجون قديم كان يتفكه به أهل السفسطة من اليونان، وكانوا يروجونه فيما روجوه من المغالطات والتشكيكات . وقد أعان على بعث هذه الآراء وترويجها في أوروبا الحديثة سببان: أحدهما ـ الانحلال الخلقي عند نفر من رجال الكنيسة ، والآخر ـ ظلم القوانين الوضعية وسوء توزيع الثروة العامة. فكان من السهل أن يظن بعض الناس أن الدين والقانون كانا كذلك في كل زمان ومكان،

على أنه لم ينقضي القرن الثامن عشر نفسه حتى ظهر خطأ هذه المزاعم ...» .

وهو يناقش نظرية أوجست كونت المعروفة بقانون الأطوار الثلاثة والتى يقرر فيها صاحبها أن العقلية الإنسانية قد مرت بأدوار ثلاثة: دور الفلسفة الدينية، فالتجريدية، ثم الواقعية و «نقطة الخطأ البارزة في هذا المذهب التطوري هي أن أنصاره جعلوا منه قانونًا يستوعب التاريخ كله في شوط واحد، قطعت الإنسانية، ثلثيه بالفعل، ونفضت أو كادت تنفض يدها منهما إلى غير رجعة ... ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية كلما ختمت شوطًا رجعت عودًا على بدء لكان الخطأ في النظرية أقل شناعة ... فالواقع أن الحالات الثلاث التى يصورها (كونت) لا تمثل أدوارًا تاريخية متعاقبة، بل تصور نزعات وتيارات معاصرة في كل الشعوب.. بل متعاصرة متجاورة في نفس كل فرد، وإن لها وظائف يكمل بعضها بعضًا في إقامة الحياة الإنسانية على وجهها، ولكل واحدة منها مجال يوائمها».

وهو يردّ على دعوى أن العقلية الواقعية القائمة على التجربة العلمية قد طرحت العقلية الدينية وراءها ظهريا: «... لقد أصبح العلم يؤمن اليوم بأنّ في الوجود قوى لا ينالها الحسّ.. وبالجملة أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هي المعيار الوحيد للوجود .. بل نقول بلسان علوم الطبيعة نفسها: إنه لم يوجد فيها قانون عام واحد يعتمد على منهج تجريبي شامل، ذلك أنه مهما تتكرر التجربة وتتنوع الأمثلة فإنها كلها أحداث معينة تقع في أزمنة معدودة وأمكنة محدودة، ويظل بين جملتها وبين منطوق القانون الكلي الذي لا يحده زمان ولا مكان برزخ عريض يفصل ما بين النهائي) و (اللانهائي) ، وإنه لكي يسد العلم الفجوة يلجأ دائمًا إلى وسيلتين من الرفو والترقيع ينسج خيوطهما من مقايسة ذهنية : أولاهما - جسور وهمية قصيرة يفترض فيها أن الحلقات المفقودة التى لم تسجلها المشاهدة تنتظم في سلك مع الحلقات التى سجلتها؛ وأخراهما - وثبة هائلة في عالم الغيب الزماني والمكاني يفترض فيها أن

المناطق التى لم ير منها شيئًا شبيهة بالمنطقة التي رأى بعضها، وأن ما سيكون ـ شبيه في الجملة بما كان » .

والمؤلف بعد ذلك يسبر غور ينابيع النزعة الدينية في النفوس فيرى : «أن غريزة التطلع هي مبدأ العلم والإيمان معًا » ويرى : « التدين ـ ولاسيما في أديان التوحيد والخلود ـ عنصر ضروري لتكميل قوة الوجدان ، وأخيرًا هو عنصر ضروري لتكميل قوة الإرادة » . أما وظيفة الأديان في المجتمع : « فالذي نريد أن نثبته أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها في كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه .. وجملة القول أن الأديان تحل من الجماعات محل القلب من الجسد، وأن الذي يؤرخ الديانات كأنما يؤرخ حياة الشعوب، وأطوار المدنيات».

كيف نشأت العقيدة الإلهية؟ وما العوامل الأولى لإيقاظها في النفوس؟:

على جواب هذا السؤال يدور البحث الرابع والأخير: يستهل المؤلف بحثه بالإشارة إلى: « أن ظاهرة التدين تستند في أصلها إلى مبدأين مرتكزين في بداهة العقول.. وهما قانونا (السببية والغائية) . لكن جمهور الباحثين لا ينشد الأسباب العامة التى تتحقق في كل عصر: «فالأولية التى يريدون تقريرها ليست أولية في الترتيب المنطقي. وليست أولية تاريخية نسبية. بل هي أولية زمانية مطلقة تقترن بظهور الإنسان على هذا الكوكب». والمؤلف يقدم للنظريات والمذاهب المختلفة في هذا الشأن باستعراض منهج البحث الذي سلم لهذه النظريات والمذاهب «وهو التنقيب عن أديان الأمم القديمة أو أديان الأمم المعاصرة غير المتحضرة» . والنتيجة المستخلصة يعتبرها الباحثون صورة لما كان عليه الإنسان الأول «ولما كانت المرحلة النهائية في نظر باحث معين لا تنطبق دائمًا على المرحلة الأخيرة التي يصل إليها باحث آخر انقسم الباحثون إلى شعبتين عظيمتين تسير في خطين متعاكسين» .

أنصار مذهب التطور التقدمي أو التصاعدى: الذي ساد أوربا في القرن التاسع عشر في أكثر فروع العلوم: ويذهب هذا المذهب إلى أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية.. حتى وصل إلى الكمال بالتوحيد. وممن حاول ذلك سبنسر تيلور فريزر ، دور كايم وغيرهم وإن اختلفوا فيما بينهم .

أنصار نظرية فطرية التوحيد وأصالته من علماء الأجناس، وعلماء الإنسان ، وعلماء النفس، ومن أشهر مشاهيرهم لانج ، شريدر ، وبروكلمان ، ولروا ، وكاترفاج وشميدت .

ويعقب المؤلف على ذلك بقوله:

«غير أنه مهما تفاوت نتائج المذهبين فإنهما متفقان على موضوع البحث ومنهاجه.. ونحن نرى أن وضع المسألة على هذا الوجه ينطوى على خطأ مزدوج: خطأ في الغاية ؛ لأن المنطقة البدائية المحضة قد اعتبرها العلم شقة حرامًا حظرها على نفسه، وخطأ في المنهج، إذ الاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة مبنيٌّ على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحال التي وصل إليها بحثنا وهو افتراض لم يقم عليه دليل. أما التطور بمعناه الأدنى وهو الترقي من النقص إلى الكمال فليس قانونًا علميًّا ولا سنة طبيعية مطردة ، ولا يمكن تطبيقه بصفة آلية على التاريخ البشري، وإنما هي إحدى القيم العليا التي تطمح إليها النفوس.

على أساس من هذا التحفظ والنقد يعرض الدكتور دراز بعدئذ للمذاهب والنظريات المختلفة في نشأة العقيدة الإلهية.

المذاهب الكونية أو الطبيعية : وهنا يورد المؤلف مذهب الطبيعة العادية الذي يرجع العامل الأول في إثارة الفكرة الدينية للنظر في مشاهد الطبيعة ولاسيما الأفلاك والعناصر مما يشعر الإنسان بأنه محوط بقوة ساحقة غلابة :

وأشهر مقرري النظرية ماكس ميلر لكن جيفرنس يرى أن الظواهر العادية لاتكفي،

بل لابد من الحوادث الطبيعية الشاذة العنيفة التي يضطرب بها النظام العادي.

المذاهب الروحيــة: والمقصود بـالروح هنـا مبـدأ حيـاة التفكـير والإرادة المنظمـة والعاطفـة والضمـير: «فذلك الكـائن العيني الـذي كـانت المذاهب الكونيـة تستنتجه استنتاجًا من مطالعة الآثار العظمى في عالم المادة أصبحت صفاته تشتق من جنس عمله نفسه، ومن نوع التجارب التى دلت عليه: فهو لا ريب روح عظيم: ذلك الذي يصنع الأسرار والعجائب الروحية، وهو لا شك عقل خلاق: ذلك الذي يمد العقول بمزيد من النور، أو يكف عن إمدادها » . قرر هذه النظرية الروحية تيلور وتابع نظريته معدلة هربرت سبنسر.

المذاهب النفسية: هذه ترى: «أن تجارب الإنسان النفسية المألوفة له في كل يوم كافية لتوجيه نظره بقوة إلى تلك الحقيقة العليا»: فأوجست ساباتييه يقول: « إن هذه العقيدة تتولد في الإنسان منذ نشأته على إثر شعوره بمناقضة جوهرية بين حساسيته وإرادته ...» من هذه الأزمة الداخلية ينشأ التدين.

أما هنرى برجسون فيعتمد على جانبين آخرين من الحياة العادية: أحدهما يرتبط بالقوانين الأدبية التى يفرضها المجتمع وما فيه من العرف والعوائد. والآخر يتعلق بالحوادث المستقبلة التى تفتح لها أبواب الإمكان ، وتتسع للاحتمالات والمصادفات، فلا يمكن التكهن بها بصفة قاطعة. لكن ديكارت قد «وجد في تأملاته أن عقيدة وجود الله تعتمد على تجربة نفسية أقرب ، حتى إن الذي يغمض عينيه ويسد أذنيه ويقطع علاقته بالكون والناس ثم ينطوى على نفسه ويتحسس أفكاره وتصوراته يجد مفتاح هذه العقيدة حاضرًا فيه بين طيات نفسه، كلما شعر بالفرق بين الشك واليقين أو بين الجهل والعلم، وبالجملة كلما قرأ في لوحة نقصه عنوان (الكمال) الذي ليس له».

المذهب الأخلاقي : «ذهب "عمانويل كانت" إلى أن وجود الذات الإلهية ليس موضوع إيمان عقلي : بمعنى أنه مقدمة مسلمة لا مناص للعقل من أن يعتمدها لتصحيح الفكرة الأخلاقية الراسخة في النفوس» .

المذهب الاجتماعي: «يخالف العلامة دور كايم جميع المذاهب المتقدمة دعواها في أن التدين حال نفسية من فطرة الفرد» ويرى هو أن التدين وليد أسباب اجتماعية، بل إن عناصر التفكير وأسس المعرفة العقلية نفسها ما هي إلا صور ولدتها حياة الجماعة.. وهكذا يكون الاجتماع هو مبدأ التدين وغايته ، وتكون الجماعة إنما تعبد نفسها من حيث لا تشعر!

المذهب التعليمي أو مذهب الوحي: وهذا لا يرتضى العوامل الإنسانية طريقًا لنشأة العقيدة الإلهية، إذ «أن الأديان لم يسر إليها الإنسان بل سارت هي إليه، وأنه لم يصعد إليها بل نزلت عليه ، وأن الناس لم يعرفوا ربهم بنور العقل بل بنور الوحي» .

والأستاذ المؤلف يطوف بين هذه المذاهب عارضًا، ناقدًا.. حتى ينتهي إلى (نظرة جامعة) تؤلف بين مختلف المذاهب، أو معظمها : « فالواقع الذي لا مرية فيه هو أن مطلب الألوهية مطلب توافرت عليه الفلسفات والنبوات، وأن دلائله البرهانية ماثلة في الأنفس وفي الآفاق، وأن بواعثه النفسية مركوزة في العقول وفي الوجدانات، غير أن الناس ليسوا على درجة سواء في سرعة الإقناع بكل هذه الدلائل، ولا في تيقظ انتباههم بكل هذه الوسائل.. فكان من الطبيعي أن يبدأ كل منهم عقيدته من الطريق الذي هو أكثر إليه تنبهًا وأشد له إلفًا وأقوى به تأثرًا ، ثم تتلاحق عليه الدلائل الأخرى بعد ذلك .. ولكن الباحثين جعلوا الحقائق النسبية حقائق مطلقة، فكان ذلك مثار النزاع والإختلاف» .

ولا يفارقنا المؤلف قبل أن يعرض علينا نماذج قرآنية من هذه المناهج والمذاهب، وهكذا يصحبنا في خاتمة المطاف عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر، بعد أن طالعنا من قبل وجه أستاذ تاريخ الأديان بجامعة القاهرة .

إنه ينسق آيات القرآن وفقًا للمنهج الطبيعي، مع العناية بظاهرة الحياة وعنصر الاختلاف بين المتشابهات فالمنهج الروحي، ثم المذاهب النفسية، فالمذهب الأخلاقي «بل المذهب الاجتماعي نفسه إذا عدنا إلى أساسه الصحيح وهو تقرير ما للبيئة

والوراثة من سلطان بليغ على نفوس الأفراد... أما كيف تتحرر العقول من هذا الأمر الاجتماعي القاهر فإن القرآن يعلن أنه ليس لذلك إلا وسيلة واحدة وهي التفكير الفردي الهادىء» .

وأخيرًا نرى المذهب التعليمي «ساريًا في القرآن كله» «وإنه لن يسع الباحث المنصف متى تحقق هذه الإحاطة العلمية الشاملة إلا أن يرى فيها آية جديدة على أن القرآن المجيد ليس صورة لنفسية فرد، ولا مرآة لعقلية شعب ولا سجلا لتاريخ عصر، وإنما هو كتاب الإنسانية المفتوح ومنهلها المورود...» .

* * *

ذلكم هو الرجل الذي قضى نحبه في (لاهور) ، وهو متأهب لحلقة أخرى من بحوثه ودراساته.. وهذا هو كتابه في «هذه المسائل الأمهات»!

إن الدين هو الدين، حتى في القرن العشرين حتى في عصر الذرة والصاروخ!

طالما حدثت الكتب المقدسة أهلها عن «رب السموات السبع ورب العرش العظيم»!.. والآن يحدث العلم أهله - بأجهزته ومعداته - وإحصاءاته عن الأفلاك والأجرام والمجرّة والفضاء والأثير، ويوقن الإنسان في رحلة الصواريخ والأقمار الصناعية اليوم أنه (شيء صغير في كون هائل رهيب، وغدًا في رحلته عبر الأجواء وفوق الهواء، إلى القمر أو إلى المريخ سوف يزداد يقينًا (بربّ ما كشفت عنه العلوم) وما لم تكشف عنه بعد وهكذا تكون المعادلات والإذاعات والرادار ، وطاقة الذرّة وتجارب الأقمار - تسبيحات جديدة بلسان العصر: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٤)، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء:٤٤) .

ولكم كنت أوثر أن أقرأ الجديد للفقيد الكريم على أن أنشر من آثاره وتراثه... لكنه اليوم على ما يرى عند ربه من الشاهدين، بعد أن كان عنده من قبل - من الكاتبين.

سِفر قيم لعَالم جَليل(*)

عرض وتلخيص للأستاذ/ **حمدي متولي مصطفى صالح**

صدرت عن القاهرة (مطبعة السعادة) منذ شهور الطبعة الثانية من كتاب المغفور له الدكتور محمد عبد الله دراز (الدين .. بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) وقد نشر الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٣٧١هـ الموافقة ١٩٥٢م.

ويقع الكتاب في مائتي صفحة من القطع المتوسط تتضمن مقدمة وأربعة بحوث.

في المقدمة نقرأ عرضًا سريعًا لتاريخ الأديان فيقول د. دراز أنه رغم حداثة كلمة (تاريخ الأديان) فإن العقائد البشرية قديمة قدم البشرية ذاتها :

ففي العصر الفرعوني:

كان للمصريين دياناتهم التى كانت تتصف في الأعم الأغلب بالتسامح، ومحاولة التوفيق بين كافة المقدسات والمعبودات بافتراض أنها تنتمى إلى أسرة واحدة.

وفي العصر الإغريقي:

تتلمذ الفلاسفة على الحضارة المصرية، وقدموا دراسات وصفية للأديان المعروفة وقتئذ، اتسمت في الغالب بالطابعين الأسطورى والتمثيلي، كما ظهرت مذاهب فلسفية تراوحت بين الشك واليقين، منها السوفسطائية والمالا أدرية والأبيقورية والرواقية إلى جانب الفلسفة التحقيقية الإيجابية التي تعترف بوجود حقيقة ثابتة للأشياء وبإمكان العلم بها ، ومن أعلامها سقراط وأفلاطون وأرسطو.

(*) مجلة الوعي الإسلامي السنة السادسة - العدد ٦١ - محرم ١٣٩٠ - مارس ١٩٧٠م .

وفي العصر الروماني:

انتقلت مذاهب الاغريق إلى الأمة الرومانية بفضل الفتوح، وأن كان انتقالها شكليًا محرفًا يتسم بالتردد والتلفيق واللامبالاة أكثر مما يتسم بالتسامح الديني .

وفي العصر المسيحي:

أعلنت المسيحية دينًا رسميًا للدولة بفضل الأمبراطور قسطنطين (٣٢٥م) ، وعرفت مدافعين عنها ضد النحل الجديدة المنافسة لها على رأسهم القديس (أوغسطين).

وجاء الإسلام فأيقظ غرب أوروبا من عزلته إذ لم ينتبه الغربيون لكنوز الحضارتين اليونانية والرومانية إلا وهي في أيدي العرب المسلمين ـ ففلسفة أرسطو مثلاً لم يسمع بها الغرب إلا على لسان ابن رشد وأتباعه ـ وتميز أثر المسلمين في علم الأديان بطابعين مبتكرين:

١ـ صار علم الأديان علمًا مستقلاً عن العلوم والمعارف الأخرى.

٢ـ قام على دراسات وصفية واقعية لكافة الأديان والعقائد، معتمدة على مصادرها الأولى الموثوق بها، وقدم العرب المسلمون كثيرًا من المؤلفات في علم الأديان، منها الملل والنحل للشهرستاني، والفصل في الملل والنحل لابن حزم وغيرهما.

وببداية عصر النهضة اتجهت أوروبا إلى التنقيب عن الآثار الأسطورية، وتفسير ما ترمز إليه من عقائد، ثم ظهرت حركة الإصلاح المسيحي (البروتستنتية) ، واهتمت بفهم نصوص الكتاب المقدس والتمسك بحرفيته .. وفي أواخر القرن الثامن عشر صار (علم الأديان) ذا شعبتين .

١ـ شعبة قديمة مجددة:

تقوم على وصف وتحليل كل ملة مع تجديدها، بتوسيع مادة البحث ليشمل العالم أجمع بدلا من حوض البحرين المتوسط والأحمر، وكذلك الاستفادة بما تقدمه العلوم والمعارف الأخرى من وسائل للبحث .

٢ـ شعبة جديدة مبتكرة:

وهي ضرب من الدراسات النظرية والاستنباطات الكلية التى تهدف إلى إشباع نهم العقل في التطلع إلى أصول الأشياء ومبادئها العامة، حين تتشعب عليه جزئياتها وتفصيلاتها .

* * *

وفي البحث الأول: يقدم المؤلف تحديدًا لمعنى الدين اللغوي، فيؤكد أصالة مادة (الدين) في اللغة العربية، بخلاف ما ظنه بعض المستشرقين من أنها دخيلة معربة عن العبرية أو الفارسية، ويضيف أن كلمة الدين عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين، يعظم أحدهما الآخر، ويخضع له، فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعا وانقيادا ـ وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمرًا، وسلطانها حكمًا وإلزامًا، وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة أو المظهر الذي يعبر عنها .

أما المعنى العرفي للدين فيعبر عنه علماء المسلمين بأنه (وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات) .

أما الغربيون فيعبرون عنه تعبيرات كثيرة تتراوح بين تضييق دائرة الدين كتعريف (ماكس ميلر) الدين بأنه محاولة تصور ما لا يمكن تصوره، وبين أبعاد فكرة الألوهية من التعريف كقول (أميل دور كايم) الدين مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة أي المعزولة المحرمة ـ اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة ـ ويستنكر د. دراز ما ذهب إليه (دوركايم) ، ويؤكد مع (أرنست شلايرماخر) بأن حقيقة الدين هو ذلك الشعور بالحاجة والتبعية المطلقة لقوة قاهرة والخضوع لها خضوعًا كليًّا.

غير أن ثمة فروقًا بين الخضوع الديني واللاديني يتمثل في صفات الشيء الذي يقدسه

المتدين ويخضع له وطبيعة هذا الخضوع ذاته:

(فالقوة التي يقدسها المتدين ليست فكرة مجردة وصورة عقلية خالصة، بل هي حقيقة خارجية .. وليست مادة يقع عليها الحس بل هي سر غيبي لا تدركه الأبصار.. وهي تتصرف بالإرادة لا بالضرورة كالمغناطيس والكهرباء - ولها عناية مستمرة بشئون العالم تدبره، ولها تجاوب نفسي مع نفوسه وهي قوة علوية سبحانية قاهرة غير مقهورة) .

وهذا ما يفرق بينها وبين كل من القوى المادية التى يخضع لها العالم - والقوى السرية التي يدعوها الساحر أو الكاهن ويحاول تسخيرها .

وفيما يتعلق بطبيعة الخضوع الديني، فإن خضوع المتدين شعوري اختياري مملوء بالأمل في ذات المعبود وقدراته - وليس خضوعا آليا لا شعوريا قسريا يدفع لليأس والاستسلام، أو الركون إلى الأمل الغافل، الذي تبعثه العادة الجارية، شأن الخضوع للقوانين والظواهر الطبيعية .

وخلاصة القول في معنى الدين أنه من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين هو الاعتقاد بوجود ذات أو ذوات غيبية علوية لها شعور واختيار - ولها تصرف وتدبير للشئون التي تعنى الإنسان اعتقادًا من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة وفي خضوع وتمجيد.

ومن حيث هو حقيقة خارجية موضوعية هو (جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العلمية التي ترسم طريق عبادتها).

وفي المبحث الثاني: يعرض المؤلف لعلاقة الدين بأنواع الثقافة والتهذيب من أخلاق وفلسفة وغيرهما:

١- الدين والأخلاق من الناحية التجريدية .. يمكن القول أنه لما كان الدين هو

معرفة (الحق) الأعلى وتوقيره، ولما كان (الخلق) هو قوة النزوع إلى فعل الخير، وضبط النفس عن الهوى فإن الدين والخلق حقيقتان مستقلتان، يمكن تصور أحداهما بدون الأخرى، فتختص أولاهما بالفضيلة النظرية ، والأخرى بالفضيلة العملية، ولكنهما يلتقيان في نهايتهما، لأن الدين لا يقرر الألوهية فقط، بل هو مصدر حكم وتشريع أيضًا، لأن القانون الاخلاقي الكامل هو الذي يرسم طريق المعاملة الإلهية والإنسانية معًا.

ومن الواجهة الواقعية:

فإننا نرى أن الشعور الأخلاقي أقدم وأرسخ في نفس الطفل من الشعور الديني، ولا يشعر الطفل بحاجة إلى تعليل ظواهر الكون، وتقديس سر الوجود إلا في دور متقدم، وفي المجتمعات المختلفة تمتزج الأخلاق بالدين، أو ينفصلان على درجات متفاوتة .

أما من الناحية اللغوية:

(فإنه يلوح لنا أن هاتين الكلمتين - الدين والخلق لا تزالان تخضعان في استعمالنا للقاعدة المعروفة في الكلمات العربية التى من أسرة مثل (الرأفة والرحمة) ، (والبر والتقوى)، (الإيمان والإسلام) وغير ذلك - وهي أن هذه الكلمات التوائم كلما اجتمعت في العبارة افترقت في المعنى ، وكلما افترقت في العبارة اجتمعت أو مالت إلى الاجتماع في المعنى بقدر الإمكان) فإذا قلنا (فلان ذو دين وخلق) قصدنا بالدين الجانب الإلهي، وبالخلق الجانب الإنساني - أما إذا قلنا (فلان ذو دين) أو (فلان ذو خلق) كان المعنى غالبًا أنه يقوم بالفروض الإلهية - كما يقوم بالواجبات الإنسانية بالتبعية .

الدين والفلسفة:

يتفق الديـن والفلسـفة في موضوع البحث فكلاهمـا مطلبـه معرفـة أصل الوجود وغايتـه، ومعرفة سـبيل السـعادة الإنسانية في العـاجل والآجل ـ ولكنهما رغم ذلك قد يتفقان أو يختلفان في النتائج بأقدار مختلفة فهناك الفلسفات المادية التى لا تعترف بشيء في الوجود وراء الحس والمشاهدة، مخالفة بذلك جميع الأديان وسائر الفلسفات ـ وهناك فلسـفات روحيـة رغم اقرارها للألوهيـة فإن بعضهـا قد تنكر قيام الإلـه ببدء الخلق من العدم، قائلـة بأنـه قـام بتنسـيقها كصـانع مـاهر، بعـد أن وجدهـا أمامـه، كمـا يقول الأفلاطونيون، وبعضها الآخـر قد ينكر عنصر الربوبية أي عنايـة الإله المسـتمرة بشئون خلقـه مشـبهًا أياه بالبنّاء الـذي تنقطع صلته بـالبيت بعد إتمام بنائـه، كما يقول أبيقور، وعليه فليس ثم ما يبرر أن يرجو الناس خيرها أو يخشوا غضبها .

وحتى الفلسـفات التي تلتقي مـع الديانات في الموضوع وفي الأصـول العامة لا تزال تقوم بينها فروق كثيرة.

١ـ فالفارابي:

يقـول نقلا عن قدماء اليونـان أن الفلسـفة تعتمد على الـبراهين اليقينيـة، أما الأديان فأسلوبها إقناعي وتمثيلي ...

وهذه التفرقة لا تنطبق على كل الأديان، ولا على جميع الفلسفات، فالإسلام يعتمد على الوسائل ا لثلاث ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥) كمـا أن التعارض بين الفلسفات دليل واضح على أنه ليس كل واحد منها يمثل الحقيقة المطلقة، أو يقول فيها الكلمة الأخيرة.

٢- وابن سينا:

يشير إلى أن الأديـان تولى الناحيـة العملية عناية أشـد من النظريـة، وهذا وإن كان منطقيًا بوضوح في الإسلام، فليس ذلك شأن باقي الديانات والفلسفات.

أما علماء الغرب فيرون الفرق بين الدين والفلسفة من الوجوه الآتية:

١- مشكلات الفلسفة يحلها الأفذاذ المستنيرون، ومسائل الدين تحلها الجماهير - ولذلك كانت نشأة الأديان وتاريخ واضعيها غامضة.

٢- الدين يورث عن السلف، أما الفلسفة فمصدرها عقل الفيلسوف.

٣- الدين يميل للثبات وعدم التطور، والفلسفة متجددة.

٤- الدين يحتل مكان الصدارة بحكم شيوعه وأسبقيته الزمنية.

٥- الدين بعكس الفلسفة في حاجة إلى التجسيد والمظاهر الاجتماعية والطقوس.

٦- الدين يعيش بسلطان ونفوذ الدولة، والفلسفة لا تعيش إلا في جو الحرية.

ويفند د. دراز هذه الدعاوى بردوده الآتية:

١- هذه الفروق لا تصور الديانة والفلسفة في جميع أدوارهما، وإنما في حالتهما الحاضرة فقط، وفي أوروبا المسيحية بالتخصيص مما يجعل المقارنة غير صائبة.

٢- الديانات أيضا تعرف الأفذاذ فضلاً عن أن وضوح تاريخ الإسلام يؤكد أن القول بغموض تاريخ مؤسسي الديانات ليس قاعدة عامة .

٣- الفلسفة والعلوم أيضا - وليس فقط الدين - يميلان إلى الثبات الذي وصل إلى الركود في أحيان كثيرة.

٤- الأديان العامة فقط ينطبق عليها حديث المظاهر الاجتماعية في الشعائر، بعكس الأديان الفردية التي لا يتخذ أصحابها شعارًا خاصًا، مثلما كان الحنفاء يفعلون قبل

الإسـلام ، فضلا عن أن بعـض الفلسـفات مثل مذهـب (أوجسـت كونت) لـه نظمـه وشعائره المماثلة .

٥ـ الأديـان علـى الأقل في أول عهدهـا ، تقـوم بـالرفق والتسـامح، وتؤكـد حريـة الضمير، ومن المشاهد أن كل الأمم في كل العصور كانت تضم ديانات وعقائد شتى، والذي يميز الأديان، ولا تطمح الفلسفة إليه هو ما لهـا على نفوس أتباعها من سلطان، يقوم على الإيمان الذي يمثل غاية الدين، وليس فقط على المعرفة التى هي غاية الفلسفة.

«الفلسـفة تعمل إذا في جانب من جوانب النفس ـ والدين يستحوذ عليها في جملتها ـ الفلسفة ملاحظة وتحليل وتركيب، فهي صناعة تقطع أوصال الحقيقة وتزهق روحها، ثم تؤلـف بينها لتعرضهـا مـن جديد في نسـق صنـاعي علـى مرآة الفطنـة، فتنطبع على سطح النفس قشرة يابسة ـ .

أما الدين فهو حداء ونشيد يحمل الحقيقـة جملة، فيعـبر بها هذه القشـرة السطحية، لينفذ منها إلى أعماق القلوب وأغوارها ، فتعطيها النفس كليتها وتملكها زمامها» .

فـالفرق الدقيق بين الدين والفلسـفة وهو أن غايـة الفلسـفة نظرية حتـى في قسمها العلمي، وغاية الديـن عملية حتى في جانبه العلمي ـ وأول مظاهر ذلك الفرق أن الدين ليس إيمانـا ومعرفـة فحسـب بل هو فوق ذلك وهـو ما تفتقده الفلسـفة تمامـا ـ التفات روحي متبادل بين المتديـن وما يؤمن بـه، وثـاني هذه المظاهر هو ميـل الفكرة الدينية ـ بعكس الفلسفة أيضا ـ إلى التدفق في الميدان الاجتماعي .

فإذا انتقلنا إلى المقارنة بين الفلسـفة وبين الأديان السماوية رأينا أن (الفلسفة في كل صورها عمل إنسـاني يتحكم فيه كـل ما في طبيعة الإنسـان من قيود وحدود، وتدرج بطيء في الوصول إلى المجهول، وقابليـة للتغير والتحول، وتقلـب بين الهدى والضلال، واقتراب أو ابتعاد عن درجة الكمال) .

«أما الأديان السماوية فإنها (صفة إلهية) لها كل ما للإلهيات من ثبات الحق الذي لا

تبديل لكلماته، وصرامة الصدق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم هي فوق ذلك (منحة كريمة) تصل إلى حامليها وسفرائها عفوا بلا كدح ولا نصب - وتغمرهم بنورها في فترات خاطفة كلمح البصر أو هو أقرب).

فإذا انفردت الفلسفة في حكم لم يؤمن عليها العثار، وإذا التقى العقل والوحي على أمر فقد اتصلت مشاعر الليل بضوء النهار ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (النور: ٣٥) .

الدين وسائر العلوم:

كل العلوم تبحث عن الكائنات، وليس شيء منها يبحث عن مبدئها الأول وغايتها القصوى، كما يبحث الدين - غير أنها كلها تستطيع أن تزجي لهذا المطلب خدمة ما من قريب أو بعيد، ولن يستغنى الدين عن العلوم إلا لو استغنت المقاصد عن وسائلها ومقدماتها، وليس ثم تعارض أو تناقض حقيقي بين الدين والعلوم - فليس يعقل أن يقوم ذلك بين أمرين لا اشتراك بينهما في موضوع واحد.

ويخصص المؤلف البحث الثالث للحديث عن نزعة التدين ومدى أصالتها في الفطرة فيقول:

إن المفكرين الذين مهدوا للثورة الفرنسية ادعوا أن الديانات والقوانين ما هي إلا منظمات مستحدثة أخذ عنها الكهنة الماكرون فصدقهم الحمقى والسخفاء غير أن الرحلات التي اكتشفت العقائد والأساطير المختلفة أثبتت أن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تخل منها أمة قديمة أو حديثة، همجية أو متقدمة، وأثبتت كما يقول برجسون أنه وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة.

وفي مجال بحث «مصير الديانات أمام التقدم العلمي» يرد المؤلف على نظرية (أوجست كونت) القائلة بأن العقلية الإنسانية مرت بأدوار ثلاثة هي الفلسفة الدينية

ثم التجريدية ثـم الواقعية وأن الأديـان وأن كانت عريقـة في القدم إلا أنها قـد شاخت ومصيرهـــا إلى الفنــاء - فيقـول د. دراز: أن هـذه المراحـل الثـلاث توجـد متعــاصرة ومتجاورة ومتكاملة في كل شعب بل في نفسية كل فرد - وأنها لا تمثل مراحل منتهية، وإنما قد تمثل سلسلة دوريـة تعود إلى الظهور متتابعة كلما انتهت دورتها، وأن الترتيب الصحيح للحاجات النفسـية على العكس تمامًا مما تخيله الفيلسـوف، وهو حاجة الحس أولاً ثم حاجة العقل القانع فحاجة العقل المتسامي.

ويضيـف د. دراز أن اتساع نطاق المعلومات كـان بنفسه اتساعًا لنطاق المجهولات، فلا يسع العقل إلا التسليم بوجود حقيقـة كبرى وإله أزلي باق ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ (الإسراء: ٨٥) وأي شـهادة على أن نهاية العلم البشـري ليست هي إطفاء غريزة التدين بل زيـادة إشـعالها من أن (كونـت) نفسـه الذي كان يتنبأ بفناء الديانات لتقدم العلوم قـد عـاد في آخر أمره متصوفًـا عجيبًـا، وواضع ديانـة جديدة علـى النظام الكاثوليكي.

(إن هـذا المشــــوق الغريـزي إلى الأزلي الأبـدي - وهذا الطلــب الحثيـث للكلي اللانهائي لـه دلالتان عميقتان، إحداهما دلالـة على مطلوبه لا كدلالـة الحركة القسرية على مصدر جاذبيتهـا كما يقول أرسـطو بـل كدلالـة الأثر على صانعـه أو الخاتم على طابعـه (حسب تعبير ديكارت)، وثانيتهما دلالة على أن في الإنسان عنصرًا نبيلاً سماويًّا خلـق للبقاء والخلـود، وإن تناسـاه الإنســان وتلهى عنـه حينًـا قانعًـا بالدون مـن الحياة الجثمانية المنحطة) .

فالإنسان كما صح أن يعرف بأنه حيوان مفكر، أو مدني بطبعه، يسوغ لنا كذلك أن نعرفه بأنه حيوان متدين بفطرته .

ونستطيع أن نلخص وظيفة الأديان في المجتمع كما فصلها المؤلف فيما يلي:

١- الفكرة الدينية هي الغذاء الوافي لقوى النفس المختلفة والمداد الخالد لحيويتها.

٢ـ ليس على وجـه الأرض قوة تكـافىء قـوة التدين أو تدانيهـا في كفالـة احـترام القانون، وضمان تماسك المجتمع واستقراره.

٣ـ الأديـان تربط بين قلوب معتنقيها بربـاط من المحبة والـتراحم لا يعدله رباط آخر من الجنس أو اللغة أو الجوار أو المصالح المشتركة .

أمـا البحث الرابع فيفرده المؤلف لمناقشـة (نشأة العقيدة الإلهيـة) فيقول: إن ظاهرة التدين تستند في أصلها إلى قانونين بديهيين أولهما أن كـل شيء ممكن لا يحدث بنفسه من غير شيء، وهذا هو قـانون السببية ـ وثانيهما أن كل نظـام مركب متناسق مستقر لايمكن أن يحدث عـن غـير قصـد، وأن كل قصـد يهدف إلى غايـة تؤدي إلى غيرهـا، وهكذا حتى تنتهي إلى كلية ثابتة هي غاية الغايات ـ وهذا هو قانون الغائية .

ويقول المؤلـف : إنه من الناحية التاريخية للمسـألة الدينية، فإن ثمة ثلاث نظريات أو مذاهب تعالج نشأة العقيدة الإلهية.

١ـ مذهب التطور التقدمي أو التصاعدي..

ومضمونـه أن الدين بدأ في صـورة الخرافـة والوثنيـة، وترقى حتى وصـل إلى كمال التوحيد الذي يعتبره هذا المذهب عقيدة جد حديثة ...

٢ـ نظرية فطرة التوحيد وأصالته ..

وملخصها أن عقيدة الخـالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشـر، وما الوثنية إلا عرض طاريء أو مـرض متطفل ـ ويؤيد هذه النظرية مشاهير علماء الأجناس والإنسان والنفس ، منهم (لانج) ، (بروكلمان) وغيرهما .

ويقف التحليل النفسي وشـواهد التاريخ والتطور الصحيح في وصف النظرية الثانية معارضـا للنظريـة التطوريـة وأن كـان ذلـك لا يرفع نظريـة الفطرة إلى صف الحقـائق التاريخية المفروغ منها .

٣ـ نظرية تقرر أن الرشـد والضلال في الفكرة الدينيـة ليسـتا ظاهرتين متعاقبتين فقط، بل هما متعاصرتان في كل أمة وجيل ..

وهذه أقرب النظريات تصويرًا للواقع المعروف.

أمـا الكتـب السـماوية فتؤكـد أوليـة العقيدة الإلهيـة الصحيحة لا في الغريـزة فحسب ﴿**فِطرَتَ اللهُ التى فَطَر النّـاسَ عَلَيها**﴾ (الـروم: ٣٠) بل في التطور الزمـاني كذلك ﴿**وَمَا كَـانَ النَّاسُ إلاّ أُمَّـةً وَاحِـدَةً فَاخْتَلَفُوا**﴾ (يونس ١٩) «**كـل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[1] .

وينتقـل المؤلف إلى عرض النظريات التى حـاولت تحديد ديانة الإنسـان الأول قياسا على ديانات القرون الماضيـة أو الأمم الهمجية، فيقدم لنا نظريات تنتظمها عدة مذاهب هي المذاهب الكونية أو الطبيعية والروحية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية والتعليمية، وذلك على النحو التالي:

١ـ المذاهب الكونية أو الطبيعية، تضم مذهبين:

أ) مذهـب الطبيعة العادية ـ وأشهر أعلامه (ماكس ميلر) وفحوى المذهب أن العامل الأول في إثـارة الفكرة الدينيـة كـان هـو النظر في مشـاهد الطبيعـة ولاسـيما الأفلاك والعناصر ..

وتتولـد العقيدة الإلهيـة والحركة العباديـة من تـزواج مبدأين نفسـيين أحدهما غريزة عقليـة، وهي غريزة التطلع لفهم الطبيعـة، والثاني حاسـة وجدانية وهـي حاسة التذوق الفني لما في الطبيعة من جمال وجلال، ولا يزال هذا المذهب أصح المذاهب وأقواها رغم أوجـه النقد التى قدمها إليـه (دوركايم) والتى تقوم في معظمهـا على فكرة أن استمرار الطبيعة على نسق واحد يجعلها أمرا مألوفا، لا يلفت النظر، ولا يحتاج إلى تعليل.

---

(١) البخاري عن أبي هريرة ك/ الجنائز ب / إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (١٢٧١)
ومسلم عن أبي هريرة ك/ القدر ب/ معنى كل مولود يولد على الفطرة (٤٨٠٥) .

ب) مذهب الطبيعة الشاذة العنيفة، ويعزو الشعور الديني إلى تأثر المشاعر الغافلة بحوادث الطبيعة الشاذة والعنيفة، مثل العواصف والزلازل والفيضانات وما إليها.

٢ـ المذاهب الروحية أو الحيوية:

وتقول أن الأصل كان عبادة أرواح الموتى، ومن أعلام هذه النظرية تيلور، هربرت سبنسر فالتصور الطبيعي لظاهرة الموت أنها انفصال لعنصري المادة والروح يرجع به كل منهما إلى طبيعته وبيئته فتعود المادة إلى عالمها، وتأخذ الروح صورة أخرى من صور الوجود الغيبي، وهكذا ينشأ الاعتقاد بوجود أرواح مستقلة عن الأبدان سواء أكانت روحا أعلى من ذلك وأسمى، وهذه الأرواح لها حرية العمل في الميدان الذي تختاره إن نفعًا وإن ضرًا من حيث لا يشعر بها أحد.

وقد تولدت العقيدة الإلهية عن التجربة الروحية وفق تفسير تيلور على مرحلتين .

١ـ الاعتقاد في بقاء أرواح الموتى تفسيرًا لرؤيتهم في الحلم كما يرى الأحياء.

٢ـ الاعتقاد بوجود أرواح للأفلاك والعناصر.

٣ـ المذاهب النفسية:

وترجع الوصول إلى العقيدة الإلهية نتيجة لتجارب الإنسان النفسية، بخلاف المذاهب السابقة ويتفرع عنها .

١ـ نظرية ساباتييه: وتتلخص في أن الشعور الديني ينبثق من شعور الإنسان منذ نشأته بالنزاع الحاد بين شعوره الذاتي بالأشياء، وبين قصوره الذي تكشفه التجربة الخارجية، هذا النزاع والتمزق الذي ينتهي به إلى الشعور بخضوع القوتين معا وتبعيتهما المطلقة لسلطان قوة عاقلة عليها .

٢ـ نظرية برجسون: وتدعى أن المحظورات الاجتماعية قد صورت في النفوس بصورة مخيفة تجعل من المخاطرة انتهاكها ـ وبالغت الفطرة الإنسانية في تصويرها حتى

خيلت للنفس أن هذه المحظورات يقوم على حمايتها حارس معنوي آمر ناه محاسب، وذلك هو معنى الإله، وهو عند بيرجسون وإن كان معنى وهميًّا إلا أنه وهم تفرضه الحياة ومتطلبات الحياة اليومية .

٣ـ نظرية ديكارت: وترجع العقيدة الإلهية لدى الإنسان إلى ما في نفسه من تطلع إلى (الكمال) الذي ينقصه، وما هذا التطلع إلا صورة منعكسة على مرآة النفس من حقيقة إيجابية وذات خارجية هي مادة الكمال المطلق ومصدره وهي المثل الأعلى.

٤ـ المذهب الأخلاقي:

ذهب (عمانويل كانت) إلى أن وجود (الذات الإلهية) لا يثبت بالبرهان أو بالتجربة لأنه بديهية مسلمة تعتمد على مقدمات ثلاث:

١ـ القانون الأخلاقي الذي يخضع له الإنسان منذ طفولته، ويجعله قادرًا على استحسان الأفعال الحسنة الواجبة الأداء ، واستهجان الأفعال القبيحة الواجبة الاجتناب ـ هذا القانون الذي يعبر عن ضرورة تحقيق الخير المطلق، وأداء الواجب للواجب وبالواجب أي تحت سلطان فكرة الواجب لا حب الواجب .

٢ـ إزاء استحالة تحقيق الخير المطلق في حياتنا القصيرة، فلابد من قبول فكرة خلود الروح ليصح في العقل وجود ذلك القانون الأخلاقي.

٣ـ فإذا حققنا (الخير المطلق) بتحصيل الفضيلة الكاملة فقد بقي أن نحقق (الخير الأعلى) وذلك هو جماع الفضيلة والسعادة اللتين قلما يلتقيان.. فلابد إذا من التسليم بوجود الله تعالى تصحيحًا لمعقولية القانون الأخلاقي.

ويدحض د. دراز مذهب (كانت) الاخلاقي بقوله:

١ـ القانون الأخلاقي لا يلزم كل العقول فضلا عن قلبه للأوضاع حين يفضل من يفعل الواجب وهو ممتثل كاره على من يفعله عن أريحية ورضى.

٢- الأساس الذي بنى عليه فكرة خلود الروح واه ضعيف لأن الخير المطلق إن لم يكن ممكنًا في هذه الحياة لم يكن واجبًا - وإن كان ممكنًا لم يكن هناك حاجة إلى فرض الخلود.

٣- (كانت) يذكر السعادة بمعناها الدارج، وهو تحقيق المطالب المادية في حين أن الفضلاء يسعدون بإرضاء ضميرهم، ولو في ظل الحرمان والتضحية .

٥- المذهب الاجتماعي:

يخالف (دوركايم) الجميع زاعما أن التدين ليس حالة نفسية فطرية، وإنما هو وليد أسباب اجتماعية ويزعم دليلاً على ذلك أن العشائر البدائية الى تدين بنظام (الطوطم) لا تدرك حقيقة التدين إلا في حفلاتها الصاخبة المتهتكة التى تذوب فيها شخصيات الأفراد الفردية في شخصية الجماعة وهو مبدأ الدين وغايته، وتكون الجماعة إنما تعبد نفسها من حيث لا تشعر .

ويرد على هذا التفسير الاجتماعي للتدين بالحجج التالية:

١- المعلومات التى يجمعها الرحالة عن البدائيين ليست فوق مستوى الشكوك إما لقصور أيهما أو كليهما أو سوء نية أو لقصور وسائل التعبير والإدراك عند البدائيين ذاتهم.

٢- أن مما يجافي المنطق السليم أن تتخذ نتيجة البحث في العشائر البدائية قاعدة عامة تعرف منها حقيقة الدين - شأنه في ذلك شأن من يحدد حقيقة الإنسانية من النظر في أول أطوار الجنين .

٣- أن نظام الطوطم باعتراف (لانج) ، (فريزر) ليس نظامًا دينيًا، وإنما نظام مدني قضائي اقتصادي يعرف معتنقيه أنسابهم وينمى فيهم الولاء للمجتمع .

٤- من المخالف للمنطق أيضا أن تتخذ حالة استثنائية من حياة هذه العشائر البدائية

وهـي حالـة الصخب والمجون والإباحـة أساسًـا للحكـم، ويهمل مـا وراء ذلك من معتقدات وعبادات تكاد تصل إلى التوحيد.

٥ـ لا يكفى أن تحـدث الظواهر الدينيـة في جماعـة وتختلـف باختلافهـا لكي تكون ظواهـر اجتماعية حقيقيـة، وإذا كانت الطقوس الدينيـة ذات طـابع الزامي جماعي، فإن الاعتقادات والتصورات تبقى دائمًا لأفكار الفرد ووجداناته .

٦ـ التاريخ يثبت دائمـا أن الجماعات تقاوم كل ديانـة جديدة يحمل لواءها في البدء أفراد أعلام ـ و لم يكن موقف أي جماعة في بدء أي دين أن تحمل الأفراد عليه وتلزمهم به .

٧ـ إذا كانت فكرة الإله تكبر مع كبر حجم الجماعة كما يزعم (دوركايم) فيتطور إلـه العشـيرة إلى إله الفضيلـة إلى إله القبيلـة إلى إله الشـعب فمن أين جاءتنـا فكرة الإله الأكبر فاطر السموات والأرض وليس لها مثال من تجمع الجماعات أو اتحادهم.

ورغم ما للجماعات من أثر خطير في التمهيد لنشأة الأديان والتمكين لها، فليس لنا أن نزعم أنها تخلقهـا من العدم وتبرزها إلى الوجود، إلا إذا صح أن نزعم أن المعدة هي التى تخلق الطعام وأن البصر هو الذي يحدث الضياء.

٦ـ المذهب التعليمي أو مذهب الوحي:

تشـترك كل المذاهب السـابقة في أن العقيدة الألهيـة وصل إليها الإنسـان بنفسه عن طريـق عوامل إنسـانية فردية أو جماعيـة، أما المذهـب التعليمي فيقرر أن الأديان هبطت إلى الإنســان، ولم يصعد هـو إليهـا، وأن النـاس لم يعرفـوا ربهم بنـور العقـل بل بنور الوحي.

هـذا المذهب لم يزل سـائدًا عنـد كبـار رجـال الدين في أوروبـا، كمـا أننـا نجد في الكتب السماوية مصداق الجانب الإيجابي منه .

والنظرة الجامعة لكل هذه المذاهب تقودنا إلى حقيقتين:

١- أن آيات الألوهية مبثوثة في كل شيء ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ(٣)وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ (الجاثية: ٤) .

٢- إن كل فئة من الناس لها طريقها الخاص في الاسترشاد ببعض تلك الآيات قبل بعض ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨) والقرآن يجمع الجوانب الإيجابية لكافة المذاهب المتقدمة ويزيد عليها .

١- فيقول في مذهب الطبيعة العادية .. ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق: ٦) ويزيد على هذا المذهب عنصرين.

أ) عنصر الاختلاف بين المتشابهات ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾ (الرعد:٤) .

ب) عنصر الحياة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ (البقرة: ٢٨) .

٢- وفي مذهب الطبيعة الشاذة ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (الرعد: ١٢) .

٣- وفي المذهب الروحي .. ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ (الزمر: ٤٢) .

٤- وفي المذاهب النفسية .. يورد تأكيدًا لعجز الإنسان أمام المقادير العليا ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى(٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ (النجم: ٢٤) .

ويزيد القرآن عنصرًا دليلاً على الألوهية هو تحول الإرادات الإنسانية عن الثورة إلى السكون وعن الكراهية إلى المحبة .. ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ (آل عمران:١٠٣)، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (الأنفال: ٢٤).

٥- والمذهب الأخلاقي... نجد لبـه وجوهره في القرآن ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٨) .

٦- والمذهب الاجتماعي نراه في القرآن حين يذكر ما للبيئة من سلطان على الأفراد يكاد يبلغ الاستعباد الفكري ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٣) ويعلن القرآن طريق التحرر من هذا الأمر، وهو التفكير الفردي الهادئ القائم على البداهة والمنطق السليم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ (سبأ: ٤٦).

٧- والمذهب التعليمي سار في القرآن كله حين يقرر أن الرحمة الإلهية لم تكتف بدلائل العقل حتى أيدتها بشواهد النقل، وأنها قطعت حجة كل غافل وكل متواكل فأرسلت رسلاً مبشرين ومنذرين ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥).

ويختم المغفور له الدكتور محمد عبد الله دراز بحثه عن تاريخ الأديان بأحسن ما يختم به مثل هذا البحث فيقول:

«وأنه لا يسع الباحث المنصف متى تحقق من هذه الإحاطة العلمية الشاملة إلا أن يرى فيها آية جديدة على أن القرآن المجيد ليس صورة لنفسية فرد، ولا مرآة لعقلية شعب، ولا سجلاً لتاريخ عصر، وإنما هو كتاب الإنسانية المفتوح، ومنهلها المورود، فمهما تتباعد الأقطار والعصور، ومهما تتباعد الأجناس والألوان واللغات، ومهما تتفاوت المشارب والنزعات سيجد فيه كل طالب للحق سبيلاً ممهدًا يهديه إلى الله على بصيرة وبينة .

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ .

من كنوز المعرفة[1]

الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان

د. عبد العظيم المطعني

تـاريخ الأديـان أو المقارنـة بين الأديـان ، فرع مـن فروع العلـم والمعرفـة، وهذه التسـمية.. تـاريخ الأديان أو «المقارنـة بـين الأديان» حديثـة الظهور أمـا المـادة العلمية نفسـها فهي قديمـة . ولأمر ما يزعم مفكرو أوروبـا وعلماؤها أن نشـأة هذا الفرع من العلوم والمعرفـة ترجع إلى مبتكرات أوروبا ومخترعاتها في نهضتهـا الحديثة وهذا ما حدا بالعالم الجليـل الدكتور محمد عبد الله دراز العـالم الأزهري في النصف الأول من القرن العشـرين أن يكتب كتابـه هـذا : « الدين بحوث ممهدة لدراسـة تـاريخ الأديان» وقد ساعده على انجاز هذه المهمة العظيمة جمعه بين الثقافتين الاسلامية والغربية واتقانه للغة الفرنسية .

وفي هذا الكتـاب: «الدين» تنـاول المؤلـف كل مـا يتعلق بفكـرة الدين منذ عصور الإنسـان الاول في الحياة علـى الأرض . بادئًا بتعريف الدين في اللغـة وفي العرف الذي كان سائدًا في كل بيئة وعصر، وبين أن للدين عناصر موضوعية وأخرى نفسية شارحًا لكل منهما .

ثم تحـدث عن علاقـة الدين بالعلوم الأخـرى كعلم الاخلاق والفلسـفة وكل فروع المعـارف الانسـانية كمـا أفـاض في بيان أن نزعـة التديـن عند الإنسـان ، نزعـة فطريـة غريزية يحس بها كل عاقل.

ثم كتب بحثًا ممتعًا حقًّا في وظيفـة الدين في المجتمع، موضحًا أنه أكبر كفالة لاحترام

(١) مقال نشر بجريدة الوفد المصرية العدد ٥٥٢١ السنة ١٨٠ .
الأربعاء ١٣ من رمضان ١٤٢٥هـ ٢٧ من أكتوبر ٢٠٠٤ م .

القوانين الموجهة للحياة داعما ما ذكره بشهادة الواقع المعيشي، وشهادات العلماء والقادة ورجال السياسة والمفكرين كما كتب فصلاً ممتازًا عن نشأة العقيدة الإلهية وأنها نشأت وترعرعت بإيحاء من الإحساس الفطري للإنسان والتفكير العقلي. وأن الدين لم تخل منه أمة ولا بيئة، لأن الإحساس به نابع من حاجة الناس إليه، حتى الوثنيون المنحرفون في عقائدهم فإنهم في الواقع لم يعبدوا إلا الله ، وإن أخطأوا الطريق إليه .

وقد ناقش كثيرًا من النظريات المتعلقة بنشأة العقيدة وتطورها ونقد ما استحق النقد منها كنظرية ساباتييه، ونظرية برجسون ونظرية ديكارت، والمذهب الأخلاقي والمذهب النفسي والمذهب التعليمي أو الوحي السماوي.

و لم يفت أستاذنا الجليل أن يرد على مزاعم الغربيين أن تاريخ المعرفة في الإسلام لم يعرف عن هذا الفرع الجديد من البحث «المقارنة بين الأديان» شيئًا بل هو نتاج الفكر الغربي الحديث.

دحض الشيخ دراز هذه الفرية بأقطع الأدلة وبين أن الإسلام سبق أوروبا وغيرها في هذا المجال وغيره .

وبعد رحلة ممتعة مع العلم والمعرفة العالمية في هذا الكتاب، يضع الشيخ دراز رحمه الله بحثا عن علاقة الرسالات «الأديان» الأخرى بالإسلام يعني: اليهودية والمسيحية، وهو من أروع وأمتع وأحكم ماكتب، وجعله خاتمة لرحلته العملية التي تضمنها كتاب «الدين» وخلاصة ما قال في هذا المبحث.

إن العلاقة بين الأديان السابقة على الإسلام إذا نظرنا إليها من خلال المعنى القرآني نجدها لاتفرق بين الإسلام والرسالات السماوية من قبل الإسلام .

فهي كلها تنطوي تحت مصطلح الإسلام، باعتباره هو العنوان الجامع لكل ما بعث الله به الرسل .

كلمـــات[1]

بقلم الأستاذ الدكتور/ عبد العظيم المطعني

الشيخ الإمام الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز من ألمع وأبرز شيوخ الأزهر، وعلماء الإسلام في العصر الحديث . عالمًا موهوبًا مطبوعا تقيًا ورعًا مارس العمل في مجال الدعوة وهو طالب في المرحلة الثانوية في معاهد الأزهر الشريف . وخاض تجارب عميقة في الزود عن الإسلام ، وتجلية محاسنه، وصفاء موارده وإعجاز كتاب الإسلام الخالد «القرآن العظيم» والدفاع عن الإسلام أمام المناوئين له في الداخل والخارج، ومؤلفاته ومقالاته التى أخرجها للناس، وحفظها الله من الزوال، تشهد له بعبقرية فذة أضفت على مأثوراته كلها طابع الأصالة والابتكار وأسهمت ـ بحق ـ في الفكر الإسلامي والعالمي بأكبر نصيب.

إذا قرأت له كتابًا مرة قادتك قراءته الأولى إلى إعادة قراءته مرات وأنت واجد في كل مرةجديدًا مفيدًا، لما في عبارات الشيخ من إحكام، وفي طريقة إبداعه المعاني في التراكيب ـ من ذكاء فهو ملك البيان في مفرداته وجمله، ومعانيه في دانيها وقاصيها.

وما من كتاب وضعه الشيخ أو مقال، أو خاطرة، إلا وتشهد له بأنه كان ينزح من ينابيع ما يروق وما لا يروق.

فالشيخ الإمام ـ محمد عبدالله دراز ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ كان يعمد إلى أبكار المعاني، ولا يحفل بزخرفة الألفاظ، وعندما يعبر عن معانيه تنقاد له لغة التعبير بكل ما فيها من خصائص الإبانة، ودقائق الإيحاء، وإمكانات البيان، فيجتمع له جمال العرض من كل جهة :

---

(١) هذه الكلمات كتبها شيخنا العلامة – في التقديم لرسالة صديقنا الشيخ محمد أمين أبو شهبة «الدكتور دراز وجهوده البلاغية» حين أراد طبعها. وقد نال بها درجة الماجستير بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف – من كلية اللغة العربية بإيتاي البارود – جامعة الأزهر.

الجزالة مع الرقة ، والإمتاع مع الإقناع، والبيان مع الإجمال، والبسط مع الإيجاز، والإلماح مع الإفصاح وهذه أنماط لا تجتمع إلا لصفوة من الموهوبين الأفذاذ وقليل ما هم.

وقد قيض الله ـ حتى الآن لـتراث شيخنا الجليل اثنين نابهين من شباب العلماء، الذين نهلا من معين الأزهر الشريف «كهف العربية وحصن الإسلام» فأسهما في خدمة ما تركه الشيخ الإمام من كنوز العلم والمعرفة .

أما أحدهما فهو الشيخ أحمد فضلية ، الذي أخذ على عاتقه ـ رغم مشاغله العملية ـ إعادة نشر كتب الشيخ الإمام محمد عبد ا لله دراز ، وجمع ما تناثر ولم ينشر من بحوثه السيارة، ومراسلاته، وأحاديثه التي كان يلقيها في الإذاعة، وردوده على ما كان يقال عن الإسلام في حياته في الداخل والخارج. وبعث ذلك كله في إخراج جديد، وثوب قشيب، يتوالى صدوره تباعا عن دار القلم الكويت / القاهرة، إحدى دور النشر العربية الرائدة لتربط جيل الإسلام الحاضر، بما تركه عباقرة الفكر المرموقين، وأعلام النهضة الإسلامية لأن من نسى ماضيه نسى نفسه ، ومن غفل عن حاضره ضاع في مهب الرياح .

وأما الثاني فهو الباحث محمد أمين بن محمد أبو شهبة. من شباب الأزهر «الواعد» المدرس المساعد ـ الآن ـ في كلية اللغة العربية، فرع إيتاي البارود، جامعة الأزهر .

وقد عرفته طالبًا ذكيًا مجدًا محبًا للعلم. وخبرته عن كثب طالبًا في تمهيدي الماجستير لمدة سنتين، فتوسمت فيه النجابة، ولم يخيب الله لي فيه ظنًا . وشاهدي على هذا هو الكتاب الذي بين يدي القارىء الكريم الآن، وهو:

الدكتور محمد عبد الله دراز وجهوده البلاغية، وهو البحث الذي أعده للحصول على درجة التخصص (الماجستير) في البلاغة والنقد.

وقد سعدت بقراءة هذا البحث بعناية حيث كنت عضوًا في هيئة (لجنة) التحكيم والمناقشة وكان التقدير الذي اقترحته «الهيئة المحكمة» الذي حصل عليه الباحث

(النجيب) هو «الامتياز» على ما بذل فيه من جهد دءوب موفق، فقد عاش الباحث محمد أبو شهبة «مع تراث الشيخ الإمام ، وبخاصة في كتابه «النبأ العظيم» الذي وضعه الشيخ الإمام في بيانه «إعجاز القرآن» ناهجًا فيه نهجًا جديدًا مبتكرًا لا عهد لدراسات الإعجاز به عند الأقدمين والمحدثين على حد سواء .

عاش الباحث بمثابة «قنّاص ماهر» أو «غوّاص باهر» يتتبع الشوارد فلا يخطيء الرمي، ويجمع اللآلئ والجواهر فلا يخيب مسعاه .

وإذا كان ـ كما في الأمثال ، ليس كل من اعتلى المنبر خطيبًا، ولا كل من امتطى الجواد فارسًا، فإن باحثنا والحق يقال: أعد نفسه لهذا العمل الجليل فأجاد وأحسن، وأقنع وأمتع، ورصد كل ما عنّ له من المساحات البلاغية في تراث الشيخ الإمام مع ما في جهوده من مفاجآت سبق إليها، وما فيها من إضافات لها في مجال الإعجاز البياني البلاغي كل وزن وتقدير.

كما لم يفت الباحث أن يُلم بتاريخ الشيخ الإمام مولده ونشأته ودراسته وملامح فكره وإسهاماته في الحياة، ومكانته بين العلماء .

وسوف يتبين القاريء قيمة هذا العمل الذي قدمنا له. ثم من هو الشيخ الإمام محمد عبد الله دراز ابن الأزهر العبقري البار، والداعية الرباني الذي لم ـ ولن ـ يشق له غبار. فاللهم انفع بهذا العمل أبناء الإسلام، وبارك لنا فيه، ولا تحرم الدعوة من أمثال شيخنا الإمام محمد عبد الله دراز، ومن كان على شاكلته علمًا وأخلاقًا وخلقًا وورعًا . اللهم استجب . اللهم آمين .

د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني

القاهرة ـ الدمرداش

السابع من ربيع الثاني ١٤٢٦هـ

الموافق ١٦ / ٥ / ٢٠٠٥م

الباب الخامس

[مع الدكتور محمد عبد الله دراز
في بحوثه الإسلامية]
دراسة وتحليل
لأهم بحوث الشيخ في القضايا المعاصرة
عرض وتقديم
الشيخ/ أحمد مصطفى فضلية

١- موقف الدكتور دراز من قضية الربا .

٢- موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها.

٣- الإسلام والسلام العالمي.

٤- الإسلام والقتال .

٥- النقد الفني لمشروع ترتيب القرآن حسب نزوله.

٦- الشريعة الإسلامية:

بين المسيو ألبيرجران والعالم الأزهري د. محمد عبد الله دراز.

٧- موقف الشيخ من تعدد الزوجات.

٨ - موقف الشيخ من إصلاح الأزهر.

٩- حضارة الإسلام وأثرها في الحضارة الحديثة .



موقف الدكتور/دراز

من قضية الربا في مؤتمر الشريعة الإسلامية بباريس

في ٧ من أغسطس سنة ١٩٥١م

تمهـيد:

الربا هو المنكر الغليظ الذي أجمعت الشرائع على تحريمه وآذنت آكليه بحرب من الله ورسوله وقد مضى على الأمة الإسلامية أحقابًا مدبرة، وهي تلعن الربا ومن يتعامل به، ثم جاء العصر الحديث وسقط المسلمون حضاريًا، وأصبح جميع الناس إلا من رحم ربك - يأكلون الربا - فمن لم يأكله أصابه من غباره ، وأصبح ينطبق على كثير من المسلمين قول رسول الله - ﷺ - « **يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه أمن الحلال أم من الحرام**»[1] وقوله - ﷺ - «**يأتي على الناس زمان يأكلون الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره**»[2] .

حيث سرى التعامل به في كافة المعاملات سريان السرطان في الجسد ومما يضاعف من خطر المصيبة أن الإعلام اليهودي استطاع أن يشكل عقلية من سواد الناس، تؤمن بأن الربا هو النظام الطبيعي، وما عداه وهمٌ وخيال، فوجدنا بعض المسلمين يعتقدون أنه لا يمكن الاستغناء عنه وتحرير الاقتصاد منه .

والمؤسف أن بعض الدول والحكومات وضعت القواعد والنظم للتعامل به، غافلة أو متغافلة عن نهي الكتاب والسنة، وإجماع علماء الأمة .

وقد ساعد على ذلك بعض الفتاوى والاجتهادات الفردية الشاذة التي يروج لها

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة . ك/ البيوع باب/ من لم يبال من حيث كسب المال (حديث ٢٠٥٩) .

(٢) النسائي عن أبي هريرة . ك/ البيوع باب/ احتناب الشبهات في الكسب. (حديث ٤٤٦٧).

الإعلام المسموع والمقروء[1] .

ولما كان الربا يقضي على المودة والتراحم بين أفراد الأمة ويستنزف خيرات البلاد، ودماء العباد، لصالح شرذمة من المرابين مصاصي الدماء فقد اهتم الدكتور دراز بهذه القضية الخطيرة وقال فيها فصل الخطاب وذلك في بحثه الذي ألقاه في مؤتمر للشريعة الإسلامية عُقِد بباريس .

ولندع الدكتور دراز يحدثنا عن قصة مشاركته في هذا المؤتمر الدولي الهام، وذلك من خلال تقريره الذي رفعه إلى مشيخة الأزهر الجليلة عن المهمات التي قام بها في رحلته إلى باريس مندوبًا عن الأزهر في شهر يوليو سنة ١٩٥١م .

يقول رحمه الله :

في اليوم السادس من شهر رمضان، سنة ١٣٧٠هـ ، (١٠ من يونيو سنة ١٩٥١م) كنت بإدارة الأزهر لأرفع تقريرًا سابقًا عن نتيجة فحصي للكتاب الفرنسي المعنون: «معرفة أساليب الحياة في مختلف الأمم» وما حواه من الآراء التي فيها مساس بالإسلام؛ فأبلغني فضيلة مراقب البحوث نبأ اختياري لتمثيل الأزهر في مؤتمر للشريعة الإسلامية سينعقد في باريس بعد ثلاثة أسابيع لمدة أسبوع من ٢ إلى ٧ يوليو سنة ١٩٥١م .

وظهر فيما بعد أن الدعوة إلى هذا المؤتمر لم تصل إلى الأزهر إلا متأخرة، وبطريق غير مباشر؛ بينما وصلت مبكرة ومباشرة إلى الجامعات الأخرى. والذنب في هذا ليس على المدعو ولكن على الداعين. ومهما يكن من أمر فقد قيل لي إن ضيق الوقت لا ينبغي أن يكون سببًا في اعتذاري، لاسيما بعد أن اعتذر اثنان من قبلي وإلا لأصبح مكان الأزهر في المؤتمر شاغرًا في موضوع هو ألصق بالأزهر من كل جامعة أخرى.

فلم يسعني إلا القبول؛ غير أني سألت: هل من الممكن أن تتولى الادارة إجراءات

(١) هذا الكلام عن الدكتور / يسري محمد خضر من أطروحته للدكتوراه (مجلة الوعى الإسلامي) وموقفها من قضايا الدعوة ص ٤٥٩ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

السفر، وتترك لي فراغًا من الوقت لأنظر في الموضوع الذي سيوكل إليَّ بحثه؟ فاعتذرت الإدارة بأنــه لم تجر العـادة بذلـك. فتوجهت بنفســي إلى وزارة الخارجيـة بخطـاب من المشـيخة لأبدأ بما يبدأ بـه وهو جواز السـفر. ولكني علمت هنـاك أن المؤتمر لم يتقرر اشـتراك مصر فيـه بعد، وأن الإجراءت كلهـا متوقفـة على موافقـة مجلس الوزراء، كما هـي القاعدة في جميع المؤتمـرات التي لا يكون الداعي إليهـا هو جمعيـة الأمم المتحدة أو إحدى المنظمـات التابعـة لها. وكـانت سـابقة تجربتي في مؤتمـر طهران تجعلني أشـك في نتيجة العرض على مجلس الوزراء، وأنها قـد تكون رفض الاشتراك في اللحظة الأخيرة. ولذلك لم أفكر جديًا في الأمر . وكان ممـا زاد ارتيابي أن معالي وزيـر المالية أعلن بعد ذلك ـ في أثناء إجابة له عن سؤال في مجلس النواب ـ أن الحكومة عرض عليها في هذا الشـهر الاشتراك في ثلاثـين مؤتمرًا وأنها رفضتها جميعهـا، فوقع في نفسي أن يكون هذا المؤتمـر أحدها، وأبديـت شـعوري لمراقبـة البحوث فوافقتني علـى أن المشـروع لا يزال موضع شك، وأن المجلس الأعلى للأزهر لم يتخذ فيه قراراً كذلك ..

غير أن الصحف طلعت علينا يوم الإثنين ٢٥ من يونيو المذكور بقرار بمجلس الوزراء الصادر في الليلة السابقة (٢٤ من يونيو) والقاضي بندبي لتمثيل مصر في هذا المؤتمر مع زميل من جامعة فؤاد هو الدكتور السـعيد مصطفى السـعيد بك . فتأهبت للسفر على عجل في يومـين اثنين ، كـان عليَّ أن أتردد فيهمـا بـين (وزارة الخارجيـة) لاسـتخراج جواز السفر، و (وزارة الداخلية) لاستصدار الإذن من قلم الرقابة والنشر بنقل الكتب المخصصـة للسـوربون وغيرها في فرنسـا و(الأزهر) لإعداد أوراق السـفر، و(شـركة كوك) لأخذ التذاكـر، و (شـركة البواخر) لتحديد أول بـاخرة تـدرك مواعيد المؤتمر، وكـان علـيّ في الوقت نفسـه أن أفكر ـ في الفـترات القصيرة بين هذه المشـاغل ـ في الموضوع المطلوب مني بحثـه، والـذي لم يكن لي رأي في اختيـاره، لأن المواضيـع كلها كانت قد اقتسـمها أعضاء المؤتمر الذين وصلت إليهم الدعوة من قبل، و لم يكن الوقت الباقي على السفر يسـمح لي بأن أخط فيه حرفًا واحدًا، فاكتفيت فيه بقراءات قليلة في

تلك اللحظات اليسيرة، وقمت من القاهرة في مساء ٢٧ من يونيو، ومن الاسكندرية في ٢٨ منه إلى مرسيليا .

وصلت إلى باريس قبل انعقاد المؤتمر بساعات معدودة، فوجدت ترتيب جدول الأعمال يقضي بأن يكون إلقاء بحثي في اليوم الرابع منه، ولكني طلبت تأجيله للاستعداد إلى اليوم السادس منه ؛ فأجبت إلى طلبي، وأخذت في تحرير البحث كتابيًا في الفترات التي بين جلسات المؤتمر.. حتى فرغت من إعداده بمعونة إلهية في آخر لحظة؛ فكان هو خاتمة البحوث التي ألقيت في المؤتمر.. ثم شرعت في إنجاز المهمات الأخرى التى عهد إليَّ بها بعد ذلك .

- ١ -

انعقدت جلسات المؤتمر في معهد القانون المقارن التابع لكلية الحقوق بجامعة باريس، تحت رياسة أستاذ الشريعة الإسلامية بالكلية المذكورة . وبلغ عدد أعضاء المؤتمر الرسميين أكثر من سبعين عضوا من البيئات العلمية، والدينية، والقضائية، والإدارة، ورجال القانون في فرنسا وانجلترا وألمانيا ومصر، وسوريا ولبنان وتركيا والجزائر وتونس ومراكش وداكار، وحيدر آباد، واشترك كثير منهم في المناقشة عقب كل بحث . وكانت البحوث والمناقشات كلها باللغة الفرنسية. وهذا بيان البحوث التى ألقيت، على الترتيب :

١- «أدلة حق الملكية» للدكتور شفيق شحاته الأستاذ بجامعة فؤاد الأول.

٢- «نزع الملكية لأجل المنافع العامة» للدكتور عثمان خليل عميد كلية الحقوق بجامعة إبراهيم .

٣- «نظرية الاستصحاب» للمسيو لابان جوانفيل مندوب حكومة فرنسا في الولايات الشريفية بمراكش .

٤ـ «تاريخ التشريع الإسلامي وتأثر مذاهبه بعضها ببعض» للدكتور معروف الدواليبي رئيس مجلس النواب السوري .

٥ـ «نظرية المسئولية الجنائية في التشريع الإسلامي» للدكتور السعيد مصطفى السعيد الأستاذ بجامعة فؤاد الأول .

٦ـ «نظرية الربا في الإسلام» لكاتب هذه السطور مندوبا عن الجامعة الأزهرية.

وقد ترجمت بحثي هذا إلى اللغة العربية بعد عودتي، وطبع النص والترجمة في كراسة مستقلة (مرافقة للأصل المخطوط لهذا التقرير). وإنني الآن في انتظار وصول البحوث الأخرى أو خلاصاتها من باريس مطبوعة، لأبعث بها إلى إدارة الأزهر حتى يكون لديها مجموعة كاملة من أعمال المؤتمر.

وكان من أهم القرارات التي اتخذها المؤتمرون في النهاية إعلان رغبتهم:

١ـ في عقد مؤتمرات دورية لمتابعة هذه البحوث، ذات الفائدة المزدوجة للشريعة الإسلامية وللقانون المقارن.

٢ـ في تأليف معجم قانوني باللغة الفرنسية يعرف بمختلف المذاهب التشريعية في الإسلام . وقد أشادت الصحف الفرنسية بأعمال المؤتمر بعد انتهائه، وأعربت عن تمنياتها لتكرار انعقاده في فترات منظمة. ونوهت الصحف القضائية على وجه خاص بأسماء بعض رجال القانون البارزين في المؤتمر، وتفضلت بأن ذكرت من بينهم اسم مندوب الأزهر . أذكر من هذه الصحف الصحيفة الرسمية لمحكمة الاستئناف بباريس الصادرة في ١١ ـ ١٣ يوليو سنة ١٩٥١م[١] .

وبحث الدكتور دراز (الربا في نظر القانون الإسلامي) كان صيحة الحق في العالم الأوربي، وبموضوعية ناقش الرجل القضية. وبين وجهة نظر الإسلام لا لمنع قانونية

(١) نص هذا التقرير كاملاً أوردناه في كتاب (أوراق داعية) والذي جمعنا فيه كل الأوراق الثقافية الخاصة بالشيخ رحمه الله.

الربا فحسب ، بل لمنع التعامل به إطلاقًا.

ولمكانة البحث وأهميته فقد نشرته مجلة الأزهر مرات عدة ، ومجلة رسالة الإسلام، وقام بنك فيصل الإسلامي بطبعه أكثر من مرة، وبلغت كل طبعة عشرة آلاف نسخة كما طبعته ببيروت دار العصر الحديث للنشر والتوزيع أكثر من عشرة آلاف نسخة.

ـ مادة البحث:

قبل عرض وجهة نظر الإسلام في الربا، تناول الدكتور دراز وضع المسألة في طائفة من التشريعات السابقة، مدنية كانت أم دينية، فالقدماء المصريين لم يكونوا يحظرون الربا حظرًا صارمًا، بل وضعوا له نظمًا وقواعد تحد من أضراره ويؤكد الدكتور دراز أننا مهما صعدنا بنظرنا في تاريخ التشريعات المدنية نجد أن مبدأ التعامل كان سائغًا فيها . وأنه كانت توضع له في بعض الأحيان نظم تحميه إذا لم يجاوز حدًا معلومًا .

أما مدينة إسبارطة فتبدو لنا في صورة استثناء من هذه القاعدة العامة؛ إذ لا يعرف في تاريخها أنها تعاملت بالربا أو أنها نظمته .

أما اليهودية والنصرانية فنرى التشريعات السماوية تتجه به نحو الحظر والتحريم الكلي ولكنها بدأت تفقد مناعتها شيئًا فشيئًا منذ عصر النهضة على إثر الإعتراضات المتكررة التي وجهت إليها بين القرنين السادس عشر والثامن عشر من (كالفان) إلى (مونتيسكيو) وكان لهذا الضعف مظهران: مظهر عملي، ومظهر تشريعي.

فأما المظهر العملي فهو أن بعض الملوك والرؤساء الدينيين أنفسهم أخذوا يجترئون على انتهاك هذا التحريم علنًا .

وأما المظهر التشريعي فهو أنه منذ آخر القرن السادس عشر (١٥٩٣) وضع استثناء لهذا الحظر في أموال القاصرين فصار يباح تثميرها بالربا بإذن من القاضي.

أما الضربة القاضية التي وجهت إلى هذه النظرة الدينية فقد حملتها إليها الثورة

الفرنسية حيث احتضنت المذهب المعارض وجعلته مبدأ رسميًا منذ قررت الجمعية العمومية في الأمر الصادر بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٧٨٩م أنه يجوز لكل أحد أن يتعامل بالربا في حدود خاصة يعينها القانون .

أما الموقف في بلاد العرب قبل الإسلام فقد اعتاد العرب في عصور الوثنية أن يقترضوا بالربا من اليهود وأن يتقارضوا به فيما بينهم، دون أن يجدوا فيه حرجًا ولا غضاضة .

وما أن انتصف القرن التاسع عشر إلا وسرت عدوى التعامل بالربا إلى البلاد الإسلامية فبدأ بعض المسلمين يتعاملون بالربا لا إقراضًا، بل اقتراضًا ثم اتسع الأمر وشاع عمليًا، مع بقائه محظورًا قانونيًا، ثم دخل الإذن به في دائرة التشريع تحت ضغط السلطات الأوربية المحتلة للأقطار الإسلامية .

بعد هذه النظرة التاريخية بين الدكتور دراز حقيقة حكم الربا في الإسلام أخذًا من المصادر الأولى للتشريع .

فأخذ العالم الكبير يسرد نصوص الشريعة الإسلامية من منابعها الأولى .

ـ منهج القرآن في تحريم الربا:

يذكرنا الدكتور دراز بطبيعة المنهج التعليمي في القرآن، حينما يكون بصدد محاربة بعض الرذائل التى تأصلت في العرف العام، والتى توارثتها الأجيال خلفًا عن سلف، فلا يأخذها بالعنف والمفاجأة، بل يتلطف في السير بها إلى الصلاح على مراحل متريثة، متصاعدة، حتى يصل بها إلى الغاية. ويقدم الدكتور دراز منهج تحريم الخمر كنموذج.

فالمنهج التدريجي الذي سلكه القرآن في مسألة الخمر هو هو الذي حرم به الربا .

فقد تناول القرآن حديث الربا في أربعة مواضع كتحريم الخمر أيضًا، وكان أول موضع منها وحيًا مكيًا والثلاثة الباقية مدنية، وكان كل واحد من هذه التشريعات

الأربعة مشابهًا تمام المشابهة لمقابله في حديث الخمر، ففي الآية المكية يقول الله جلت حكمته ﴿وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (الروم: ٣٩) هذه كما ترون موعظة سلبية، إن الربا لا ثواب له عند الله نعم، ولكنه لم يقل إن الله ادخر لآكله عقابًا، وهذا بالضبط نظير صنيعه في آية الخمر المكية (النحل: ٦٧) حيث أومأ برفق إلى أن ما يتخذ سكرًا ليس من الرزق الحسن، دون أن يقول إنه رجس واجب الاجتناب، ومع ذلك فإن هذا التفريق في الأسلوب كان كافيًا وحده في إيقاظ النفوس الحية، وتنبيهها إلى الجهة التي سيقع عليها اختيار المشرع الحكيم .

أما الموضوع الثاني فكان درسًا وعبرة قصها علينا القرآن من سيرة اليهود الذين حرم عليهم الربا فأكلوه وعاقبهم الله بمعصيتهم، وواضح أن هذه المعبرة لا تقع موقعها إلا إذا كان من ورائها ضرب من تحريم الربا على المسلمين .

ولكنه حتى الآن تحريم بالتلويح ـ والتعريض لا بالنص الصريح، ومهما يكن من أمر فإن هذا الأسلوب كان من شأنه أن يدع المسلمين في موقف ترقب وانتظار لنهي يوجه إليهم قصدًا في هذا الشأن، نظير ما وقع بعد المرحلة الثانية في الخمر (البقرة: ٢١٩) حيث استشرفت النفوس إذ ذاك إلى ورود نهي صريح فيه؛ وقد جاء هذا النهي بالفعل في المرحلة الثالثة ولكنه لم يكن إلا نهيًا جزئيًا، في أوقات الصلوات (النساء: ٤٣) وكذلك لم يجيء النهي الصريح عن الربا إلا في المرتبة الثالثة ، وكذلك لم يكن نهيًا جزئيًا ، عن الربا الفاحش: الربا الذي يتزايد حتى يصير أضعافًا مضاعفة .. (آل عمران: ١٣٠).

وأخيرًا وردت الحلقة الرابعة التي ختم بها التشريع في الربا (بل ختم بها التشريع القرآني كله على ما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما) وفيها النهي الحاسم عن كل ما يزيد عن رأس مال الدّين حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٨٠)وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى

اللَّـهِ ثُـمَّ تُوَفَّى كُـلُّ نَفْسٍ مَـا كَسَـبَتْ وَهُـمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١) (٢/ ١٧٨ - ٢٨١).

- رد الدكتور دراز على القـائلين بعدم حرمـة الربـا اليسـير: بعد أن سـرد الدكتور دراز نصـوص التشريع القرآني في الربا مرتبة على حسب تسلسلها التاريخي بيَّن تهافت رأي الفئـة التي تزعم أن الإسلام يفرق بين الربـا الفاحش وغيره (وهي فئة من المتعلمين الذين ليـس لهم رسـوخ قدم في علـوم القرآن) لم تكتـف بأنهـا خـالفت إجمـاع علماء المسـلمين في كـل العصور، ولا بأنهـا عكسـت الوضع المنطقي المعقـول حيث جعلت التشـريع الإسـلامي بعد أن تقدم إلى نهايـة الطريق في إتمـام مكارم الأخلاق يرجع على أعقابه ويتـدلى إلى وضع غـير كريم، بل إنهـا قلبت الوضع التـاريخي، إذ اعتبرت النص الثالث مرحلة نهائية بينما هو لم يكن إلا خطوة انتقالية في التشريع ، لم يختلف في ذلك محدِثٌ ولا مفسر ولا فقيه .

ويؤكد الدكتور دراز عدم صحـة القول بأن العـرب قبل الإسلام لم يكونوا يعرفون إلا الربا الفـاحش الذي يسـاوى رأس المـال أو يزيد عليـه فإنـه لا يصح إلا إذا أغمضنا عينينا عمـا لا يحصى من الشـواهد التى نقلهـا أقدم المفسـرين وأجدرهـم بالثقة ويؤكد الدكتور العلامـة! أننا لا نسـتطيع أن نطيل الوقوف عنـد هذا النص الانتقالي لأن الذي يعني رجل القانون في تطبيع الشرائع إنما هو دورها الأخير، وقد بينا أن الدور الأخير في موضوعنا إنمـا تمثله الآيـات التى تلوناهـا آنفًا من سـورة البقرة. كمـا رأينا أن الشـريعة القرآنية تتجه كلها منذ البداية إلى استنكار كل تعويض يطلب من المقترض، أفلا يكون من التنـاقض أن هذه الشـريعة التي تضع الإحسان إلى الفقـير في أبرز موضع من قانونها والـتي تحث على إنظـار المعسـر، أو على تـرك الدَّين لـه، تعود فتـأخذ منـه بالشـمال ما منحته باليمين، إذ تأذن للغني بأن يطالبه ببعض الزيادة على الدَّين.

ـ السُنّة النبوية الشريفة تُحرم الرّبا:

يقول الدكتور دراز (إلى جانب هذه النصوص القرآنية. نجد في بيان السنة ما هو أكثر تفصيلاً وأشد صرامة، فإن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يكتف بتحريم الربا على آكله كما ورد في القرآن الكريم، ولم يكتف بجعل المعطي والآخذ والكاتب والشاهد سواء في اللعن والإجرام، بل إنه أحاط هذه الجريمة بنطاق من الذرائع والملابسات جعلها حمى محرمًا تحريم الوسائل الممهدة إلى الحرمة الأصلية .

والطريف في أمر هذه الإضافة أنه جعل التحريم فيها على مراتب متفاوتة في تدرج حكم يتنقل من الحظر الكلي إلى الإباحة التامة رويدًا رويدًا مارًا بكل المراتب المتوسطة بينهما .

هذه القاعدة الجديدة ليس موضوعها القروض، ولا الديون المتقررة، بل عقود البيع أو بالأحرى المقايضات . فبعض هذه المقايضات حظر الرسول الحكيم ﷺ أن تكون مؤجلة ولو بدون ربح وأن يؤخذ فيها ربح ولو كانت يدًا بيد .

ويوضح الدكتور دراز في هامش البحث أن هذا المحظور (الذي يسميه الفقهاء ربا الفضل، ويسميه ابن القيم الربا الخفي) كان موضع اختلاف بين الصحابة وكان جمهورهم على القول بحرمته، أن بعض الباحثين العصريين الذين ظنوا أن هذا الاختلاف كان شأن الربا القليل فقد انتقل نظرهم والتبس عليهم الأمر التباسًا يؤسف له.

واليكم نص التشريع المذكور في شأن المقايضات:

يقول ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والقمح بالقمح، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، يدًا بيد سواءً بسواء. فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا يدًا بيد»[1].

---

(١) رواه مسلم عن عبادة بن الصامت ك/ المساقاة ب/ الصرف وبيع الذهب بالورق نقدًا (٢٩٧٠) .

ويلخص الدكتور دراز فكرته عن القواعد التي وضعها التشريع النبوي في باب التبادل والتقايض، فيقول : إن هذه القواعد تهدف إلى غرض مزدوج، فهي من إحدى الجهتين تريد أن تحمي النقود والأطعمة، وهما أهم حاجات الجماعة وأعظم مقومات حياتها، وذلك بمنع وسائل احتكارها أو إخفائهما من الأسواق، أو تعريضها للتقلبات الثمينة المفاجئة... وهي من الجهة الأخرى تحرص على حماية الفقراء والأغرار من طرق الغبن والاستغلال التي يتبعها بعض التجار الجشعين.

وواضح أن تسمية الربح المجتلب من طريق هذا التبادل الذي تنقصه الصراحة والأمانة باسم «الربا» إنما هي تسمية مجازية قصد منها إلى إبراز ما فيه من مخالفة لقانون الأخلاق، ومجافاة لقواعد الرحمة الإنسانية وذلك بتشبيهه بالربا الحقيقي الذي هو مثل السحت وأكل المال بالباطل .

ـ وجاهة التشريع القرآني:

يعود الدكتور دراز إلى الربا الحقيقي فيعالج فيه الجواب عن سؤالين مهمين: «أحدهما» : ما هي الأسباب المعقولة لهذا التحريم الصارم للمعاملة الربوية؟ الثاني هل الحياة الاقتصادية في حالتها الحاضرة تعد ظرفًا استثنائيًا يترخص فيه بمخالفة هذا القانون؟

يوضح الدكتور العلامة أن مسألة معقولية النهي أو عدم معقوليته قد أثيرت في عهد النبوة على لسان العرب أنفسهم ، فقد استنكروا هذه التفرقة بين البيع والربا قائلين: إذا أنتم منعتم ربح القرض، فامنعوا كذلك كل ربح يجتلب من طريق البيع، إذ هما سواء.

وكان رد القرآن على ذلك بتلك الكلمة الحاسمة، التي لا تقبل مراءً ولا جدالاً: كلا ليس البيع مثل الربا؛ فقد أحل الله البيع وحرم الربا ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥) على أنه لا يمكن أن يفهم من هذا الأسلوب أن أمر التشريع هنا يصدر

عن إرادة جبروتية تقضي أحكامها تحكمًا وتعنتًا؛ فقد علمنا القرآن في غير موضع أن الأوامر الإلهية أنزه شيء عن هذا الحرج والعنت ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ الأعراف: ٣٣) ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ (المائدة: ٤) ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة: ٦).

ها هنا ينتهي الدكتور دراز إلى أنه يجب أن يكون لهذا النهي دعائم قوية وأسباب معقولة تجعله في محزة من الصواب والحكمة .

وشرع الدكتور العلامة في بيان تلك الدعائم وهي ثلاث دعائم .

أولاً: الدعامة الأخلاقية:

يقول الدكتور دراز «أول ما يكشف الباحث من أسرار التشريع في هذا الباب هو بواعثه الأدبية الخلقية. إن الضمير الإنساني ليدرك بنوع من الحدس المباشر مدى الفرق بين الربح من طريق المعاملة (البيع) والربح من طريق المجاملة (القرض).

ويرد الدكتور دراز على الذين يقولون (أليس كل صنيع جميل له حق في المكافأة؟) فيقول: بلى ؛ ولكن لا ينبغي أن يلتبس علينا الأمرين سلطان «الحق» وسلطان «الواجب». إن سلطان الواجب أعلى؛ وإن له لحقًّا في معارضة حقوقنا الطبيعية وفي تحديد مداها . وأي شيء أدخل في باب الحقوق الطبيعية من حقنا في المحافظة على حياتنا؟ ومع ذلك فإن الواجب قد يفرض علينا أن نتنازل عن هذا الحق وأن نضحي بأنفسنا تضحية تامة في سبيل قضية نبيلة أدبية أو وطنية أو دينية أو غيرها.

سيمضي السائل في اعتراضه قائلاً: إن هذه كلها اعتبارات أخلاقية. وقضيتنا قضية حق وقانون .

ويجيب الدكتور دراز على هذا الاعتراض بقوله: أما أنا فأجيب بأن كل مشرع له الحق كل الحق في أن يجعل من القانون الأخلاقي قانونًا مدنيًا، بل قانونًا جنائيًا إن شاء وهذا بالضبط هو ما صنعه القرآن حين أعلن حربًا حقيقية على آكلي الربا.

٢ـ الدعامة الاجتماعية:

يقول الدكتور دراز « لو أننـا نظرنا إلى القضية من ناحيتهـا الاجتماعية لظهرت لنا حكمة هذا التشريع وسداده في أجلى مظاهرهما .

إن اللمحة البارزة في التشريع القرآني، وكذلك في كل تشريع اجتماعي جدير بهذا الاسم، هي الحيلولة دون هذه المحاباة لرأس المال على حساب الجمهور الكادح، والسعي لتحقيق نوع من التجانس والمساواة بين أفراد الأمة. إنها لكلمات قصيرة ولكنها ذات مدى بعيد، تلك التي يرسم فيها القرآن دستور هذه السياسة ، حيث يقول: ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ (الحشر :٧) .

٣ـ الدعامة الاقتصادية:

يقرر الدكتور دراز في هذه الدعامة أننا إذا سرنا وفقًا للأصول في أدق حدودها كانت لنا الخيرة بين نظامين اثنين لا ثالث: فأما نظام يتضامن فيه رب المال والعامل في الربح والخسر؛ وإما نظام لا يشترك فيه معه في ربح ولا خسر. ولا ثالث لهما إلا أن يكون تلفيقًا من الجور والمحاباة .

هذه فيما يرى الدكتور دراز ـ رحمه الله ـ هي الأسس الأدبية الاجتماعية والاقتصادية التى قامت عليها وجهة نظر الإسلام في قضية الربا. وأما المسألة الثانية وهي حكم الربا في وقتنا هذا، فالدكتور العلامة يرى أنها ليست قضية (مبدأ) وإنما هي (قضية تطبيق). وهي فوق ذلك ليست فيما يرى الدكتور دراز من الشئون التى يقضي فيها فرد أو بضعة أفراد، بل ينبغي أن يتداعى لها طوائف من الخبراء في القانون والسياسة والاقتصاد من كل جانب وأن يدرسوها دراسة دقيقة مستفيضة من جميع نواحيها الحاضرة والمستقبلة وفي ختام البحث وضع الدكتور دراز مبدأين في جملتين صغيرتين ورجا أن يُتخذا أساسًا للبحث في التفاصيل .

«الأولى» هي أن الإسلام قد وضع إلى جانب كل قانون . بل فوق كل قانون

قانونًا أعلى يقوم على الضرورة التي تبيح كل محظور ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ (الأنعام: ١١٩) .

«الثانية» هي أنه لأجل أن يكون تطبيق قانون الضرورة على مسألة ما تطبيقا مشروعًا لا يكفي أن يكون المرء عالمًا بقواعد الشريعة، بل يجب أن يكون له من الورع والتقوى ما يحجزه عن التوسع أو عن التسرع في تطبيق الرخصة على غير موضعها، كما يجب أن يبدأ باستنفاد كل الحلول الممكنة المشروعة في الإسلام، فإنه إن فعل ذلك عسى ألا يجد حاجة للترخص ولا للاستثناء، كما هي سنة الله في أهل العزائم من المؤمنين، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(٢)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢-٣).

موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها

١- تمهيد:

هذا البحث آخر ما كتب الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله، كتبه لإلقائه في الندوة العالمية للإسلاميات التي انعقدت بلاهور في باكستان وشاء الله أن يلقيه غيره لوفاة الشيخ أثناء انعقاد الندوة ونشر البحث أولاً بمجلة لواء الإسلام كما تكرر نشره في عدة كتب للشيخ (دراسات إسلامية - الدين - حصاد قلم).

٢- الإسلام بمعناه القرآني:

ويبدأ البحث ببيان معنى كلمة (الإسلام) بمعناها القرآني فيقرر أن الإسلام في لغة القرآن ليس اسمًا لدين خاص، وإنما هو اسم الدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء.

هكذا نرى نوحًا يقول لقومه : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١] .

ويعقوب يوصي بنيه : ﴿ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٢] .

وأبناء يعقوب يجيبون أباهم : ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَـهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٣] .

وموسى يقول لقومه : ﴿يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾[٤] .

---

(١) يونس من الآية ٧٢ .

(٢) البقرة من الآية ١٣٢ .

(٣) البقرة من الآية ١٣٣.

(٤) يونس من الآية ٨٤ .

والحواريين يقولون لعيسى : ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١) .

بل أن فريقًا من أهل الكتاب حين يسمعوا القرآن: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾(٢) .

وبعد أن أورد الدكتور دراز هذه النصوص القرآنية الدامغة يؤكد أن اسم الإسلام شعار عام يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية، ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها في قضية واحدة يُوجهها إلى قوم محمد - ﷺ - ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم دينًا جديدًا، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم .

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٣).

ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم بنظمهم في سلك واحد، ويجعل منهم جميعًا أمة واحدة لها إله واحد كما لها شريعة واحدة : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(٤) .

ويتساءل الدكتور دراز : عن هذا الدين المشترك الذي اسمه الإسلام، والذي هو دين كل الأنبياء والمرسلين؟

ويجيب: إن الذي يقرأ القرآن يعرف كنه هذا الدين : إنه هو التوجه إلى الله رب العالمين في خضوع خالص لا يشوبه شرك، وفي إيمان واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أي لسان وفي أي زمان أو مكان، دون تمرد على حكمه، ودون تمييز شخصي أو طائفي أو عنصري بين كتاب وكتاب من كتبه ، أو بين رسول ورسول من رسله .

(١) آل عمران من الآية ٥٢.

(٢) القصص من الآية ٥٣.

(٣) الشورى من الآية ١٣.

(٤) الأنبياء من الآية ٩٢ .

هكذا يقول القرآن ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[1] ويقول: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2] .

٣ـ الإسلام بمعناه العرفي الجديد:

يبين الدكتور دراز أن كلمة الإسلام قد أصبح لها في عرف الناس مدلول معين، هو مجموعة الشرائع والتعاليم التى جاء بها محمد ـ ﷺ ـ أو التى استنبطت مما جاء به، كما أن كلمة اليهودية أو الموسوية تخص شريعة موسى وما اشتق منها، وكلمة النصرانية أو المسيحية تخص شريعة عيسى، وما تفرع عنها .

يقول الدكتور دراز:

«السؤال الآن إنما هو عن الإسلام بمعناه العرفي الجديد، أعنى عن العلاقة بين المحمدية وبين الموسوية والمسيحية، وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نقسم البحث إلى مرحلتين.

المرحلة الأولى: في علاقة الشريعة المحمدية بالشرائع السماوية السابقة وهي في صورتها الأولى لم تبعد عن ضبطها و لم يتغير فيها شيء بفعل الزمان ولابيد الإنسان.

المرحلة الثانية: في علاقته بها بعد أن طال عليها الأمد وطرأ عليها شرع من التطور والتحريف.

٤ـ موقف الإسلام من الديانات الأخرى من الوجهة النظرية :

يخلص الدكتور دراز إلى أن علاقة الإسلام بالديانات السماوية في صورتها الأولى هي علاقة تصديق وتأييد كلي، وأن علاقته بها في صورتها المنظورة علاقة تصديق لما

(١) البينة من الآية ٥ .

(٢) البقرة من الآية ١٣٦ .

بقى من أجزائها الأصلية وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة عنها .

هـذا الطابع الذي تتسم به العقيدة الإسلامية، وهو طابع الإنصاف والتبصير الذي يتقاضى كل مسلم ألا يقبل جزافا، ولا ينكر جزافا وأن يصدر دائمًا عن بصيرة وبينة في قبوله ورده ليس خاصًا بموقفها من الديانات السماوية بل هو شأنها أمام كل رأي وعقيدة، وكل شريعة وملة ، حتى الديانات الوثنية نرى القرآن يحللها ويفصلها، فيستبقي ما فيها من عناصر الخير والحق والسنة الصالحة، وينحى ما فيها من عناصر الباطل والشر والبدعة .

٥- موقف الإسلام من الديانات الأخرى من الوجهة العملية :

يقول الدكتور دراز «هل يقف منها موقف السكوت عليها، والإغضاء عنها، اكتفاءًا بالأمر الواقع... أم هل يقف كالمحارب المقاتل لا يهدأ لـه بال حتى يطهر الأرض منها ومن أهلها؟

قليل من الكتاب الغربيين يجيبنا بالشق الأول حتى قال قائل منهم (جوتييه في كتاب أخلاق المسلمين وعوائدهم) : إن المسلم أناني، وإن الإسلام يشجعه على هذه الأنانية، فالمسلم لا يعنيه ضل غيره أم اهتدى، سعد أم شقى، ذهب إلى الجنة أم إلى السعير.

وأكثر الكاتبين يجيبون بالشق الثاني: فالإسلام في نظر هؤلاء يريد أن يفرض نفسه على الناس بحد السيف، والقرآن في نظرهم يأمر المسلم بأن يضرب عنق الكافر أينما لقيه ... الواقع أن كلا الفريقين لم يصب كبد الحقيقة في تصوره لموقف الإسلام، ليس الإسلام فاترًا ولا منطويًا على نفسه كما زعم الأقلون، فالدعوة إلى الحق والخير ركن أصيل من أركان الإسلام، والنشاط في هذه الدعوة فريضة مستمرة في كل زمان ومكان.

يأمر الله نبيه بتبليغ كلامه، وبأن يبذل جهده في هذا التبليغ: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[١] والقرآن يحرض المؤمنين على هذه الدعوة : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً

(١) الفرقان من الآية ٥٢ .

مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾[1] بل يجعل الفلاح والنجاة وقفًا على هؤلاء الدعاة ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2] ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢)إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[3] .

ولكن الإسلام في الوقت نفسه ليس كما يزعم الأكثرون، عنيفًا ولا متعطشًا للدماء وليس من أهدافه أن يفرض نفسه على الناس فرضًا حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، فنبي الإسلام - ﷺ - هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هي محاولة فاشلة ، بل هي مقاومة لسنة الوجود ومعاندة لإرادة رب الوجود : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[4] . ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[5] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[6]﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[7].

ومن هذا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة المبرمة في القرآن قاعدة حرية العقيدة : ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[8] ومن هنا رسم القرآن أسلوب الدعوة ومنهاجها فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة في رفق ولين : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾[9] .

على أن الإسلام لا يكتفي منا - بعد قيامنا بواجب النصح والإرشاد - لا يكتفي منا برضا الموقف السلمي السلبي، وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه ، بل يتقدم بنا

(١) آل عمران: ١٠٤ .
(٢) فصلت من الآية ٣٣ .
(٣) العصر: ٢ - ٣ .
(٤) هود: ١١٨ .
(٥) يوسف: ١٠٣ .
(٦) يونس: ٩٩ .
(٧) القصص من الآية ٥٦.
(٨) البقرة من الآية ٢٥٦.
(٩) النحل من الآية ١٢٥.

إلى الأمام فيرسم لنا خطوات إيجابية نكرم بها الإنسانية في شخص غير المسلمين .

هل ترى أسمى وأنبل من تلك الوصية الذهبية التى يوصينا بها القرآن في معاملة الوثنية التي هي أبعد الديانات عن الإسلام فضلاً عن الديانات التي تربطنا بها أواصر الوحي السماوي ؟ إقرأ في سورة التوبة ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾(١) فأنت تراه لا يكتفي منا بأن نجير هؤلاء المشركين ونؤويهم ونكفل لهم الأمن في جوارنا فحسب، ولا يكتفي منا بأن نرشدهم إلى الحق ونهديهم طريق الخير وكفى ، بل يأمرنا بأن نكفل لهم كذلك الحماية والرعاية في انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذي يأمنون فيه كل طائلة.

ثم هل ترى أعدل وأرحم، وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية ، التى لا تكتفى بأن تكفل لغير المسلمين في بلاد الإسلام حرية عقائدهم وعوائدهم ، وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم ، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من الحقوق العامة«لهم مالنا وعليهم ما علينا» .

ثم هل ترى أوسع أفقًا، وأرحب صدرًا وأسبق إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولي والتعايش السلمي بين الأمم، من تلك الدعوة القرآنية التى لا تكتفي في تحديد العلاقة بين الأمم الإسلامية وبين الأمم التى لا تدين بدينها ولا تتحاكم إلى قوانينها .

لا تكتفى في تحديد هذه العلاقة بأن تجعلها مبادلة سلم بسلم ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾(٢) . ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾(٣) . بل تندب المسلمين إلى أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف رحمة وبر، وعدل وقسط: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ

---

(١) التوبة من الآية ٦ .   (٢) الأنفال :من الآية ٦١ .

(٣) النساء: من الآية ٩٠ .

وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1] ، ليس هذا هو كل شيء في تحديد الموقف الإنساني النبيل الذي يقفه الإسلام عمليًا من غير أتباعه، ولضيق المقام نكتفي بكلمة واحدة «إن الإسلام لا يكف لحظة واحدة عن مد يده لمصافحة أتباع كل ملة ونحلة في سبيل التعاون على إقامة العدل، ونشر الأمن وصيانة الدماء أن تسفك، وحماية الحرمات أن تنتهك ، ولو على شروط يبدو فيها بعض الإجحاف.. ناهيك بالمثل الرائع الذي ضربه لنا رسول الله - ﷺ - في هذا المعنى ، حين قال في الحديبية:

«والله لا تدعوني قريش إلى خطة توصل فيها الأرحام وتعظم فيها الحرمات إلا أعطيتهم إياها »[2] .

فهذا هو مبدأ التعاون العالمي على السلام . يقرره نبي الإسلام - ﷺ - ورسول السلام.

---

(١) الممتحنة: ٨ .

(٢) البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب.

الإسلام والسلام الديني العالمي

بين يدي البحث:

هذا البحث الهام ألقاه الدكتور دراز في مؤتمر الأديان العالمي في باريس عام ١٩٣٩م ونشر البحث في مجلة الأزهر عام ١٩٣٩ كما نشر في الكتاب الجامع (دراسات إسلامية) .

ممثل الأزهر:

يقول الدكتور محمد رجب البيومي ظل الأزهر طوال تاريخه العريق يمثل الإسلام في كل رأي يبديه وحتى يوم الناس هذا، ودعوة الإسلام إلى السلام الديني دعوة إحتضنها الأزهر من قديم - ويلتزمها أي إلتزام وقد أبان كثير من علماء الأزهر هذه الدعوة . في كثير من المحافل الدينية الدولية. ممثلين للأزهر.

وكان من هؤلاء العلماء الدكتور محمد عبد الله دراز .

وقد ذكر الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه «الأزهر بين السياسة وحرية الفكر» حديثًا منيرًا عن الأزهر والسلام الديني فذكر حفظه الله :

«إن رأي الأزهر في السلام الديني ذائع مشتهر في أوربا وأمريكا أذاعه شيخه الأكبر الإمام محمد مصطفى المراغي[1] في مؤتمر الأديان ببروكسل عام ١٩٣٦م.

(١) هو الإمام الأكبر محمد مصطفى المراغي . ولد (بمراغة) من أعمال جرجا سنة ١٨٨١م اتصل بالشيخ محمد عبده وتأثر بفكره . نال العالمية سنة ١٣٣٢هـ .

رشحه الإمام محمد عبده فتولى القضاء في الخرطوم سنة ١٩٠٤ .

وفي سنة ١٩٠٧ اختلف وقاضى قضاة السودان فقدم استقالته وعاد إلى مصر .

وفي سنة ١٩٠٨ أصدر الخديوي قرارًا بتعيينه قاضيا لقضاة السودان .

وفي سنة ١٩١٩ قامت الثورة وإمتدت آثارها إلى السودان فأصدر المراغي نشرة ثائرة وتولى رئاسة التفتيش بوزارة العدل سنة ١٩١٩ ثم رئيسًا لمحكمة مصر الكلية الشرعية سنة ١٩٢٠ فرئيسًا للمحكمة الشرعية العليا ١٩٢٣ - أصدر عام ١٩٢٠ قانون الأحوال الشخصية وعدل قانون الطلاق ونادى بفتح باب الاجتهاد - ودعا إلى توحيد=

وأذاعـه في باريس عـالم من ألمع علمـاء الأزهر ونابغيـه وهو الأسـتاذ الدكتور محمد عبد الله دراز في مؤتمر الأديان في باريس عام ١٩٣٩م وما زال ممثلوا الأزهر يعلنون في كل مؤتمر يدعى إليه الأزهر ويلتمس منه النفع والإنصاف[١] .

*** معنى السلام الديني العالمي :**

ويرى الدكتور محمد البهي[٢] أن السـلام العالمي معناه نبذ الخصومات بين الشعوب والجماعات . وقيـام العلاقات بينهمـا على أسـاس من الاسـتقرار والطمأنينة والسـلام العـالمي وهو توجيـه نشـاط الشـعوب والجماعـات نحـو حيـاة إنسـانية أفضل وأهدأ وتوجيهها إلى البناء بدلاً من الهدم لصالح الجماعة العامة. وهي الإنسانية[٣] .

*** مؤتمر باريس ١٩٣٩م :**

أختار الإمـام الأكـبر محمد مصطفى المراغي أن يكـون الدكتور محمد عبد الله دراز ممثل الأزهر في هـذا المؤتمر العـالمي[٤] الذي ضم صفوة المفكريـن من رجـال الأديان في الشـرق والغرب، فانتدبـه ليلقي كلمـة الأزهر ممثلـة للإسـلام في هذا المؤتمر . وليسـت المهمة بسـهلة في مناسبتها ومجتمعهـا ورجالها، لأن الرءوس في كل ديـن سيتحدثون بما يجلو النقاب عن عقائدهم. ولكل فكره الصوال وحجاجه الدقيق[٥] .

استهل الدكتور دراز كلمتـه مبينا مكانة الأزهر الذي يمثله في المحيط العالمي. «باسـم الأزهر ، ذلك البيت العتيق الذي هو أقدم الجامعـات الدينية العلميـة المعروفة في العالم،

= المذاهب وكـانت له مواقـف ضد الملك تبين اعتزازه بكرامتـه وترك أكـثر من سـبع مؤلفات ومـات عام ١٩٤٥ نقلاً عن كتاب شيوخ الأزهر ١٩٨٥ .

(١) د. محمد رجب البيومي ـ الأزهر بين السياسة وحرية الفكر ص ١٤٢.

(٢) الدكتور محمد البهي .

(٣) د. محمد البهي ـ الإسلام في حياة المسلم ، ص ٤٦٥ مكتبة وهبة .

(٤) انظر فصل المحاضرة في كتاب د/ دراز ـ دراسات إسلامية من ص ١٢٩ ـ ص ١٣٩ دار القلم .

(٥) د. محمد رجب البيومي .

وأكبر المفاخر الأدبية للقطر المصري ولمدينة القاهرة، والمركز الذي تلتف حوله قلوب مئات الملايين من البشر ، يعدونه رمزًا خالدًا لحضارتهم، ومنبعًا دائم الفيضان لثقافتهم الروحية .

ثم أردف مبينًا فضل الإسلام على هذا العالم. اللاهث في حروبه - الغارق في ذنوبه التائه عن درب عزه وأمنه فقال:

«باسم الإسلام، ذلك الدين الخاتم الذي أخرج للناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، ويمحو ما بينهم من فوارق الأنساب والأجناس، واللغات والألوان، ليجمع منهم أمة واحدة على قدم سواء، لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالعمل الصالح.

بل باسم الإنسانية التي اجتمعتم اليوم للتشاور في الوسائل الفعالة لتخفيف آلامها، وإنقاذها من الهاوية، التى أشرفت على التردي فيها .

باسم الأزهر والإسلام والإنسانية، أرحب بقدومكم، وأحيي فيكم ذلك الشعور النبيل الذي أوحى إليكم فكرة هذا المؤتمر، وأتمنى لكم النجاح والتوفيق، فيما ترسمونه من الخطط لتأييد السلام العام»[1] .

وقد أنعم الله بالتوفيق على الدكتور دراز حين واجه العالم المتحضر ممثلاً في رؤوسه المفكرة بإيضاح معنى السلام في الإسلام حيث يهدف إلى إسعاد الإنسانية بإزالة ما يكدر الصفاء ويسبب الشقاء . إذ تحدث عن الواقع العالمي الراهن بما ينبىء عن قلقه وفزعه، وهكذا كان العالم قبيل الحرب العالمية الثانية .التى لم تلبث أن نشبت بعد ثلاثة أشهر فحسب فتساءل الأستاذ عن سر الشحناء السائدة بين الدول ورد باعثها إلى

---

(١) د. محمد عبد الله دراز - دراسات إسلامية ص ١٣٠ .

سيطرة المادية سيطرة حازبة، ولا علاج إلا بإنعاش القوى الروحية في الأمم عن طريق الدين[1] ، وقد كان المتكلم صريحًا حين قال في وضوح «إن نظرة واحدة نلقيها على العالم اليوم، لتكفي لإدراك ما يسود بين شعوبه من روح العداوة والشحناء، وما ينبعث في أقطاره من زفرات الشكوى والأنين.

فمن أين جاءت هذه النزعة الشريرة التى تنذر بأسوأ العواقب؟ أليس منشؤها هو تحكم المادية وازدياد نفوذها في تسيير مجرى الأمور العالمية .

وإذا كان الأمر كذلك أفلا يكون العلاج الوحيد هو أن نعود إلى الروح فنعيد إليها سلطانها الذي أهملناه في هذا العصر إهمالاً كبيرًا؟ ثم ما هي تلك القوة التى تستطيع أن تضطلع بهذا العبء الشاق إن لم تكن هي قوة الدين[2] .

وهو يعلم أن رجال الدين يتنازعون كما يتنازع الماديون ـ وقد أعمل الرجل فكره ليجمعهم في جبهة واحدة ينتفي معها النزاع، وقال في توضيح ذلك :

«غير أننا إذا رجعنا إلى الأديان نلتمس منها المعونة، هالنا ما نراه من إختلافها إختلافًا طالما كان من أسباب الخصومات والحروب، بدل أن يساعد على حسن التفاهم والتقريب بين القلوب، فهل نستطيع أن نجد من وراء هذا الإختلاف وحدة مشتركة في المبادئ والمطامح تصلح أن تكون محورًا لتقرير السلام بين معتنقيها، وتسهيل تعاونهم على الخير المشترك للجميع؟ هذه هي النقطة الأساسية التى تدور عليها أعمال المؤتمر، وهذا هو الإشكال الذي يحاول المؤتمر أن يجد له حلاً. ويرى الدكتور دراز أن يكون الحل على أساس الفصل في الأديان بين ناحيتها الإجتماعية وبين نواحيها الأخرى فيقول:

«أما أنا فأميل إلى أن يكون هذا الحل على أساس الفصل في الأديان بين ناحيتها الاجتماعية وبين نواحيها الأخرى، وأعتقد أن إفتراق الأديان في عقائدها وشعائرها

---

(١) د. محمد رجب البيومي ـ النهضة الإسلامية جـ٨ ص ١٦٨.

(٢) د. دراز ـ دراسات إسلامية ص ١٣٠ .

وكثير من تعاليمها لا يمنع إلتقاءها من الوجهة الخلقية عند قاعدة واحدة هي أساس التعاون المطلوب، وذلك أنها كلها تأمر بالعدل والإحسان ، وتنهى عن الظلم والعدوان، وكلها تسوى في هذه المعاملة الدنيوية بين أتباعها وبين أعدائها(١) .

يقول الدكتور البيومي حفظه الله:

لقد نادى الأستاذ إذن بالحل العملي، بعيدًا عن الغوص الجدلي في مشكلات لا تصل إلى نتائج . وبعيدًا عن التظاهر بالعمق النظري تظاهرًا يعود على القائل بالمباهاة دون أن يفيد المجتمع الإنساني شيئًا ذا بال، وقد ساعد الأستاذ إطلاعه المقارن الشامل على أن يتحدث عن الديانات المختلفة من هندية وبوذية ويهودية وإسلامية حديثًا واعيًا بصيرًا ليأخذ من كل دين دعوته إلى السلم المتسامح فيعتدها حجر الزاوية في لقاء هذه الأديان . وكان من الطبيعي أن يفضل رأي الإسلام نظريًا وعمليًا في قضية السلام العالمي(٢).

ويرى الدكتور دراز أن دعوة الإسلام إلى الإئتلاف قد قامت من الناحية النظرية على دعامتين.

الأولى: من طريق توحيد الغاية، وذلك بدعوة الناس جميعًا إلى عبادة إله واحد.

الثانية: من طريق التوفيق بين وسائل هذه الغاية وذلك ببيان أن الشرائع السماوية ترجع كلها إلى أصل واحد، ودعوة معاصريه من أهل الأديان السابقة إلى تكوين أسرة روحية واحدة تؤمن بجميع الكتب وجميع الأنبياء بدون تفريق بين أحد منهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾(٣) . ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٤) . ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(٥) .

---

(١) نفس المرجع ص ١٣١ .
(٢) المرجع السابق ص١٣٢ .
(٣) الأنعام ١٥٩ .
(٤) آل عمران: ٨٤ .
(٥) الأنبياء: ٩٢ .

ويرى الدكتور دراز القرآن في أثناء هذه الدعوة يعنى دائمًا بربط الإسلام بالأديان التى سبقته منذ عهد نوح : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾(1).

ويصور نبي الإسلام ﷺ بصورة المأمور باتباع هدي من قبله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ ﴾(2) .

ويقول أنه لم يجيء بجديد يهدم القديم وإنما جاء مجددًا لما اندرس منه، مبينا لما خفي، مصححًا لما حُرِّف: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾(3) وبالجملة ليعيد الدين إلى نقاوته الأولى.

ويبين الدكتور دراز أن اسم الإسلام نفسه «في إصطلاح القرآن» اسم مشترك يضعه القرآن على لسان أكثر الأنبياء المتقدمين، يقول في شأن إبراهيم:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(4).

وفي شأن يعقوب:

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(5) .

وفي شأن التوراة وأنبياء بني إسرائيل:

﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾(6) . وهو حين يقول بصيغة الحصر : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ لا يمكن أن يعني إلا هذا المعنى المشترك بين الأديان المنزلة، وإلا كان هادمًا للأساس الذي أراد أن يقم عليه بناء هذه الوحدة .

---

(1) الشورى ١٣ .
(2) الأنعام ٩٠.
(3) المائدة ١٥ .
(4) البقرة : ١٣١ .
(5) البقرة: ١٣٣
(6) المائدة ٤٤ .

- وينبه الدكتور دراز في نقطة هامة جدًّا يجب التنبه إليها : وهي أن القرآن حين دعا إلى هذه الوحدة لم يجعلها غاية يطلب الوصول إليها من كل طريق، وشراءها بكل ثمن، بل نظر إليها كمثل عال وأمل عزيز ينبغي الإقتراب منه بقدر الطاقة ، واعترف في أكثر من موضع بأن هذا الأمل متعذر التحقيق: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(١١٨)إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾(١) .

ويؤكد أن هذه النظرة لها نتائجها الطبيعية في مسلك الإسلام بإزاء مخالفيه، فهى التى جعلته يواجه الحقيقة الواقعة بالإحتمال والتسامح .

ويؤكد أن هذه الحقيقة هي التى حددت مهمة الرسول ﷺ بأنها ليست هي إكراه الناس على الإيمان وإنما هي التعليم والإنذار ثم تفويض الأمر في عقائدهم إلى الله الذي سيتولى الحكم بينهم في يوم الفصل ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٢) .

ومضى الدكتور دراز يستعرض نظائر هذه الآيات(٣)، ثم قال: «ومن المهم أن نلاحظ أن هذا الموقف لا يخص علاقة المسلمين بأهل الكتاب، فإن أكثر هذه النصوص مكية في شأن الوثنيين أنفسهم .

وقد صرح القرآن بأن هذه هي حدود مهمة الرسول ﷺ بإزاء الطوائف كلها، وذلك في تلك الآية المدنية الجامعة : ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(٤) .

هكذا ببراعة فائقة إستطاع الدكتور دراز الإتيان على ما في القرآن وتاريخ نبيه ﷺ من براهين على سماحة الإسلام وسعيه للوحدة والإئتلاف بأوسع ما في حدود الإمكان

---

(١) هود ١١٨ .
(٢) يونس ٩٩ .
(٣) د. دراز - دراسات إسلامية ص ١٣٥ .
(٤) آل عمران: ٢٠ .

وأبـان ذلك من الوجهـة النظرية التى سـعى الإسـلام من خلالها لتأسـيس هذه الوحدة على دعامتين ـ توحيد الغاية والتوفيق بين وسائل هذه الغاية .

أما من الوجهة النظرية فقد أبان رحمه الله أن الإسلام:

أولاً: قد حظّر البدء بمناوشـة مخالفيه أو مضايقتهم في الحيـاة المادية ما داموا مسالمين لـه، وأمر في هذه الحـال بحسـن جوارهم ليس بطريقـة سـلبية فحسـب بل بالبر إليهم، والعدل بينهم **﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّـهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**[١] .

ثانيا: في الحال التى تستحكم فيها العداوة وتكون الظروف مهددة باحتمال وقوع حرب، وضع الإسـلام وسائل كافية لاتقائها في الوقت نفسه الذي يكون فيه المسلمون أشـد قوة ، وأوصى بقبول كل شروط يعرضهـا المخالفون ما دامت تؤدي لحقن الدماء وصيانة الحرمات وحسن العلاقات بين الجانبين .

ومن الأمثلـة الواضحـة في هذا الموقـف السـلمي النبيل تلـك المعـاهدة التي وقّعها الرسـول ﷺ بنفسـه مع قريش في عام الحديبيـة[٢] ،هذا والمعـاهدات الإسـلامية ليست حبرًا على ورق، بل هـي عقـود دينية يوجب الإسـلام تنفيذها بدقـة وأمانة حتى مع الوثنيين[٣]: **﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾**[٤] .

ثالثًا: في الحال التي تصبح فيها الحرب أمرًا واقعًا :

وضع الإسـلام قواعد عمليـة كثيرة تخفف من أهوالهـا وتحدد بإنصـاف مـا يقتضيه

(١) الممتحنة ٨ .

(٢) انظر صحيح البخاري عن المسور بن مخرمة ك/ الشروط ب/ الشروط في الجهاد والمصالحة (٢٥٢٩) .

(٣) د/ دراز ـ دراسات إسلامية ص ١٣٦ .

(٤) التوبة ٤ .

الموقف الدفاعي البحت، فنهى عن قتل المرأة في بيتها والراهب في متعبده، والفلاح في مزرعته، وبالجملة حصر القتال في ميدان الحرب لا يتعداه : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾(١) ، وفي هذا الميدان نفسه نهى عن التشفي بالتمثيل والتعذيب: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٢) .

رابعًا: في الحال التي تنجلي فيها المعركة عن ظفر المسلمين :

ضرب الإسلام أمثلة عالية في الكرم والصفح عن الماضي وعدم الاستمرار في تتبع الفارين الذين يطلبون الأمان ويلقون كلمة السلام: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٣) . ومن أروع الأمثلة في ذلك موقف الرسول ﷺ يوم فتح مكة مع قريش الذين ناصبوه الحرب والعداء أكثر من عشرين سنة، إذ قال لهم بعد أن ظفر بهم:« إذهبوا فأنتم الطلقاء» وأطلق سراح أكثر من ستة آلاف أسير .

هذا عن موقف القرآن من الوجهة العملية.

أما محمدًا ﷺ نفسه فقد كان مطبوعًا بفطرته على التسامح وحب السلام وأنه كان داعية توفيق لا تفريق، وذلك ما تدل عليه كل حياته ﷺ حتى قبل النبوة .

ودلل الدكتور دراز على ذلك بشواهد من السيرة النبوية(٤) .

وفي ختام كلمته البارعة استخلص الأستاذ الكبير نتائج ثلاثًا تنحصر في أن الأديان:

أولاً: يجب أن تكون سبب وفاق ووئام لا مدعاة نزاع وخصام .

ثانيًا: أن السبب الحقيقي لهذه الخصومات هو بالعكس تعمد الإنحراف عن الدين، وأن كل طائفة تثير نار الحرب باسم الدين كاذبة في دعواها الإنتساب إلى دينها .

---

(١) البقرة: ١٩٠.

(٢) البقرة: ١٩٠ .

(٣) النساء : ٩٤ .

(٤) د/ دراز ـ دراسات إسلامية ص ١٣٧ .

ثالثا: أن العلاج الوحيد للآلام الإنسانية الحاضرة هو أن يعنى رجال كل دين عناية خاصة بالجانب الخلقي العام فينموا في أتباعهم عاطفة الأخوة الإنسانية باسم الدين نفسه ويؤكد رحمه الله أن هذا التقارب والتعاون في الحياة العملية إن تم على وجهه سيكون خطوة أولية في سبيل التفاهم في الحقائق الدينية نفسها، ويرجى من وراء ذلك تقليل فوارقها النظرية وتسهيل الوصول إلى الحقيقة بالبحث الحر، في جو وديّ نزيه[1].

وفي الختام عرض الدكتور دراز على هيئة المؤتمر اقتراحين عمليين .

الأول: أن تنشر خلاصة قرارات المؤتمر على رجال الدين في كل أمة وأن يرجى منهم المساهمة في علاج الأزمات الراهنة بتحريض أتباعهم على اقتفاء هذه المثل العليا.

الثاني: أن يطلب باسم المؤتمر إلى مختلف الحكومات أن تنصف الشعوب المظلومة التي تحت نفوذها .

إننا إن فعلنا ذلك نكون قد قمنا بنصيبنا من الواجب الديني والإنساني لخير الجميع؟[2]

وحين ختم الدكتور دراز كلمته أعلن السير فرنسيس رئيس المؤتمر أن كلمة مندوب الأزهر تعد الكلمة الرئيسية في المؤتمر، وأثنى عليها المعقبون بما تستحق من تنويه وكان من حظها أن تخصها الصحف الفرنسية بخلاصة وافية ، وأن تجمع على أنها الكلمة الأولى في المؤتمر[3] .

---

(١) دراسات إسلامية ص ١٣٩ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣) د. محمد رجب البيومي - النهضة الإسلامية ج ٥ ص ١٦٩ .

الإسلام والقتال[1]

١- قصة البحث:

هذا البحث كتبه الدكتور دراز استجابة لطلب الأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه الله حين كان رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر حيث أصدر الأستاذ الزيات عددًا خاصًا عن الفتوح الإسلامية، استكتب فيه كوكبة من العلماء والمفكرين (د. عبد الوهاب عزام والأستاذ عبد الحميد العبادي والدكتور محمد عبد الله دراز والأستاذ سيد قطب والشيخ محمد محمد المدني والشيخ على الخفيف والدكتور أحمد أمين والشيخ محمود شلتوت والأستاذ عبد الوهاب خلاف والدكتور محمد يوسف موسى والأستاذ عباس محمود العقاد والشيخ محمد عرفة والدكتور أحمد فؤاد الأهواني والدكتور على عبد الواحد وافي والدكتور حلمي عبد الرحمن وغيرهم) وكان مدار بحوث هؤلاء الأعلام أن ظهور الإسلام كان فتحًا لعالم جديد كان فتحًا في الأرض، للعمران والإصلاح، وكان فتحًا في التشريع للنظام والعدل وكان فتحًا في الأدب للابتكار والتجديد ؛ وكان فتحًا في العلم والموسيقى.

فجاء عددًا قيمًا يلخص فضل العرب والمسلمين في كل باب من أبواب الثقافة وفي كل فن من فنون الحضارة[1].

٢- الإسلام رسالة السلام:

يبين الدكتور دراز في صدر هذا البحث طبيعة دين الإسلام ونبي الإسلام ﷺ وهي طبيعة السلم والسلام والمحبة والرحمة لكل بني الإنسان فمنذ أول يوم ظهر فيه الإسلام في شعاب مكة ووديانها، وهو يرفع راية السلام بيضاء نقية لا شية فيها أليس يبدو نبي الإسلام ﷺ باسطًا جناحي رأفة ورحمة يفيء إلى ظلها الوارف أنصاره وأعداؤه على السواء؟

---

(١) مجلة الأزهر - الجزء الأول - المجلد الرابع والعشرون : غرة المحرم سنة ١٣٧٢هـ - سبتمبر ١٩٥٢م.

ألست تسمع كتاب الإسلام وهو يحدد مهمة حامله؟ فإذا هي هداية وإرشاد، وموعظة وتذكير، وإنذار وتبشير ويجمع ذلك كله في كلمة واحدة : «بلاغ» .

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[1] .

﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[2] .

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ(٢١)لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾[3] .﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾[4] .

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾[5] ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[6].

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[7] ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ﴾[8] .

وزد ماشئت من سماحة وكرم، لا ترى فيها شائبة لعنف ولا انتقام وأثارة من مقاومة أو صدام ... الإسلام إذًا هو رسالة السلام[9].

٣ـ محمد ﷺ رسول السلام :

أوضح الدكتور دراز ضلال فريق من كتاب الغرب حين قالوا: « إن محمدًا ﷺ كان متعطشًا للدماء بفطرته، ولم يمنعه من سفكها إذ كان في «مكة» إلا أنه كان من الأعوان في قلة ، ولم يكن أعوانه في عامة الأمر يومئذ إلا الضعفاء والمستضعفين، فكان تسامحه حينذاك ضرورة ألجأه إليها العجز، وفقد النصير حتى إذا واتته الفرصة في موطنه

(١) النحل : ١٢٥ .
(٢) القصص: ٥٦ .
(٣) الغاشية : ٢٢
(٤) ق : ٤٥ .
(٥) المؤمنون: ٩٦ .
(٦) الأحقاف : ٣٥ .
(٧) الأعراف: ١٩٩.
(٨) آل عمران: ٢٠.
(٩) انظر البحث كاملاً في كتاب «حصاد قلم» دار القلم بالكويت والقاهرة .

الجديد اهتبلها، وغمس يده في الدماء إشباعًا لغريزة الثأر والتشفي .

هكذا يصور من تشعبت بهم الظنون وتحرروا من قيود العيان والبرهان !

هؤلاء الذين أغراهم الهوى وهم واقفون في محراب العلم وهم لم يفيقوا من نشوة نزعاته وعصبياته، ولم يتجردوا من سلطان عقائده وعوائده. فنشروا ضلالهم في الناس باسم العلم وفلسفة التاريخ وما هي من العلم ولامن التاريخ في شيء نعم لقد اصطدموا بحقائق التاريخ في كل مسلك سلكوه، وضلوا ضلالاً بعيدًا في كل مثل ضربوه[1].

٤- جواب من السيرة:

ويفسر الدكتور دراز سبب ضلال هذا الفريق من كتاب الغرب في تصوير بواعث الحروب المحمدية فيقول:

«ذلك أن الذين درسوا منهم نفسية محمد ﷺ في مختلف أطواره. في شبابه وكهولته، في بأسائه ونعمائه، حتى في أوج سلطانه، شهدوا بأن محمدًا لم يكن يومًا فظ الطبع، ولا غليظ القلب، ولا خشن العشرة، ولا عاتي الحكم، ولا حامل ضغينة على صديق أو عدو . ولئن كانت في طباعه نزعة عاتبه الوحي فيها عتابًا بلغ حد اللوم والتثريب.

(لقد كانت تلك ، على العكس، نزعته للصفح عن أعدائه، ومجازاتهم بالذنب غفرانًا، وبالسوء إحسانًا، وإن شواهد سيرته العطرة في هذا كله لأشهر من أن ينبه عليها، وأكثر من أن يعد بعضها . ناهيك بمنه الحياة على قريش وهم في قبضته، بعد ما تآمروا على قتله.

وجملة القول : إن خوض محمد ﷺ غمار الحرب لأول مرة كان حادثًا فجائيًا حقا، لم تمهد له مقدمات من حياته بالمدينة، كما لم تمهد له مقدمات من ميوله ونزعاته، ولا من شخصيته ومنزلته في قومه .

---

(١) بتصرف يسير عن الدكتور دراز «رأي الإسلام في القتال» .

فالواقع أن أول حرب في الإسلام لم يوقدها المسلمون، بل كانوا وقودها، وأن أعداء الإسلام هم الذين أشعلوا نارها، وأطاروا شررها. لا أقول أنهم كانوا سببها البعيد فحسب، بل كانوا هم معلنيها عمليًا، والمتسببين فيها من طريق مباشر؛ وماكان من المسلمين إلا أنهم قبلوا التحدي، وردّوا التعدي .

٥- سبب الخطأ :

بعد أن صحح الدكتور دراز الوضع في موقف المستشرقين حيث ضلت الأفهام وزلت الأقلام يؤكد الدكتور دراز إن أمثال هذه الضلالات والزلات في تحديد موقف الإسلام من الحروب مردها إلى تلك النظرات الجزئية الجانبية في نصوص التشريع، وإلى تلك الوقفات المترددة عند أطرافها المتباعدة .

ومن هنا يدعو الدكتور دراز الباحثين المنصفين من كتاب الغرب أن ينتقلوا من هذه الأطراف إلى الحد الوسط الذي كان وجوده في القرآن حكمة بالغة وحجة دافعة، تنقطع عند نصوصها كل الفروض والظنون، وتنهزم أمامها كل التعليلات والتأويلات، فإنه متى ظهر النص بطل القياس، ومتى طلع النهار زال كل لبس والتباس.

٦- القرآن يقهر الحرب المشروعة:

أجل إن القرآن الحكيم لم يكتف في تعيين مراده بأنه كان يدعو إلى السلم في ظروف وملابسات عادية توائمه، ويأمر بالقتال في ظروف وملابسات استثنائية محتمة، ولو أن القرآن نزل لأهل عصره وحدهم لكفاهم ذلك. إذ كان واقع الحال في كلا المقامين تفسيرًا شافيا لموقع كل تشريع، وتحديدًا كافيًا لمجال تطبيقه، أما وهو دستور الإنسانية الخالد فقد كان من الحكمة السامية ألا يعتمد في تحديد مقاصده على ظروف واقعية في عصر نزوله .

ولقد أوضح الدكتور دراز أن القرآن قام بهذه المهمة على أدق وجه في آيات جامعات استبان بها أن:

١ـ الحرب ليست هي القاعدة، وإنما هي استثناء من القاعدة، وأنها لا يخلقها الإسلام، ولكن يخلقها أعداؤه بعدوانهم المسلح على دعوته السلمية .

٢ـ أنها ضرورة تقدر بقدر أسبابها، وعقوبة تزول بزوال الجريمة التي استوجبتها.

٣ـ أنها محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تتقدم عنه خطوة، ولا تستأخر خطوة ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] . ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[2] ، ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾[3]، ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾[4]، ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨)إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[5] .

٤ـ لقد أبطل الإسلام حروب العصبية الدينية : ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[6] ، ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[7] .

٥ـ منع حروب التشفي والانتقام للإساءات الأدبية ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾[8] .

٦ـ أنكر حروب التخريب والتدمير، وحروب الفتح والتوسع والاستعلاء : ﴿تِلْكَ

---

(١) البقرة: ١٩٠.
(٢) الأنفال : ٦١ .
(٣) النساء: ٩٠ .
(٤) النساء: ٩١ .
(٥) الممتحنة: ٨ ، ٩ .
(٦) البقرة: ٢٥٦.
(٧) يونس: ٩٩.
(٨) المائدة : ٢ .

الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا ﴾[1] .

٧- استنكر حروب التنافس بين الأمم في مجال الضخامة والفخامة : **﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾**[2] .

وفي ختام البحث يتساءل الدكتور دراز:

فهل كان يراد منه فوق ذلك كله أن يمحق حق الدفاع عن النفس والحيف، وواجب الذود عن المستضعف والمظلوم؟

كلمةٌ مضيئةٌ:

كلا: إن الإسلام دين إحسان ولكنه إحسان لايناقض ولا يشجع الإجرام، ولا يدع الحق مكبل اليدين إذا أراد الباطل أن يفتك به ، إنه ذو رحمة واسعة، ولكنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين. فهو دين عدل واحسان معًا؛ وبذلك فضل الشرائع السابقة التي فرقت بينهما. ولقد علمنا كيف تنزل بالحكمة كلا المبدأين في منزلته، وحذرنا أن نضع واحدًا منهما في موضع صاحبه ؟

فوضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف في موضع الندى

---

(١) القصص: ٨٣ . (٢) النحل: ٩٢ .

٤. النقد الفني لمشروع ترتيب القرآن حسب نزوله

هذا البحث نشر بمجلة الأزهر في رمضان سنة ١٣٧٠ ، ١٩٥٠م المجلد، وهو تقرير مرفوع إلى مشيخة الأزهر الجليلة عن الرسالة المعنونة «رتبوا القرآن الكريم كما أنزله الله» بقلم (يوسف راشد بوزارة العدل» ، والتي يدعو فيها الكاتب المسلمين إلى ترتيب سور القرآن على حسب نزولها، ابتداءًا بسورة العلق، ثم القلم، ثم المزمل، ثم المدثر، ثم الفاتحة ، وهكذا حتى يختم بسورة النصر.

ويقول الكاتب في توجيه هذا الاقتراح: إن ترتيب القرآن في وضعه الحالي يبلبل الأفكار، ويضيع الفائدة من نزول القرآن، لأنه يخالف منهج التدرج التشريعي الذي روعي في النزول، ويفسد نظام التسلسل الطبيعي للفكرة؟ لأن القارئ إذا انتقل من سورة مكية إلى سورة مدنية اصطدم صدمة عنيفة، وانتقل بدون تمهيد إلى جو غريب عن الجو الذي كان فيه، وصار كذلك ينتقل من درس نحوٍ إلى درسٍ في الحروف الأبجدية، إلى درس في البلاغة .. إلخ.

ينقد الدكتور دراز هذا الاقتراح بقوله:

«أول ما نلاحظه أن هذه المقدمات لو صحت كان يجب أن تؤدى إلى نتيجة غير التى يدعو إليها الكاتب . ذلك أنه كان يلزم بمقتضى استدلاله ألا يُعاد النظر في ترتيب السور فحسب بل أن تنثر نجوم القرآن كلها، وترتب ترتيبًا جديدًا على وفق نزولها؟ المكي منها قبل المدني، والمتقدم في كل منهما على المتأخر منه، حتى يصبح المصحف صورة تاريخية لمراحل نزول القرآن[1] .

---

(١) حصاد قلم ص ٤٥ .

يقول الدكتور دراز:

«فهل عسى أن يكون الكاتب قد رأى الدعوة إلى تعديل ترتيب الآيات جرأة خطيرة تثير عليه سخط العالم الإسلامي ، فأراد أن يمهد لها بخطوة أقل خطرًا في نظره، فدعا مؤقتًا إلى إعادة تأليف السور على حسب تواريخها، دون مساس بنظم الآي في سورها.. حتى إذا تم له ما أراد أتبعه بالضربة الحاسمة التي تأتلف مع مقدماته؟

إننا لا نريد أن نحاسب المؤلف على أهدافه ومراميه البعيدة، فالله أعلم بما في نفسه، ولكن الذي يعنينا هو أن نسجل ها هنا السبب الذي بُني عليه تورعه عن تغيير نظام الآي، فقد قال في بيانه المانع من ذلك إن الرسول - ﷺ - كان يُنزل عليه بعض الآيات فيأمر بإلحاقها بسورة مضت، حتى إنه كان يلحق بعض آيات مدنية بسورة مكية ويوضح الدكتور دراز أن هذا تقرير صحيح، وهو يتضمن اعترافين اثنين، كل منهما يُؤخذ حُجة عليه:

الأول: اعترافه بأن ترتيب الآي قد روعى فيه وضع آخر غير منهج التسلسل التاريخي في النزول، فإذا كان حضرته قد استساغ في السورة الواحدة أن تشتمل على أجزاء مكية وأجزاء مدنية، فكيف لا يستسيغ أن تكون سورتان متجاورتان إحداهما مكية والأخرى مدنية مع أن الأمر في السور أهون لأن كل سورة وحدة مستقلة، ولاشك أن تجاور جسمين غريبين أحق من دخول أعضاء غريبة في جسم واحد، على أن تجاوز المكي والمدني لا مفر منه على اقتراحه هو أيضًا بأنه سيضطر آخر الأمر إلى الإنتقال من سورة مكية إلى سورة مدنية ! فكيف يفسر الفجوة التى ستحدث بالإنتقال من آخر السور المكية إلى أول السور المدنية مع بُعد ما بين اللونين في نظره؟»[1].

الاعتراف الثاني : في قوله إن المانع من تغيير نظام الآيات هو أن تأليفها في سورها كان بتوقيف نبوي (بل نقول بتوقيف إلهي) و لم يكن بمجرد اجتهاد من الصحابة،

---

(١) حصاد قلم ص ٤٦ .

وإنه لذلك يجب أن تُراعى هـذا الترتيب قُدسيته، فـلا يلحقه تغيير ولا تبديل، ومقتضى هذا التعليـل أن المؤلف لو علـم أن ترتيب الســور في مواضعهــا كمـا هي الآن ترتيب توقيفي أيضًا لحافظ عليـه، و لم يجرؤ على طلب تغيـيره ألا فليعلم حضرته . إن لم يكن يعلم ـ أن الأمر كذلك في السور، وأن الأمـة لم تختلف في شأنها إختلافًا يعتد به إلا في موضـع واحد، وهو جعل ســورة التوبـة بعد سـورة الأنفـال بغير بســملة، فقال بعض العلماء إنـه كان باجتهاد من عثمـان رضي الله عنه حيث لم يصل إليـه في شأنها تعليم نبوي.

أهما سـورتان أم ســورة واحدة؟ فوضعهما متجـاورتين من غـير بسـملة احتياطيًا. ولكن جمهور العلماء أجمع على أنه توقيفي لسائر السور، هذا هو الموضع الوحيد الذي لم يكن للبحـث فيـه مجـال، علـى أنـه ســواءًا أكـان الـترتيب في هذا الموضـع توقيفًا أم توفيقيًـا، فإنه لم يخالف سُنىّ أو شـيعي في التزام هذا الموضع الذي كان عليه للمصحف من أول يوم[1] .

ويخلـص الدكتور دراز مـن هذه الملاحظـة الإجماليــة إلى أن احـترام قدســية الوضع المأثور يقضـي بالمحافظـة على النسـق القـائم الآن في الآيات والســور جميعًا، وأن فكرة ترتيـب المصحف علـى حسـب النزول كـانت تقضي بتغيـير الوضع في السـور والآيات جميعًا؟ بل هي في الآيـات كانت أشـد اقتضاءًا ، ومع ذلك قد خولفت وخضع المؤلف لهذه المخالفــة في أقـوى مظاهرهـا ، وكــان مقتضى المنطـق أن يقبل هـذه المخالفـة في الأخف والأهون[2] .

ثم ينتقل الدكتور دراز إلى فكـرة ترتيب السـور علـى وفق نزولهـا، فيناقش الوجوه التي حاول المؤلف أن يبرر بها دعوته إلى هذا التعديل ففي الرد على زعم الكاتب :«أن الانتقال من السور المكيـة إلى السور المدنية يصدم القارىء صدمة عنيفة، ويدخله طفرة

---

(١) ، (٢) حصاد قلم ص ٤٧ .

في جو غريب منقطع عن السياق» .

يقدم الجواب الشافي بقوله:

« إن هذا المنهـج القرآني في تلوين البيـان وتنويع العلوم ليس فقط مـن أهم المقاصد البلاغية: تشويقًا إلى الحديث وتطرية للنشاط، وترويحًا للنفس من عناء العلائق البشرية، وصعـودًا بها بـين الفينـة والفينـة إلى الملأ الأعلى وإلى الحيـاة الباقيـة، بل هو كذلك من أحكم وسـائل التربيـة العملية ؟ لأن رد الفروع إلى أصولها؟ وبناء القواعد العملية على دعائمهـا الأولى العقليـة والوجدانيـة ، مـن شـأنه أن يُمكن العقـول والقلوب من هضم القوانين وتمثلها، وأن يُحول النفوس إلى قوىً محركة تمد الإرادات بأقوى بواعثها[1] .

وليس الانتقـال من أحد النوعين إلى الآخر كما ظن المؤلف إنتقالاً إلى مقصد جديد أو إلى جو غريب، فـإن مقاصد القرآن وأهدافـه في السور المكيـة والمدنية واحدة: وهي إصلاح العقـائد، وتنظيـم مناهج السـلوك للأفراد والجماعـات، وإنمـا يتفرق المكي عن المدني بالإجمـال والتفصيـل وكمـا لا غنـى للقواعد المكيـة عـن رسـم طُرقهـا العمليـة ، كذلك لا غنى للفـروع عن الاسـتناد إلى قواعدهـا الكليـة، والاسـتمداد مـن ينابيعها النفسـية العميقة .. ولذلك بُنِـيَ نظم القرآن في آياته وفي سـوره على وجه من التداخل والتعـانق بين الإعتقـادات والعمليـات والبواعث والزواجـر بحيث يظـاهر بعضهـا بعضا على تقرير كل واحدة منهـا وتثبيتها في النفوس، ومن هنا كـان القرآن أحسن الحديث كما وصفه الله ﴿اللَّـهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[2] .

ويـرد الدكتور دراز علـى قول الكـاتب إن الوضـع الحـالي للسـور مُخـل «بحكمـة التدرج في التشريع» فيقول رحمه الله :

(١) حصاد قلم ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة الزمر الآية رقم : ٢٣ .

هذا القول انتقـاد نظري يدل علـى غفلـة عظيمـة وخلط بـين مقامين مختلفـين مقام التنزيل والتعليم ومقـام التدوين والترتيل، وهمـا مقامان قـد وضعا من أول يوم لتحقيق غرضـين متفـاوتين ، فكان أولهمـا يعتمد حاجـات التشـريع، وثانيهما يرتبـط بحاجات الوضع البياني وإن مراعـاة إحدى الحاجتين في موضع الآخر ليس من الحكمـة في شيء بل هو وضعٌ للأمور في غير موضعها .

ويبـين الدكتور دراز أن نـزول القرآن منجمًـا علـى حسـب حاجـات النفوس من الإصلاح والتعليم، ورُوعيت في ذلـك حكمة التدرج والـترقي في التشـريع على أحسن الوجـوه وأكملها. ولكن هذه النجوم في الوقت نفسه لم تترك مبعثرة منعزلة بعضها عن بعض، بل أُريد لها أن تكـون فصولاً من ابواب إسمها السـور، وأن تكون هذه الأبواب أجزاء من ديـوان اسمـه القرآن. فكان لابـد أ ن يُراعى في مواقعها مـن هذا البنيان معنى آخر غـير ترتيبها الزمـاني بحيث تـأتلف من كل مجموعـة منهـا بـاب ويأتلف مـن جملة الأبواب كتاب ولا يكون ذلك إلا إذا أُلفـت على وجه هندسـي منطقي بليغ، تـبرز به وحدتها البيانية في مظهر لا يقل جمالاً وإحكامًا عنها في وضعها الإفرادي التعليمي(١).

ثم يقدم الدكتور العلامة الشيخ دراز للكاتب نصيحة رشيدة يقدم لها بمقدمة صغيرة فيقول: « إن التفقه في القرآن ينبغي أن يكون على ثـلاث مراحل متصاعدة لا تستقدم واحدة عن موضعها ولا تستأخر .

المرحلة الأولى: فهم مسائل القرآن مسألة مسألة، والتفقه في أمرها ونهيها، وحلالها وحرامها، ومواعظها وعبرها، ثم التحلي بآدابها والوقوف عند حدودها .

المرحلـة الثانية: النظرة في جملـة مسائل السـورة على أنهـا أجزاء من وحدة مستقلة يرتبط بعضها ببعض في نظام واحد، ويأخذ كل منها في هذه الوحدة معينًا يناسبه.

المرحلة الثالثـة: النظر في مجموعة سـور القرآن على أنها أبواب من ديوان واحد قد

---

(١) حصاد قلم ص ٥٢.

قصد ترتيبها فيه على هذا النحو» .

مثل ذلك الناظر في علم التشـريح لا يبحث في العلاقات بين جهاز وجهاز حتى يعرف أعضاء كل جهاز على حدة، ولا يبحث في الأربطة والوشائج التي بين هذه الأعضاء قبل أن يدرس تركيب العضو ويستبين أنسجته وخلاياه.

فكما أن الذي يسأل عن حكمة وضع العينين في مُقدم الوجه، ووضع الأذنين في جانبيه ، قبل أن يعرف تشريح العين والأذن، يعد مشتغلاً بنوع من الترف العقلي قبل أن يحصل على جواهر العلم ولُبابه كذلك الذي يسأل عن حكمة تقدم سورة وتأخير أخرى يقال له :

اذهب فاتقن فهم الآية والسورة أولاً، ثم يقال فانظر في حكمة ترتيب السور؛ فهذا من زينة العلم وحليته، وذاك من مبادئه وأولياته، إن مخالفة المنهج في هذه الدراسة يعد من عكس الوضع السليم، كالجائع الذي لا يجد كسرة خبز يسد بها رمقه ويضيع وقته في البحث عن الأزهار والرياحين، أو كالمدين المستغرق الذي ينفق ماله على الفقراء قبل أن يؤدي حق الغرماء[1] .

ويقول الدكتور دراز:

«إذا تمهد هذا فلينظر صاحب هذه الدعوة الجديدة في أي مرحلة هو من هذه المراحل، وليضع نفسه حيث يحق له من مراتب أهل البحث والدرس . فإن كان لا يزال بَعْدُ في إحدى المرحلتين الأولين . وجب عليه أن يتريث في السير إلى المرحلة الأخيرة، وأن يكتفي فيها مؤقتًا بأن يعلم إجمالاً أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يرتل القرآن في الصلوات وفي العرض في رمضان وغيرها على هذا الترتيب، وأنه جعل «الحمد لله رب العالمين» أول القرآن وسماه فاتحة الكتاب في الأحاديث الصحيحة الثابتة، مع أنها ليست أول ما نزل، وأنه كان يبين لأصحابه موضع السورة

(١) حصاد قلم ص ٥٣ .

من الكتاب ، كما كان يبين لهم موضع الآية من السورة فهو إذًا وضعٌ مقصودٌ لمغزى يعلمه واضعه، لا يضر أحدًا الجهل به ومن بدا له أنه يجوز تبديل هذا الوضع لأنه لا يعرف حكمته كان كمن لم يفهم حكمة وضع العينين في مقدم الرأس ، فظن أنه كان الأنسب أن توضع إحداهما في الوجه والأخرى في القفا ليرى الإنسان بهما من أمامه ومن خلفه على السواء. فإن هو حاول تحقيق هذه الفكرة عمليًا عاكس الطباع، وأفسد الأوضاع . ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾(١) . ألا إن الشأن في التنزيل كالشأن في التكوين ، كلاهما من صنع الحكيم الخبير الذي أحاط بكل شيء علمًا . فكما أنه لا تبديل لخلق الله ، وكذلك لا تبديل لكلماته(٢) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٣) .

وفي نهاية البحث العميق الشافي يؤكد الدكتور دراز رحمه الله :

« أن الدعوة إلى تغيير ترتيب السور دعوة لا يقرها عقل ولا نقل لأنها قبل كل شيء دعوة إلى بدعة خارقة لإجماع المسلمين يحرف بها الكلم عن مواضعه التى وضعه الله فيها . ولأنها محاولة لن يكون من ورائها إلا إفساد النسق، وتشويه جماله، ونقض بنيانه المحكم الوثيق، ثم لأنها فتح باب للشبهة في حفظ الذكر الذي ضمن الله حفظه، فهي إذا دعوة لايستجاب لها، ولا يجوز أن يمكن أحد من تحقيقها(٤) .

ويوضح الدكتور دراز المنهج الذي ينبغي أن يُتّبع في شأن المؤلف وتأليفه. إننا لسنا من أنصار سياسة الكبت وتكميم الأفواه والأقلام، والتسرع بمصادرة الكتب والآراء المنحرفة في الدين، لأنها سياسة قد أثبتت التجارب فشلها، ولأنها بدل أن تطفئ نار الفتنة تشعل أوارها، وتغذى أهل الفضول بتلمس هذه المؤلفات كما تتلمس المهربات؛ ولان ضعيف الحجة هو الذي يحاول إسكات خصمه بالقوة والعنف، وليس الضعف

---

(١) سورة المؤمنون الآية رقم ٧١.

(٢) سورة الأنعام الآية رقم : ١١٥ .

(٣) حصاد قلم ص ٥٤ .

(٤) حصاد القلم ص ٥٨ ، ٥٩ .

من صفات الحقائق الإسلامية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وأخيرًا لأن هـذه السياسـة ليسـت سياسـة قرآنيـة، فـإن الله تعـالى أمرنـا أن ندعو إلى سبيله بالحكمـة والموعظـة الحسنة؛ وأن نجـادل المخالفين بالتى هي أحسـن، ثم إنـه سبحانه لم يترك شبهة ولا فكرة زائغة لأعداء الإسلام إلا سجلها وخلدها في كتابه، وقضى عليها بمـا يدحـض باطلهـا . فكذلك ينبغي فيمـا تـرى أن تقرع كتب المبطلين بـالحق الذي يدمغها ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة[1] .

ويرى الدكتور دراز في الموقف الذي يجب أن يكون مـع الكاتب «يوسـف راشد» صاحب الدعوة أن ترسل له صورة من بحث الدكتور دراز وأن تترك له الفرصة الكافية لقراءته وتدبر ما فيه .

فأمـا إن كان من طلاب الإصلاح بنصفـة وحسن نيـة، فسيكون هو أول من يرجع إلى الحق متى تبين له، وأول من يحـافظ على ترتيب القرآن كما رتبه الله وإن بقيت في نفسه بعض شُبهة فسيسعى إلى حلها باستفتاء أهل الذكر فيها وأما إن أصر على رأيه لحاجـة وهوى في نفسـه ، فلنترك دعوتـه تموت بعدم الإصغاء إليهـا، فإن نشـط لنشرها وترويجهـا، وتضليل السُّذج بمغالطاتهـا، بعثنـا عليـه جنودًا من حجج الحـق نتعقب بها فُلول باطله فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة.

ويختم الشيخ العلامة بقوله الحاسم:

ونحن على كل حال واقفون بالمرصاد لكل من أراد تبديل شيء في كتاب الله والله غالب على أمره، والسلام على من اتبع الهدى[2] .

---

(١) حصاد قلم ص ٥٩ .

(٢) حصاد قلم ص ٥٩ .

الشريعة بين المسيو ألبير جران
والعالم الأزهرى د. عبدالله دراز(١)

بقلم: الشيخ أحمد فضلية

تحظى رسائل العظماء والقادة والخالدين باهتمام الباحثين والمؤرخين فهم يستشفون من خلالها إما تاريخًا لعصورهم وإما تسجيلاً لحياتهم كوسيلة لاكتشاف الدروس المستفادة منها وإعطاء القدوة الحسنة والمثل الصالح. وإن كان هذا هو المبدأ .. فإن أجدر ما ينبغي أن يحظى بالاهتمام والبحث والدرس. رسائل داعية عالمي ومجاهد مؤمن صادق، ورجل من رجال الأزهر العظام، إنه العالم المجدد والباحث المنهجي المتفرد خادم القرآن والسنة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله وطيب ثراه .

والقصة أن فضيلة الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز عضو جماعة كبار العلماء والأستاذ بكلية أصول الدين كان قد كتب بحثًا قيمًا باللغة الفرنسية تحت عنوان «القانون الدولي العام والإسلام» قارن فيه بين التشريع الإسلامي والتشريعات الأوربية القديمة والحديثة في وقتي السلم والحرب ، وقواعد القتال، وعهود الصلح، والهدنة، والمخالفات إلى آخره ، وكان هذا البحث قد نُشر في المجلة المصرية للقانون الدولي وفي النشرة الثقافية التى تصدرها وزارة الخارجية المصرية ونال إعجاب كل من اطلع عليه من رجال القانون في مصر والخارج، ثم قام الشيخ بتعريبه ونشره بمجلة الأزهر سنة (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م) وكان من الخطابات التي تلقاها الدكتور دراز خطاب من المسيو ألبير جران - المستشار السياسي لهيئة الأمم المتحدة في ليبيا - يهنئه فيه على بحثه القيم ويذكر أنه لمس في مقاله موضع الضعف في هيئة الأمم المتحدة وفهم موقف الكتلة العربية الآسيوية في (ليك سكس) ووصف ما جاء في البحث بأنها أقوال حكيمة قوية وكلمات طيبة تلك الآيات التي استشهد بها من القرآن الكريم في هذا الصدد وذكر

(*) آفاق عربية ١ من جمادى الأولى ١٤٢٣هـ ، ١١ من يوليو ٢٠٠٢ م .

أنه كان لها صداها في أنحاء العالم ثم ذكر المسيو جران أنها مشروع عملي جليل يحث على إنشاء منظمة على هيئة محكمة دائمة للوساطة تستوحي أحكامها من المبادىء المقتبسة من الكتاب المنزل.

نص رسالة المسيو (آلبيرجران):

«حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله دراز أستاذ الشريعة الإسلامية بالجامعة الأزهرية: اسمحوا لي أن أبعث إليكم بتهنئتي الحارة للمقال الذي ظهر بتوقيعكم في «النشرة الثقافية» التي تصدرها وزارة الخارجية المصرية بعددها الصادر في شهر يوليو تحت عنوان «القانون الدولي العام والإسلام» إنكم بهذا قد لمستم موضع الضعف الشديد في هيئة الأمم المتحدة وأبرزتموه للعيان، وفي نفس الوقت شرحتم بهذا موقف الكتلة العربية الآسيوية في ليك سكس .

إنها لأقوال قوية، وكلمات طيبة تلك الآيات التى استشهدتم بها من القرآن ، وإن لها اليوم صدى في أنحاء العالم أكثر مما يتصوره الإنسان وإني - من ناحيتي - أجد فيها نقطة البدء للقيام بمشروع عملي جديد، ألا وهو إنشاء منظمة على هيئة محكمة دائمة للوساطة تستوحى أحكامها من المبادىء التى اقتبستموها من الكتاب المنزل.

وإن ذلك لمما يرضي العقل ويثلج الصدر إذ يجد المرء فيه الينبوع الصافي للفكرة والرسالة اللتين لبثت الإنسانية قرونًا طويلة تتهجى حروفهما دون أن ترجع بذاكرتها إلى مصدرها .

أما من ناحيتي بالذات فإنه من حسن الحظ ومن المشجع إنكم يا سيدي في هذه الأزمنة العصيبة، والظروف المضطربة قد استرعيتم النظر إلى هذه الحقائق، وانتظمتم بذلك في صف أولئك المشرعين أمثال «يوليتيس» الذين عملوا جاهدين لوضع قانون مكتوب لحماية حقوق الإنسان، وثق ياسيدي بعواطف إعجابي العميق» .

ألبير جران - طرابلس الغرب - في ٣٠ يناير سنة ١٩٥١م

نص رسالة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله

إلى الأستاذ ألبير جران المستشار السياسي ومندوب الأمم المتحدة في ليبيا.

سيدى العزيز:

لقد تـأثرت تأثرًا عميقًـا بخطـابكم الرقيق الذي بعثتم بـه إليَّ وإني لأشـكركم عليه شكرًا حفيًّا، وإنى لأعد من جميل التكريم أن رجلاً في مثل خبرتكم ومركزكم السامي في الشـئون السياسية يضع موضع التقدير مقـالي المتواضع عـن «القانون الـدولي العام والإسلام» .

- القرآن والتشريع الدولي :

على أنى لم أضع شيئًا في هذا المقـال سـوى أني رسمت الخطوط الكبرى للتشريع الدولي الإسلامي كمـا ورد في القرآن الكريم والسنة النبويـة الشـريفة، أمـا من أحب مزيدًا مـن الإيضـاح والتفصيل فمـا عليـه إلا أن يتتبـع في غضون التـاريخ ذلـك التراث الـذي خلقه لنـا فقهاؤنا مـن التشـريعات الضافية التـى إذا جُمعت لبناتها كـانت كافية لإقامة صرح حقيقي للسعادة الإنسانية والسلام العالمي.

شريعة جمعت كل المحاسن:

ذلك إلى مـا في الشـريعة من النواحـي الاجتماعية البحتـة، التـى من أخص أوصافها أنهـا جمعت في نظـام واحد متسق محاســن المذهبين المتطرفين «الرأسماليـة والشـيوعية» وأنها في الوقت نفسه تتجنب مساوئ كل منهما.

قانون الضمان الاجتماعي:

لابد أنكم سمعتم عـن قانون للضمـان الاجتماعي وضعتـه حديثًـا حكومتنـا المصرية وأقـره كثير من أعضاء الأمـم المتحدة. ألا فليعلم سـيدى أن هذا القانون ليس في الواقع إلا تطبيقا جزئيًا لقـاعدة إسلامية عامة، تحتم على كـل حكومة أن تقوم بسد الحاجات

المختلفة لكل من هو في حاجة إلى المعونة من رعاياها (وليس أمر المعونة هنا قاصرًا على إقامة أود الأرامل واليتامى والشيوخ والعجزة والمرضى والمعوزين بصفة عامة، بل إن هذه المعونة تمتد إلى تزويج الأيامى، وسد ديون المدينين وغير ذلك ..) دون أن يطلب من هؤلاء المحتاجين مساهمة أو بذل ضريبة أو تعويض خاص وراء الواجبات المشتركة بين أفراد الشعب .

إغفال سنة السلف الصالح:

إنما الشقوة كل الشقوة هي أننا في عهد التمدين الحديث الذي نسينا فيه السنة الصالحة لسلفنا المجيد أصبح التشريع الإسلامي عندنا موضوع دراسة نظرية مجردة تعنى بها دوائر علمية محدودة، وأصبحنا في عامة أحوالنا نحيا على حياة مطبوعة على غرار منهاج واهٍ غريب عن بيئتنا وغير مؤتلف مع ظروف حياتنا.

التشريع الديني يقضي على المبادئ الفاسدة:

مع أن الفوائد التى نجنيها لو قمنا بتطبيق تشريعنا الديني الحكيم سيكون أولها قطع الطريق على كل المبادئ الفاسدة، ثم محو كل أسباب الاضطراب التى تزلزل أركان العالم في عصرنا هذا ، وأخيرًا اجتلاب الأمن والاستقرار في علاقاتنا الداخلية والخارجية على السواء.

وأخيرًا فإني أبعث إليك مع ثنائي المكرر أصدق عبارات الإعجاب بهذا الروح العلمي المنصف النزيه الذي برهنتم عليه في كل ملاحظاتكم واقتراحاتكم السديدة.

محمد عبد الله دراز

ـ بقي أن نلفت القارئ العزيز إلى أهمية مطالعة بحث الدكتور دراز الذي دارت حوله الرسالتان وهو منشور في كتابه (دراسات إسلامية)، وسيدرك القاريء أن الشيخ كان نسيج وحده حين تناول الموضوع، لهذا فقد رزق نباهة ساطعة في الدوائر العلمية

العالمية، لأن الشيخ كما يصوره الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه (النهضة في سير أعلامهـا المعاصرين) «كان طرازًا خاصًا من المفكرين، حيث لم يكن يكتب غير الجديد الطريف الذي لم يسـمع به القـارئ من قبل، مهما تنوعـت ثقافته واتسـع إدراكه، لقد كان يقـدّر تبعة القلم تقديـر العالم الطامح المشرئب للكمـال، فهو لا يدرس غير المفيد النافع، ولا يؤلف في غير المجهول الذي تتطلع الأنظار إلى كل كلمة من كلماته» .

الدكتور دراز وتعدد الزوجات(*)

يقول الدكتور عبد الله شحاته ، كنا طلابًا بالسنة الرابعة بكلية دار العلوم. وكان أستاذ التفسير لنا في سنة ١٩٥٥م هو الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز وكان يحاضرنا في تفسير سورة النساء ، وكتبتُ من محاضراته ما يأتي:

«تعدد الزوجات أهي وصمة عار في جبين الإسلام؟ كلاَّ فالأديان جميعها تبيحه، فالزواج تبيحه جميع الأديان، ولم تتحدث عن منعه أو تقييده، ولم يأت في التوراة ولا في الأناجيل ما يمنع التعدد، ولينظر أهل الكتابين إلى أنبيائهم والأنبياء السابقين ،إلى إبراهيم وموسى وداود وسليمان كم كان عدد نسائهم فنصوص الدين ترد على أهل الدين .

فلنخاطب الأوربيين سلالة روما وورثة مدينة روما ومدينة أثينا:

هذه فكرة عنصرية لا دينية، يعنى ذلك عرفهم وعاداتهم، فأدخلوا ذلك العرف في دينهم، وألصقوه بالمسيحية . فما السبب في ذلك؟

هل لأن طبعهم رقيق المزاج يقتصر على الواحدة؟

الواقع أن الذي يمنعه الأوربيون هو التسجيل الرسمي، فلك أن تأخذ ما تشاء من الأخدان والخليلات، ما دامت لم تسجل ذلك ولم تثبته فلا حرج عليك، ولك أن تجهر بذلك وأن تشهره وبكل صراحة وجرأة يقال:

فلانة خليلة فلان أو خدينته ، ولكن هذه الخدينة والخليلة لا تحمل اسم زوجها، ولايكون لأولادها نسب منه ، صنعوا ذلك رأفة بالزوجة الأولى ومحافظة على شعورها، وتوثيقًا لرباطها . وإقناعًا لها أنه الوحيدة، وأولادها هم أصحاب الحق وحدهم .

(*) هذا الموضوع قدمه لنا د/ عبد الله محمود شحاته في كتابه «المرأة في الإسلام» من ص ١٣٩ : ص ١٤١ .

أما الإسلام: فقد منع اتخاذ الأخدان والخليلات.

فقال سبحانه وتعالى ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾(١) .

وقال سبحانه ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾(٢) .

وإذا تزوج المسلم أكثر من واحدة فكل واحدة لها حق رسمي في زوجها وأولادها يلحقون بـه. يتكلم الأوربيون بكثير من الكلام المعسـول، فمثلا كـانتى يقول: «إن شرف الإنسان أسمى من أن يمتهن أو أن يجعل أداة متعة» وفي الواقع هم الذين جعلوا الأخدان أداة متعة فقط. ومنعوهن حقوق الزوجية في النفقة أو الميراث، أو إلصاق الولد بالأب.

بينما الإسلام يقول رسول الله ﷺ :

«**إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات فإذا تزوجتم فلا تطلقوا**» ونشأ عن كثرة الأخدان وانتشارها في أوربا، انتشار الأمراض السرية الفظيعة، وقلة النسل؛ لأن النسل إما أن يخنق أو تجهض الحامل أو تأخذ حُقْنًا لمنع الحمل أو غير ذلك .

وهل غفل الأوربيون عن المصير السيء الذي ينتظرهم إذا استمر الحال، فالكبير يموت، والنشئ يقتل.. تنبهوا لذلك . فصدرت قوانين تقول مثلا: أبناء الزواج الحر، إذا اعترف بهم أبوهم ألحقناهم به، فتأخذ الأولاد كل حقوق الأبناء، فهم تفادوا اسم الزوجة فقط، والأبناء منها يتمتعون بكل الحقوق ، إذا ألحقهم أبوهم به .

ولا أستطيع أن أقول ماذا تأكل الحروب من الرجال حتى إن النساء في ألمانيا يطالبن بتعدد الزوجات ، لتجد النساء اللاتي مات أزواجهن في الحرب من يكفلهن وينفق عليهن وعلى ما ينجبن.

---

(١) سورة النساء : الآية ٢٥ .

(٢) سورة النساء: الآية ٢٤ .

وقد ألفت جمعية في ألمانيا تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية في الزواج والطلاق. ومع ذلك فالإسلام لم يحرض على تعدد الزوجات ، بل قال: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا**﴾[1] والواقع ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ**﴾[2]، فأساس الآية خوف الظلم . وفي وسط الآية ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾ أي أن زواج الواحدة أقرب إلى العدل، وأعون على عدم العول والجور، وتفيد الآية أنك لست مطالبًا بالعدل فقط بل بالبعد عن الظلم، فاجعل بينك وبينه حجابًا . فإذا تحققت شروط القرآن من عدم الظلم، وعدم الخشية من وقوعه، نقول إذا تحققت الشروط فلك أن تتزوج، وقد قال القرآن : ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾ .

فالأكثر من واحدة في هذه الحالة (وهي خوف عدم العدل) حرام .. أم باطل؟ الجواب حرام فقط. فإذا وقع الحرام والظلم فالمحكمة ترفعه، وتفك عصمة الزوجة المظلومة، وتدفع الظلم عنها .

وبعض المفسرين يرى أن من خشي الظلم من نكاح زوجة واحدة فلا يتزوج ، فالظلم مدفوع حتى في نكاح الواحدة، وأخيرًا فالمرأة تحيض وتلد وترضع وهي نفساء وقد تعقم .. ألخ.

ولم لا تتزوج المرأة هي الأخرى من أربعة رجال؟..

يترتب على ذلك اختلاط الأنساب، فلا نعرف من أي رجل منهم تكوّن الجنين، لأن المرأة مكان الحرث وهي أداة النسل (**وملعون من سقى ماءه زرع غيره**)[3] . وكما يقول فيلسوف أوروبي : لو وضعنا مائة امرأة مع رجل واحد لمدة سنة. لأمكن

---

(١) النساء: الآية ٣.

(٢) النساء:الآية ٣ .

(٣) أنظر سنن أبي داوود عن رويفع بن ثابت الأنصاري. ك/ النكاح ب/ في وطء السبايا (١٨٤٤) .

أن نحصل للإنسانية على مائة رجل، ولو وضعنا مائة رجل مع امرأة واحدة لجاز أن نحصل على مولود واحد، وجاز ألا تحمل فيفسد كل منهم حرث الآخر، فالحيوانات المنوية الجديدة تبطل التلقيح الأول، وا لله أعلم[1] .

- من أسرار تعدد أزواج النبي ﷺ :

والسيدة خديجة أم المؤمنين هي الزوج الأولى للرسول ﷺ ، تزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي بنت أربعين، و جاءت منه بكل أولاده خلا إبراهيم. وآمنت به في أول من آمن وآزرته وواسته بنفسها ومالها «إن السيدة خديجة كانت من نعم ا لله الجليلة على سيدنا محمد ﷺ فقد آزرته في أحرج الأوقات، وأعانته على إبلاغ رسالته، وشاركته مغارم الجهاد المر، وواسته بنفسها ومالها، وإنك لتحس قدر هذا النعمة عندما تعلم أن من زوجات الأنبياء من خُنَّ الرسالة وكفرن برجالهن ، وكنَّ مع المشركين من قومهم.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[2] .

وأما أُمُنا السيدة خديجة رضيَّ الله عنها فهي صديقة النساء ، حَنَتْ على رَجُلها ساعة قلق، وكانت نسمة سلام وبرٍّ، رطبت جبينه المتصبِّب من آثار الوحي، وبقيت ربع قرن معه. تحترم قبل الرسالة تأمله وعزلته ، وشمائله، وتتحمل بعد الرسالة كيد الخصوم وآلام الحصار ومتاعب الدعوة، وماتت والرسول ﷺ في الخمسين من عمره،

---

(١) محاضرات في تفسير سورة النساء ، للأستاذ الدكتور / محمد عبد الله دراز، مخطوط، ألقاها على طلبة ليسانس دار العلوم ١٩٥٥ مع إضافات تكميلية للدكتور عبد الله محمود شحاته. انظر كتابه «المرأة في الإسلام» ص ١٤١ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) سورى التحريم : الآية ١٠ .

وهي تجاوزت الخامسة والستين وقد أخلص لذكراها طوال حياته[1] . ويقول الدكتور دراز «وكانت لـه نعم الرفيق حتى توفيت بمكـة قبل الهجرة بثلاث سـنين، وسـنه عليه السـلام خمسون سنة ، فتزوج بعدها أم المؤمنين سـيدتنا سودة بنت زمعة القرشية ثم لم يجمع في بيته امرأتين إلا بعد الهجرة بسنة ونصف حيث تزوج السيدة عائشة أيضًا وهو إذ ذاك في الخامسـة والخمسين من عمره، أفتراه ﷺ بعد مـا قضى زهرة شبابه وكهولته في أحضـان زوجـة واحدة عجوز ثيب فلـم يبغ بها بديـلاً..ولم يضم إليهـا غيرها حتى لقيت ربها، يصبـح وقد انتصف العقد السـادس من حياتـه ودخل في سـن الشـيخوخة أسيرًا للشـهوة الجنسية مستكثرًا من الحظـوظ النفسية إن هذا لا يدخل في خيال عاقل، ولابـد هناك مـن سـر آخر يعرفـه من عـرف الظروف والتواريخ التى تـزوج فيها بتلك الأزواج. وبيانه على الإجمـال أن ذلك كان منه قيامًا بأمر ا لله وإقامة لدين ا لله وتحقيقًا لمصالح سياسية وتشـريعية يضيق المقام عنها هنا . فاعرف ذلك ولا تكن من الجاهلين . ولا يغرنك الشيطان فتهلك مع الهالكين[2] .

(١) محمد الغزالي ـ فقه السيرة ص ١٣١ و ص ١٣٢ دار الريان للتراث.

(٢) انظر «المختار من كنوز السنة» للدكتور دراز ط دار القلم.

الدكتور دراز والأزهر

موقفه من حركة الإصلاح في الأزهر

عاصر الدكتور دراز حركة الإصلاح التعليمي في الأزهر الشريف ورأى عن كثب الجهود التى تابعها تلاميذ الإمام محمد عبده أمثال الشيخ محمد مصطفى المراغي وعبد المجيد اللبان . وأحمد شاكر وعبد الله دراز وإبراهيم الجبالي وغيرهم ممن رأوا في إصلاح الأزهر صلاح الأمة ونهضتها .

وقد قام والده الشيخ عبد الله دراز بإدخال العلوم الحديثة في معهد الإسكندرية الديني حين كلفه الإمام المراغي بتأسيس الدراسة في المعهد الإسكندري .

وقد أدرك دراز أن تاريخ الأزهر جزء من تاريخ مصر وصفحة مشرقة من صفحات تاريخها المضيء فلقد أضاء الأزهر الطريق أمام المجتمعات في مصر والعالم الإسلامي ردحًا من الزمن بما ارتفع فوقه من مشاعل العلوم والمعارف وأدرك دراز أن الجانب العلمي والتعليمي ليس هو كل تاريخ الأزهر فلقد كان للأزهر أدوار سياسية مشرقة عبر تاريخه الطويل حتى جاز لنا أن نصفه بأنه كان ضمير الأمة الخير الذي صحح كثيرًا من المسارات وجاهد لرفع الحيف وأقر العدل وعضد الحق.

وحتى يؤدي الأزهر دوره في إنهاض أمة الإسلام، عضد دراز كل جهود تبذل لإصلاح الأزهر وإعلاء شأنه ولم ينسى جهود الإمام محمد عبده في إصلاح الأزهر . فقد عرف للرجل قدره فقد كان عنده (علمًا من أعلام الفضل وكوكبًا من كواكب الهداية، ومن أولئكم الرجال العظام الذين صفت نفوسهم فاتصلت بأوج الفضيلة وأشرقت بصيرتهم فتكشفت لهم أسرار الحياة الصحيحة النبيلة)[1] . لقد أدرك دراز

(١) د. محمد عبد الله دراز (دراسات إسلامية) مبحث (إصلاحات الشيخ محمد عبده) محاضرة ألقيت في حفلة إحياء ذكرى المرحوم الشيخ محمد عبده في الاسكندرية في ١٧ / ٨ / ١٩٢٢م .

غاية الإمام من إصلاح الأزهر. فكرس جهوده لإتمام رسالته الإصلاحية مع رفاقه من تلاميذ مدرسة الإمام محمد عبده.

وقد كان الدكتور دراز ضمن اللجنة التى أُلفت من كبار شيوخ الأزهر في أغسطس ١٩٥٣ للنظر في المناهج الدراسية المقررة في المعاهد والكليات وتعديل ما يجب تعديله، وإضافة العناصر العلمية التى يجب أن تتوافر في مناهج العلم الحديث لإعداد الطالب الأزهرى إعدادًا يلائم النهضة المباركة في مختلف نواحي الحياة .

وقد اغتبط أبناء الأزهر بترأس الدكتور دراز لهذه اللجنة مع صحبه الكرام من السادة العلماء ، يدل على ذلك ما خاطب به الأستاذ الجليل الشيخ كمال أحمد عون الدكتور دراز بقوله[١] « ... وإن الأزهر الآن لينظر إليكم، ويرجو الخير على يديكم، وأنتم وصحبكم الكرام أحق الناس وأولاهم بتقدير هذه الأمانة العظمى، والوفاء بها ولئن كانت اللجان سابقًا قليلة الإنتاج بطيئة العمل!! فإن ثقتنا بالشخصيات العظيمة التى ألفت منها هذه اللجنة تجعل من حقنا أن نعقد عليها الآمال الكبار وكل رجل منكم والحمد الله أمة بنفسه، مسئول بشخصه عن الأزهر ورسالته. فسيروا على بركة الله، وخذوا بيد الأزهر ليأخذ هو بيد الإسلام والمسلمين ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُون﴾[٢] .

٢ـ مكانة الأزهر:

وقد كان للأزهر الشريف مكانة كبيرة في قلب الدكتور دراز وهو العالم الذي كان يقول في خطابه «بسم الله ، بسم الأزهر» وفي بحثه القيم عن الأزهر الجامعة القديمة الحديثة.

---

(١) الشيخ كمال أحمد عون ـ من خطابه للدكتور دراز ٢٣ من ذي القعدة سنة ١٣٧٢هـ ٣ من أغسطس سنة ١٩٥٣م. انظر نص الخطاب ـ في كتاب (رسائل لها تاريخ). تحت الطبع، جمع وإعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية، نشر دار القلم بالكويت والقاهرة .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٠٥ .

يقول عن الأزهر في صدر البحث:

«إذا حق لجزيرة العرب أن تفخر بأنها هي مبعث الشعاع الأول للنور الإسلامي وأنها هي الحارسة لرمزه الروحي في الكعبة المشرفة، فإن الفخر يعود في المرتبة الثانية إلى «مصر» التى اقتبست هي الضوء في باكورته ثم احتفظت بسراجه دائمة التوقد في تلك المشكاة العلمية الدينية التى اسمها «الأزهر» والتى هي اليوم أقدم جامعة في العالم على الإطلاق.

وفي الحق إن هذه البنية المعظمة في القاهرة تعد في نظر المسلمين شبه كعبة ثانية فهذا المعهد هو قبل كل شيء مثابة المتفقهين في الدين يحج إليه في كل عام ألوف من الطلاب من كل فج ليتزودوا منه غذاء عقولهم وأرواحهم وهو من وراء ذلك قبلة المسلمين الذي تتباعد بهم الديار ويشق عليهم المزار - لا أقول إنهم يولون وجوههم شطره في صلاتهم كما هو الشأن في الكعبة المكرمة ولكنى أقول إن أربعمائة مليون من المؤمنين يتجهون إليه بقلوبهم وعقولهم ينتظرون إشارته في المهمات ويستنيرون برأيه في الشبهات، إذ هو أكبر المجامع الذي يضم أكبر عدد من أهل العلم بهدى الإسلام . هذا الدور المزدوج الذي يقوم به الأزهر في تثقيفه للشباب الإسلامي وفي قيادته الروحية للشعوب الإسلامية يفسر لنا لماذا أحاطه الخلفاء والملوك والأمراء والمحسنون في كل العصور بذلك الإهتمام البليغ وتلك العناية الصالحة في السهر على شئونه المادية والأدبية[1] .

هذا وقد ألمح الدكتور دراز إلى التاريخ المعماري للأزهر منذ إرساء قواعد ذلك البيت المعمور في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله على يد قائده جوهر الصقلي في سنة ٣٥٩هـ - ٩٧٠م وحتى عهد الملك فاروق .

---

(١) د. محمد عبد الله دراز - الأزهر الجامعة القديمة الحديثة - نشر ضمن كتاب - حصاد القلم جمع وتحقيق أحمد مصطفى فضلية .

ثم قدم لمحة عن التاريخ الثقافي للأزهر فأبان أنه (منذ افتتح في يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٦١هـ ــ ٢٢ يونيو ٩٧٢م) بوظيفتين في يوم واحد : وظيفة روحية ووظيفة عقلية، فهو بيت تحيا فيه القلوب بإقامة الشعائر والعبادات وتستنير فيه العقول بالتعلم والتعليم، لا أقول إنه كان من أول يوم مسجد وجامعة ، بأدق وأحدث معاني كلمة الجامعة ثم تناول الرجل القرون التى تعاقبت على الأزهر وهو يؤدي رسالته جامعًا وجامعة حسبما ناله من إهتمام أو إهمال . حتى كانت تنظيمات الملك فؤاد .

٣ـ الأزهر الجامعة:

يشير الدكتور دراز أن الجامعة الأزهرية أصبحت بعد تنظيمات الملك فؤاد مجهزة من حيث المناهج والنظم بكل الأدوات والوسائل التى تجعلها في مستوى أحدث الجامعات مع المحافظة في الوقت نفسه على طابعها الجوهري وهو حراسة لغة القرآن وعلومه.

ويقول دراز (مهما يكن من أمر ومهما نغض نظرنا عن هذا التطور في النظم والمناهج فإن هذه الجامعة تعد فيما نعلم مثالاً فذا في عالم الجامعات بفضل هذا الدور المزدوج الذي تقوم به دائما في تثقيف العقول وتهذيب النفوس بحيث لم ينفصل طابعها الروحي عن طابعها الزمني في عصر ما من عصور التاريخ، وإن اختلف مقدار العناية بهما بإختلاف تلك العصور) .

ويشير دراز إلى أن أبدع طابع تمتاز به الجامعة الأزهرية ليس هو أنها قد جمعت في تعليمها بين هذين العنصرين الروحي والزمني، اللذين نراهما منفصلين في سائر الجامعات ، بل ميزتها الكبرى هي أن الميدان الذي تتدفق فيه حيويتها يتجاوز كل حدود التعليم والتثقيف ويرتقي إلى دور من أهم الأدوار في توجيه حياة الجماعة.

٤ـ رسالة الأزهر خارج النطاق المدرس:

إن رسالة الأزهر على الجملة إنما هي امتداد لرسالة الإسلام ألا وإن الإسلام ليس

مجموعة مبادئ نظرية تغرس في الأذهان وحسب. وإنما هو قوة دافعة خلاقة ، غايتها أن تنظم السلوك الإنساني تنظيمًا فعليًا طبقًا لأسمى المثل وأسلسها قيادًا على التنفيذ العملي. فليس يكفيه إذا أن يبين هذه المبادئ دون أن يسهر على تطبيقها..وهذا التطبيق لا يعرف الفصل بين الدين وشئون الحياة.

بل إن قواعده العملية تمتد إلى جميع ميادين النشاط الإقتصادي والأخلاقي في حياة الفرد والأسرة والأمة بل في حياة الجماعة الإنسانية كلها غير أن ها هنا سؤالاً يثيره هذا البيان ترى هل في الإمكان أن يوضع جهاز لتنفيذ هذا القانون الشامل في ذلك الميدان اللانهائي؟

هل يستطيع أحد أن يتصور هذا الرقم الخيالي لذلك العدد من جنود الفضيلة (بوليس الآداب) اللازم للسهر على تحقيق هذه المبادئ في كل مكان؟

لقد حل الإسلام هذه المشكلة من أقرب الطرق وأيسرها ذلك أنه عهد إلى جميع أفراد الجماعة بمهمة هذه الرقابة وجعلها في الوقت نفسه رقابة متبادلة : إذ خول لكل فرد حقا بل ألزمه فرضا أن يبذل نصحه للآخرين ، وأن يعارض ويقاوم بقوله وفعله كل من سولت له نفسه أن يرتكب ظلمًا ولو كان هو الرئيس الأعلى .

غير أنه ضمانًا لنجاح هذا التدخل ومنعًا لإحتمالات اللبس وللأخطاء الضارة في تطبيقه، جعل هذا السلطان الأدبي - المخوّل مبدئيًا للجميع - حقًا بالأولية لأولئك الذين نالوا قسطًا كافيًا من المعارف النظرية والعملية، وكانت لهم بذلك أهلية خاصة لاستعمال هذا السلطان.

من أجل ذلك عنِيَ الأزهر إلى جانب تكوينه لأسرة التدريس بتخريج جماعة من المصلحين الإجتماعيين ليكونوا في صلة دائمة بالشعب، ويتجهوا إليه بإرشاداتهم في كل مناسبة ، وإن العدالة والأمن لمدينان أعظم الدين لجميل نصائحهم التى يوجهونها إلى الجماهير وإلى الأسوة الحسنة التى يقدمونها لهم في

سيرتهم الشخصية وإلى طرق الإصلاح التى يمهدونها لهم في المنازعات كما تشهد بذلك السجلات الرسمية .

وفي الوقت نفسه نجد في الأزهر لجنة دائمة من العلماء تتلقى المكاتبات من كل سائل عما أشكل عليه من أحوال السلوك وشؤون المعاملات وتجيبه بما يزيل شبهته وينير له السبيل السوي .

٥- سلطة الأزهر السياسية :

ومن وراء ذلك كله - وفوق كل هذه الخدمات الجليلة - يتمتع الأزهر بسلطة معنوية أكثر عمقًا وأبعد حدودًا ، يستعملها في توجيه السياسة العامة لا في مصر وحدها بل في سائر البلاد الإسلامية، وها هنا أيضًا لا تعوزنا الشواهد لإبراز هذه الحقيقة، فلقد أتى على عرش مصر لحظة من الزمن في سنة ١٨٠٥م، كان فيما يبدو مترددًا بين «خورشيد» و«محمد علي» فكان الثقل الذي وضعه نفوذ الأزهر هو الذي رجح كفة الميزان في جانب محمد علي ووضع الباب العالي أمام الأمر الواقع في اختياره واليًا على مصر. وفي سنة ١٩١٩ كان الأزهر هو المنبر الذي ارتفع منه أقوى صوت في المطالبة بإلغاء الحماية الإنجليزية، وكان حرم الأزهر هو المهد الذي ولدت فيه الوحدة التي لا تنفصم عراها بين أقباط مصر ومسلميها لإحباط الدسائس البريطانية التي حيكت للتفريق بين العنصرين .

٦- رسالة الأزهر في الأقطار الإسلامية:

أما نفوذ الأزهر في الأقطار الإسلامية فليس من نوع ذلك النفوذ الغامض البعيد الذي يتمتع به الأزهر بفضل مهابة اسمه وجلال مركزه فحسب، بل إن له في تحقيقه وسائل حية، وأدوات ناطقة، نعم، أليس للأزهر ممثلوه في أقطار الإسلام. ولتلك الأقطار ممثلوها فيه أو ليس هؤلاء الممثلون من الجانبين هم حلقة الاتصال المتبادل الذي يحفظ وينمي هذه العلاقات الوثيقة بين الطرفين في مختلف النواحي الثقافية والأدبية والروحية .

فأمـا من أحـد الجانبين فـإن الـدول الإسـلامية (العربيـة منهـا وغـير العربيـة) لا تفتأ تلتمس من الأزهر في كـل عام، عددًا من علمائه ليبصروا شعوبها. بحقـائق الإسلام أو ليكونوا في هيئـات التدريس في جامعاتهـا ومعاهدهـا ولا يسـع الأزهر إلا أن يرحب دائمًا بندائهم فلا يرد لهم ملتمسًا.

هذا وإن الصلـة الوثيقة بين الأزهـر والأقطار الإسـلامية تقوم من جهـة أخرى على تلك الألـوف من شـباب المتعلمـين الوافدين منهـا، والذين يتبنـاهم الأزهـر فيطبعهم بطابعـه، ويصنعهـم على طـرازه وإن الحفـاوة الـتي يقدمهـا لهـم لمفعمـة بـأنواع الكرم والصيانـة فهو يؤويهـم بالمجان، ويمنح كـل منهم شـهريًا مقدارًا من المـال كافيًا لمعيشـته وعلـى الرغم من زيـادة عددهم عامًـا بعد عام فـإن هذه المرتبـات يجدونها مكفولـة لهم على الدوام .

٧- رسالة الأزهر الحقيقية:

وفي ختام هـذا البحث الممتع يؤكد الدكتور دراز على أهميـة رسـالة الأزهر فيقول إن الرسـالة الحقيقيـة للأزهر لن تتحقق علـى وجهها الأكمل إلا إذا تجـاوزت حدودها الإقليمية في الشرق الإسلامي وأسمعت صوتها من وراء تلك الحدود .

نعـم إننـا اليـوم - وقد تنـازعت العـالم قـوى متنـاحرة وآراء متنـافرة . قـد عجزت أطرافها أن تلتقى عند حد وسـط يوفق بينها وقد أخذت في صراعهـا تسرع بنا الخطى نحو الكارثة الكبرى .

أقول إننا اليوم لفي أمس الحاجة إلى قوة ثالثة تتسم بطابع التعادل والتوازن - لا عن طريق التلفيق بين عنـاصر متناكرة بل عن طريق وحـدة طبيعية متماسـكة ، يأتلف فيها عنصرا المـادة والروح وتتساند فيهـا مطامح المنفعة وعواطف الإيثـار وتتعانق فيها حرية الفرد وسلطان الدولة، وتتـدرج بها المصالح القومية في نطاق الرحمـة الإنسانية العالمية . وبالجملة فإننـا اليوم في أشد الحاجة إلى تلك الحكمة الشرقية الإسلامية التى يعد الأزهر

خير ممثل لآدابها .

ويوم يتمكن الأزهر من أن يصوغ هذه السياسة الرشيدة في أسلوب واضح سائغ محدّد ويتيسر لـه من الوسائل ما ينشر بـه هذه المبادئ في الميدان العالمي، ويبدى فيه المعسكران المتصارعان في الوقت نفسه من حسن النية وقوة العزيمة ما يجعلهما يصغيان إلى ندائـه الحكيم يومئذ يكون لنا أن نتحدث بحق وصدق عن «السلام الشامل» و«الأمن الكامل» لا حلمًا من نسج الأوهام ولكن حقيقة حية صالحة للبقاء؟

حضارة الإسلام
وأثرها في الحضارة الحديثة

١- قصة البحث:

هذا البحث كتبه الدكتور دراز إجابة لطلب الدكتور محمد عوض محمد رئيس تحرير مجلة (المجلة) في مطلع عام ١٩٥٧م - أن يمد (المجلة) بما تيسر له من بحوث ومقالات ، تتسم بالعمق، ومتانة الأسلوب، وسداد المنطق، وجهارة الدليل فكان باكورة إنتاج العلامة هذا البحث الذي لم يكتمل لوفاة الشيخ[1] وكان الدكتور دراز قد بعث برسالة للدكتور محمد عوض هذا نصها:

إلى السيد المحترم الدكتور محمد عوض محمد رئيس تحرير المجلة .

تحية طيبة مباركة وبعد:

فإني تحقيقًا لما أبديتموه لي من رغبة كريمة في أن أمد (المجلة) بما تيسر من بحوث علمية أو أدبية، ونظرًا إلى أن جمهرة كبيرة من شبابنا المثقف الذين بهرتهم حضارة الغرب لا يعرفون على وجه التحديد أن خير ما في هذه الحضارة إنما هو وليد الحضارة الإسلامية، وأن جل ما وصل إليه الغرب منذ القرن الثالث عشر الميلادي من علوم وآداب وشرائع وفلسفات وفنون وصناعات إنما هو - باعتراف رموز الغرب أنفسهم - مقتبس اقتباسًا من حضارة الإسلام، بدا لي أن أكتب سلسلة مقالات عن حضارة الإسلام وأثرها في الحضارة الحديثة .

---

(١) لم يسعف الأجل الدكتور دراز أن يكمل موضوعه فقد وافته المنية في مؤتمر لاهور بباكستان في ٦ يناير ١٩٥٨م دون أن يكمل حلقات هذا البحث .

٢- سر انتشار الإسلام وحضارته :

يستهل الدكتور دراز بحثه ببيان سر انتشار الإسلام وحضارته، وهو أن الإسلام حوى من عناصر الحق والخير والجمال كل ما تتطلبه الفطر السليمة على اختلاف مشاربها وأساليبها في الحياة، وأن الحضارات التي نشأت في ظله فاحتضنها، وصانها، أو التي أقتبسها مما حوله فنماها وأضاف إليها، ووسمها بطابعه الخاص؛ كانت لابد محققة لكل ما تطمح إليه الأمم والشعوب من أسباب القوة والرغد .

ويؤكد الدكتور دراز : أن في سرعة انتشار الإسلام في عالم يبلغ خمس الكتلة البشرية على الأقل، وبين أمم مختلفة في ألسنتها وألوانها ونزعاتها وطبيعة أرضها، وطبيعة جوها، وأسلوب حياتها ..

وإن في ثباته واستقراره هذا على الرغم من كل عوامل التدمير التي سلطت ولا تزال تسلط في داخل أرضه وفي خارجها ..

وإن في قابليته لزيادة الانتشار على الدوام كلما رفعت الحواجز الصناعية من طريقه وإن في سرعة تقبل النفوس له كلما عرض عليها دون صراع ولا خداع.. إن في ذلك كله تفنيدًا بليغًا لزعم من زعم أن الإسلام خلق للصحراء وللأمم التي لم تجاوز طور الطفولة البشرية، إن في ذلك كله لآية بينة على مبلغ ما في طبيعة الإسلام من إشباع لحاجات العقول والقلوب، وتوفية لمطالب الأفراد والجماعات ، ومجاوبة للفطرة الإنسانية العميقة، التي لا تختلف باختلاف الأقطار والعصور، ولا باختلاف المظاهر وأساليب الحياة، بل إن في ذلك كله لآية على أن الذي فطر الإنسان هو الذي شرع له هذا الدين، وفصَّله على مقياس طبيعته، وأن ذلك كان هو السر الأول في بقائه وخلوده ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١).

---

(١) سورة الحجر الآية رقم : ٩ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾(١) .

٣ـ عناصر بقاء الحضارة الإسلامية وخلودها :

ويؤكد الدكتور دراز أن الإسلام في غضون تاريخه اتسم بسمتين أخريين ، كان لهما أكبر الأثر والعون على استمراره واستقراره، ظاهرتان من أهم مقومات الحضارة الحقيقية، لم يسع المحققين من علماء أوروبا إلا الاعتراف بهما، والتنويه بشأنهما:

ظاهرة داخلية، بين معتنقيه، وظاهرة خارجية، تجاه المخالفين له.

فأما الظاهرة الداخلية التي أسبغها على أتباعه فيما بينهم : فتلك هي ظاهرة الأخوة الروحية، التي جعل منها ظاهرة اجتماعية، تسمو على كل الفوارق العنصرية، وتمحو كل الحواجز الإقليمية .

وأما الظاهرة الخارجية:

فهي ظاهرة التسامح بإزاء الأديان الأخرى، لا بإزاء اليهودية والنصرانية فحسب، بل بإزاء المجوسية التى عاملها الإسلام معاملة الأديان السماوية هذا وقد ذكر الدكتور دراز مقارنات للتسامح عند المسلمين وبين ما عند المسيحيين الغربيين من عصبية عنيفة مما كتبه المؤرخ الألماني كريمر في كتابه «حضارة الشرق في عهد الخلفاء» والأستاذ الفرنسي «جوتييه» في كتابه «أخلاق المسلمين وعوائدهم» وفي ختام البحث يؤكد الدكتور دراز أن عنصر الوحدة الروحية والوطن المشترك وعنصر التسامح والتعايش السلمي مع جيرانهم المخالفين لهم في عقائدهم هم العنصران الأساسيان في بناء الحضارة عند كل أمة رشيدة تطمح إلى البقاء والخلود .

ويؤكد أن هذين العنصرين لابد لهما من عنصر ثالث يمازجهما ويكملهما، ويَجْبُر

(١) سورة الأنفال الآية رقم ٣٦ .

ما قد يعتريها من نقص ، ذلك أن رحمة الأخوة كثيرًا ما ينفلت زمامها، فتصل إلى حد التراخي والتهاون، والإغضاء عن الإثم والفوضى والفساد الداخلي ، كما أن نزعة التسامح وحب السلام العالمي كثيرًا ما يختل ميزانها، فتنحدر إلى مستوى الضعف والاستسلام أمام العدو الخارجي ، لهذا وذاك جاء الإسلام منظما لكلتا النزعتين محتفظًا بما فيهما من خير ونفع نابذًا ما فيهما من شذوذ وانحراف.

٤ـ حضارة الإسلام تجمع بين القوة والنظام والرحمة والسلام:

يتلخص هذا التنظيم الإسلامي في أنه جهز أتباعه بجهازين : داخلي وخارجي وجعل كل واحدٍ منهما يتألف من عنصرين : أدبي ومادي.

فأما في الداخل فقد جهزهم معنويًا بجهاز الدعوة إلى الخير، والتناهي عن المنكر، والتناصح والتواصي بالحق، دعوة وتناصحًا لا يمتاز فيهما كبير عن صغير، ولا يقل فيهما مأمور عن أمير ..

ثم جهزهم ماديًا بجهاز العقوبات والتأديبات التي يوجب توقيعها على كل من لم تنفعه الموعظة الحسنة بالغًا ما بلغ قدره وخطره دون أن تأخذنا به رأفة في دين الله .

وأما في الخارج فقد زود أتباعه معنويًا بمبادئ العزة والحمية وإباء الضيم: أُشربتها قلوبهم مع عقيدة التوحيد، حتى إذا قيل لهم : ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ**﴾[1] ثم جهزهم ماديًا بقانون الجهاد الذي جعله عليهم فريضة محكمة، يدافعون به عن كيانه وكيانهم، ويرهبون به عدو الله وعدوهم. وهكذا كان الإسلام في لينه بعيدًا عن الضعف ؛ كما كان في حربه بعيدًا عن العنف، وبذلك تجافى عن طرفي التفريط والإفراط اللذين انتهى إليها الأمر في كثير من الديانات ، نعم لقد جاء الإسلام بريئًا من طابع الخور والاستكانة التي اتسمت بها بعض الديانات الوعظية التبشيرية، التي لا حول لها ولا

(١) آل عمران من الآية : ١٧٣ .

قوة، والكبرياء والعُتو الذي اصطبغت به بعض الديانات المحرفة، التى تُوحى إلى أتباعها أن من عداهم ليسوا من فصيلة البشر وأن دماء غيرهم وأموالهم ليست لها حرمة ولا قدسية

هكذا جاء في وقت واحد مبرءًا من العناصر الخامدة الحائرة ومن العناصر الهادمة المدمرة، مزودًا بعناصر الصلاح والإصلاح، وأسباب البقاء والإبقاء جامعًا بين القوة والنظام ، والرحمة والسلام .

الباب السادس

ندوة وحـوار

أولاً: ندوة حول العطاء الفكري

للدكتور / محمد عبد الله دراز [جريدة آفاق عربية]

المشاركون في الندوة

١ـ أ.د. عبد العظيم إبراهيم المطعني

٢ـ أ. محمود طمان.

٣ـ د. خالد فهمي.

٤ـ د. عبد الحكيم العبد.

ثانيًا: الأزهر في باريس

حوار صحفي مع الدكتور دراز

عقب عودته من باريس [جريدة الأهرام]

أجرى الحوار:

الأستاذ/ عصمت عبد الجواد

ندوة العطاء الفكرى(*)

للدكتور/ محمد عبد الله دراز

الأزهر حصن منيع من حصون الإسلام ـ لا شك في ذلك ـ ومن هذا الحصن خرج علماء كبار واجهوا الباطل على مدى التاريخ فلعب الأزهر بعلمائه دورًا مهمًا وخطيرًا في الحفاظ على تراث هذه الأمة وثوابتها واستقلالها وحريتها .. الخ .

وقد حفظ التاريخ هذا الدور للأزهر فسجل صفحات خالدة لعلمائه الكبار في عهود متتابعة.

لكن ما حدث اليوم من وسائل الإعلام تجاه هذا الدور كان هو التعتيم والتحجيم فضاع حق علماء كبار في أن يعرف الأجيال تاريخهم وجهادهم ومن بين هؤلاء العالم الكبير المرحوم د. محمد عبد الله دراز الذي كان حديث الندوة الشهرية الخميس الماضي والتي تحدث فيها د. عبد العظيم المطعني الأستاذ بجامعة الأزهر وشارك فيها الكاتب الصحفي محمود طمان ود. خالد فهمي ود. عبد الحكيم العبد ود. محمد حامد الحضيري ود. محمدين يوسف والشاعر الشيخ عبد الغفار الدلاش وحامد صميده وناصر صلاح ووحيد الدهشان ومحمد أبو الوفا وعطية أبو العلا وعبد الله قويضي وعبد المجيد بركات ومحمد بدوي وغيرهم وجمهور المنتدى الثقافي .

في البداية أشار د. المطعني إلى المحنة التى يمر بها الإعلام في المرحلة الراهنة والتى لا تصب في مصلحة الإسلام والمسلمين حيث يجري «تلميع» غير المستحقين، والتعتيم على الإعلام الكبار الذين قدموا علمهم وجهدهم وحياتهم خدمة للإسلام وقال: إن د. محمد عبد الله دراز قد ناله شيء غير قليل من هذا التعتيم رغم جهاده العلمي وعطائه الفكري الكبير حيث اختار الطريق الصعب وسار في حياته العلمية في مجاهيل

(*) جريدة ـ آفاق عربية ـ العدد (٣٩٨) ٤ مارس ١٩٩٩م.

وطرق وعرة ما خطا فيها أزهري قبله خطوة واحدة .

وكان ذلك في الوقت الذي غلبت فيه على الناس ظاهرة النقل والتقليد وسياسة القص واللصق سعيًا وراء تضخيم الأوراق والرسائل.

وحول الجهد العلمي والعطاء الفكري للدكتور دراز قال د. المطعني: إن هذا الموضوع يحتاج إلى مؤتمر تطرح فيه الأبحاث وتدور فيه المناقشات فرسالة الدكتوراة التى حصل عليها من جامعة السوربون كما قال د. دراز نفسه عنها ظل موضوعها مكشوفًا منذ عهد الدعوة إلى العصر الذي كتب هو فيه الرسالة.

وأكد د. المطعني أن هذا صحيح.

لأن موضوع الرسالة أصله موجود في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية وإذا نحينا القرآن والسنة فإن العمل البشري بعدهما في هذا الموضوع كان بواكير خافتة ومن ألمع من تعرضوا له الإمام أبو حامد الغزالي وهو موضوع فلسفة الأخلاق.

منظومة الأخلاق:

وأضاف: إن أبا حامد الغزالي عندما كتب في هذا الموضوع جمع ١٤٠٠ آية من القرآن الكريم على اعتبار أن القراء سيفهمون سر هذا الجمع وهذه المنظومة من الآيات هذا بالإضافة إلى ما كتبه علماء الكلام مما يمكن نسبته إلى علماء المسلمين الأقدمين الذين لهم عذر في أنهم لم يبحثوا بتوسع في مصدر الإلزام الخلقي لأنهم كانوا يجمعون على أن مصدر الإلزام هو الله سبحانه وتعالى . لكن عندما تقدم البحث الإنساني في هذه المسألة وطرحت هذه القضية على فلسفات لا تؤمن با لله أو تؤمن به سبحانه ولكنها تؤمن بالفلسفة العقلية الحرة فأضافوا مصادر كثيرة جدًا في الإلزام سواء كانوا يراعون أن الله سبحانه وتعالى أو غيره هو مصدر الإلزام الخلقي، فبعضهم يرى أن مصدر الإلزام هو القانون الذي ينص على الممنوع فقط دون أن يشير إلى

النواحي الإيجابية للسلوك والبعض الآخر يرى أن الضغط الاجتماعي هو مصدر الإلزام مثل هنرى برجسون الذي أدرك ضعف هذا الطرح وحاول إكماله .

نظرية الأخلاق الإسلامية:

وأوضح د. المطعني أن جهود د. دراز أكدت أن نظرية الأخلاق الإسلامية التى بدأت من القرآن الكريم والسنة الشريفة تغطي كل هذه العيوب ومناطق الضعف في الفلسفات الأخرى حول الأخلاق .

وقال د. دراز إن حصيلة الدرس الفلسفي غير المتقيد بدين اتجاهان كبيران يمثل أحدهما الفيلسوف الألماني كانط والآخر يمثله الفيلسوف الفرنسي فريدريك رو.

وكانط يرى أن مصدر الإلزام هو العقل الخالص سواء في الأخلاق الإيجابية أو السلبية .

ويقول الدارسون لفلسفة كانط إن العقل الخالص لكانط لم يستطع أحد أن يقرأه حتى الآن مع أن الشيخ محمد دراز قرأه وفهمه ونفذه ووضعه في مكانه اللائق به. وكانت فكرته تقوم على أن العقل الخالص يجب أن يتخلص من جميع العوامل والقيود المحيطة به وقد كان كانط مؤمنًا بوجود الله وكان يرى أن العقل الخالص لا يعمل الخير أو الشر في سبيل رضاه أو سخطه عز وجل.

تطويح نظرية كانط:

وعرض د. المطعنى لرد الشيخ دراز الذي قال: إن أول نقض نحو هذه النظرية هو استعقاق القوة الأعلى أي عمل يتم فيه استبعاد هذه القوة فإنه لا ينتظر منه إلا الفوضى لأن الإنسان هو أعلى مخلوقات الله المرئية على وجه الأرض والأصل في الإلزام أن يكون هناك تدرج في السلطة أما في حالة تساوى السلطات فإن الإلزام لن يكون ولذلك لابد في الإلزام من طرف أعلى لا يسأل عما يفعل وطرف آخر أدنى يُسأل عما يفعل .

واستمر د. دراز رحمه الله في هذا السبيل ناقدًا لفلسفة كانط حتى قال: إن هذه النظرية تستلزم شيئًا ما لم نعهد له مثيلاً في ماضي الإنسانية أو حاضرها، وانعدامه في كل من الماضي والحاضر كفيل بأن يكون مقدمة صادقة لانعدامه في مستقبل الإنسانية وهو أن يكون الناس كلهم على درجة واحدة من الوعي يفهمون هذا العقل الخالص ويدينون له لكن الموجود في الدنيا أن عقول الناس متفاوتة متباينة وقلما تجد عقلين في قمتهما واحدة .

ونظرية كانط تتطلب أولاً تجانس الوعي لدى الناس حتى تكون صحيحة . وخلص دراز إلى أن فلسفة كانط غير واقعية وقدم ذلك إلى تلاميذ كانط ونجح بذلك في قتل نصف الفلسفة الغربية المعاصرة في الأخلاق وبالمثل صنع في فلسفة فريدريك رو ثم عرض نظرية الأخلاق الإسلامية حتى إن بعض من شهدوا مناقشة رسالة د. دراز دخلوا في الإسلام .

ثلاثة أطر:

وأوضح د. دراز أن الإسلام في تدخله لدى الفرد والواجب بدأ ذلك من خلال القرآن الكريم ثم السنة الشريفة وذلك بتيسير العمل على المكلفين بوضعه في ثلاثة أطر (أضاف إليها د. المطعني إطارًا هو والأول) وهي: الأول: أن يكون العمل متفقًا مع القول النبوي الشريف لا ضرر ولا ضرار والثاني: أن يكون هذا العمل في إمكان المكلف فإن لم يكن كذلك فهو غير مطالب به ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) والثالث: أن يكون العمل ميسرًا على هذا المجتمع.

والرابع: الترتيب في درجات الوجوب.

التخفيف:

وأضاف: إن التشريع الإسلامي للتخفيف وتيسير العمل على الناس مثل حالة المريض في الصيام أو قصر الصلاة وجمعها للمسافر وهكذا ثم عقب د. المطعني على

ذلك قائلاً: إن د. دراز رحمه الله نجح بذلك في تقديم النظرية الإسلامية في الأخلاق بكل تفاصيلها وأحلها محل الفلسفات الوضعية .

وفي ختام حديثه تساءل د. المطعني ما الذي جعل دراز يكون بهذه المنزلة؟

وأجاب: إن لذلك ثلاثة أسباب هي الجيل الذي تعلم منه دراز والجيل الذي تعلم من خلاله والسياسة التى كانت تسيطر على جو الأزهر يوم كان الشيخ دراز طالبًا.

عالم موجه:

وتحدث محمود طمان الكاتب الصحفي بالأهرام حول تكوين د. دراز ونشأته حيث نشأ في حضن عالم وتفتق ذهنه على كتاب «الموافقات» للإمام الشاطبي.

وقال الأستاذ طمان: لقد وجهني رحمه الله إلى دراسة علم الأصول وأنا درست البرغشي المحشو بالمنطق ولم أتعلم الأصول إلا على الشيخ طه العربي والشيخ عبد الخالق وهما من تلاميذه رحمه الله فقد رضع لبان العلم من أبيه الذي كان - يرحمه الله - عالمًا أيضًا وقدوة جعل القرآن منهجه والسنة رديفه.

وأضاف: ثم درست على تلميذه فضيلة الشيخ الغزالي رحمه الله الذي كان شبيها بالشيخ دراز حتى في طريقه الوفاة فكلاهما لقي ربه خارج الوطن.

وقد قال الشيخ أبو زهرة عن د. دراز : كنا نأوي إلى نومنا ويأوي الشيخ دراز إلى القرآن الكريم .

وطالب الأستاذ طمان باستلهام منهج د. دراز وأمثاله .

توظيف الفكر الغربي:

وقال د. خالد فهمي : أجمل ما في هذه الندوة أنها جاءت في وقت يتعرض فيه الأزهر لهجوم شديد وفي ظل العلمنة التى تحيط بعالمنا كله والدعوات التى تقول بنسبية القيم .

إن الشـيخ دراز قام باختـراق العقل الغربي واستطاع في عـام ١٩٤٧م أن يوظف مقدمات الفكر الغربي ثم يخرج بنتـائج تخدم الفكرة الإسـلامية لا على مستوى التنظير فحسب وإنمـا في الإلزام والمسئولية بل إنـه وضع دسـتورًا أخلاقيًا مسـتنبطًا من القرآن الكريم .

وإنجـازه في هـذا المجـال جدير بـأن يوضع في بـرواز وهو ـ رحمـه الله ـ سـافر إلى السـوربون بعد أن تحصن هنا في الأزهر فجـاء خطابه غاية في الأهميـة في لحظة اندحار عمت العالم الإسلامي كله .

وأنا لي ملحوظـة على القول بـأن كـانط كان مؤمـن فهو كـان من أهم الأصوات العلمانية الغربية والقول بفصل العقل عن السماء أهم خطواتها .

وديكـارت قرر أن هناك معرفـة هي أكمل مـن المعارف البشـرية كلهـا وقال بإيجاز إنهـا «لله» وطـه حسـين لم يفهم هذا من ديكـارت ورغم ذلـك كان كـل من كانط وديكارت خطوتين جبارتين على طريق العلمانية الغربية .

وكان دراز ـ رحمـه الله ـ مهمومًـا بقضيـة الإعجاز وأدرك مبكـرًا جدًا أن الخطاب العربي المعـاصر يحتاج إلى البرهنـة على إعجاز القـرآن والسـنة باسـتنطاق أدلـة علميـة وكونية جديدة في مجال الإعجاز .

ابتلاء:

وعقب د. عبـد الحكيم العبد: أريد أن أقول إن هذه الأمـة ربما تكون مبتلاة بالفرقة في الجهود العلمية وهو أمر ليس ميئوسًا منه خاصة في هذا الطريق المسلح بعلم الكلام، فقد نجح الشيخ مصطفى عبد الـرازق في القيام بدور شبيه بدور د. دراز وأنا اتساءل : كيف يمكن ربط هذه الجهود الرائعة والاستفادة منها؟

دكتوراه عن الأخلاق في القرآن

تناقش في باريس

... وفي موجه الحر الشديد التي اجتاحت القطر المصري في شهر مايو عام ١٩٣٦ كتب اسم محمد عبد الله دراز بين مبعوثي الأزهر الشريف في بعثة فؤاد الأول إلى فرنسا، وقدر للشيخ أن يغادر القاهرة إلى باريس تاركًا زوجه وأولاده التسعة .

لقد آثر الشيخ أن يسافر وحده ليدرس الحياة الاجتماعية في فرنسا .. تلك الحياة التي يصورها المصورون بأبشع صورة .. ولهذا أراد الشيخ الشرقي المحافظ على تقاليده أن يرى بنفسه هل يتيسر العيش في فرنسا لأسرته الشرقية المسلمة المتمسكة بزيها بحيث لا يؤثر ذلك على أخلاقها وتقاليدها .. أم لا !..

حياة اجتماعية مشرفة!!

وفي مايو عام ١٩٣٧ استدعى الشيخ أسرته لتعيش بجواره آمنة مطمئنة فكيف حدث ذلك ؟ لقد درس طوال هذا العام الذي قضاه وحده الحالة الاجتماعية وكانت نتيجة أبحاثه على عكس ما يرى الناس من انحدار الحياة الباريسية .

وصلت الأسرة إلى باريس وكانت تتألف من زوجة وتسعة أبناء وبنات أصغرهم لايزيد سنه كثيرًا على ستة أشهر وهناك ألحق الأبناء بالمدارس حيث لا فرق بين شرقي وفرنسي في التعليم ..

كيف تتحدث باللغة الفرنسية:

أسرة شرقية في باريس !!

وعاشت الأسرة راضية مطمئنة بجانب صاحبها الذي كان يسعى لنيل درجة الدكتوراه في «أخلاق القرآن» وكانت الزوجة حريصة كل الحرص على أن تسود في المنزل التقاليد الشرقية فكانت اللغة العربية هي لغة التخاطب بين جميع أفراد الأسرة

حتى اللهجة المصرية الريفية حرصت عليها كل الحرص وكم دهشت حينما خاطبت بعض أبناء الشيخ بعد عودتهم من فرنسا فلم أشعر بأي تغير في لهجتهم ولما انتقل بنا الحديث إلى اللغة الفرنسية وجدتني أمام أناس لا فرق بينهم وبين الفرنسيين في طريقة التخاطب.. وزاد دهشتي أن رأيت الابن الأصغر في الأسرة وقد ولد في باريس نفسها يتكلم العربية باللهجة الشرقية الدارجة على الرغم من أنه لم تمض على عودته إلى مصر أكثر من أسبوع واحد ولما كلمته بالفرنسية رد بطلاقة كأنه فرنسي الأصل والنشأة .

وعند نشوب الحرب!!

وعندما نشبت الحرب العظمى الثانية نصح كثيرون فضيلة الشيخ دراز بالعودة إلى مصر .

ولكن هذه النصائح لم تحمل الشيخ على التفكير في العودة .. لأن واجب الدرس عنده كان فوق كل واجب ..

لهجرة :

ورأى الشيخ أن خير وسيلة لاتقاء خطر الغارات هي الهجرة إلى الريف كما كنا نفعل أيام الغارات أيضًا.. فاستأجر منزلاً في ضواحي باريس ليكون مأوى من الغارات من ناحية ومصيفًا من ناحية أخرى، وكان له فوق ذلك أهمية كبرى، لأن بعض أفراد الأسرة كانوا يعيشون في هذا المنزل ويقومون بتربية الدواجن وزراعة الفواكه والخضروات ثم يرسلون منها إلى باقي أفراد الأسرة في باريس. وقد كان هذا المنزل في طريق الجيش الأمريكي لسوء الحظ فأصيب بقنبلة عام ١٩٤٤م هدمته وأصيب بعض أبناء الشيخ بجروح لم تكن خطيرة .. وقضت عليهم الضرورة أن يهاجروا إلى منزل ريفي آخر فنقلت الأسرة إلى قرية مجاورة ومن سوء حظهم أيضًا أن كان هذا المنزل بجوار معسكر للدبابات والذخائر وهدفًا للقذائف الألمانية والأمريكية ولكنه كان يتمتع بميزة هامة إذ كان له مخبأ في أسفل الدور الأول يعادل دورين تحت الأرض وقد

اضطرتهم الظروف في إحدى الغارات إلى أن يختفوا في هذا المخبأ اثنى عشر يومًا متوالية وكانوا ينتهزون فرصة هدنة بسيطة لا تستغرق بضعة دقائق يقف أثناءها رمي القذائف فيتسللون خلسة إلى الحديقة ويقطفون من ثمارها ويذبحون بعض الطيور الموجودة عندهم وهكذا كانوا يأكلون...

وريقات خير من الحياة ..

كانت صفارة الإنذار كلما أنطلقت تنذر بوقوع غارة أخذ الناس يهرعون إلى المخابيء حرصا على أرواحهم ، فكنت ترى الأم وقد احتضنت أولادها والأطفال وقد أمسكوا بتلابيب أمهاتهم وآبائهم .. وكان كل فرد يقول نفسي وأولادي ، أما شيخنا المحترم فلم يكن يفكر إلا في أوراق بحوثه التى سيقدمها للرسالة .. لقد كان ينزل المخبأ متأبطا أوراقه تاركا كل ما عداها ..

الليسانس أولاً..

لقد سافر فضيلة الشيخ دراز مبعوثا من الأزهر لينال دكتواره في الفلسفة من السوربون ولكنه رأى أن يقوم بدراسات فلسفية عامة قبل ذلك فحصل في أول عام من رحلته على شهادة عليا في علم النفس وهذا النشاط في البداية جعل الأزهر يرغب في أن يسعى الشيخ في الحصول على ليسانس في الآداب قبل الدكتوراة وأكمل الشيخ دراسته حتى حصل على الأربع الشهادات العليا المطلوبة لليسانس وصادف أن آخر شهادة حصل فيها على الليسانس كانت يوم دخول الألمان فرنسا ونظرا لاضطراب الحالة السياسية كانت سنة ١٩٤١ فترة تعطل في عمله الجامعي حتى أن ملف أوراقه في جامعة بوردو ضاع بين بوردو وباريس .. وفي عام ١٩٤٢ استطاع الشيخ أن يلتحق بالسوربون ثانية وابتدأت اتصالاته بالأساتذة وعمل جاهدًا على تقديم موضوع الرسالة للحصول على تصديق عليه قبل البدء في تأليف الرسالة الكبرى وهي «الأخلاق في القرآن» والرسالة المتممة وهي عن «التعريف بالقرآن» .

جهاد عشر سنوات!!

واستغرقت الرسالة زهاء عشر سنوات ويقول في ذلك فضيلة الشيخ دراز أن العمل فيها لم ينقطع بتاتا على الرغم عن عقبات الحرب التي صادفته والتي كانت سببًا مباشرًا لهذه المدة الطويلة .. ثم يعترض ثانية ويقول .. ولكن هذه المدة ليست طويلة بالنسبة للعمل الطبيعي لنيل دكتوراه الدولة. لقد وطأت قدماه أرض فرنسا عام ١٩٣٦ وتقدم لنيل الدكتوراه في عام ١٩٤٧ ... جهاد عشر سنوات يسفر عن رسالة ضخمة موضوعها الأخلاق في القرآن وباللغة الفرنسية.. لاشك أنه مجهود جبار يعتز به شيخنا الموقر..

مناقشة .. ولكنها حادة !!

وفي احدى قاعات السوربون التسع في يوم من أيام عام ١٩٤٧ دارت مناقشة الرسالة التى استغرقت أربع ساعات كاملة .. وكانت القاعة ملأى بجمهور المتفرجين وكان الشيخ حريصا على ألا يحضرها أحد من أسرته أسوة بالتقاليد الشرقية الريفية فكان وحيدا فريدا بين جمهور الفرنسيين.. وفي شكل نصف دائري جلست لجنة المناقشة يتوسطها الرئيس وأمامهم جلس الطالب الموقر يلبس الزي الشرقي «الجبة والقفطان والعمامة» وخلفه وعلى جانبيه اصطف جمهور المتفرجين، بدأ الشيخ بتلخيص رسالته حسب إشارة الرئيس و لم تمض مدة طويلة حتى بدأ الرئيس يقرظ الرسالة ويبرز النقاط الهامة فيها !!

و لم يكد الرئيس ينتهي حتى بدأ أحد الاعضاء قائلاً أن الرسالة تبرز أن القرآن كتاب سماوي لا يتحيز لأمة ولا لدين خاص وإنما هو دعوة عالمية وديانة للبشر كافة.. أن هذا الكلام مقنع لدرجة اخشى معها التأثير على نفسية المستمعين فتحولهم عن دينهم ثم توجه إلى الشيخ قائلا: «أنك ولا شك تريد أن تجذبنا إلى الدين الإسلامي أليس كذلك؟؟؟» .

قد تكون هذه دعابة من المناقشين وقد تكون اعتراضا حقيقيًا.. ولكن المهم أنه مع باقي الممتحنين أجمعوا على مناقشة الطالب في ثلاث نقط هامة يستغربها الأوربيون على الديانة الإسلامية.

وهي تعدد الزوجات وانتشار الإسلام بالسيف وانقطاع الوحي أو استمراره. وبعد أن دارت المناقشة هذه الفترة الطويلة بين جمهور كبير من المستمعين قبلت الرسالة بين مظاهر الإعجاب والثناء..

لقد كان حديثًا ممتعًا مع فضيلة الشيخ دراز رأيت أن أختمه بسؤال عن أول ما لفت نظره في مصر بعد هذه الغيبة الطويلة فقال: لقد كنت طامعًا في أن أجد مصر وقد تغيرت في النظام والنظافة وطرق المواصلات.. ولكنني للأسف لم أجد شيئًا يذكر من هذه الناحية . أن الذي لفت نظري حقيقة هو نشاط في الحركة الصناعية .

* * *



الباب السابع

مختارات من فكره الموسوعي

١- نظرات في فاتحة الكتاب .

٢- الرسول ﷺ في القرآن .

٣- الهجرة النبوية بداية عهد جديد للإنسانية .

٤- رسالة الإسلام وسر نجاحها .

٥- الإسلام وكرامة الفرد.

٦- أزمة الصدق.

٧- التفاني في العقيدة .

٨- أدب القرآن بين المثالية والواقعية .

٩- بين العدل والفضل.

١٠- مناهج الناس في السلوك وقيمها في القرآن



نظرات في فاتحة الكتاب الحكيم[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿(١)الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢)الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤)إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥)اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(٦)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧)﴾

خير ما تفتتح به الأعمال ، وتستنجح به المقاصد، التوجه إلى الله العلي القدير، ثناءً عليه بما هو أهله، واستمدادًا للمعونة من قوته، واستلهامًا للرشد من هدايته.. وتلك هي الخطوط البارزة في سورة الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثناء على الله.. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ استعانة بالله.. ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ استرشاد بنور الله .

عند هذه النظرة العابرة يقف أكثر الذين يتلون هذه السورة، أو الذين يستمعون إليها، ولعل كثيرًا منهم لا يدركون من تسميتها بالفاتحة إلا أنها تحل المحل الأول في صدر المصحف .

ولكن هلم بنا نلق على هذه السورة الكريمة نظرتين أخريين: نظرة في موادها ومقاصدها مقارنة بمواد القرآن ومقاصده ونظرة في وجهة خاطبها، مقارنة بوجهة الخطاب القرآني، وسنجد لها بذلك شأنًا أهم وأعظم .

ولنبدأ بالنظر في إحصاء المقاصد الكلية للقرآن الكريم، وفي مدى احتواء الفاتحة على هذه المقاصد.

فالشئون التي تناولها القرآن، على تنوعها وكثرتها، نستطيع أن نجملها في أربعة

(١) نشرت في مجلة «المجلة» العدد ٧ ذو الحجة ١٣٧٦ هـ يوليه ١٩٥٧م .

مقاصد، هي في الحقيقة كل مطالب الدين والفلسفة والأخلاق، مقصدان نظريان: هما معرفة الحق، ومعرفة الخير. ومقصدان عمليان تثمرهما هاتان المعرفتان إذا قدر لهما أن تثمرا ؛ فثمرة معرفة الحق هي تقديس الحق واعتناقه، وثمرة معرفة الخير هي فعل الخير والتزامه .

فالقصد النظري الأساسي للقرآن الكريم الحكيم هو تعريفنا بالحقيقة العليا، صعودًا بنا إليها على معراج من الحقائق الأخرى، فهو يعرفنا بالله وصفاته عن طريق توجيه أنظارنا إلى آياته في ملكوت السموات والأرض: في خلق الإنسان والحيوان والنبات، في سير الشمس والقمر والنجوم، في تكوين السحاب، في تسخير الطير، في تصريف الرياح، في ظاهرتي الحياة والموت، وفي سائر الظواهر النفسية والكونية الخارجة عن إرادتنا، وعن إرادة الكائنات كلها، والتي لا يستطيع العقل السليم أن يفسر وجودها، ولا بقاءها ولا تناسقها وتماسكها ووحدة نظامها، إلا بوجود قوة عاقلة قديرة مدبرة حكيمة، تقبض على زمام الأمر كله، وتوجه العالم كله على هذا النحو الموحد المعين، المختلف المؤتلف دون ملايين الملايين من الأوضاع الممكنة التى لابد لها من أن تتناوب على الكون في كل لحظة لو ترك أمره لمحض المصادفة والاتفاق، أو لو ترك أمره لقوة عمياء صماء طائشة، لا عقل لها، أو لقوة مخربة مدمرة لا رحمة لها، أو لقوة عابثة لاهية لاعبة لا هدف لها .

والقرآن حين يرينا صنع الله في ملكوته لا يقف بنا عند هذه اللوحة العالمية في صورتها الحاضرة، ولكنه يوجه نظرنا إلى طرفي الزمان الكوني، فيطل بنا على صورة العالم في ماضيه وفي مستقبله، في بدايته وفي نهايته، كما يوجه نظرنا إلى طرفى الزمان الإنساني ، فيرينا صورة من صنيع الله في الأفراد والأمم : في ماضيها وفي مستقبلها القريب والبعيد، في إسعادها وإشقائها، في إبقائها وإفنائها، في مثوبتها وعقوبتها .

هذه النظرة الشاملة إلى صنع الله في الأنفس والآفاق، وهذه المعرفة بالله في مظهري

عدله وفضله، في صفتي جلاله وجماله إذا وقعت موقعها من النفس تقاضتها حتمًا أن تتخذ لها موقفًا عمليًا تجاه هذه الحقيقة المقدسة العليا. وما ذلك إلا موقف التوقير والخشوع أمام هذا العدل والجلال، وموقف الولاء والحب أمام هذا الفضل والجمال. فمن عرف الله خشعت له نفسه، واطمأن له قلبه. وذلك هو روح العبادة وجوهرها، الخشوع التام عن طوع واختيار، وعن رضى ومحبة .

فإذا كان هذا الأصل النظري الأول، هو معرفة الله، فالأصل العملي الأول الذي يثمره هذا الأصل، هو توقير الله. ومن جملة هذين الأصلين يتألف الجانب الإلهي بعنصريه النظري والعملي ... والقرآن يفصله تفصيلاً ، وسورة الفاتحة تجمله إجمالاً في شطرها الأول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢)الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهذه هي المعرفة الأساسية. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا هو الموقف العملي الذي تثمره تلك المعرفة.

وقبل أن ننتقل إلى الجانب الإنساني، الذي يتناوله الشطر الثاني من السورة، يجمل بنا أن نقف وقفة يسيرة أمام هذه الحبات الدرية التى يتألف منها هذا الجناح الأول من السورة لكي تتمتع عقولنا وقلوبنا بتذوق معانيها، واجتلاء جمال مواقعها، ولنبدأ بهذه الصفات الحسنى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢)الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ شذرات ثلاث انتظمت أركان العقيدة القرآنية الثلاثة، في ترتيب بالغ الغاية في الإبداع والإحكام: المبدأ، فالواسطة، فالمعاد.. التوحيد، فالنبوة، فالجزاء.. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ليس إله قبيلة أو شعب، ليس إله خير أو شر، أو إله نور أو ظلام فحسب، ولكن رب كل شيء : بارئه ومصوره، منقله في أطواره، مبلغه غايته، ممده بحاجاته، مبتليه أو معافيه، وبالجملة مربي كل شيء بأنواع التربية الظاهرة والباطنة . هذا هو التوحيد الخالص، وهذا هو ركن المبدأ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ليس رحمانًا رحيمًا فحسب، ولكنه هو الرحمن الرحيم. ليس واحدًا من جملة الراحمين ولكنه هو المصدر الوحيد للرحمة .

ثم هو ليس ذا رحمة واحدة، ولكنهما رحمتان مفسرتان في القرآن: رحمة وسعت كل شيء، ورحمة يختص بها من يشاء ؛ فالرحمة الأولى وسعت الإنسانية جميعها، لا أقول وسعتها بنعمة الوجود والحياة والرزق المادى فحسب، ولا أقول وسعتها بنعمة الهداية الفطرية وكفى، ولكن بنعمة الهداية السماوية نفسها وذلك بإرسال الرسل إلى كل الأمم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾(1) ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾(2) هذه هي الرحمة الأولى؛ الرحمة الأساسية العامة، التى هو بها «رحمن» ممتلىء الخزائن بالرحمة، باسط اليدين بالنعمة ﴿وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾(3) .

ورحمة أخرى خصوصية، إضافية، علاوة يمنحها لمن يستحقها، تلك هي رحمة الاصطفاء والاجتباء، والقيادة والإمامة والتوفيق والرشاد، والمزيد من الفضل: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾(4) ،﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(5)، ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾(6)، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾(7) ، ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾(8)، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(9) ، وهذه هي الرحمة التي هو بها رحيم، على هاتين الرحمتين يقوم ركن النبوات فهو رحمة عامة للمرسل إليهم. ورحمة خاصة للمرسلين، ومن اهتدى بهديهم، ولهذا هو الواسطة بين المبدأ والمعاد .. ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إليه وحده ترجع الأمور، وبيده تقرير المصير الأخير، يقف الخلق جميعًا بين يديه مسئولين، فيدينهم ويجزيهم بما كانوا يعملون، وهذا هو الركن الثالث والأخير؛ ركن المعاد والجزاء.

---

(1) سورة النحل: ٣٦ .

(2) سورة فاطر: ٢٤.

(3) سورة إبراهيم: ٣٤ .

(4) سورة الحج: ٧٥.

(5) سورة الأنعام: ١٢٤.

(6) سورة الشورى: ١١٣.

(7) سورة محمد: ١٧.

(8) سورة فاطر: ١.

(9) سورة الرعد: ٢٦.

عرفنا الآن مغزى هذه الصفات الثلاث ومواقعها فيما بينها، فلننظر إلى موقعها مما حولها، لنرى كيف وقعت بين قضيتين ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تأييدًا لما قبلها، وتمهيدًا لما بعدها. فمنزلتها من قضية الحمد منزلة البرهان من الدعوى، ومنزلتها من قضية العبادة منزلة القوة المحركة من الحركة المطلوبة .

وفي الحق أنه إذا كان الله وحده هو الذي أعطى كل شيء خلقه، وهو الذي كفل كل شيء وتعهده بالإمداد آنًا فآنًا حتى أبلغه مداه، وإذا كان هو وحده الذي يملك خزائن الرحمة والنعمة كلها، وهو الذي ينفق منها، وهو الذي يضاعفها لمن يشاء، وإذا كان هو وحده الذي بيده فصل القضاء، وتقرير المصير. فأي شيء أحق منه بنعوت الجمال والجلال؟ بل أي شيء غيره يستحق هذا الثناء والإجلال؟ الحمد والثناء كله حق مستحق خالصًا مخلصًا لله .. تلك إذن قضية معها برهانها.

هذا البرهان الاستقرائي، الذي يستقصى مظاهر العظمة والرحمة كلها في الأزمنة الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، فيحصرها في الله، هو في الوقت نفسه قوة دافعة تأخذ بأقطار نفسك وتوجهك إلى غاية معينة عملية، فإن نظرة إلى ماضيك وقد أتى عليك حين من الدهر لم تكن شيئًا مذكورًا فتعهدك الخلاق في مختلف أطوارك حتى بلغت أشدك وأصبحت سميعًا بصيرًا خصيمًا مبينًا، مستأصلاً لخلافة الأرض، لابد أن تتقاضاك حق الاعتراف له بالفضل والجميل، قيامًا بواجب الرضاء، ونظرة إلى حاضرك وإلى مستقبلك القريب وأنت تتقلب كل آن في رحمته، وتطمع كل آن في المزيد من نعمته، لاشك تثير فيك نحوه باعثة الحب والرجاء، ونظرة مستقبلك البعيد وأنت واقف أمامه في ساحة القضاء، وقد علق مصيرك في كفتي ميزانه، لابد أن تنفث في روعك مزيجًا من الرغبة والرهبة والاستحياء .

ماذا يكون موقفك إذن من هذه الحقيقة المحيطة الغامرة، وأنت كلما التفت إلى أمسك أو إلى يومك أو إلى غدك لم تر إلا يد جلالها أو يد جمالها؟!.

النتيجة الطبيعية التي لا تستطيع دفعها عن نفسك بعد هذه المقدمات الثلاث، هي أن يضمحل في عينك كل ما ترى في الوجود من مظاهر زائفة، وظواهر زائلة، وأن ترتفع فوق العالم بكل هامتك، وأن تتحول كل رغبتك ورهبتك إلى هذا المنبع الأول والوحيد لكل قوة ورحمة، هناك لا يسعك إلا أن ينطلق لسانك في حب خاشع قائلاً: أيها الحق الجامع المانع! لك كلي ، لك صلاتي ونسكي، ولك محياي ومماتي إياك أعبد، ولك وحدك أركع وأسجد . على أنك لو كنت أوسع أفقًا ، وأيقظ قلبًا، لوجدت نفسك لست وحيدًا في هذا الموقف، ولرأيت العالم كله حولك راكعًا ساجدًا أمام هذه العظمة الباهرة. لا تقل إذن: إياك أعبد، ولكن قل : «إياك نعبد» وهذه هي النتيجة الحقيقية التى أعلنها القرآن الحكيم :« أياك نعبد، وإياك نستعين»، لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك . !!

ـ ماذا أقول؟ لا نستعين إلا بك! إنى لأكاد أسمع من يهمس في أذني همسًا يقول لي: أما «إياك» فقد فقهناها، وأما «إياك نستعين» ففي النفس منها شيء، إذ من ذا الذي يطيق هذا الاستغناء الكلي عن معونة الخلق؟ أليس الناس كلهم يعين بعضهم بعضًا، ويستعين بعضهم ببعض، أليس التعاون هو أساس الحياة ؟ أليس القرآن نفسه يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[1] .

ـ بلى أنا أستعين بك، وأنت تستعين بي، ولكننا كأمة، والناس، والعالم أجمع، بمن نستعين وراء طاقاتنا المحدودة، وحيلنا المعدودة؟ ثم إنى حين أستعين بك وتستعين بي، فمن ذا الذي يبعث الباعثة في قلبك لمعونتى وفي قلبي لمعونتك ؟ ومن ذا ييسر لي ولك وسائل هذه المعونة. ومن ذا الذي يُنجح هذه المعونة ويؤتيها ثمرتها؟ الله وحده في الحقيقة وفي النهاية هو المستعان .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ باجتماع هاتين الكلمتين بطل الشرك كله: شرك

(١) سورة المائدة: ٢ .

العبادة لغير الله، وشرك الاستعانة والاستشفاع بما لم يأذن به الله . وباجتماع هاتين الكلمتين بطلت العقائد المتطرفة كلها : بطلت عقيدة الجبر المحض ، الذي ينكر قدرتنا ومسئوليتنا وبطلتِ عقيدة الاختيار المحض، الذي يدعى الاستغناء عن معونة ربنا. فنحن نعمل ونتوكل، نعبد ونستعين .

نعبد أولاً: ونستعين ثانيا.. نؤدى واجبنا ثم نطالب بحقوقنا.. ألا فليستمع أولئك الذين لا يفتأون يطالبون بحقوقهم، ولا يبدأون بأداء واجباتهم.. إنهم لم يتأدبوا بأدب القرآن .. ألا فليصححوا موقفهم من فاتحة الكتاب، التى يرددونها في صلاتهم كل يوم تسع عشرة مرة على الأقل..

هكذا عرفنا الله بصنيعه في الآفاق وفي أنفسنا، عرفناه فيما صنع، وفيما يصنع وفيما سوف يصنع، عرفناه بعقولنا وقلوبنا، ثم توجهنا إليه بعزائمنا، وبرغائبنا .

هذا الجانب الإلهي نظريه وعمليه، يمثل نصف المهمة القرآنية، وقد رأينا كيف جمعته سورة الفاتحة في شطرها الأول .

غير أن الإنسان ليس كائنًا روحيًا محضًا، حتى تكون كل رسالته في الحياة أن يتأمل في صنع الله، وأن يمتلىء إعجابًا به، إنه كائن مزدوج: عبد الله ، وسيد الكون ، إنه خليفة في الأرض، مسئول عن عمله في خلافته، كما هو مسئول عن موقف عبوديته. الله يخلق ويصنع، والإنسان يعمل ويكتسب : حياته الطبيعية تتقاضاه أن يعمل، وحياته النفسية تتقاضاه أن يعمل، وحياته في أسرته وفي بيئته وفي أمته وفي الأسرة الإنسانية وفي علاقته الروحية، كل هذه جميعًا تتقاضاه أن يعمل .

فلننتقل إلى هذا الجانب الإنساني، إلى عمل الإنسان. هو جانب يتألف كذلك من عنصرين: عنصر نظري تعليمي، نرى فيه نماذج الأعمال الإنسانية في مختلف صورها، جميلها ودميمها، حميدها وذميمها؛ وعنصر عملي تنفيذي، هو صدى تلك المعرفة، وثمرة تحريكها لعزائمنا .

ولنبدأ بالعنصر النظري: كيف عرض القرآن علينا صور العمل الإنساني؟

إنه يتبع في ذلك منهجًا مزدوجًا، يجمع بين القيم الذاتية والقيم العرضية للأخلاق والسلوك. منهج القيم الذاتية الذي يخاطب الضمير، يدعو إلى الفضيلة باسم الفضيلة. مصورًا ما فيها من جمال واعتدال، وينهى عن الرذيلة باسم الرذيلة، مبينًا ما فيها من دنس وانحراف. ومنهج القيم العرضية الذي يخاطب العاطفة، ويرغب في الفضيلة، وينفر من الرذيلة باسم المصلحة الحقيقية، ويحكم النظر إلى عواقب الأمور وآثارها في العاجل والآجل ، ويضرب لذلك الأمثال الكثيرة، ويقص من أجل ذلك السير التاريخية في مختلف العصور .

والعجيب من شأن سورة الفاتحة أنها على فرط إيجازها قد انتظمت المنهجين جميعًا في كلمتين. ذلك أنها حين حببت إلينا طريق الفضيلة بينت لنا أولاً قيمته الذاتية، فوصفته بالاعتدال والاستقامة :﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ثم بينت ما في عاقبته من نفع وجدوى، فوصفته بأنه الطريق الموصل إلى رضوان الله ونعمته، وأشارت في الوقت نفسه إلى مثله التاريخية في سيرة أهله الذين نصبوا أنفسهم للقدوة الحسنة ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .. ثم لم تكتف بذلك بل وضعت معيارًا لأنواع الطرق المنحرفة فبينت أن الانحراف على ضربين، انحراف عن قصد وعلم، عنادًا واستكبارًا، واتباعًا للهوى، وهذا هو طريق ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذين رأوا سبيل الرشد فلم يتخذوه سبيلاً، ورأوا سبيل الغي فاتخذوه سبيلاً؛ وانحراف عن جهل وطيش، وهذا هو طريق ﴿الضَّالِّينَ﴾ الذي لا يتوقفون عند الشك، بل يقتفون ما ليس لهم به علم، فيخبطون خبط عشواء، دون تثبت ولا تبصر، لا ريب أن كلا الضربين مذموم، وإن كان بعضهما أسوأ من بعض: العالم المنحرف مأزور، والجاهل المنحرف غير معذور. والعالم المستقيم هو المبرور المأجور.

هذه المشارب الثلاثة نجد دائمًا أمثلتها في الناس، لا في الخلق والسلوك فحسب، بل في كل شأن من الشئون: في الاعتقاد والرأي والتعليم والإخبار، والفتيا، والحكم، والقضاء. وهكذا جاء في الحكمة النبوية: قاض في الجنة وقاضيان في النار؛ فالقاضي الذي في الجنة رجل عرف الحق فقضى به، واللذان في النار رجل عرف الحق فقضى بخلافه، ورجل قضى للناس على جهل .

من استحكمت معرفته بهذا الأصل النظري، وتبينت له مسالك الهدى والاستقامة، ومسارب الاعوجاج والضلالة، ماذا يكون موقفه العملي منها؟

لاريب أن العاقل الرشيد يلتمس من هذه الطرق أقومها، ويطلب أسلمها، ويتوجه بعزيمته إلى أحسنها، وهذا الالتماس والطلب والتوجه هو الذي ترجمته لنا سورة الفاتحة في كلمة واحدة : ﴿اهْدِنَا﴾ اهدنا الصراط المستقيم!

وهكذا نرى السورة الكريمة قد انتظمت المقاصد القرآنية الأربعة: الجانب الإلهي نظريه وعمليه، والجانب الإنساني نظريه وعمليه.. كل ذلك في أوجز عبارة وأحكم نسق.

سورة الفاتحة إذن هي خريطة القرآن وفهرست مواده، إنها جوهرة القرآن ونواته ولب لبابه . فهي بحق «أم القرآن».

كانت هذه هي النظرة الأولى، قارنا فيها بين مواد الفاتحة ومواد القرآن.

وبقيت نظرة ثانية سريعة، نقارن فيها بين أسلوب الخطاب في الفاتحة، وأسلوب الخطاب في القرآن .. وماذا نرى في هذين الأسلوبين؟

نرى اتجاهين مختلفين تمام الاختلاف:

فسورة الفاتحة هي السورة الوحيدة، التي وضعت، أول الأمر، لا على لسان الربوبية العليا، ولكن على لسان البشرية المؤمنة، تعبيرًا عن حركة نفسية جماعية متطلعة إلى

السماء، بينما سائر السور تعبر عن الحركة المقابلة، حركة الرحمة المرسلة من السماء إلى الأرض. وهكذا حين ننظر إلى القرآن في جملته نراه يتمثل أمامنا في صورة مناجاة ثنائية، الفاتحة أحد طرفيها، وسائر القرآن طرفها الآخر؛ الفاتحة سؤال، وباقي القرآن جواب؛ الفاتحة هي طلب الهدى، والباقي هو الهدى المطلوب .

فلننفذ بهذه النظرة إلى نهايتها، فإنها ستعود إلينا بحصيلة ثمينة من العبر النفيسة .

أول ما نلتقطه من هذه العبر أن القرآن (وهو دستور الإسلام) لو جاءنا بدون الفاتحة لكان دستورًا وافدًا على الأمة، طارئًا عليها، يعرض نفسه عليها عرضًا، أو يمنح لما منحه فليكن مع ذلك حقًا كله أو يفرض عليها فرضًا، وخيرًا كله، وهدى كله. لكنه لو لم تطلبه الأمة، ولو لم تعلن حاجتها إليه، لكان لها أن تستقبله كما تستقبل البضاعة المعروضة بغير طلب، وأن تقول له زاهدة فيه: لا حاجة بي إليك. أما الآن فالموقف يختلف كل الاختلاف.. إن موقع الفاتحة هنا موقع القرار الجماعي الذي تعلن به الأمة المؤمنة حاجتها إلى هذا الدستور وتؤكد مطالبتها به، وإن موقع القرآن كله بعد الفاتحة هو موقع القبول بعد الفاتحة هو موقع القبول والاستجابة لهذا المطلب. فما هو إلا أن أعلن المؤمنون مطلبهم هذا قائلين ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، وإذا بالقرآن يزف إليهم هديته وهدايته قائلاً لهم: دونكم الهدى الذي تطلبونه، فكانت أول كلمة في القرآن بعد الفاتحة هي: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. وهكذا جاءهم على ظمأ وتعطش، فكان أنقع لغلتهم . وكان أكرم في نفسه وعلى الناس من أن يتعرض للمعرضين عنه، أو أن يلزم من هم له كارهون، وكان فوق ذلك كله أقطع لحججهم ومعاذيرهم في إهماله ونسيانه لو أهملوه أو نسوه فيما بعد، ذلك أنه لم يلزمهم إلا بما التزموا، ولم يجبهم إلا بما طلبوا. وخير الدساتير ما نبع من حاجة الأمة، وكان تحقيقًا صريحًا لمطامحها الرشيدة .

لم تكتف الأمة المؤمنة بأنها طالبت بهذا الدستور، ولكنها اختارت وحددت

السلطة التى تقوم بوضع هذا القانون الأساسي، وتوجهت بخطابها إلى هذه السلطة نفسها، ونصت في صلب قرارها على المؤهلات الممتازة التي كانت سببًا في هذا الاختيار والتحديد، فلقد طلبت أن يكون هذا التشريع من عمل المشرع الأعظم الأكرم، المعروف بخبرته التامة في التربية العالمية ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وبعطفه الشامل على مطالب الرعية ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم أعلنت في صلب قرارها أن المسئولية النهائية لجميع السلطات التنفيذية ستكون أمام هذه السلطة التشريعية العليا: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .

ثم لم تكتف الأمة المؤمنة بهذا كله، بل إنها وضعت الإطار الذي يلزم أن يقع هذا التشريع في داخل حدوده، ورسمت المبادئ الأساسية التي يجب أن يقوم عليها، فطالبت بأن يكون تشريعًا لا يميل مع الهوى يمنة أو يسرة، تشريعًا لا يقوم على فكرة المحاباة لفرد أو لطائفة أو لشعب، ولكن يمثل العدل الصارم، والصراط المستقيم.

وأخيرًا لم تقنع في وصف هذه التشريع بتلك الأوصاف العامة والألقاب الكلية، بل حددت نموذجه ومثاله من الواقع التاريخي، فطالبت بأن يكون من فصيلة التشريعات الفاضلة المعروفة التي جربت فائدتها، وتحقق حسن عاقبتها ، شرعة الذين أنعم الله عليهم بالتوفيق والرشاد .

إذا نظرنا إلى الفاتحة من هذه الزاوية فإنه يحق لنا أن نقول : إن القرآن إذا كان هو الدستور ، فالفاتحة هي أساس الدستور .. بل لو صح هذا التعبير ، لقلنا إنها دستور الدستور .

الإيمان بالرسول ﷺ صنو الإيمان بالله . وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله . وسنة الرسول ﷺ بيان وتفصيل لكتاب الله ، والرضى بحكم الرسول ﷺ شرط أساسي في صحة الإيمان بالله .

الإيمان بالرسول ﷺ صنو الإيمان بالله : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾[1] .

وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾[2] .

وسنة الرسول ﷺ بيان وتفصيل لكتاب الله : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[3] .

والرضى بحكم الرسول ﷺ شرط في صحة الإيمان بالله : ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[4] .

هكذا نرى الرسول ﷺ في مرآة القرآن، فليست كل مهمته أنه حمل إلينا كتابًا سماويًّا وبلغنا نصًّا قدسيًّا، وكفى ولكنه إلى ذلك مشرع ومعلم، وقاض وحاكم. وإن قضاءه وحكمه فهمًا لروح القرآن . كقضائه وحكمه تطبيقًا لنص القرآن، كلاهما واجب القبول وحكمه فهما لروح القرآن . كقضائه وحكمه تطبيقًا لنص القرآن، كلاهما واجب القبول والنفاذ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾[5] .

---

(١) سورة النساء: ١٥١.
(٢) سورة النساء: ٨٠.
(٣) سورة النحل: ٤٤.
(٤) سورة النساء: ٦٥ .
(٥) سورة النساء: ١٠٥ .

ولسنا ننكر أن القرآن هو دستور الإسلام، وهو أساس قوانين الإسلام ، ولكن هل يغنى الأساس عن البنيان؟ هل يغنى الدستور عن القوانين التابعة منه، والقواعد المنظمة له؟ بل هل تغنى القوانين والقواعد كلها، عن مثال حي، وزعيم أمين قوي، تكون سيرته هي القدوة الحسنة، فينهج بتلك القوانين مناهجها المثلى، ويتولى بنفسه تطبيق نصوصها، وتحقيق مغزاها وروحها، على الوجه الذي أراده واضعها الحكيم .

إن الذي يزعم أنه سوف يستغني بكتاب الله عن سنة رسول الله ﷺ، سوف يعطل الكتاب والسنة جميًعا، نعم إنه سوف يعطل كثيرًا من نصوص القرآن فلا ينفذ حكمها، وسوف يعطل كثيرًا من نصوص القرآن، فلا يستطيع فهمها .

أما تعطيله لحكم القرآن فذلك أن القرآن نفسه هو الذي قلد الرسول ﷺ منصب الزعامة والإمامة، فجعله للناس قدوة بقوله وفعله، وألزمهم طاعته في أمره ونهيه. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1] . ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[2] . فمن أعرض عن سنته فقد عزله عن الإمامة التى ولاّه الله ، وقد استوجب العقوبة التى قررها كتاب الله ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3] .

وأما تعطيله لفهم القرآن، فذلك أن القرآن يحيل في كثير من نصوصه على السنن العملية التي سنها الرسول عليه الصلاة والسلام، أو التي سنها النبيون من قبله وأقرها هو. فلنسأل الذي يدعي الاكتفاء بالكتاب عن السنة ، في أي آية من كتاب الله يجد بيان أشهر الحج المعلومات، وأيام الرخص المعدودات والأشهر الأربعة المحرمات فإن لم نأخذ بيانها من السنة، فهل تبقى بعد ذلك أمورًا معلومة؟ أم تصبح مجهولات مبهمات.

---

(١) سورة الأحزاب: ٢١.

(٢) سورة الحشر: ٧.

(٣) سورة النور: ٦٣ .

بل إننا نسأل الذي يزعم هذا الزعم، كيف يريد منا أن نؤدى صلاتنا وزكاتنا؟ فإن كانت كما يصلى الناس ويزكون، قلنا له : أين تجد في كتاب الله صورة هذه الصلاة، في أسلوب افتتاحها واختتامها، وفي ترتيب جلوسها وقيامها، وفي عدد ركعاتها وسجداتها، وأين تجد في كتاب الله صفة هذه الزكاة في مقاديرها ومواقيتها، وحدود نصابها، إن ذلك كله لا وجود له إلا في تعليم الرسول الأمين ﷺ، الذي بعث ليبين للناس ما نزل إليهم، فهو الذى صلى ثم قال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» رواه البخاري[1]. وهو الذي أدى مناسكه ثم قال : «**لتأخذوا عني مناسككم**» رواه مسلم[2] .

أما إن كان ذلك الزاعم يريد أن يكون «منطقيًا مع نفسه» كما يقولون، فليمح هذه الحدود والقيود في الشعائر كلها، وليبيح لنفسه ولكل أحد أن يختار في عبادته الوضع والمنهج الذي يحلو له، وعندئذ لن نلومه على تلك الفوضى التي ينفرط بها عقد الأمة، وتتفكك بها وحدتها الجامعة، فلعل ذلك لايعنيه . وإنما نسأله هل حقق بذلك وجهة نظره، وهل استمسك بالنص الحرفي للقرآن في هاتين الفريضتين كما يدعي؟

اللهم لا . فإن القرآن لم يقل لنا، أقيموا صلاة ما ، وآتوا زكاة ما ، ولكنه قال: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاة**﴾ فأشار إلى شيء معهود، ووضع معين مقرر عند المؤمنين كافة، بل صرح بذلك تصريحًا بليغًا فقال في مقدار الزكاة: ﴿**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ(٢٤)لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾[3] وقال في صفة الصلاة: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾[4] فصلوا على الطريقة التي علمكم الله إياها. وما والله وما علمنا الله إياها، في القرآن، وإنما علمها لنا رسوله ﷺ في بيانه للقرآن .

فانظر إلى هذا التشريف العظيم الذي رفع به القرآن شأن التعليم النبوي فسمّاه

---

(١) البخاري عن مالك ك/ الأذان ب/ الأذان للمسافر (٥٩٥) .

(٢) مسلم عن جابر ك/ الحج ب/استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا (٢٢٨٦) .

(٣) سورة المعارج: ٢٤ .   (٤) سورة البقرة: ٢٣٩ .

تعليما من الله، كما رفع شأن البيعة التي بايعتها الأمة لنبيها، فجعلها مبايعة لله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(١).

هما إذا وحيان، وحي نص إلهي يتلى في القرآن، ووحي معنوي توجيهي عملي في غير القرآن، وقد سمى الله كليهما أمرًا سماويًا منزلاً، فقال تبارك اسمه : ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(٢) فالكتاب هو القرآن ، والحكمة هي السنة ، فمن أعرض عنها فقد آمن ببعض الوحي وكفر ببعض.

نعم إن الرسول ﷺ - في غير ما يوحى إليه بشر يخطئ ويصيب، ولكنه حتى في حال خطئه يمتاز عن سائر البشر ، بدرجتين اثنتين :

(الأولى) أن خطأه في الغالب إنما يسمى خطأ بالقياس إلى الحكمة الإلهية التي يمتاز بها علم الخالق عن علم المخلوق، أما بالنسبة لعلم البشر فهو مثال الرشد والسداد.

(الثانية) أنه حتى في هذه الفروق الدقيقة لا يستقر ولا يقر على ما هو خلاف الأولى، بل لا يلبث الوحي أن يوجهه إلى ما هو أرقى وأسمى . وهو في كل مراتبه وحالاته قد فضله الله وآثره علينا، وفرض علينا تكريمه وتوقيره في غير غلو ولا إطراء: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(٨)لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾(٣) ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾(٤) ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾(٥) .

اللهم إننا لا غنى لنا طرفة عين، عن هدي رسولك ﷺ المبعوث رحمة للعالمين،

اللهم فآته الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد ...

(١) سورة الفتح: ١٠ .
(٢) سورة النساء: ١١٣ .
(٣) سورة الفتح : ٩ .
(٤) سورة الحجرات: ٢.
(٥) سورة النور: ٦٣ .

الهجرة النبوية عهد جديد للإنسانية

باسـم الله نفتتح أسبوع الذكريات المجيدة، ليوم الهجرة الأغـر ، وإنه في الأيام ليوم عظيـم، لانكتفى بأن نقول إنـه كان أول المرحلـة الحاسمة في تـاريخ الإسلام ، بل نقول إنـه كان بدايـة عهد جديـد سـعيد في تـاريخ البشـرية كلها. أمـا تلك الهجـرة المباركة كانت نقطة تحول جوهري في حياة الجماعة الإسلامية، فذلك أن الإسلام في مكة كان دينا بلا دولة، وحقا بلا قوة، لم يكن المسلمون يومئذ يمثلون شعبا، ولا جمهرة غالبة في الشعب، وإنمـا كانوا أفرادًا يمتازون بسـلامة أخلاقهـم واسـتقامة أخلاقهـم ، يعيشـون في قومهم غرباء، وليـس لهم في قيادة المجتمع قليل ولا كثـير، كان الحق والخير في جانبهم، أمـا الأمر والنهي، والسـلطان والحكم، فكـانت بيد القوة الباطشـة ، والمـادة الجشـعة، والشـهوة الجامحـة، والكبريـاء المسـتهترة.. فكـانوا إذا خـلا بعضهـم إلى بعض تبـادلوا الشـكوى فيمـا بينهـم من ظلـم المجتمع وفســاده، وزيغ العقـول وإنحرافهـا ، وانحدار الأخلاق وإسـفافها، وجعلوا يتحرقون شـوقا إلى تحقيق المثل العليـا التى بهـا يؤمنون، والتـى على بصيص أملهـا يعيشـون، ومـا زال الحق منذ ظهـرت سيماه على وجوههم يلاقي إعصـارًا من قـوة الباطل تريـد أن تطفئ نوره في مطلعــه، وأن تقتلع شـجرته في منبتها . ولكن الله أدى نوره إلى مشـكاته، فجعل ينتشر رويـدا رويدا، وصان شجرته الطيبة بصوان من عنايتـه، فأخذت ترسخ عروقهـا، وتمتد أغصانها كزرع أخرج شطأه فاستلغظ فاستوى على سـوقه يعجب الزراع وهكذا برهنت دعوة الإصلاح بمقاومتها لهذه العواصف والأعاصير على أنها خلقـت للبقاء والخلود، وأنها صـالحة لأن تنتقل من حقـول التجـارب الضيقـة في مكـة، إلى فضـاء الأرض الواسـعة، وإلى الآفـاق العالميـة الإنسانية . فكـان يوم الهجرة إلى المدينة إيذانًا بأنـه قد آن للحق المستخفي أن يستعلن، وللحريـات المكبوتة أن تتنفس، وللعدالـة المضيعة أن تقف علـى قدميها، وتحرك ميزانها

بيديهـا، وللجماعـة المسـتضعفة الخائفـة أن تتبدل مـن خوفها أمنـا، ومن ضعفهـا قوة. فـأصبح اسـم الله يذكـر من أعلى المنـائر والمنـابر ، بعد أن كـان يذكـر سـرًا أو نجوى. وأصبح لأنصـــار الحق دولـــة، بعد أن كـانوا قليـلاً مســتضعفين في الأرض يخـافون أن يتخطفهم الناس. وهكـذا كانت الهجرة المحمديـة فاتحـة عهد ميمون في تـاريخ الجماعة الإسلامية. وأمـا أنها كانت في الوقت نفسـه مفتاح سـعادة للبشرية كلهـا، فأمر يعرفه كل من عـرف الأسس التى قامت عليهـا دولة الإسـلام الناشـئة، وعرف القواعد التى جاء بها دستور الإسلام في عهده الجديد.

فالدولـة الإسـلامية الناشئة ـ وهـي دولة دينيـة في صميمهـا: في منابعها، ونوازعها، وأهدافها، قامت أول كل شيء على احترام حريـة الأديان جميعا، ما دامت لا تستعمل العنف في مقاومـة الإسلام أليس هذا من أعجـب العجب لقد عرف تاريخ الإنسانية في القديم والحديث دولاً مدنية (لا تتعرض للديانات) تركـت لرعاياها الحرية في اختيار ما شـاءوا من الملل والنحـل . وعرف التـاريخ أديانا وعظيـة تبشـيرية (لا تتمتع بسـلطان الحكم)، كـانت تبدى كثيرًا من التسـامح مع الأديان الأخرى. أمـا أن دولة قائمة على أساس دين معين تجعل من أسسـها الأولى كفالة الحريات العامة في العبادة ، والعقيدة ، والتعبير عنها، لأنصارهـا ومعارضيها على السواء . فذلـك مثال فذ في التاريخ لم نعرفه إلا في دولة الإسلام. وهذا الفتح الجديد الإنسـاني إنما جاء به التاريخ الهجري الميمون. وهناك فتح أعظم منه، جـاءت به هذه الدولـة الدينية الناشـئة. ذلك أنها أسست فكرة «الوطن» بـأدق وأحدث معانيها «فالوطنيـة» في قاموس المدنيـات الفاضلة مبدأ يؤاخي بـين ســكان البلـد الواحد مـن مختلـف الأجنـاس والعنـاصر، والأديـان والمذاهب ، المستوطنين منهم والـنزلاء، ويقف بهم جميعًا علـى قدم المسـاواة أمام قـانون العدالة في جميـع الحقوق والواجبـات القوميـة. هـذا المبدأ المثـالي الذي لا يـزال يحلم بـه أنصـار الإنسـانية العالمية ـ والـذي لا يزال الشـوط بعيدًا أمـام تحقيقـه في عصرنا هذا، حتى في أشد الدول تحمسًا له، واكثرها زهوًا وافتخارًا بمبلغ تقدمها في الحضـارة ـ جعله الإسلام

حقيقة ماثلة في غداة الهجرة الكريمة. فلأول مرة في تاريخ الدول الدينية نرى في (المدينة) أمة واحدة متآخية تضم العربي والفارسي، والرومي والحبشي، وغيرهم، وفيهم المسلم والوثني، واليهودي والمسيحي، والمجوسي والصابئي. شعارهم جميعا: «الدين لله والوطن للجميع»[1] .

أما الهداية العظمى، والنعمة الكبرى، التي منحتها السماء لأهل الأرض على أثر الهجرة النبوية، ولم تظفر البشرية بمثلها من قبل ولا من بعد، فإنها تتمثل في الدستور الجديد الذي جاء به الرسول المهاجر، صلوات الله وسلامه عليه . فقد كان التشريع في مكة يهدف في ثلاثة مقاصد لا زائد عليها : إصلاح العقيدة، وتحديد بعض رسوم العبادة، وإرساء القواعد الأولية لمكارم الأخلاق، ولاسيما في السلوك الشخصي فلو أن مهمة الدعوة الإسلامية ختمت قبل يوم الهجرة لما كان للتشريع الإسلامي كبير فضل على غيره من التشريعات الدينية والمدنية، ولحرمت الإنسانية من أنفس شرطي هذا التشريع. ذلك أنه منذ الهجرة قد تشعبت مصالح الأمة الناشئة، وتعددت وجوه نشاطها: اجتماعيًا ، واقتصاديًا، وسياسيًا، ودينيًا.

فجاءت التشريعات الجديدة وافية بكل هذه الحاجات، فضلا عما أضافته إلى المقاصد المكية من تفصيل وتحسين وتكميل . وهكذا لم تغادر من مقاصد التشريع النظري والعملي، صغيرة ولا كبيرة إلا رسمت لها الطريقة المثلى، في قواعد هي آية في السداد والحكمة ، وهي غاية في المرونة والمواءمة لظروف الإنسانية في جميع بيئاتها وعصورها ، مهمة خطيرة يعترف علماء التشريع المقارن بأنه قد عجزت عن بعضها سائر التشريعات السابقة واللاحقة. ولم ينهض بها على الوفاء والتمام إلا الشريعة

---

(١) تعليق: (هذه كلمة صحيحة في أصلها بمعنى أن الحكم في المجتمع يكون لدين الله - وهو لا يكره الناس على دخول الإسلام، لذلك يقر بقاء اليهودي والنصراني والمجوسي على دينه فيعيشون في وطن واحد مع المسلمين إذا خضعوا للشروط الشرعية التي قررها دين الله، لكن بعض الناس في زماننا هذا يحمل هذه على معنى فاسد، وهو أن كل صاحب دين يبقى على دينه بلا سلطان في المجتمع لدين الله تعالى - وهذا مخالف لشرع الله عز وجل).

الإسلامية في عهدها الهجري السعيد. ومن أجل ذلك استحقت أن تنعت بالدستور الكامل : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾[1] .

هذه أيها السادة قبسات من أنوار الهجرة، ونسمات من بركاتها على العالم الإنساني وأنه ليسعدنا أن نحتفل اليوم بذكراها، في عهد جديد للإصلاح نترسم فيه الخطوات الأولى للمصلح الأول والقائد الأعظم ﷺ. وإنه لن يكمل اغتباطنا حتى نتابعه في سائر خطواته فنعود إلى الإغتراف من ينبوع دستوره الخالد في كل شئوننا وتصرفاتنا وما ذلك على أبطال النهضة بعزيز.

والسلام عليكم ورحمة الله ،

(١) سورة المائدة: ٣ .

رسالة الإسلام وسر نجاحها

لقد نظرنا في تاريخ الحركات الدينية، وتاريخ الرسالات الإصلاحية، ونظرنا في تاريخ الدول الناشئة، وتاريخ الدعوات الجديدة .. فما رأينا كرسالة الإسلام، لا في سرعة انتشارها، ولا في تمكنها واستقرارها حيث بلغت من أقطارها، ولا في عمق نفوذها وبعد آثارها ...

لقد قام الإسكندر بفتوحاته الخاطفة قبل ميلاد المسيح. فهل كانت تلك الفتوحات إلا نار الهشيم سرعان ما اشتعلت، وسرعان ما انطفأت؟ وهل اقتبست البلاد المفتوحة عقائد الفاتحين وعوائدهم، ونظمهم وآدابهم، ألم يكن الأمر على العكس؟ أن إعتنق الفاتحون أنفسهم ديانة البلاد التي فتحوها.

ولقد جرب الاستعمار الأوربي الحديث حيله الواسعة وأساليبه الجبارة في بلاد الشرق لكي يغزو عقول أهليها وقلوبهم، كما غزا أرضهم وديارهم؛ فهل ظفر منهم إلا بالقشرة السطحية من صور الحياة؟ ثم هو ذا يجلو عن ديارهم واحدة بعد واحدة، في آماد مديدة أو غير مديدة، فيخرج منها كما دخلها أول مرة لم يغير شيئا من جوهرها، لافي عقائدها ، ولا في لغتها ، ولا في أسلوب تفكيرها..

أما رسالة الإسلام فإنها حين بسطت جناحيها في أقل من قرن، على نصف المعمورة، كانت كأنما أنشأته خلقًا آخر .. لقد بدلته من أوطانه المتفرقة وطنًا واحدًا، ومن قوانينه المختلفة قانونًا واحدًا، ومن آلهته المتعددة إلها واحدًا.. لقد نفذت إلى جوهر نفسه فحولته تحويلاً، وبدلت أسلوب تفكيره تبديلاً. بل عمدت إلى أداة تعبيره، فأضافت لغة القرآن لسانا إلى جانب لسانه، وكثيرًا ما أنسته لسانه الأصيل، وجعلت لسان الإسلام هو لسانه الوحيد، ثم هي لا تزال في كل عصر، تتلقى معاول الهدم من أعدائها، وعوامل التحلل من أبنائها ، فتنكسر هذه الصدمات على صخرتها، وهي

قائمة تتحدى الدهر، وتنتقل من نصر إلى نصر ..

فليحاول الباحثون ما شاءوا أن يتعرفوا مصدر هذه القوة الغلاّبة، وسر هذا الانتصار الباهر ..

إن هذا النجاح، ليس مرده في نظرنا إلى سبب واحد، ولا إلى فضيلة واحدة من الأسباب .. لقد تضافرت عليه شخصية الداعي، ومنهاج دعوته، وشخصية الأمة التى تلقت تلك الدعوة، وطبيعة الدعوة نفسها ومن وراء ذلك كله كلاءة ا لله ورعايته لهذه الرسالة حتى بلغت كمالها ..

أما صاحب الرسالة ، وما أدراك من صاحب الرسالة، فحسبك منه أنه ﷺ، جمع خلالاً، كل واحدة منها كانت عنصرًا فعالاً في هذا النجاح.. خلالاً نعدُّ منها ولا نعدها ونرسُم شيئًا من جوانبها ولا نحدها:

صبر ومصابرة ، وجد ومثابرة، وحرص على بلوغ الغاية، والتزام لأدق حدود الصدق في الوسيلة وفي الغاية، تلطف في الدعوة وقصد في الحجة، وتعليم بالأسوة والقدوة، وتأديب باللمحة والنظرة، وطهر في السيرة والسريرة، لاحقد ولا ضغينة، ولا ختل ولا مواربة، سخاء بما في اليد، وزهد فيما بيد الناس .. تضحية بحظوظ نفسه، وتنازل عن حقوق شخصه. أما في تبليغ الرسالة، وإقامة العدالة، فعزيمة متوقدة لاتني. وصلابة في الحق لا تنثني ...

هذه الخلال الفضلى، وأمثالها تنبع في نفس الرسول الكريم ﷺ من ينبوع ذي ثلاث شعب: الإيمان، والحب، والأمل .. (إيمان) بقدسية الرسالة ، وضرورة حملها ؛ (وحب) للإنسانية، واهتمام بانقاذها (وأمل) في نجاح الدعوة وبلوغها أقصى غاياتها......

نعم . إن هذا القلب الذي يمتلئ إيمانا وحكمة، يفيض في الوقت نفسه حنانا ورحمة، ويطالع في الأفق دائمًا أملاً باسمًا في النجاح والفلاح.. لا أقول أنه يفيض رحمة

بأتباعه وحسب، فإنه وأن كان لأتباعه من رحمته النصيب الأوفر. هو كما وصفه الله رحمة للعالمين، لأعدائه وأوليائه أجمعين، حريص على خيرهم وسعادتهم ، مشفق من فتنتهم وشقوتهم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .. ولا أقول إنه كان يداعب أملاً في نجاح جزئي، يخص عشيرته الأقربين، أو يخص أم القرى ومن حولها، ولكنه كان يحمل أملا في نجاح محيط شامل، ينتظم البشرية كلها.. ألم تر كيف كان كل انتقاص من محيط هذا النجاح، انتقاصا من طيب نفسه ونعيمها، وزيادة في أحزانها وآلامها؟ هذا القلب الرحيم، كيف يطيب له عيش وهو لا يزال يرى طائفة من أخوته في الإنسانية يعيشون في ظلمة الضلالة والجهالة أو في حمأة الفساد والرذيلة، أو تحت نير الذل والعبودية لغير الله ؟ كيف يطيب له عيش وهو كلما حاول استنقاذهم وتكريمهم وإعزازهم تفلتوا من يديه، وترددوا أمامه في الهاوية، متهافتين على حتفهم كما يتهافت الفراش على النار، لابد إذا أن يعيد الكرة، وأن يجدد التجربة مرة بعد مرة عسى أن يتحقق له هذا الأمل المنشود، فتشرق الأرض كلها بنور ربها، وتصبح وقد ملئت برًا وعدلاً، وسعادة وكرامة..

إيمان قوي، وحب عميق، وحرص على اقتناص الأمل البعيد، ذلك هو سر عزمه المتوقد وجهاده المتجدد ، الذي كان أول عوامل النجاح..

هذا العامل من جانب صاحب الرسالة، يسنده ويؤيده عامل آخر من جانب الأمة التى تلقت تلك الدعوة، والأرض التى بزغ فيها نورها.. أرض بكر لم تدنسها في التاريخ كله أقدام الفاتحين، ولم تتحكم فيها يومًا ما أيدي الغاصبين، وأمة ألمعية الذهن، مرهفة الحس، حفيظة للحمى، أبية للضيم. ما هو إلا أن ذهبت عنها المقاومة الغريزية الأولى لكل غريب، وما هو إلا أن فتحت عينها على كنه النور الجديد، وإذا هو قد ملك عليها شعورها وتفكيرها ، فحملت مشعله بسواعدها القوية. وقلوبها الفتية.. الحمية إذا هي الحمية، ولكنها تبدلت حمية الحق بحمية الجاهلية .

هكذا تجاوبت نفسية الداعي والمدعو، فالتقت القوتان في حلقة مفرغة، حملت إلى العالمين رسالة الإسلام .

«وبعد» فما رسالة الإسلام ؟ إنها رسالة تدعوا إلى نفسها بنفسها، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار رسالة نزيهة القصد، مجردة من كل غرض لا تطلب الأجر، ولكن تمنح الأجر.. أنها ليست رسالة العلو والاستعباد . ولا رسالة الطغيان والفساد، ولا رسالة البؤس والحرمان، أنها رسالة النور والإيمان، والعدل والإحسان. رسالة الفطرة السليمة، والأخلاق الكريمة، والسياسة الحكيمة . سياسة السداد والرشاد، في شأني المعاش والمعاد.. فلماذا لا تكون رسالة الإنسانية كلها ؟؟ لماذا لا تعتنقها البشرية جمعاء؟

﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينِ﴾.

الإسلام وكرامة الفرد

هل عرف الناس قيمتهم الشخصية في نظر الإسلام؟ هل عرف الفرد الإنساني ما له في دستور الإسلام، من منزل عزيز كريم؟

إن الكرامة التى يقررها الإسلام للشخصية الإنسانية ، ليست كرامة مفردة، ولكنها كرامة مثلثة: كرامة، هي عصمة وحماية، وكرامة، هي عزة وسيادة، وكرامة، هي استحقاق وجدارة.. كرامة يشتقها الإنسان من طبيعته ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾ وكرامة تتغذى من عقيدته : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكرامة يستوجبها بعمله وسيرته ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ..﴾ .

أوسع هذه الكرامات وأعمها وأقدمها وأدومها، تلك الكرامة الأولى ، التى ينالها الفرد منذ ولادته بل منذ تكوينه جنينًا في بطن أمه .. كرامة لم يؤد لها ثمنًا ماديًّا ولا معنويًّا . ولكنها منحة السماء التي منحته فطرته والتي جعلت كرامته وإنسانيته صنوين مقترنين في شريعة الإسلام .

ما حقيقة تلك الكرامة:

إنها قبل كل شيء سياج من الصيانة والحصانة، هي ظل ظليل، ينشره قانون الإسلام على كل فرد من البشر، ذكرا أو أنثى، أبيض أو أسود، ضعيفًا أو قويًا، فقيرًا أو غنيًا، من أي ملة أو نحلة فرضت.. ظل ظليل، ينشره قانون الإسلام على كل فرد يصون به دمه أن يسفك، وعرضه أن ينتهك، وماله أن يغتصب، ومسكنه أن يقتحم، ونسبه أن يبدّل، ووطنه أن يخرج منه أو يزاحم عليه، وضميره أن يتحكم فيه قسرًا، أو تعطل حريته خداعًا ومكرًا ...

كل إنسان له في الإسلام قدسية الإنسان ، إنه في حمى محمى، وفي حرم محرم .. ولا

يزال كذلك حتى ينتهك هو حرمة نفسه، وينزع بيده هذا الستر المضروب عليه، بارتكاب جريمة ترفع عنه جانبا من تلك الحصانة وهو بعد ذلك بريء حتى تثبت جريمته، وهو بعد ثبوت جريمته لا يفقد حماية القانون كلها، لأن جنايته ستقدر بقدرها، ولأن عقوبته لن تجاوز حدها؛ فإن نزعت عنه الحجاب الذي مزقه هو، فلن تنزع عنه الحجب الأخرى .

بهذه الكرامة يحمى الإسلام أعداءه كما يحمي أبناءه وأولياءه.. إنه يحمى أعداءه في حياتهم، ويحميهم بعد موتهم، يحميهم في حياتهم، إذ يحرم قتالهم بدءًا بالعدوان، ويحميهم في ميدان القتال نفسه، إذ يؤمنهم من النهب والسلب، والغدر والاغتيال؛ ثم يحميهم بعد موتهم إذ يحرم أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل و لم لا ؟ أليسوا أناس؟ فلهم إذا كرامة الإنسان ...

هذه الكرامة التي كرم الله بها الإنسانية في كل فرد من أفرادها.. هذه الكرامة؟ التى جعلها الإسلام درعا واقيا يدرأ بها عن الإنسانية نزوات الطغاة والجبارين، هل أشعر الإسلام بها الضعفاء والمستضعفين؟

إن الكرامة نفسها شيء والشعور بها شيء آخر، والشعور الحاد القوي شيء ثالث.. حسن جميل أن تقرر الحق لأربابه وتوضح لهم معالمه .. ولكن أحسن وأجمل أن تمهد لهم طريق حمايته، وأن تجعل صورته في نفوسهم شعلة متقدمة ، تدفعهم للذب عنه والاعتزاز به.. فهل صنع الإسلام شيئا لكي يغرس هذا الشعور الأبيّ في نفوس الأفراد ويوقد ناره في قلوبهم؟

نعم.. إن الإسلام لم يكتف بأن عرف كل فرد حقه نظريا، في هذه الحصانة الإنسانية ، ولكنه أخذ يهيب به أن يدافع عن هذا الحق ، وطفق يحرضه أشد التحريض على أن يقاتل دونه وأن يضحي بنفسه في سبيله .

ألا فلنسمع صوت نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام : «**من قتل دون ماله فهو**

شـهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شـهيد، ومن قتل دون أهلـه فهو شهيد، ومن قتل دون مظلمتـه فهو شـهيد» هل سمعت أقوى من هـذا إلهابًا وتحريضًـا ، بل لنستمع إلى كتـاب الإســلام حين ينعـي على المسـتضعفين إخلادهـم إلى الذل، حبـا في الإســلام ورضـاهم بـالهوان خوفًـا مـن فراق الأوطـان : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّـاهُمُ الْمَلاَئِكَـةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَـالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّـا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْض قَـالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[1] هل سمعت أشد من هذا وعيدًا وتهديدًا ..

قلنا أن الكرامة الإنسـانية، هي قبل كل شـيء سياج من الحرمـة والعصمة والصيانة والحصانة تعصم صاحبها من أن يهون على الناس فيضيعوا حقًّا من حقوقه، أو ينتهكوا حرمـة من حرماتـه... ذلـك هو جانبهـا السـلبي الخـارجي الدفـاعي، أمـا في حقيقتها الإيجابيـة الانبعاثية ، فإنهـا تاج من الشـرف والنبل، يتقاضى صاحبـه أن ينظر إلى نفسه نظـرة احترام وتكريـم ، نظرة يعرف بهـا أن مكانتـه في هـذا العـالم ، مكانـة السـيد لا المسود، لا أعني سيادة الإنسـان على الإنسان ، فالنـاس في نظر الإسلام كلهم إخوة ، كلهم سيد في نفسـه، لا سـيادة لأحد على غيره، ولا سـيادة لغيره عليـه، وإنما هي من جهـة، سـيادة عاليـة يسـيطر بهـا المرء على مختلف الأشـياء في البر والبحر والهواء، ألم يسخر له مافي السماوات وما في الأرض جميعًا، ولم يسخر هو لشيء منها؟ ثم هي من جهة أخرى، سيادة ذاتية لكل فرد فيما بينه وبين الناس، سيادة تسوى رأسه برؤوسهم ومنكبه بمناكبهم، ومن هذه السيادة المزدوجة تتألف المرتبة الثانية من الكرامة الإنسانية، كرامة الحرية والعـزة، التى تأبى لصاحبها أن يهون على نفسه، وأن يذل لمخلوق غيره، كائنا مـا كان، .. هذه المرتبـة من الكرامة هي كسـابقتها، منحة طبيعيـة عامة تولد مع الإنسان غير أنـه لا يشعر بها علـى تمامها، ولا يقدرها حق قدرها، ، إلا المؤمن الموحد

(١) سورة النساء: ٩٧ .

الذي لا يعرف السجود لحجر ولا شجر، ولا لشمس ولا قمر ولا لملك ولا لبشر، وهكذا يضم كرامة الإيمان، إلى كرامة الإنسان ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وأخيرًا ترتفع من مستوى الطبيعة، ومن مستوى العقيدة، إلى مستوى السلوك والسيرة ، فتلتقي بمرتبة ثالثة من الكرامة ينشئها المرء إنشاء ، ويكتسبها اكتسابا بما يختطه لنفسه من نهج حميد وما يحققه بجده وجهده من أهداف رفيعة مستوحيا مواهبه الإنسانية العليا مسيطرا على قواه وغرائزه الدنيا ، مسترشدًا بأمر ربه وهداه، محاذرًا من خداع شيطانه وهواه ، تلك هي كرامة العمل الصالح المصلح، وإنها لعلى درجات متفاوتة تسير طردًا وعكسًا على نسبة الإتقان والإخلاص في العمل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم﴾[2] .

اللهم كما رزقتنا كرامة الإنسان وكرامة الإيمان، فارزقنا كرامة الإحسان اللهم آمين آمين .

---

(١) سورة المنافقين: ٨.

(٢) سورة الحجرات: ١٣ .

سلاحان جديدان

في أيدي الأعداء

ما أشد ظمأنا إلى الدعة والاستقرار، وما أمضى جوعنا إلى الأمن والسلام..

وأنى يكون لنا هذا الاستقرار والأمن، وقوى الغدر لا تزال جاثمة إلى جانبنا، ونذر عدوانها لا تزال يتطاير شررها حولنا؟ ومن غُدِرَ به مرة ومرة، كيف يأمن ألا يغدر به أخرى وأخرى؟

لقد استطعنا أن نقول في غداة الغدرة الماضية، أنها كانت سليمة العاقبة، وأنها كانت فاشلة التجربة، فهل نستطيع أن نقول ذلك غدًا، إذا تكررت التجربة وبعبارة أخرى هل نحن اليوم لا نزال كما كنا أول مرة؟

لنعد بذاكرتنا إلى ظروف التجربة الماضية، وإلى مقدماتها:

ألسنا قبل أن نصطدم بتلك الحملة العسكرية الغادرة، كنا هدفا لحملات اقتصادية عنيفة جبارة، استغلت فيها حاجتنا إلى المعونة المالية ، فاشترطت علينا فيها شروط قاسية جائرة؟ فماذا كان موقفنا؟ لقد رفضنا في عزة وإباء كل معونة مشروطة، إذ وجدنا في طيها عار الدهر وذل الأبد، فقلنا: تموت الحرة ولا تأكل بثدييها وتجوع الأمَّة ولا ترضى بالدنيا كلها بديلاً عن حريتها .. هكذا كان لنا خُلقٌ أبيّ، اعتصمنا به أمام كل الوعود والمغريات ..

فلما لم تذلنا الحاجة، و لم تنحن رؤوسنا أمام الشهوة والرغبة، أخذوا يعالجوننا بالعوامل المضادة، عوامل الخوف والرهبة، وجاءت القوة الباطشة في البر والبحر والجو تحمل إلينا نذر الخراب والموت .. فماذا كان موقفنا؟ لقد رحبنا بالموت: فتحنا له صدورنا، وفدينا مثلنا العليا بأموالنا وبأنفسنا، وكان شعارنا يومئذ «الموت في سبيل الله والوطن، خير من العيش في ظلال الذل والوهن» وهكذا كان لنا دين وإيمان

اعتصمنا به أمام كل وعيد وتهديد...

واستيقظ القوم مبهوتين أمام هذا السياج المحكم من الإباء المصمم، ولكنهم لم تطل بهم الدهشة، فإنهم سرعان ما اكتشفوا سرّ هذه المناعة العجيبة، إذ وجدوا هذه الأمة تعتصم وراء صخرتين عاتيتين، ارتطمت عليهما كل جهودهم ومحاولاتهم، وفشلت في تحطيمهما كل أسلحتهم وأموالهم، صخرة الخلق الإسلامي والتراث العربي الأبيّ، وصخرة الدين والإيمان الذي يعمر القلوب.. هنالك أيقنوا أن هذه الأمة ما دامت مستمسكة بأثارة من خلقها ودينها، فلن تلين قناتها، ولن تسلم زمامها، وتبين لهم أن اليوم الذي يستطيعون فيه تفتيت هاتين الصخرتين هو اليوم الذي يستطيعون به اقتحام الحصين بخيلهم ورجلهم، واشتراء من في الحصن بذهبهم وورقهم.. وتساءلوا بينهم: لماذا لا يجربون هذين السلاحين الجديدين؟ لماذا لا يصوبون معاولهم إلى تقويض الأساس ، بدلا من أن يضيعوا وقتهم في تثليم البنيان؟

وهكذا منذ وضعت المعركة أوزارها، ومنذ أخذت العزائم تميل إلى فترة تستجم فيها ـ جعلوا يغتنمون هذه الفرصة السانحة، مضافة إلى الفرصة العتيدة الدائمة، فرصة جهل الشباب بحقيقة دينه، وسهولة تقبله لكل ما يرضى ميوله وهواه، فطفقوا يجندون أقلامًا مأجورة عرفوها، ونفوسًا مريضة التمسوها ووجدوها، للقيام بأكبر حملة إلحادية إباحية عرفتها مصر في هذا العصر.. وما هي إلا عشية أو ضحاها وإذا الجو قد انتشرت فيه كل أنواع الجراثيم الفتاكة بالعقائد والأخلاق، وإذا الألسنة والأقلام تحملها إلينا وتلاحقنا بها حيثما كنا، حتى أصبحت وباء عامًا يجب أن تتعاون الأمة والدولة على تطهير الجو منه فورا، قبل أن يمسى مرضًا متوطنًا، يهدد كياننا ، ويقتل معنوياتنا، ويكون بداية النهاية لاستقلالنا ...

إنه لمن المفارقات العجيبة حقًا أننا في الوقت الذي نريد فيه أن يكون كل فرد من الأمة جنديًا يذود عن عرين الوطن، نترك هذا الجندي فريسة لذلك الوباء يجعل منه

هيكلا لا روح فيه، وآلة لا عزمة لها.. وإنه لمن المفارقات العجيبة حقًا أننا في الوقت الذي نسعى ونجد فيه لتسليح أنفسنا، نجرد أنفسنا من أقوى سلاح عرفته الأمم الحية، سلاح القوة المعنوية، والإيمان بالحقائق المقدسة، أننا لم ننس بعد الكلمة الرنانة التى أعلنها أحد القواد الأوروبيين في خطابه لجيشه، إذ يقول: « أن أهم عوامل الانتصار في الحرب، هو العامل الأخلاقي، ويقيني أن الجيش إذا سار على غير مرضاة الله سار على غير هدى .. إن خطر الانحطاط الخلقي في الجيش أعظم من خطر العدو» .

وفي الحقيقة أن الجندي الذي لا يؤمن بالحقيقة المقدسة العليا، جدير ألا يؤمن بما دونها من مثل وقيم سامية، أنه جدير ألا يعرف قيمة التضحية بشهواته، فضلاً عن التضحية بنفسه، إذ كيف نطالبه بأن يكتسب لوطنه مجدًا، ولنفسه ذكرًا، وأن يدخر لنفسه منزلة الشهداء، إذا كان كل همه ينحصر في أن ينجو بنفسه وأن يعيش لساعته في متعة ورغد؟ لماذا لا يهرب إذًا من الجندية لو وجد إلى الهرب سبيلاً؟ ثم لماذا إذا انخرط في سلك الجندية، لا يفر من الميدان لو وجد ملجأ؟ ثم ما الذي يمنعه إذا لم يجد سبيلاً إلى الفرار، أن يلقى بسلاحه بين يدي عدّوه، ولو كانت فرقته سائرة في طريق النصر، هذه كلها حقائق ملموسة مجربة، وإن الإغماض عنها معناه المساهمة في تسليح عدّونا بسلاحين خطرين، لا يُغني أمامها أوفر سلاح، ولا أحدث سلاح، ولا أفتك سلاح.

فلنفتح أعيننا، ولنعتبر بتجاربنا وتجارب الأمم قبلنا .

والسلام على من اتبع الهدى .

أزمة الصدق

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعد فإن أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الحكم والهدى حكمه وهداه، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٨٧)، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ (المائدة: ٥٠)، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ (الأنعام: ١١٥).

قال الله تعالى وهو أحكم القائلين وأعدل الحاكمين:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩).

نزلت هذه الآية المحكمة والآيتان قبلها، في أعقاب واقعة معينة كان التزام الصدق فيها فتنة شديدة ومحنة قاسية لأصحابها.

وَمن جرَّب الحياة ومشكلاتها عرف أن لها أحيانًا أزمات خلقية، يقف المرء فيها موزع الإرادة بين المثل العليا التي ينشدها ضميره، وبين حب السلامة أو الغنيمة التي تنزع إليها جبلته، يناشده ضميره أن يقول كلمة الحق ولو كان مرًّا، وتهتف به نفسه أنه لا نجاة له من ورطته إلا بالكذب، فإذا تذرع بالشجاعة، وقاوم هوى نفسه، وقال مقالة الصدق ، فربما تمتد به الأزمة وتشتد، إذ يمتحن بعد ذلك امتحانًا عسيرًا ويزلزل زلزالاً شديدًا ، حتى يقول : ياليتني كنت كذبت من أحب أن يرى صورة حية من هذا الصراع النفسي العنيف، وأن يرى النهاية العجيبة التي انتهى إليها، فليستمع إلى فقرات من حديث كعب بن مالك، وهو يقص علينا نبأه ونبأ صاحبيه:

قال كعب رضي الله عنه : « لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، وكان الحر شديدًا، واستقبل الناس فيها سفرًا بعيدًا، وكانت المدينة قد طابت ثمارها وظلالها، فكنت أغدو لأتجهز إلى الرحيل معهم، فأرجع و لم أقض شيئًا ،

وما زلت كذلك حتى سافر الجيش، وهممت أن أرتحل فأدركهم فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في المدينة أحزنني أني لا أرى فيها رجلاً إلا متهمًا بالنفاق أو عاجزًا معذورًا . فلما بلغت أن رسول الله ﷺ توجه قافلاً حضرني همي، وطفقت أقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، وطفقت أتذكر الكذب فلما قيل أن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا راح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب . فأجمعت صدقه .. فلما جلست بين يديه قال: «ما خلّفك»؟ قلت : « إني والله يارسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه أني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عندك ، فقال رسول الله ﷺ : «أما هذا فقد صدق، قم حتى يقضيَّ الله فيك» فقمت واتبعني رجال جعلوا يقولون لي : « لقد عجزت أن تعتذر» فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: « هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: « نعم، رجلان قالا مثلما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك» فقلت : «من هما؟» قالوا: «مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية». «فذكروا لي رجلين صالحين فيهما أسوة، ونهى رسول الله عن كلامنا نحن الثلاثة فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى إذا طال عليَّ من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حديقة أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه فوالله ما رد عليّ السلام فقلت : «يا أبا قتاده أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت فما زلت أناشده ، فما زاد على أن قال: «الله ورسوله أعلم» ففاضت عيناي وتوليت راجعًا.. حتى إذا مرت أربعون ليلة إذا رجل يجيئني يقول: «إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت: أطلقها؟ . قال: «بل اعتزلها ولا تقربها» وقال لصاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي : «الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي

الله في هذا الأمر» قال كعب : «فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة فبينما أنا على ظهر بيت من بيوتنا بعد أن صليت صلاة الفجر، وأنا على الحال التي وصف الله: قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ على الجبل بأعلى صوته : « ياكعب بن مالك أبشر» قال فخررت ساجدًا وعرفت أنه قد جاء فرج، فانطلقت قاصدًا نحو رسول الله ﷺ ، وتلقاني الناس في الطريق أفواجًا يهنئونني بالتوبة. حتى دخلت المسجد فسلمت على رسول الله ﷺ، فقال وهو يبرق وجهه من السرور: « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قلت «يارسول الله أمن عندك أم من عند الله؟» قال: «بل من عند الله» قال كعب: «وأنزل الله على رسوله في شأننا: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار.. إلى قوله: وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين﴾ (التوبة: ١١٧).

هكذا قص علينا الوحي السماوي نبأ هؤلاء النفر الثلاثة، الذين صهرتهم نار الاختبار في فضيلة الصدق، فكشف اختبارهم عن معدن حر كريم، ولكنه لم يشأ أن يترك هذه الواقعة الفردية دون أن يستخرج منها عبرتها الكلية، ثم يلقيها درسًا على المؤمنين كافة: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين﴾ (التوبة: ١١٩) كأنه يقول : أرأيتهم أيها المؤمنون كيف كانت عاقبة الشجاعة في قول الحق؟ أرأيتم كيف انجلت غمرتها، وجعل الله منها فرجًا ومخرجًا، أرأيتم كيف أسبغ الله على أصحابها نعمة الرضا، وسجل في كتابه شرفهم ذكرًا يتلى؟ ألا فلتكن لكم فيهم أسوة نعم الأسوة، فالزموا الصدق ولو توجستم فيه الهلكة، فإن فيه النجاة، واجتنبوا قول الزور ولو ظننتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة .

وفي الحق أن العبرة في هذه الحادثة عبرة مزدوجة : ذلك إن أولها زلة وآخرها توبة. فهل يكتفي القرآن باستخراج العبرة من آخرها دون أولها؟ كلا إنه لو فعل ذلك لكان إغراء بالتهاون في العمل، وتشجيعًا على التبجح بالذنب وعدم الاكتراث به ما دام سوف يمحوه الاعتراف به والتوبة فيه. وما هكذا يصنع المربي الحكيم: لذلك نرى آية

المجيدة تنطوي على وصيتين اثنين: وصية أساسية بالتوقي من الذنب والاحتراس الكلي من الوقوع فيه. وهذا هو المطلوب الاول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ووصية ثانوية لمن ألم بذنب ووقع فيه : ألا يجمع على نفسه بين جريمة التقصير، في الفعل، وجريمة الكذب في القول : ليكن أول همكم إذا أيها المؤمنون أن تكونوا من المتقين فإن ألممتم بذنب فكونوا مع الصادقين .

هكذا وضعت الآية الحكيمة للنفوس علاجها، في حالي قوتها وضعفها، وأشارت في الوقت نفسه إلى أن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير.

التفاني في العقيدة

أثر العقيدة في حيـاة الأفراد والأمم ، ظـاهرة يدركهـا كـل ذي عينين.. ولكنهـا تختلف ضعفًا أو قـوة، وضيقًا وسـعة، تبعًا لحـال العقيدة ذاتهـا، ومدى سـلطانها على النفوس.

١- فهنـاك عقيدة ضـامرة ذابلـة، ضئيلـة هزيلـة قـد زاحمتها شـئون الحياة اليوميـة، فألجأتهـا إلى حاشية من حواشـي النفـس، وتركتها تمت عاطلـة لا عمل لهـا، هامدة لا حراك بها إلا في فترات قصيرة لا تلبث أن تعود بعدها إلى سباتها العميق. تلك واأسفاه هي حـال العقيـدة في نفوس الكثرة الكـاثرة منّـا، أفـرادًا وجماعـات. أليس أكـثر الناس يؤمنون بواجـب التضـافر والتـآزر وهـم أشـتات متفرقون؟ ويؤمنـون بضرورة الأخذ بأسـباب القوة الماديـة والمعنويـة، وهم ضعـاف متثـاقلون؟ ويؤمنون بفريضـة البذل والتضحية وهم أشـحاء حريصون على الحياة، مثلهم في ذلك كلـه مثل المريض الذي يعتقد أن لا شفاء لـه إلا بتجرع مرارة الدواء ولكنـه تخذله عزيمته، وتقعـد به همته عن تناوله .. فما غناء هذه العقيدة الجافة الميتة التي لا توقظ نائمًا ولا تحرك ساكنًا؟؟

٢- وهناك عقيدة نصف عاطلـة، تهيمن على جانب واحد من جوانب الملوك، ولا سلطان لها علـى الجانب الآخر منه. مثال ذلك أننا نرى فريقًا من الناس يحسنون معاملة الخلق، ولا يحسنون معاملة الخـالق، يعجبك من أحدهم أنه لا يخون الأمانة، أولا يشهد الزور، أو لا يجـور في الحكم، ولكنك ترى هذا الصنف من الناس مقطوعى الصلة با لله الذي خلقهم ورزقهم، لا يوجهـون وجههم اليـه، ولا يعتمدون في شئونهم عليه، ولا يذكرونـه إلا قليلاً.. وترى فريقًا على العكس من ذلك، تبلغ بهـم المحافظة على مراسم العبـارات ، ونوافـل الطاعـات ، أنهم يتورعـون عن نقـص تسـبيحة منهـا أو تكبـيرة، ولكنهـم لا يتورعون أن يحكموا الهوى في أحكـامهم، وأن تنطوي على الحقد والحسـد قلوبهم ، وأن يتهموا الأبرياء بما يعلمون براءتهم منه، وتراهم وقد أذل الحرص والطمع

أعناقهم، لا يـأبون أن يقفوا مواقف الذلـة والصغار، اجتلابًـا لعرض من أعراض الدنيا، أو اسـتبقاءًا لمـا في أيديهم منـه.. هؤلاء وأولئك ـ أن كـانت لهـم عقيدة ـ فهي عقيدة مصابة بشلل نصفي، ويوشك أن يسري الشلل إلى نصفها الثاني.

نعوذ بالله أن نكون من موتى العقائد أو مرضاها...

٣- وأخيرًا هناك عقيدة سـوية قوية، حية نامية، يقظـة واعية، مسفرة مشرقة، يغمر ضؤوهـا جوانب النفـس، ويسـرى ماؤهـا في أغـوار القلب، فهي للضـمـير منـاره الذي يهديـه سواء السبيل، وهي للإرادة قوتهـا النازعة الوازعة، عن أمرها يصدر صاحبها في حركاتـه وسـكناته ، ونحـو أهدافهـا يتوجـه في أقوالـه وأعمالـه، يتلقى دائمًـا وحيها ويستلهمه ويتوخـى إرشادها ويترسمـه .. فإذا أصبح ذلك دأبـه وديدنه صغرت في عينه الدنيا وزينتهـا، وتضاءلت في نفسه نوازع الهوى وحاجات الجبلة فلا يفكر في مطالب شـخصه إلا لمامًا ، ولا يركن إلى الدعـة واللهو إلا استجمامًا على أنـه حين يلم بشيء من ذلك فإنما يتناولـه باسم العقيدة والمبدأ، وعلى النحـو الذي ترسمه له العقيدة والمبدأ، استعانة على الحق وتقويا على الجد .

أولئك حقـا هم أصحـاب العقائد والمبـادئ الذين فنيـت أشـخاصهم في عقائدهم ، وانمحت أهواؤهم في مبـادئهم ، وأصبحوا كـأنهم هم عقائد متجسـدة، ومبـادئ ماثلة تمشي في النـاس، أولئك هـم الذين لا تهمهم أنفسـهم، لأنهم باعوهـا لله بيعًـا رابحًا . أولئك الذين لا تلهيهم تجـارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامـة الصلاة وإيتاء الزكاة أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة .

وهم بعد على مراتب متفاوتـة، ودرجات متصاعدة على قدر التبعات التي يحملونها، وفي مستوى الآفـاق التي يمتد إليهـا نشـاطهم.. فليست مهمـة الجندى كمهمـة القائد، وليسـت فضيلة الرشاد وحدها كفضيلـة الرشاد والإرشاد مجتمعين وليس إصلاح المنزل والأسرة كإصلاح القبيلة أو المدينـة، ولا قيادة الأمة والشعب كقيادة الأمم والشعوب،

ولا هداية العصر كهداية العصور والأجيال .

كل ذي عقيدة حية فعالة يعرف من تجربته في نفسه، أنه قد ينوء بحمل الواجبات المتنوعة التى تفرضها عليه عقيدته هذا هو جندي لا يسأل إلا عن نفسه، فكيف إذا أصبح مسئولا عن نفسه وغيره معًا، وألقيَ عليه عبء الهداية والاصلاح، فوق عبء الاستقامة والصلاح ؟ ثم كيف تزداد مسئوليته صعوبةً وتعقيدًا كلما ترقى في سلم الزعامة والقيادة وأخيرًا كيف تبلغ هذه المسئولية حد التعجيز والإحالة ، إذا انتهى إلى رتبة القيادة العالمية الخالدة ؟؟

نعم أي بصيرة تلك التي تنفذ من وراء الحجب في هذا الأفق الأعلى؟ وأي قلب يتسع لهذه المهمات الجلى وأي كاهل يقوم بهذه الرسالات العظمى إن لم يكن له من السماء عون كريم وتأييد عزيز؟

فلتكن هذه تحية متواضعة ، نحيي بها ذكرى الصالحين المصلحين، الذين أسسوا تلك الدعوات الإصلاحية، ونكرم بها جهود أولي العزم من الرسل الذين حملوا تلك الرسالات السماوية . وليكن أزكى هذه التحيات وأكرمها إلى خاتم النبيين وجامع كلمتهم، ومتمم بنائهم ، محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فلقد كان كل نبي منهم يدعو وينادي ياقوم! ياقوم! ياقوم إني لكم نذير مبين، ياقوم إني لكم ناصح أمين. حتى جاء محمد فجمع الرايات كلها تحت راية واحدة وجعل ينادي «أيها الناس! هذا نذير للبشر، بل أيها الثقلان .... هذا ذكر للعالمين ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (الأنعام: ١٩) أي ولأنذر به كل من بلغه خبره، وانتهى إليه أمره ، في عصره وفي سائر العصور إلى يوم يبعثون، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٣) فبأي حديث بعده يؤمنون؟

ألا من سره أن ينظر إلى أعظم وأدوم وأعز رسالة إصلاحية عرفتها أو يمكن أن تعرفها البشرية، وسرهُ أن يرى كيف وهبها صاحبها قلبه ولبه، وكيف ملكها ناصيته

وجوارحه، وكيف قام وهو في سن الأربعين أو زهائها، واقفًا وحده في صف، والعالم كله في صف، فما زال بالأبواب الموصدة حتى فتحت وبالقلوب النافرة الجامحة حتى لانت وألفت، وما زال يثابر ويصابر، ويكافح وينافح، حتى أمضى رسالته، وأنفذها من ألفها إلى يائها، على الرغم من جدتها وغرابتها، وسموها ومثاليتها، وحتى ربيَّ جيلا يحملها من بعده، وينقلها على معبرة التاريخ باسم الله ثم اسمه ، من سره أن ينظر إلى هذه الصورة العجب، فلينظر إلى نبي الإسلام ﷺ وهو ويؤسس دعوة الإسلام.. دعوة تُرد عليه أول ماترد من الأقربين إليه، فيلتمس قبولها عند الأبعدين عنه من بين مواطنيه، ثم تلاقي من هؤلاء الصدود والسخرية فيخرج من بلده محاولاً نشرها فيما حول مكة، ثم يكون جوابها عند هؤلاء الازدراء والإيذاء ، فيعرضها على القبائل الوافدة في المواسم.. ثلاثة عشر عامًا وهو في هذا الشغل الشاغل، والهم الناصب، ولا يجد حوله بارقة أمل في انتشار دعوته واستقرارها، بل يجد من قومه في أثناء إقامته بينهم تألبًا، وتحزبًا، ومناصبة للعداوة السافرة، حتى أنهم حاصروه هو وعشيرته بضع سنوات في شعب من شعاب مكة، لا يعاملونهم ولا يكلمونهم.. فلم يزده العناد منهم والمكابرة، إلا مضيا في الإلحاح والمثابرة، ولم تزده العقبات والصدمات إلا استسهالاً للصعاب، واستعذابا للعذاب ... ألم تستمع إليه حين رجع من الطائف ، وقد رده أهلها أسوأ رد، وسلطوا عليه السفهاء يرمونه بالحجارة، فجعل يشكو إلى الله ضعف قوته، وقلة حيلته، فلم يكن في شكواه حرف واحد يُنّم على شيء من اليأس والوهن، بل إنه ختمها بأروع كلمة يعرفها أرباب المثل العليا؛ إذ جعل يقول في مناجاته لربه: «إن لم تكن ساخطًا عليَّ فلا أبالي» كل ما يعنيه إذًا في جهاده هو إرضاء ربه وضميره . أما ما وراء ذلك، أما ما يصيبه في سبيل ذلك فكله أمر يهون ويزدرى. أليس هذا أصدق تعبير عن حقيقة المثالية والفناء في العقيدة.

أروع من ذلك كلمته الأخرى، التي تناقلتها السير، وسارت بها الأمثال في إجابته لعمه أبي طالب حين رغب إليه أن يشفق على نفسه وأن يكف عن مواجهة قريش

بهذه الصراحة المؤلمة ، فما كان جوابه إلا أن قال: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أنزل عن هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه» فيالها من عزيمة مصممة، لا تقبل مُراوغة ولا مساومة؛ ويالها من رسالة قدسية أعز وأغلى عند صاحبها من تلك الدنيا وتلك الشمس والقمر!!

وهل كانت الهجرة المحمدية إلى المدينة إلا حلقة جديدة، من سلسلة هذا العزم المصمم على إنجاح الدعوة بكل وسيلة ، وعلى النجعة في طلب التربة الخصبة لها، في أي بقعة يجدها من أرض الله الواسعة؟

هذا النبي المهاجر صلوات الله وسلامه عليه، لم يخرج إذًا إلى المدينة لحماية شخصه، ولكن لحماية رسالته، وإرساء دعوته، و لم يكن خروجه هربًا من ميدان الجهاد، ولكن استنادا إلى قلعة الجهاد. إنه جزء من خطة ثنائية مرسومة في السماء فالجهاد كرٌّ وفرٌّ . وقد أحسن الفر فليحسن الكر، وكان هذا الفرُّ هو فاتحة العهد الجديد، وأول النصر العزيز. ومن أجل ذلك نيط به تاريخ الإسلام، فجعل عام الهجرة منه هو غرة الأعوام.

هكذا نرى العقيدة والمبدأ هما هدف النشاط النبوي ومحوره، في أول الأمر وآخره، بل هما كل شيء في حياة الرسول ﷺ : لهما يتحرك ويسكن، ومن أجلهما يرضى ويغضب، وفيهما يحب ويبغض، بل فيهما يموت ويحيا ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٦٢)لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ .

آداب القرآن

بين المثالية والواقعية

تصافح وتسامح، تواضع وتنازل، تسابق إلى الفضل والإيثار، قبول للقليل، وبذل للكثير.. ذلك هو معنى الإحسان، وذلك هو آداب المعاملة في القرآن، شرعة الله للخلطاء والعشراء القرناء والعملاء. وجعله بينهم هو الفضيلة الوحيدة، التي تستحق ثناءه، وتستوجب عنده جميل جزائه..

غير أن هذه الفضيلة العملية الاجتماعية، على عظم قيمتها، وجزالة نفعها، سوف تبقى عملاً سطحيًا، وعرضًا وقتيًا، لا ثبات له ولا استقرار، بل سوف تكون أقرب إلى الرياء منها إلى العمل الفاضل، ما لم تصدر طوعا واختيارًا عن نفس راضية مطمئنة، غير كارهة ولا مكرهة، ألم يأتك نبأ قوم لم يتقبل الله منهم نفقاتهم، بل قال لهم ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ (التوبة: ٥٣) ثم بيّن الأسباب التي منعتهم أن تقبل منهم نفقاتهم وكان من تلك الأسباب أنهم كانوا ، لاينفقون إلا وهم كارهون .

فلكي تكون هذه الفضيلة الاجتماعية، فضيلة حقيقية لابد إذا أن تستند إلى فضيلة نفسية فردية، مركوزة في نفس العامل، مغروسة في قرارة قلبه.. تلك هي فضيلة الطهر وسلامة الصدر، فضيلة الصفاء والنقاء، الذي لا يشوبه غل ولا دغل، ولا حقد ولا حسد..

فضيلة المحبة الشاملة ، والرحمة السابغة، التى تضم تحت جناحيها أصناف الخلق كلهم: قريبهم وبعيدهم، عالمهم وجاهلهم، برهم وفاجرهم، بل أقول مؤمنهم وكافرهم..

رحمة تقتبس من رحمة الله، وتتخذ أسوتها في خلق رسول الله ﷺ، وتهتدي بهدى أصحابه والذين اتبعوهم بإحسان .

رحمة تقتبس من رحمة الله الذي وسعت رحمته كل شيء. هل أتاك نبأ إبراهيم عليه السلام حين دعا ربه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (البقرة: ١٢٦) كيف أجابه ربه؟ لقد لقنه تكميل الدعاء ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ﴾ (البقرة: ١٢٦) يا إبراهيم إني لن أرزق المؤمنين فحسب، بل أرزق المؤمنين والكافرين جميعًا.

رحمة تتخذ أسوتها في خلق رسول الله ﷺ، الذي كان مضرب المثل في شفقته على أعدائه، وحرصه على خيرهم، وخشيته من نزول العذاب عليهم، حتى كان يدعو لهم إذا آذوه، ويستغفر لهم إذا كذبوه، بل كان يبكي إذا سمع قارئًا يقرأ قول الله، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤١).

لا أحدثك في هذا عن إحسانه إلى فقيرهم، وعيادته لمريضهم، وصلته لجيرانه منهم، وسائر أنواع برّه ومواساته لهم، فتلك فضيلة اجتماعية مفروغ منها، ولسنا بصدد إثباتها. وإنما أحدثك عن منبع هذه الفضيلة في نفسه الشريفة، ومدى تمكن أصلها في قلبه الكريم.. أحدثك عن هذا القلب الشفيق الرقيق، السخيّ الودود، هذا القلب الإنساني العالمي، الذي استحق به شهادة الله له في كتابه حين يقول ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ (التوبة: ١٢٨) فانظر كيف شهد له بالشفقة على الجميع، والحرص على الجميع، وإن كان للمؤمنين من رأفته ورحمته النصيب الأكبر، والحظ الأوفر ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) .

وكما شهد القرآن للرسول صلوات الله عليه بهذه الرحمة الإنسانية، شهد بها للمؤمنين الأولين، شهد لهم بأنهم يحبون أعداءهم وإن كان أعدائهم لا يحبونهم. ألم تسمع إلى قول الله تبارك وتعالى ﴿هَا أَنْتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ﴾ (آل عمران: ١١٩).

لاتظن أن هذا أسلوب لوم وعتاب للمؤمنين على محبة من لا يحبهم، فإن هذا الظن لا يستقيم في نسق الآية الكريمة : ﴿هَا أَنْتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ (آل عمران: ١١٩)، فتراه يلومنا كذلك على الإيمان بكتابهم ما داموا لايؤمنون بكتابنا إلا رياء ونفاقًا؟ كلا إن علينا أن نؤمن بالكتاب كله آمن الناس أم لم يؤمنوا، وإنما الذنب على من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض. فكذلك لا لوم علينا في محبتهم .

إنما اللوم عليهم إذ لم يبادلونا حبا بحب.. هكذا تتجه الآية الحكيمة اتجاها واحدا وتسير في نظام متناسق، غير ممزق ولا متعاكس، إذ تجعل محط استنكارها في كلا شطريها آخر جزء من الكلام . على منهاج قوله تعالى :﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (البقرة: ٤٤)، فليس المستنكر هو أن نأمر الناس إذا كنا لا نعمل به، وإنما المستنكر هو أن ننسى أنفسنا من الخير الذي نعلمه للغير. كذلك المستنكر ها هنا ألا يحبنا الآخرون الذين نحبهم .

ومهما يكن من أمر في تأويل هذا النص الكريم، فحسبنا أن نسجل ها هنا ما سجله الله في غير موضع من كتابه المجيد، وهو أن هذه المحبة الشاملة، والرحمة السابغة، خلق من أخلاق النبوة المحمدية، وأن نسجل إلى جانب ذلك قول الله سمت هدايته، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب: ٢١) ليخرج لنا من بين هاتين المقدمتين مصداق القضية التي نقررها، وهي أن هذه المحبة الشاملة هي الخلق الذي يرضاه الله لسائر المؤمنين.

(أما بعد) فكأني بمن يستمع إلى حديث هذه المحبة والرحمة التامة العامة، يظنه حديثًا عن حلم من الأحلام، أو عن شريعة غير شريعة الإسلام، أو عن عالم غير عالم الإنسان..

نعم لكأني به يهمس الآن في أذني قائلاً:

أليس كل بشـر يحب ويكره، ويرضى ويغضب، ويوالى ويعادي. دلني على كائن من البشر لا يبغض ولا يعادي أحدًا، أقل لك إنه إذًا لا يحب ولا يوالى أحدًا، إنه إذًا ليس من البشر.. هبه خيرًا محضًا، فهو إذًا يحب الحق والخير، وبالتالي يحب أهل الحق والخير ويواليهم، وهو إذًا يكره الإثم والباطل، وبالتالى يكره أهل الإثم والباطل ويعاديهم، فإن لم يبغض هؤلاء فكيف يحب أولئك؟ وإذا كانت هذه هي طبيعة النفس الإنسانية، فكيف تطالبنا، بأن نجرد أنفسنا تجريدًا كاملاً عن نزعة الكراهية والبغض لأحد من الخلق، أليست هذه مطالبته لنا بما هو فوق طاقتنا، وتكليفًا لنا بما ليس في وسعنا، ثم هذه المحبة العالمية، المثالية، الخيالية، كيف تتفق مع واقعية الإسلام. بل مع وصايا الإسلام؟ أليس من علامة الإيمان الحب في الله، والبغض في ا لله؟

سأنبئك بتأويل ذلك إن شاء الله...

كيف نحب الناس محبة شاملة

إذا أردت أن تُطـــاع   فأمر بما يُستطـــاع

كلمـة يوجهها الجمهـور دائمًا إلى كل داع يدعو إلى فضيلـة نبيلـة مثالية.. وإن من أخص هذه الفضائل المثالية فضيلة المحبة الإنسانية الشاملة.

فإذا قال الداعي: لكن نظرتنا إلى البشر نظرة محبة رحيمة، عطوفًا ألوفًا، قالوا:

إن كنت تعنى أن تكون هذه هي نظرتنـا الأولى حين نصبـح كل يوم، قبل أن نبدأ صحيفـة أعمالنا اليومية، فسـمعًا وطاعـة، إذ لا معنى لافتراض السـوء والشر في الناس، اعتباطًا من غير بينة، ولا مبرر لعداوتهم بالمجان، دون تجربة سابقة.

وأن كنت تعني أن نطبق هذا المبدأ على الذين عاشـرناهم وجربناهم ، فكانوا علينا رحمـة وسـلامًا، لم يصل إلينـا من عشـرتهم وسـوء، ولم ينالونـا بـأذى، فسـمعًا وطاعة كذلك ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانِ﴾ (الرحمن: ٦٠).

أما إن كنـت تريد أن تنشـر جنـاح هـذه الرحمـة والمحبـة، حتى على مـن خالطناهم فوجدنـا منهم خشـونة وغلظـة، ومنعًا للخـير، وهمزًا ولمـزًا بالغيب، فقـد أمرت بما لا يطـاع، ولايستطاع وتلـك هي المثالية الخياليـة، التي لا مجال لهـا في دنيا النـاس، أليست النفوس مجبولـة على حب مـن أحسـن اليها، وبغـض من أسـاء إليهـا، فكيف تأمرنا أن نحول فطرتنا ونغير طبيعة نفوسنا، حتى نحب أعدائنا.

وإن كنت تريد فوق ذلك كله أن ننفـق هذه المحبة والرحمة، حتى على الذين فرطوا في جنب الله، وأساءوا في حق المجتمع، حتى علـى المجرمين والمفسدين، فقد جئت شيئا نكرا، إذ كيف تأمرنا أن نحب عدو الله، وعدو المؤمنين؟

هكذا تتنوع الإنسانية في نظرهم إلى أربعة أصناف: صنفان منهم أهل للمحبة والولاء من أولانا وسالمنا، ومن جانبنا وحايدنا. وصنفان أهل للكراهية والعداوة: من عادانا وآذانا، ومن اعتدى على حرماتنا ومقدساتنا، وإن لم يمس أشخاصنا بسوء.

فمن دعى إلى محبة البشر كافة، محبة تنتظمهم صديقهم وعدوهم ، وتسع برهم وفاجرهم فهو في نظرهم رجل انطوى على نفسه في برج عاجي، فلم يجرب أذى الخلق وشرهم، ولم يكتو بنار فسادهم وإفسادهم. ولو أنه نزل إلى ميدان العمل في الجماعة، لرأى كيف يثير العمل غبارًا تقذى به عينه، وكيف يولد الاحتكاك شرارا يحترق به صدره، ولكان عليه أن يقول لنا عندئذ، كيف يستطيع أن يحب مثار هذا الغبار، وكيف يطيق أن يرجح مبعث هذا الشرار؟

ألا فلنلّب دعوة هذا الناقد.. لننزل معه إلى ميدان العمل ، ولنستقبل ما يثار فيه من غبار وشرر، ولننظر كيف نعالج المثير والمثار!!

يقول القائل: كيف أحب عدوي؟ أليس هذا تناقض وإحالة؟

نقول: كلا! إن هذا التناقض ليس في الأمر الواقع، ولكن في الصورة التي صورت بها الوقائع. إنك تسمي المسيء إليك عدوًا مصرًا عامدًا، فلا تقدر أن تحبه، أما أنا فأسميه صديقًا مخطئًا جاهلاً، أستطيع إذًا أن أحبه .

ولأفسر لك ذلك !

ألست تزعم أنك بريء لم تقترف إثمًا ولا ظلمًا، وأنه آذاك بغير ذنب جنيته؟ إنه إذًا لا يوجه هذا الأذى في الحقيقة، إليك ، وإنما يوجهه إلى شخص مذنب تخيله فيك، ولو انكشف له حقيقة أمرك، لكان بك برًا رحيمًا، بل لكان لك وليًا حميمًا. فلتحتمل الآن هذا الأذى، ولتغمض عينيك لحظة على هذا القذى، ريثما ينجلي له وضعك في سلامة واستقامة وينكشف له جوهرك في طهره ونقاوته. وليكن هذا الإغماض والاحتمال على غير كره ولا مضض ولكن منبعثًا عن قلب مؤمن مطمئن شفيق

رفيق.. أرأيت ولدك الصغير حين تعطيه الدواء فيصيح في وجهك، ويدفع بيديه ورجليه في صدرك، أتراه بفعلته هذه صار أهلاً لأن تتخذه عدوًا لك، وتنتزع رحمة بنوته من قلبك. ألست ترثى لطيشه ورعونته، وتلتمس له عذرًا من غرارته وجهالته، ألست تبتسم له ابتسامة رحيمة يذوب منها خجلاً، حين يشعر بأنه أذنب فصفوت، وأنه أساء فأحسنت؟ فكذلك، فلتكن فطرتنا إلى إخواننا الذين يسيئون إلينا في طيش وجهالة، عن غير ذنب جنيناه.. فتذوق نفوسنا حلاوة العفو عنهم وعن إساءتهم، ولتطمئن قلوبنا إلى أنه متى أنكشفت هذه الغشاوة، سوف يندم المسيء على فعلته وسوف يستغفر لنا عن زلته، بل سوف تنقلب عداوته محبة، وتتبدل سيئته حسنة وصدق الله ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

سيقول السائل:

لئن صح هذا التفسير في طائفة من الذنوب يستحب العفو عنها، والرفق بأصحابها لقد علمنا الكتاب والسنة أن هناك طائفة أخرى من الذنوب، لا تقبل فيها شفاعة، ولا ينبغي أن تأخذنا بأصحابها رأفة. تلك ، هي حدود الله وحقوق الأمة، أليس من التناقض البين، أن نشمل أولئك المجرمين المفسدين بمحبتنا ورحمتنا؟ أنعاقبهم ونقول لهم أننا نحبهم؟ أنقتلهم ونقول أننا نرحمهم؟

رويدا أيها السائل!

إن مفتاح هذه المسألة، وحل هذه المسألة، في تعيين الزاوية التي ننظر منها إلى العقوبة، وفي تحديد الهدف الذي نرمي إليه من ورائها.. أرأيت الطبيب حين يجري الجراحة القاسية الأليمة، طلبًا لشفاء المريض، وسعيًا في إنقاذه، أتقول أنه بذلك قد اتخذ المريض عدوا له؟ أم هي الرحمة في جوهرها وصميمها؟ فكذلك نحن حين نقيم الحدود المقررة ونوقع العقوبات الزاجرة، ولا نفعل ذلك تشفيًا وانتقامًا من أشخاص المذنبين

ولكن تهذيبًا وتطهيرًا لهم، ورحمة بهم وبالجماعة التي يعيشون فيها .. إن صدورنا ينبغي أن تبقى نقية من الحقد والكراهية لأشخاصهم، وأن سهام مقتنا يجب أن نصوبها إلى جرائمهم لا لهم .

أما أنه لو كانت نظرة القرآن إلى العقوبة نظرة التشفي والانتقام من المستحقين لها إذا لأوقدها عليهم حربًا لا تُطفأ نارها، وما قبل منهم بعد ذلك تبديلاً ولا تحويلاً، كيف وهو يقول: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٣٩) ويقول: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٩٢) .

هكذا تلتقي المثالية والواقعية في وصايا القرآن الحكيم ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ بل هو أحكم الحاكمين.

مناهج الناس في السلوك

وقيمها في القرآن

صاحب من الناس من شئت، وراقب عن بعد من شئت؛ واستقصى وأحصى ما شئت، فإنك واجدهم على اختلاف مشاربهم ومنازعهم أصنافًا ثلاثة، لا زائد عليها:

١ـ هذا صنف من الناس، لايفعل الخير، ولكنه يجب أن يحمد به، ويقترف الإثم، ثم يرمي به من هو بريء منه. إذا كان عليه الحق، ضجر به، وتثاقل عن أدائه، واتخذه مغرمًا، وعدّ التهرب منه مهارة، والفرار منه مغنمًا، ولو كان حق اليتيم والمسكين، أو ضريبة الوطن على المواطنين ؛ وإذا كان له الحق، ألح في طلبه، وبالغ في مقداره، وطالب بالزيادة عليه، ولم يقبل في ذلك معذرة، ولا نظرة إلى ميسرة، فإذا باع واشترى كان أحب شيء إليه أن يستولى على سلعة صاحبه بالمجّان، أو بأبخس الأثمان، وألا يعطى سلعة لصاحبه إلا بالربح المضاعف، والغبن الفاحش، أولئك قوم قد أهمتهم أنفسهم، وعموا وصمّوا عن حق من حولهم . إذا اكتالوا على الناس، يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، إذا نالهم أذى جاوزوا الحقّ في عقوبته ؛ فكافؤوا السر بالعلانية؛ والنصيحة بالتشنيع والفضيحة، بل ربما ردّوا المكالمة، بالملاكمة،؟ وأجابوا الهفوة بالغلظة والقسوة . فإن لم ينلهم أحد بأذى، بدءوا هم بالعدوان، وبسطوا أيديهم وألسنتهم بالسوء، وقالوا في أنفسهم : من خلّى حوضه للناس تهدّم، ومن لم يظلم الناس يظلم.

هذا الصنف من الناس ، إن لم يكن هو أكثر الناس، ففي أكثر الناس نزعة من نزعة، لا أقول إنها نزعة الأثرة فحسب، بل نزعة البغي والجشع، والحرص على اقتناص الفائدة من الغير بكل ثمن، ولو مراغمة للحق والشرف .. تلك خلة قوم وصفهم الله بأنهم أحرص الناس على حياة ، على حياة أيّ حياة كانت، ولو حياة الذلة والمهانة ، والعار والشنار، أو حياة الوحشية، والتخلى عن كل عاطفة إنسانية .

هذا الصنف من الناس شعاره في الحياة: كن كلاعب الشطرنج، خذ ولا تعط؛ فإن لم تستطع فخذ أكثر مما تعطى .

٢- وصنف آخر من الناس، قليلٌ ماهم، يضنون بالحق الذي عليهم، بل يسارعون إلى أدائه، ولكنهم يحرصون في الوقت نفسه على الحق الذي لهم، ولايتهاونون في اقتضائه ، لايبدءون أحدًا بظلم ولا عدوان، ولكنهم إن ظُلموا انتصفوا ممن ظلمهم، وحرموا من حرمهم ، لا ينامون على ثأر، ولا يكفون عن المطالبة بحق، فإذا أدّيَ إليهم لم يجاوزوه مثقال ذرة؛ وإذا شفوا صدورهم، واقتصوا لحرمانهم، لم يبالغوا في العقوبة، و لم يسرفوا في التشفي . شعارهم في الحياة خذ بقدر ما تعطي ﴿**لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُون**﴾ ﴿**وَالْحُرُمَاتُ قِصَاص**﴾.

٣- وصنف ثالث، هم أقل القليل، يتجاوزون العدل إلى الفضل: لا يظلمون أحدًا، بل يعفون عمن ظلمهم؛ ولايبخسون أحدًا حقه، بل يسمحون له ببعض حقهم؛ فإذا كان لهم دين على معسر، لم يكتفوا بإنظاره إلى الميسرة، بل تجاوزوا له عنه تجاوزًا كريمًا، وأعطوه إياه عطاء غير ممنون، أولئك قوم اتخذوا شعارهم في الحياة : إعط ولا تأخذ ؛ فإن لم تستطع فأعط من نفسك أكثر مما تأخذ.

تلك أصناف الناس؛ وتلك منازعهم ومبادئهم التى يصدرون عنها في الحياة منازع ثلاثة، لو كان لنا أن نرمز لكل واحد منها برمز حسابيّ لوضعنا علىأولها علامة النقص وعلى الثاني المساواة وعلى الثالث علامة الزيادة .

ما قيمة هذه المناهج والمبادئ في نظر القرآن .

لنضرب الذكر صفحا عن الخطة الخاسرة، والتجارة البائرة: خطة النقص والبخس، والبغي والعدوان. إنها ليست ممقوتة في القرآن وحده، ولكنها مذمومة بكل لسان : في حكمة الحكماء، وفي شرعة السماء: في التوراة والإنجيل والفُرقان.

ولننظر فيما بين المبدأين الآخرين: مبدأ العدالة الحازمة، ومبدأ العفو والإحسان

وقبل أن نعرض نظرة القرآن الحكيم إلى هذين المبدأين، نحب أن نعرف على وجه الإجمال مكانتهما في الكتب السماوية السابقة:

كثيرا ما نقرأ ونسمع من الباحثين في النظريات الأخلاقية، وفي المقارنة بين الأديان المختلفة ، أن هذين المبدأ قد اقتسمتهما شريعتان من شرائع السماء، أخذت كل واحدة منهما بطرف، فشريعة التوراة في زعمهم هي شريعة العدل الذي لاهوادة فيه، والقصاص الذي لا عفو معه. وشريعة الإنجيل في نظرهم هي شريعة الإحسان الذي لا يعرف مشاحة ولا محاسبة، والعفو، الذي لا تنقصه عقوبة ولا مخاصمة .

هكذا وضعوا بين دستور الأخلاق في هاتين الشريعتين حواجز جديدة تجعلهما لا يتصافحان ولا يلتقيان . فهل حقٌّ هذا الخصام؟

لنقرأ الكتاب الذي أنزله الله مصدِّقًا لما بين الكتب، حارسًا لما فيها من حقائق، حفيظًا عليها أن تغير أو تبدل. لنقرأ القرآن الكريم ، لنعرف مدى ما في هذه الأقوال من تحرٍّ للصدق أو نقص عنه أو تزيّد فيه. فماذا نجد؟

نجده يحدثنا عن الشريعة الموسوية بأنها حقًا كان فيها بعض الأصر والمشقة، وأنها أخذت أتباعها بشيء من الحزم والشدة، وأنها شرعت لهم قانون القصاص بأدق ما فيه من معنى المساواة بين الجناية وعقوبتها؛ ولكننا نجد فيه إلى جانب ذلك نصًّا صريحًا من التوراة المقدسة، يُرغب المجنى عليه في التنازل عن حقه، والعفو للجاني عن جنايته، هكذا حين كتب الله على بني إسرائيل في التوراة أن النفس بالنفس وأن الجروح قصاص ، قال لهم بعد ذلك : ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ (المائدة: ٤٥) وكذلك يحدثنا عن الشريعة العيسوية ، بأن الله أودع في قلوب أتباعها رأفة ورحمة، ولكنها لم تخل مع ذلك من دعوة إلى الجهاد، وإلى التكتل في نصرة الحق ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ (الصف: ١٤) ولما سجل القرآن بيعة الإيمان : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُـمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ (التوبة: ١١١) عقّب على ذلك بقوله : ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانِ﴾ .

لم يكن بين الشريعتين إذًا هذا الإنفصال الكلي الذي صوروه لنا في دستور الحياة.

ولكننا مع ذلك لا ننكر أن طابع الحزم والشدة كان على الموسوية أغلب، وأن طابع الرفق والعفو كان في المسيحية أظهر وأبرز، وأن الطابع الآخر كان مغمورًا مكثورًا بالطرف المقابل له.

بين العدل والفضل

لقد نظرنا مليًا إلى مناهج الناس ومشاربهم في سلوكهم، فوجدناهم يصدرون في معاملاتهم عن إحدى نزعات ثلاث: أما نزعة الاستئثار، وأما نزعة الإيثار، وأما نزعة المبادلة والمعادلة.

نزعة الاستئثار نزعة يغلب فيها حب الأخذ على حب العطاء . ونزعة الإيثار نزعة يزيد فيها حب البذل والنفع، على حب الأخذ والإنتفاع . ونزعة المبادلة نزعة يتقابل فيها الطرفان على حد سواء .

أكثر الناس يميل بطبعه إلى الاستئثار والعلو : يمنع ما في يده، ويتطلع إلى ما في يد غيره، يكيل لنفسه بالكيل الأوفى، ولغيره بالبخس والخسران. يظلم قبل أن يظلم، فإذا أُوذِيَ أسرف في الانتقام، وجاوز الحدّ في العقاب. وهكذا يسعى إلى أن يكون أبدًا هو الغالب الرابح ، ولو بالإثم والباطل .

وقليل من الناس يستوحى في معاملته قانون العدل والمساواة، ولكنه يطبقه من جانبه تطبيقا صارما، فلا يعطى إلا بقدر ما يأخذ، ولا يجزي إلا على وفق ما ينال. لا يحب أن يظلم ، ولكنه أيضًا لا يغمض على قذى: فهو يجزى بالسوء سوءًا، كما يجزى بالإحسان إحسانًا.

وأقل القليل من الناس تغلب عليه نزعة السماحة واليسر: فهو إلى العفو والصفح أميل منه إلى الانتقام، وهو إلى بذل واجبه أسرع منه إلى استيفاء حقه، تسخو نفسه بأن يعطى أكثر مما يأخذ وأن ينتقص من حظه ليزيد في حظ الآخرين .

ما قيمة هذه المنازع الثلاثة في نظر القرآن؟

لعل من نافلة القول أن نفيض في بيان حكم القرآن على السجية الغالبة، سجية

الأثـرة والبغي والعلو. فالقرآن مشـحون بذمها ومقتها والنعـي عليها: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَـلَ ظُلْمًا﴾ (طه: ١١١)، ﴿تِلْكَ الـدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَـادًا﴾ (القصص: ٨٣)، ﴿وَيْـلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ(١)الَّذِينَ إِذَا اكْتَـالُوا عَلَى النَّـاسِ يَسْـتَوْفُونَ(٢)وَإِذَا كَـالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُـمْ يُخْسِـرُونَ(٣)أَلاَ يَظُـنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ(٤)لِيَوْمٍ عَظِيمٍ(٥)يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين: ١-٦) .

فإذا جاوزنا نطـاق هذه الخطـة المذمومة ويمنـا شطر المبدأين الآخريـن: مبدأ المحاسبة على قـانون المساواة والعدل. ومبدأ المكارمة والمسـامحة والفضل، فقد يلوح لنا في بادئ الـرأي أننـا نتجـه بذلـك نحو مبدأين سـاميين، ومثلين حميديـن، وقد نظـن أن التفاوت بينهما في نظر القرآن لن يكون إلا تفاوتا في مراتب النبل والسمو، بينما يجمعهما شعار الفضيلة، وينتظمهما شرف الحمد والثناء.

فهل يصدق هذا الظن؟

هل إذا نظرنـا إلى هذين المبدأين في مرآة القرآن الحكيم نراهما معروضين في معرض الفضائل المأمور بها ، أو المرغب فيهـا، أو المثني عليها، وهل نجد التفاوت بين مكانهما في معـرض الأخلاق القرآنيـة ليس إلا تفاوتًـا في مقـدار الحث والـترغيب، ومبلغ الحمد والثناء ؟

هيهات هيهات

إن القرآن حين وزع القيم الأخلاقية على هذه المبادئ، لم يجعل القسمة بينها قسمة ثنائيـة ولكنه جعلهـا قسمة ثلاثيـة ، لها طرفـان وواسطة: جعل مـن بينها فضيلة واحدة رفعهـا إلى الطرف الأعلى، تلـك هي فضيلـة الإيثـار، وجعل مـن بينهـا رذيلـة واحدة وضعهـا في الطرف الأدنى، تلك هي رذيلة الاسـتئثار . أما الواسطة بين الطرفين، وهي مبدأ المقاصـة الدقيقـة في الحقوق والواجبات وتحرّي المسـاواة بينهـا ـ تلك القاعدة التى كـانت الحكمـة اليونانيـة تعدّهـا أم الفضـائل، فإنها في نظـر القرآن ليسـت فضيلـة ولا

رذيلة، أنها لا تستحق عنده مدحًا ولا ذمًا، وإنما هي رخصة مباحة لا ثواب لها ولا عقاب عليها .

من كان في شك من ذلك فليقرأ قول الله جلت حكمته : ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ(٤١)إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤٢)وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (الشورى: ٤١-٤٣) . هكذا دفع رذيلة الظلم والبغي فجعلها مناط الذم واللوم، ومجلبة العقاب الأليم، ثم أشاد بفضيلة الصبر والمغفرة، فجعلها من عزم الأمور وكتب على نفسه أنه سيدخر الأجر لصاحبها حيث قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ٤٠) أما المقاصة في الانتصاف من الظلم فإنه لم يتبعها ذمًا ولا ثناء، ولم يرتب عليها ثوابًا ولا عقابًا وكان كل حكمه فيها أنه رفع الحرج واللوم عن صاحبها فقال: ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

هذه القسمة الثلاثية نجدها في مواضع كثيرة من القرآن الحكيم يقول الله جل ثناؤه: ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا(١٤٨)إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (النساء: ١٤٨، ١٤٩)، نهى الناس بادئ ذي بدء أن يغلظ بعضهم لبعض بالفاحش من القول. فهذه هي الخطة المذمومة، خطة البدء بالإساءة وقد بين أنها تستوجب غضب الله. ثم استثنى من استحقاق هذا الغضب ما كانت إساءته ردًا لمظلمة، فأخرجه من عداد المغضوب عليهم، ولكنه لم يثن عليه ولم يرغبه في هذا الانتصاف ، ثم ختم ببيان الخطة الحميدة، والفضيلة المندوب اليها، وهي خطة العفو عن الإساءة فأشار إلى أن من عفا عن سوء فقد تخلق بأخلاق الله . أليس الله يعفو ويعفو؟ ثم يعفو ويعفو، حتى كان اسمه العفو، وهو مع ذلك قدير على الانتقام؟ ثم ألا يذكر الذي أسيء إليه أنه هو نفسه ليس بريئًا من الذنوب، ولا معصومًا من السيئات

فإن كان يحب أن يغفر الله له فليغفر هو لأخيه ﴿أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .

ولنستمع إلى مثال ثالث من هذه القسمة الثلاثية في القرآن. يقول الله تعالى : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ فبين في هذه الجملة الوجيزة بعد المدى بين طرفي الرذيلة والفضيلة رذيلة الأخذ بغير حق، وفضيلة البذل لما هو أكثر من المستحق، ثم ذكر الواسطة بينهما بعد ذلك في أسلوب التمليك والتخيير، دون ترغيب ولا ترهيب، فقال عز شأنه: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٩)، نعم إن من حقك أن تستوفى دينك كاملاً غير منقوص، ولكن الحق شيء وكرم الأخلاق شيء آخر، ولذلك عاد مرة أخرى إلى الترغيب في فضيلة المسامحة والمكارمة ، فقال عظمت رحمته : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وبعد فإنه على الرغم من وضوح هذه الدلائل والشواهد، لا تزال ها هنا شبهة قوية وكأني بالسائلين يسألون من كل جانب: كيف ننزل هكذا بمبدأ العدل والمساواة، فنخرجه من نطاق الفضائل والرذائل ونجعله أمرًا مباحًا مرخصًا فيه، لا يستحق مدحًا ولا ذمًّا، ولا أمرًا ولا نهيًا؟ أليس القرآن نفسه قد كرر الأمر به والثناء عليه في أكثر من موضع : ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ .

فهرس عام للموضوعات

الموضـــــوع	بقلم	الصفحة
٢- دستور الأخلاق في القرآن	عـرض وتحليـل أ/ محمـد عبـد الله السمان	١٢٦
٣- الكتاب الأم في علم الأخلاق القرآني	أ.د. مصطفى حلمي	١٣٣
٤- من أهم رواد البحث في الأخلاق القرآنية	أ.د. أحمد عبد الحليم عطية	١٤٢
٥- عبقرية الدكتور دراز اللغوية في الرسالة	أ/ محمد عبد العظيم علي	١٥٤
٦- منهج الرسالة العلمي يحمل طابع النور والصفاء	أ.د. محمد إبراهيم الفيومي	١٥٨
٧- مؤسس علم الأخلاق القرآني	أ. أنور الجندي	١٦٠
الباب الرابع		
دراسات حول بعض مؤلفاته		١٧١
١- النبأ العظيم	أ.د. عبد العظيم المطعني	١٧٣
٢- النبأ العظيم	عرض وتحليل: أ. منصور الأحمد	١٨٠
٣- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن	إعداد: أ. نزار قنديل	١٩٠
٤- النبأ العظيم	أ. د. عبد الغني بركة	١٩٩
٥- مدخل إلى القرآن الكريم	أ.د. محمد رجب البيومي	٢٣٣
٦- الدين عرض وتحليل	أ.د. محمد فتحي عثمان	٢٤٢
٧- سفر قيم لعالم جديد	أ. حمدي متولي صالح	٢٥٤
٨ - من كنوز المعرفة	أ.د. عبد العظيم المطعني	٢٧٢
٩ - كلمات	أ.د. عبد العظيم المطعني	٢٧٤
الباب الخامس		
دراسة وتحليل لأهم بحوث الشيخ في القضايا المعاصرة		٢٧٧
١- موقف الدكتور دراز من قضية الربا		٢٧٩
٢- موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها		٢٩٣
٣- الإسلام والسلام العالمي		٣٠٠
٤- الإسلام والقتال		٣١٠
٥- النقد الفني لمشروع ترتيب القرآن حسب نزوله		٣١٦
٦- الشريعة الإسلامية بين المسيو ألبيرجران والدكتور دراز		٣٢٤
٧- موقف الشيخ من تعدد الزوجات		٣٢٩

الموضـــــوع	بقلم	الصفحة